الدعــــوة الإسلاميــــة

في العصر العباسي الأول

دروس لإصلاح الواقع الدعوي

تأليف

فضيلة الشيخ

عبد الحميد مظاهري ندوي (رحمه الله)

الناشر

مكتبة الآداب

٤٢ ميدان الأوبرا - القاهرة ت: ٣٩٠٠٨٦٨

البريد الإلكتروني e.mail: adabook@hotmail.com



الناشر

مَكتَبَةُ الآدَاب

الطبعة الأولى: ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥م

عنوان الكتاب: الدعوة الإسلامية في العصر العباسي الأول

المؤلف : عبد الحميد مظاهري ندوي

رقم الإيداع: ١٠٨٥٢ لسنة ٢٠٠٥م

الترقيم الدولي: I.S.B.N. 977 – 241 - 673 – 5

الناشر

مكتبة الآداب

٤٢ ميدان الاوبرا - القاهرة

هاتف ٣٩٠٠٨٦٨ (٢٠٢) —

e-mail: adabook@hotmail. com

المؤلِّف في سطور

هو: فضيلة الشيخ عبد الحميد مظاهري بن عبد الرشيد، وُلد في رانجون عاصمة بورما في عام ١٣٥٧هـ/ ١٩٣٧م من أسرة بنجلاديشية الأصل، كان أبوه عبد الرشيد من أسرة متواضعة الحال، ولكن عبد الحميد كان ذا همة عالية ومحباً للعلم منذ صباه، ولذلك التحق بالدراسة في المعهد العلمي الكبير (دار العلوم العربية) في رانجون، ذلك المعهد الذي كان يقدم الدراسة مجاناً لأبناء المسلمين، وبعد تخرجه بالامتياز ابتُعث لإكمال دراسته في علوم الحديث بمعهد مظاهر العلوم بسهارنبور في الهند، ونال منه شهادة العالمية بتقدير ممتاز عام ١٣٧٤هـ.

تقلّد في بورما مناصب علمية وأدبية كثيرة من أشهرها نيابة رئاسة التحرير في جريدة (دور جديد) الصادرة برانجون باللغة الأردية، وعضوية جمعية علماء الإسلام - أكبر الجمعيات الإسلامية في الديار البورمية، وكذلك تدريس علوم القرآن الكريم في أعظم مسجدَي بورما (الجامع السُرّتي والجامع البنجابي).

لازمَ سماحة الشيخ أبا الحسن علي الحسني الندوي في حله وترحاله مدة سنة كاملة بالهند ودرّس في جامعة ندوة العلماء بلكناو في الهند، ثم هاجر إلى المدينة المنورة في ١٣٩٣هـ والتحق للدراسة بالجامعة الإسلامية التي نال منها درجة الماجستير عام ١٤٠٣هـ، وقدم خدمات جليلة للوزارات السعودية بما كان يملك من مؤهلات وخبرات عالية، فقد كان يتعاون مع وزارة الإعلام سنوياً لمراقبة المواد المطبوعة والمسموعة والمرئية الواردة باللغات الأردية والفارسية والإنجليزية أيام مواسم الحج، وتعاون مع وزارة الداخلية بواسطة المديرية العامة للجوازات بصفته معرفاً بالجالية البورمية المقيمة بالمدينة المنورة، كما تعاون مع وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد بواسطة مجمع الملك فهد

لطباعة المصحف الشريف من أجل تصحيح ومراجعة الترجمة البورمية للقرآن الكريم التي نشرها المجمع عام ١٤١٩هـ.

توفي رحمه الله في نهار يوم الخميس العاشر من شهر شعبان عام ١٤٢٠هـ بالمدينة المنورة إثر نوبة قلبية، وصُلّي عليه يوم الجمعة في المسجد النبوي الشريف ودفن ببقيع الغرقد شرق قبر سيدنا عثمان رضي الله عنه.

من مناقبه أنه اشتغل طول حياته في بورما والهند وباكستان بالدعوة إلى الله تعالى بالدروس في المساجد وخطب الجمعة والأعياد، وكان دائم الصلة بجميع الجماعات العاملة في شبه القارة الهندية باسم الدين ونصرة السنة المطهرة، وكان دائم التصدي للبدع ومذاهب الفرق الضالة ولا سيما غلاة الشيعة والقاديانية.

وإذا كانت سكنى الحرمين الشريفين حرمت الشيخ من الفرص المناسبة لمواصلة نشاطه الدعويّ فيها وبالتالي حرمانه من البروز بصفته داعية إسلاميّ لا يقل شأناً عن الدعاة المتواجدين فيها؛ فإن أهل الديار البورمية والمسلمين في الهند لم ينسَوا فضله وقدره، ولا أدلّ على ذلك من أنه صُلّي عليه صلاة الغائب في معظم جوامع رانجون يوم الجمعة الذي أعقب يوم وفاته، ودُعي له فيها على رؤوس ملأ من آلاف المسلمين، بل ولا يزال بعض طلبته الذين يديرون مدارس إسلامية هناك يدينون له بالفضل ويرفعون اسمه في المحافل والمناسبات الدينية إلى هذا اليوم، كما كتبت عن حياته ودعوته أقلام هندية مترحّمة عليه وداعية له بالمغفرة والجنة.

د. محمد عامر بن عبد الحميد مظاهري[1]

باحث في هيئة الإغاثة الإسلامية بالمدينة

(1) ملحوظة هامة: كل ما سيأتي في ثنايا الكتاب وارداً بين المعكوفتين [...] فهو من إضافات د. محمد عامر عبد الحميد مظاهري، وذلك من باب الأمانة العلمية وعدم نسبة ما لم يكتبه المؤلف إليه.

مُقَدِّمَة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد،،

فمما لا ريب فيه أننا نعيش في هذه الحقبة من التاريخ مرحلة ذات سمات خاصة، ولعل أبرز هذه السمات «الصحوة الإسلامية» التي تتبدى بصور شتى في آفاق حياتنا، وهذه الصحوة تحتاج فيما تحتاج إلى مَثَل تقتدي به وتنتفع بهديه وتفيد من تجاربه وممارساته.

إن قدوتنا - بشكلها الأمثل والأكمل - تتركز في العهدين الإمامين: النبوي والراشدي اللذين هما في الحقيقة «العهدان الدعويان» بأوسع معاني هذه الكلمة وأتمها، بيد أننا نرى إلى جانب ذلك غيرَ قليل من الكُتاب والمشتغلين بالتاريخ يصفون العصر العباسي الأول (١٣٢-٢٣٢هـ) بأنه العصر الذهبي للتاريخ الإسلامي، وإضفاء هذه الصفة على تلك المرحلة من التاريخ الإسلامي؛ يرشحها - بشكل ما - إلى مكان القدوة.. وقد يوهم ارتقاءه إلى مستوى العهدين المذكورين.. مما حداني إلى اختيار هذه الفترة مجالاً لموضوع بحثي عساي أستطيع أن أعطيه حقه، وأن أنزله منزلته في ميزان الإسلام على نحوٍ لا وكس فيه ولا شطط، وبذلك يظهر مقدار صلاحه، بل وصلاح ما سواه من العصور، لاحتلال مكان «القدوة»، وأرجو أن تفيد «صحوتنا المعاصرة» من قِبل هذه المعرفة بتاريخنا وتجاربنا خلاله، فتخطو خطواتنا في الطريق الصحيح إن شاء الله تعالى.

إن أمتنا في حقيقتها أمة داعية، ووظيفتها الجوهرية في الحياة إنما هي حمل لواء هذه الدعوة، قال الله تعالى: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ

اتَّبَعَنِي ۖ وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾[1]، وإن التزامها حقيقتها هذه لهو السبيل الأمين لتحقيقها ذاتها وتحقيقها وجودها في حلبة الحياة، وإن تجاوب الأمم مع مبادئها التي هي قوامها هو مأمنةٌ لها من الضعف والتفسّخ والضياع.

إن المسلم الداعية الذي عرفناه في العهدين الإمامين - النبوي والراشدي - يصول في الآفاق ينشر نفحات الدعوة الإسلامية العطرة؛ قد حقق ذاته ووجوده، بل حقق ذات الإنسانية ووجودها على نحوٍ لا نظير له، وترك لنا من الدروس والعِبر ما هو ضروريٌّ لحياتنا وما إن قفوناه فلن نضلّ أبداً.

والدعوة - كما لا يخفى - قولٌ وعملٌ، فمَن التزمَها علا وسما، ومَن أعرض عنها اجتالته الأهواء ومذاهبها، والتاريخ نِعمَ الشاهد على هذه الحقيقة.

إن أمتنا المسلمة قد تبوأت مكان الذروة في العهدين الإمامين النبوي والراشدي نتيجة التزامها وظيفتها الجوهرية التي ذكرناها آنفاً، ولكن بعد أن مضت «دولة الراشدين» جعلت شخصية هذه الأمة تعاني ما تعاني من أعاصير الفتن والكوارث، وجعل الانحراف يتسرَّبُ في كيانها المثالي شيئاً فشيئاً، ومن ثمّ بدأت خصّيصتها الدعوية الأصيلة تتقلّص من جوانب حياتها، ومن هنا أخذت دولتها ومجتمعها ينحرفان عن الجادة الدعوية.

أجل، لقد كان هذا الانحراف قليلاً ونسبياً في بدايته، ولكنه استمرّ واستمرّ حتى كاد كيانُ الأمة في مجتمعها ودولتها يتمادى في البُعد عن خصّيصتها الدعوية، على أنها كانت تحاول العودة إلى تمثُّل هذه الخصّيصة بين فترة وأخرى من فترات التاريخ على أيدي رجالٍ مخلصين.

وفي العصر العباسي الأول أضحت الدعوة واجباً تتصدى بالدرجة الأولى لحمله فئاتٌ معينة من الفقهاء والمحدّثين والزهاد ومَن إليهم رحمهم الله، بينما هي في الأصل واجب الجميع، كلٌّ بقدر طاقته ومن خلال اختصاصه.

---

(1) سورة يوسف: الآية ١٠٨.

وأريد الآن أن أشير إلى حقيقةٍ يجب أن ندرسها دراسةً واقعيةً؛ هي أنّ نظام هذا الكون قد خلقه الله تبارك وتعالى بتقدير وحسبان ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾[1] و ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾[2]، فعملية الجمع - كما يقال - لا تنتج إلاّ جمعاً، وعملية الطرح لا تنتج إلاّ طرحاً وهلمّ جراً، ويُحصد في هذا الكون ما يُزرع، فإذا زرعتَ القمح لا تحصد إلاّ القمح، والذي يزرع الشعير ويأمل أن يحصد القمح هو جدير أن ينظر إليه العاقل نظرة الرثاء، وكذلك الدعوة الإسلامية لا تؤتي أُكُلها على نحو ما كان عليه الأمر في عهد سلفنا الصالح إلاّ إذا كانت مستوليةً على حياة الأمة جمعاء تصوراً وقولاً وعملاً.

هذه ناحية حساسة دقيقة، يجب علينا - فيما أعتقد - أن نستحضرها عند إنجاز كلّ مهمة من مهمات الدعوة، فهذا البحث الذي هو عمل متواضع في حقل الدعوة الإسلامية قد استحضر هذه الناحية الدقيقة عند إعداده، والله من وراء القصد..

العبد المذنب

عبد الحميد مظاهري ندوي

❊ ❊ ❊

---

(١) سورة القمر: الآية ٤٩.

(٢) سورة يس: الآية ٣٨.

الدعوة ومكانتها في حياة الإنسان

ما الدعوة؟

إجابةً عن هذا السؤال يُحسن بنا أن ننظر في معنى الكلمة لغةً واصطلاحاً، علماً أنّ هناك صلةً وثيقةً بين المعاني اللغوية والاصطلاحية.

أولاً: الدعوة لغةً:

كلمة «الدعوة» اسماً كانت أو مصدراً - على اختلاف اللغويين [١] - لها معان عدة، منها: النداء [٢]، والطلب [٣]، والاستدعاء [٤]، يقال: دعا الرجلُ دعواً ودُعاءً: ناداه [٥]، وصاح به [٦].

وقد وردت هذه الكلمة بصيغ مختلفة لمعان عديدة في كتاب الله تعالى، منها ما يلي:-

١- النداء والطلب:

- قال تعالى: ﴿ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴾[٧] أي: بأن

---

(١) تهذيب اللغة للأزهري، ٣/ ١٢٠ (مادة: دعا)؛ معجم مقاييس اللغة لابن فارس، ٢/ ٢٧٩ (مادة: دعو)؛، والصحاح للجوهري، ٦/ ٢٣٣٦ (مادة: دعا)؛ والمحكم والمحيط الأعظم لابن سيده، ٢/ ٢٣٤،٢٣٥ (مادة: د ع و)؛ ولسان العرب لابن منظور، ١٤/ ٢٥٨ و ٢٦٠ (مادة: دعا)؛ وتاج العروس للزبيدي، ١٠/ ١٢٧ (مادة: دعا).

(٢) ابن سيده، المصدر السابق؛ وابن منظور، المصدر السابق.

(٣) الأزهري، المصدر السابق؛ الزبيدي، المصدر السابق.

(٤) ابن فارس، المصدر السابق؛ ابن منظور، المصدر السابق.

(٥) ابن سيده، المصدر السابق.

(٦) ابن منظور، المصدر السابق.

(٧) سورة الروم: الآية ٢٥.

قال: «يا أهل القبور قوموا[1]»، أو: «أيها الموتى اخرجوا[2]».

- وقال: ﴿ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ ﴾[3] أي: نادوهم للإغاثة، فلم يغيثوهم[4].
- وقال: ﴿ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾[5] أي: فاطلبوا منهم النفع والضرّ[6].

٢- سؤال كشف ضُرّ أو سَوق نفع:

- قال تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا ﴾[7] أي: دعانا لكشف الضر الذي نزل به وإزالته[8].

٣- الاستعانة والاستغاثة:

- قال تعالى: ﴿ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾[9] يعني: استنصروا واستعينوا، كما قال الشاعر:

فلما التقتْ فرسانُنا ورجالُهم دعَوْا يا لَكعبٍ واعتَزْينا لِعامرِ[10]

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، ١٤/ ٩.

(٢) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، ٤/ ٣٦٠.

(٣) سورة الكهف: الآية ٥٢.

(٤) تفسير أبي السعود، ٣/ ٥٣١.

(٥) سورة الأعراف: الآية ١٩٤.

(٦) الجامع لأحكام القرآن، ٧/ ٣٤٢.

(٧) سورة يونس: الآية ١٢.

(٨) تفسير أبي السعود، ٢/ ٦٣٧.

(٩) سورة البقرة: الآية ٢٣.

(١٠) جامع البيان في تفسير القرآن، ١/ ١٣٠.

- وقال تعالى: ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴾[(١)] أي: ادعوا شركاءكم واستعينوا بهم عليّ[(٢)].

٤- العبادة

- قال تعالى: ﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ﴾[(٣)] أي: لا تعبد من دون الله مالا ينفعك ولا يضرّك[(٤)].
- وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ﴾[(٥)] - تدعون: أي تعبدون[(٦)].

٥- الحض على الشيء

- قال تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ ﴾[(٧)] يدعون: أي يحثون على الخير[(٨)].
- وقال: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾[(٩)] دعا: أي حث على عبادة الله[(١٠)].

---

(١) سورة الأعراف: الآية ١٩٥.
(٢) تفسير أبي السعود، ٢/ ٤٤٥.
(٣) سورة يونس: الآية ١٠٦.
(٤) جامع البيان في تفسير القرآن، ١/ ١٣٠.
(٥) سورة الأعراف: الآية ١٩٤.
(٦) الجامع لأحكام القرآن، ٧/ ٣٤٢.
(٧) سورة آل عمران: الآية ١٠٤.
(٨) معجم ألفاظ القرآن، ١/ ٤١٢.
(٩) سورة فصلت: الآية ٣٣.
(١٠) معجم ألفاظ القرآن، ١/ ٤٠٨.

- وقال: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾[1] دعاكم: أي حثكم على ما يحييكم[2].
- وقال: ﴿ قُلْ هَـٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ﴾[3] أدعو: أي أحث على عبادة الله[4].

ثانياً: الدعوة اصطلاحاً:

وهي: قيام المسلمين - دولةً[5] وأمةً[6] وأفراداً[7] - بتبليغ الناس كافة ما جاء به النبي ﷺ من الهدى والحق، إخراجاً لهم من الضياع الحائر إلى الرشاد المبين، ومن ظلمة الباطل إلى نور الحقيقة، ومن السبل الجائرة إلى الصراط

---

(١) سورة الأنفال: الآية ٢٤.

(٢) معجم ألفاظ القرآن، ١/ ٤٠٨.

(٣) سورة يوسف: الآية ١٠٨.

(٤) معجم ألفاظ القرآن، ١/ ٤٠٩.

(٥) لقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ [الحج: ٤١] قال الشوكاني: ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ قيل: ولاة العدل، وقيل غير ذلك، وفيه إيجاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على من مكنه الله في الأرض وأقدره على القيام بذلك. فتح القدير، ٣/ ٤٥٧.

(٦) بناءً على قوله تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ الآية [آل عمران: ١١٠] قال الشوكاني: قال مجاهد: إنهم خير أمة على الشرائط المذكورة في الآية،... وأخرج ابن جرير عن قتادة: أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قرأ هذه الآية ثم قال: أيها الناس من سرّه أن يكون من تلك الأمة فليؤدّ شرط الله فيها. فتح القدير، ١/ ٣٧١-٣٧٢.

(٧) بناءً على قوله ﷺ: «ألا فليبلّغ الشاهدُ الغائبُ». صحيح البخاري، ١/ ١٩٩.

المستقيم في أمور دينهم ودنياهم[(١)].

وهذا التبليغ واجب على الدولة والأمة والأفراد؛ كلٌّ على قدر الطاقة ومن خلال الاختصاص، هكذا كانت الحال في العهد النبوي والعهد الراشدي والعهود التي نحت منحاهما، لقد كان الكيان الإسلامي في هذه العهود كياناً دعوياً خالصاً دون تحريف أو تأويل أو تملّص.

وهذا التعريف - فيما يبدو - يضع الدعوة في مكانها الفطري من حياة الإنسان، ألم ترَ أن الدعوة ذات صلة عميقة بنفسيته وفطرته وأنه مفطور على الدعوة إلى ما يعتقده! إذ في ذلك نوعٌ من التحقيق لوجوده ولونٌ من حمايته، وقد خُلق على فطرة سليمة لا عِوجَ فيها ولا تعقيد، إنما هي العوامل الخارجية التي تُبعده عن جادة فطرته السليمة، والدليل على هذا ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «ما من مولود إلاّ يولد على الفطرة، فأبواه يهوِّدانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه كما تنتج البهيمة بهيمةً جمعاء، هل تحسّون فيها من جدعاء؟»[(٢)] وقال أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾[(٣)].

ومن خصائص تلك الفطرة السليمة للإنسان أنه إذا وجد ما يراه خيراً دعا أبناء جنسه إليه ما لم تغلب عليه الأنانية أو النفعية أو ما يشابههما، ويُستنبط هذا من قول رسول الله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحبّ لأخيه ما يحبّ لنفسه»[(٤)]،

---

(١) مأخوذ من قول ربعي بن عامر أمام رستم قائد جيش الفرس: «الله ابتعثنا لِنُخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة ربّ العباد، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام».

(٢) متفق عليه، واللفظ للبخاري، ٣/ ٢١٨ و ٢٤٥.

(٣) سورة الروم: الآية ٣٠.

(٤) متفق عليه، واللفظ للبخاري، ١/ ٥٦-٥٧.

فصرح ﷺ أن إيمان المسلم لا يكمل إلا بأن يحب لأخيه ما يحب لنفسه؛ لأن دين الفطرة يقتضيه - ألا وهو الإسلام -، وثبت بهذا أن الدعوة إلى ما يراه الإنسان خيراً هي من مقتضيات الفطرة الإنسانية، ويزداد هذا الاقتضاء الفطري روعةً وجمالاً إذا كانت القلوب مشرقة بنور الإيمان ومنشرحةً بحلاوته، ها هو وفد عبد القيس يفد على رسول الله ﷺ فيقولون: «يا رسول الله إنا هذا الحيّ من ربيعة وقد حالت بيننا وبينك كفار مُضَر، فلا نخلُص إليك إلا في شهر الحرام، فمرنا بأمرٍ نعمل به وندعو إليه مَن وراءنا، قال: آمركم بأربع وأنهاكم عن أربع...» الحديث[1]، القوم فيهم الخير كلّ الخير، يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وبناءً على فطرتهم يعلنون أمامه ﷺ من غير أمر أو تحريض أنهم يريدون أن يبلّغوا هذا الخير إلى مَن وراءهم من أبناء جنسهم «فمُرنا بأمر نعمل به وندعو إليه مَن وراءنا»؛ فثبتَ أن الإنسان مولعٌ بالدعوة نفسياً وفطرياً، وأنها تقع من فطرته ونفسيته موقعاً عميقاً.

هذا ما نتبين إذا ما استعرضنا - داخلياً - مكانة الدعوة في حياة الإنسان، وإذا ما استعرضنا مكانة الدعوة في حياة الإنسان في مظاهرها الخارجية؛ ألفينا هناك دعوتين متنافستين منذ الأزل:

- **الأولى:** الدعوة إلى الخير.
- **الثانية:** الدعوة إلى الشرّ.

فالدعوة إلى الخير هي الدعوة إلى الله والحضّ على عبادته، ومما لا ريب فيه أن غاية خلق الإنسان أن يعبد اللهَ وحدَه لا شريك له؛ حيث قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾[2].

---

(١) متفق عليه، واللفظ لمسلم، ١/ ١٨١-١٨٣.

(٢) سورة الذاريات: الآية ٥٦.

كما كلّفه الله عزّ وجلّ أن يعبده في جميع شؤون حياته حنيفاً غيرَ مشركٍ به، وأن يدعوَ إليه حسبما تقتضيه فطرته السليمة، فقال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴾[3]، فحمل الإنسان راية هذه الدعوة الكريمة كما ذكره الله تعالى في كتابه العظيم: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَـٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً ﴾[4]، والمراد بالأمانة: التكاليف الشرعية والطاعة والفرائض على قول جمهور المفسِّرين[5]، وقال القرطبي في تفسيرها[6]: «الأمانة تعمُّ جميعَ وظائف الدين على الصحيح من الأقوال، وهو قول الجمهور».

والدعوة إلى الله هي أفضل وظيفة للإنسان الذي يعيش على هذا الكوكب الأرضي كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾[7]، واختار اللهُ تباركَ وتعالى لهذه المهمة الجليلة أحبَّ خلقه إليه وأفضلَهم على الإطلاق، وأمره ﷺ أن يُعلنَ هذه المهمة بكل وضوح فقال: ﴿ قُلْ هَـٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢١.

(٢) سورة النساء: الآية ٣٦.

(٣) سورة الرعد: الآية ٣٦.

(٤) سورة الأحزاب: الآية ٧٢.

(٥) تفسير أبي السعود، ٤/ ٤٣٧؛ وفتح القدير، ٤/ ٣٠٨.

(٦) الجامع لأحكام القرآن، ١٤/ ٢٥٣.

(٧) سورة فصلت: الآية ٣٣.

﴿ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[1]، ثم جعلها وظيفةً أساسيةً لأمة حبيبه ﷺ، فقال: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾[2].

وأما الدعوة إلى الشرّ: فتعني الدعوة إلى غير الله، والحضّ على عصيان الله وعبادة غير الله، وإلى الاستكبار في الأرض، والإصرار على أعمال الشر والفساد والطغيان، وقد حمل رايةَ هذه الدعوة الخبيثة إبليس وجنوده حقداً على آدم وذريته، حسداً منهم وبغضاً لهم، فقال: ﴿ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ﴾[3][4]، وقال تعالى على لسان إبليس: ﴿ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴾[5].

فاستمرّ الصراع العنيف بين هاتين الدعوتين؛ دعوةٍ كُلِّف بها الإنسان، ودعوةٍ عارضتها ووقفت في وجهها بخبثها وضلالها وإغرائها ودهائها، ويحملها الشيطان الغويّ العدو الأزليّ للإنسان، والتاريخ الإنساني - في معظمه - عبارة عن هذا الصراع العنيف المستمر في صور شتى.

يقول سيد قطب، رحمه الله، في «ظلال القرآن»[6]: «إنّ أمام الإنسان طريقين اثنين لا ثالث لهما: طريق الله، وطريق الشيطان، أن يستمع إلى وعد الله، أو أن

---

(١) سورة يوسف: الآية ١٠٨.

(٢) سورة آل عمران: الآية ١١٠.

(٣) البتك: القطع، ومنه: «سيف باتك»، وقد فعل الكفار ذلك امتثالاً لأمر الشيطان واتباعاً لرسمه؛ فشقوا آذان البحائر والسوائب. فتح القدير، ١/ ٥١٧.

(٤) سورة النساء: الآيتين ١١٨-١١٩.

(٥) سورة الأعراف: الآيتين ١٦-١٧.

(٦) ١/ ٣١٣.

يستمع إلى وعد الشيطان، ومَن لا يسير في طريق الله ويسمعُ وعدَه؛ فهو سائرٌ في طريق الشيطان ويتبعُ وعده.. وليس هناك إلاّ منهج واحد هو الحق.. المنهج الذي شرعه الله، وما عداه فهو للشيطان ومن الشيطان».

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: خطَّ لنا رسول الله ﷺ خطًّا ثم قال: هذا سبيل الله، ثم خطّ خطوطاً عن يمينه وشماله وقال: هذه سُبُل، على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه، وقرأ ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾[1].

فما هو واجب الإنسان إذن؟

فواجب الإنسان إذن، أن يُخلص دينه لله، وأن يتبنَّى الدعوة إلى دين الله، هذه هي الدعوة التي تكفل للإنسان خيرَه الشامل الكامل في العاجلة والآجلة، ولستُ أريد بذلك أنه يجب على جميع المسلمين أن يكونوا (دعاةً متفرّغين)، بل الذي أريد هو أن يكون جميع المسلمين (دعاةً ملتزمين) بحيث يمارس كلٌّ منهم الدعوة إلى الحق على قدر طاقته ومن خلال اختصاصه، عالماً كان أو متعلّماً، حاكماً كان أو محكوماً، وبذلك يتحقق ما أراده الله سبحانه وتعالى من عبده، وهو أن يعبده ويذكره في كل حال من أحواله؛ فقال تعالى: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾[2].

---

(١) رواه الدارمي ١/ ٦٧؛ ورواه أحمد والنسائي، قال الشيخ محمد ناصر الدين الألباني في إسناد هذا الحديث: «إسناده حسَن، صحّحه الحاكم وغيره» انظر: مشكاة المصابيح، ١/ ١٦٩، تحقيق: الألباني.

(٢) سورة آل عمران: الآيتان ١٩٠-١٩١.

وبناءً على أن الإنسان مفطورٌ على الدعوة - كما أسلفنا - إذا نسي واجبه وتخلّى عن وظيفته الجوهرية - وهي الدعوة إلى الله -؛ حمل دعوة عدوّه المبين - وهو الشيطان الغَرور الغَوي - الذي يرصُده في كل لحظةٍ وآن، ويغريه بكل ما يملكه من الدهاء والإغراء والمكر، وقد حدثت هذه المأساة فعلاً؛ فإن الشقاء والدمار اللذيْن لم يزلْ يصادفهما الإنسان في تاريخه الطويل؛ ليس لهما من سبب إلا ميلُ الإنسان عن دعوته الحقيقية إلى دعوة عدوّه المنافسة، ولْيذهبْ بعضُ علماء علم الاجتماع والتاريخ وغيرهم ما شاؤوا من مذاهب[1]؛ فإن ذلك لا يغيِّر من الحقيقة الواقعة شيئاً، ولقد أشار الله سبحانه وتعالى إلى هذا السبب الرئيس في كتابه العزيز، ونذكر نبذةً من إشارته ههنا:

فهؤلاء بنو إسرائيل الذين اختارهم الله - في فترةٍ من التاريخ - لحمل لواء الدعوة، فاشتغلوا بالسحر وتخلّوا عن دعوتهم الأصيلة، ولبّوا دعوة العدوّ المبين - الشيطان - فانتهوا إلى الخسران والبوار، فقال الله تعالى: ﴿ وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَـٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَـٰرُوتَ وَمَـٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾[2].

ومن أجل ذلك مُنعت هذه الأمة الإسلامية - التي اختارها الله تعالى كيما

---

(١) يشير المؤلف رحمه الله إلى مواقف كلٍ من: هيجل وماركس وتوينبي وغيرهم إزاء التاريخ البشري وتفسيراتهم لمسيرته ومنعطفاته بتفسيرات مختلفة، انظر ذلك في كتب متخصصة. (د. محمد عامر).

(٢) سورة البقرة: الآية ١٠٢.

تضطلع بأعباء قيادة الإنسانية الحائرة - منعاً باتّاً من أن تقترب من أيّ مهوى من مهاوي الانحراف التي يدعو إليها الشيطان ويحتال بها على المؤمنين، ومن ذلك الأعمال السِّحرية الشيطانية التي ذهبت بعقلية تلك الأمة الضائعة - بني إسرائيل - وألقتها في حضيض[1] الذلّ والهوان، ولذلك قال رسول الله ﷺ: «اجتنبوا السبع الموبقات.. الشرك بالله، والسِّحر..»[2]، وقال: «حَدُّ الساحر ضربةٌ بالسيف»[3]، وقال أيضاً: «مَن عقد عُقدةً فيها رُقية فقد سَحرَ، ومن سَحرَ فقد كفر، ومن علّق علقةً وُكِل إليها»[4].

وأشار الله سبحانه وتعالى إلى أن النكبة الاقتصادية التي لم يزل يواجهها الإنسان في تاريخه الطويل؛ هي نتيجة الانخداع بالخدعة الشيطانية حين يخوِّف الشيطانُ الإنسانَ بالفقر الموهوم، ويمنعه من الإنفاق على الفقراء والمساكين وعلى الذين لا يسألون الناسَ إلحافاً من التعفّف، فيحدث في نهاية المطاف لونٌ من الصراع الطبقي بين الناس.

وتستمرّ طبقة الأغنياء في الرفاهية التامة والازدياد في الثروة، فيتسرّب فيهم الترف والبذخ، فيميلون إلى الفحشاء والمنكر، بينما تستمرّ طبقة الفقراء والمساكين في بؤسهم وشقائهم، فيقوم تلميذ من تلامذة الشيطان - في حين من الدهر - ويثير غضب الفقراء ضد الأغنياء، ويحرّض المعدَمين على معارضة الأثرياء، ويملأ الدنيا بصرخات وويلات، ولم يزل يشعر الإنسان بمرارة هذا الصراع في تاريخه الطويل فقال تعالى: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱللَّهُ

---

(١) الحضيض: القرار من الأرض عند أسفل الجبل.

(٢) رواه البخاري، ١٠/ ٢٣٢.

(٣) رواه الحاكم في المستدرك، ٤/ ٣٦٠.

(٤) رواه عبد الرزاق في المصنف، ١١/ ١٧.

يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾[1].

ولقد شاهد التاريخ الإنساني نضالاً مستمراً بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان؛ فنضال أولياء الرحمن كان أبداً من أجل مصلحة الدعوة التي تكفل نجاة الإنسانية من قبضة أتباع الطواغيت، كما تكفل لها السعادة الأبدية والفلاح الحقيقي، بينما لم يأت نضال أولياء الشيطان للعالم الإنساني إلاّ بالخراب والدمار والبؤس والشقاء، والتاريخ هو نِعم الشاهد على هذه الحقيقة الناصعة، وما أمرُ الحروب العالمية ببعيد، وقد أشار الله سبحانه وتعالى إلى هذه الحقيقة التاريخية معلناً أنه لا بدّ من قتال أولياء الشيطان من أجل إنقاذ الإنسانية من الدمار والهلاك، وأن كيدهم - مهما عزُّوا - ضعيف: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾[2].

وكذلك نبّه الله سبحانه وتعالى ذريةَ آدم إلى أن يكونوا دائماً في حذر من مكيدة الشيطان وشَرَكه، وإلى أن يجعلوا ما جرى على أبويهم من هذا العدوّ الحاقد نصب أعينهم، ليتمكّنوا من الاحتـراز من مآسي الخراب والتدهور الخُلقي التي يريد الشيطان أن يلقيهم فيها، ومع الأسف الشديد وقعت ذرية آدم فريسةً لهذا الصيد الشيطاني، فقال تعالى: ﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾[3]، ويقول سبحانه وهو يصوّر بعض مشاهد يوم القيامة ويشيـر إلى مصيـر من نـسُوا في حياتـهم الدنيـا

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٦٨.

(٢) سورة النساء: الآية ٧٦.

(٣) سورة الأعراف: الآية ٢٧.

واجبهم الحقيقي واتبعوا شهوات أنفسهم تلبيةً للدعوة الشيطانية: ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا ۝٦٦ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا ۝٦٧ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴾[1]، وقال جلّ شأنه: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴾[2].

فهذه الآيات الكريمة - وهناك آيات أخرى أيضاً - تدلّ على أن الإنسان لم يزل يصارعه الشيطان في تاريخه الطويل، فيميل إلى الفساد في الأرض منخدعاً بخُدعة الشيطان وكيده، مسحوراً بسحره - إلا عباد الله المخلَصين -. وقد نجح الشيطان في مهمته نجاحاً كبيراً، بينما لم يزل الله تعالى يأخذ بيَد الإنسان بإرسال الأنبياء والمرسلين، وأخيراً بإخراج أمةٍ داعيةٍ إلى الله؛ أمة محمد ﷺ، فلم يزل هذا الصراع مستمرًا ولن يزال يستمرّ إلى يوم القيامة؛ فالنجاح فيه لمن استمسك بالعُروة الوثقى - وهي الإسلامُ وحدَه والدعوةَ إليه -، والخسران لمن انخدع بمكيدة الشيطان وخدعته ثم دعا بدعوته وملأ الدنيا شرّاً وفساداً، قال الله تعالى: ﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ﴾[3].

وخلاصةُ ما ذكرنا فيما سبقَ: أنّ المراد بالدعوة الإسلامية هو قيام المسلمين - دولةً وأمةً وأفراداً - بتبليغ كافة ما جاء به النبي محمد ﷺ من الهُدى ودين الحق على قدر الطاقة ومن خلال الاختصاص، وأن الدعوة لها مكانة خاصة في حياة الإنسان وصلة عميقة بها، فهو مفطورٌ على الدعوة إلى ما يعتقده، وأن

---

(١) سورة الأحزاب: الآيات ٦٦-٦٨.

(٢) سورة فصلت: الآية ٢٩.

(٣) سورة العصر.

هناك دعوتان متنافستان على وجه هذا الكوكب الأرضي منذ أن خُلق الإنسان: دعوةٌ إلى الخير، وهي الدعوة إلى الله، ودعوةٌ إلى الشرّ، وهي الدعوة إلى غير الله.

وقد حمل الإنسان المسلم رايةَ الدعوة إلى الخير، بينما حمل عدوُّه المبين راية الدعوة إلى الشرّ، والصراع بينهما ما زال مستمرّاً، فمن واجب هذا الإنسان أن لا ينسى أبداً واجبه الحقيقي، وهو الدعوة إلى الله.

وإذا نسي واجبه؛ فبما أنه مفطور على الدعوة، مالَ إلى دعوة عدوّه الشيطان، والدعوة الشيطانية لا تأتي إلاّ بالشرّ والفساد في الأرض، والتاريخ الإنساني شاهد على ذلك.

مقومات الدعوة الإسلامية

قد ثبت بما سبق أن الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى هي الوظيفة الأصيلة للإنسان[1]، ونستعرض الآن مقوّمات هذه الدعوة التي تتمثل عملياً في سيرة نبينا محمد ﷺ، وإنّ سيرته ﷺ هي المثل الأعلى للدعوة إلى الله، وذلك لسببَين:-

أولاً: أن الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - كانوا يدعون الناس[2] إلى الله سبحانه وتعالى، بيد أن تفاصيل دعوتهم لم تحفظها لنا الوثائق التاريخية، أما الكتب السماوية - وأشهرها التوراة والإنجيل - فقد مُنيت بالتحريف كما هو معلوم، فلم يتسنّ لنا أن نعتمد على مروياتها إلاّ بقدر محدود، وما ذكره القرآن

---

(١) ومما لا يخفى على الإنسان العاقل أن الدعوة تخاطب نفس شخصية الداعية أولاً ومباشرةً، ومن الحمق أن يدعو الإنسان إلى ما لايعتقده ولا يعمل به، وقد كره الله سبحانه هذه الغفلة وكرّهها إلى المؤمنين فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ [سورة الصف: الآيتان ٢-٣]، والدعوة هي التي تحرّض الإنسان على أن يظلّ متمسّكاً بها بنفسه ما دام يدعو إليها، وكلّما قصّر الإنسان في الدعوة؛ انفصمت شخصيته بقدر تقصيره عن العمل بما يدعو الناس إليه، وهذا هو الداء الحقيقي في حياتنا في هذه الأيام، إذ نرى كثيراً منّا يدعون إلى أمور لا يعملون بها، فهل يدلّ هذا يا تُرى على أنهم يؤمنون حقاً بما يقولون؟؟.

(٢) قال الله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ۝ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ۝ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [سورة النساء: الآيات ١٦٣-١٦٥].

الكريم عن دعوات الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - موجزٌ لا يفصِّل ما اختاروه في سبيل هذه الدعوات من الوسائل والطرق والأساليب لينالوا بها هدفهم المنشود وغايتهم المرجوّة.

فهناك ذِكرٌ مجمَلٌ لما عاناه الأنبياء والرسل - عليهم الصلاة والسلام - في سبيل الدعوة إلى الله، فلا يمكن لنا أن نحدّد المقومات الجوهرية للدعوة الإسلامية تماماً في ضوء ما وصلَ إلينا من سِيَرهم.

ثانياً: أنّ محمداً ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين، وشريعته مكمِّلةٌ لكلّ شريعةٍ إلهيةٍ، ودينُه متمِّمٌ لكلّ دينٍ سماويّ[1] ومهيمنٌ عليه[2]، وناسخٌ لجميع الأديان الموجودة على وجه الأرض[3]، وسيرته محفوظة بقضّها وقضيضها[4]، ومهيمنة على سِيَر الأنبياء مِن قبله، وموضِّحةٌ لجميع التفاصيل المطلوبة في هذا الموضوع.

فتكون سيرته الطيبة ميزاناً مستقيماً لتقويم المجهودات الخالصة في سبيل الدعوة إلى الله، فما وافقها فهو السعيُ المشكور والمجهود المبارك، وما خالفها يؤخذ عليه بقدر خلافه، وذلك لما قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ

---

(١) قال الله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [سورة المائدة: الآية ٣].

(٢) قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [سورة المائدة: الآية ٤٨].

(٣) ذلك لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٨٥]، ولقول رسول الله ﷺ: «والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلتُ به إلاّ كان من أصحاب النار». (رواه مسلم، ٢/ ١٨٦).

(٤) القض والقضيض: أي جميعها.

حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ ﴾[1]،

وقال رسول الله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئتُ به»[2].

ولسنا في هذا المقام بصدد استعراض السيرة الطيبة بجميع نواحيها، ولكن نمرّ بها مروراً جاداً، نركّز الفكرة على النكات الهامة التي تبرز لنا المقومات الأصيلة للدعوة الإسلامية.

كانت حياة رسول الله ﷺ - من حين بعثه - حافلةً بجميع أنواع الجهاد في سبيل الله، وهي ثلاثة وعشرون عاماً؛ ثلاث عشرة سنة في مكة، وعشر سنين بالمدينة، وكانت حياته المكّية والمدنية مركّزة لتحقيق أهداف دعوية سامية يمكن أن نلخّصها تحت العناوين التالية، وهي كحلقات سلسلةٍ ذهبيةٍ متماسكةٍ لا ينفكّ بعضها عن بعض:

أ - بناء العقائد على أساس التوحيد الخالص.

ب - تكوين شخصيات إيمانية.

ج - تكوين مجتمع إيماني.

د - إنشاء دولة تحافظ على ذلك المجتمع داخلياً وخارجياً.

هـ - توجيه الدعوة لتعميم هذا المجتمع في جميع أنحاء العالم.

---

(١) سورة النساء: الآية ٦٥.

(٢) شرح السنة، ١/ ٢١٣، باب ردّ البدع والأهواء.

(أ) بناء العقائد

أول ما بدأ به الرسول ﷺ هو إصلاح العقائد وتقويمها؛ لأن العقيدة تستقرّ في القلب الإنساني، وهـو رئيس الأعضاء والجوارح، فقال النبي ﷺ: «ألا وإنّ في الجسد مضغةً إذا صلحتْ صلحَ الجسد كله، وإذا فسدتْ فسدَ الجسد كله ألا وهي القلب»(١).

ومما لا ريب فيه أن العقيدة - ولو كانت باطلة - لها مكانة حاسمة في تطوير حياة الأمم وبناء مجدها والاحتفاظ بكرامتها، كما يشهد به التاريخ الإنساني(٢)؛ فكان من الضروري أن تكون عقائدُ الأمة الوسطَ التي أُخرجت للناس تحتوي على أمرين:-

الأول: أن تكون صالحةً صحيحةً لا عِوجَ فيها ولا شائبةَ، ولا يحصل هذا إلا إذا كانت العقائد موحًى بها من عند الله، فلا مجال فيها لزيادة أو نقص؛ فهي تضمن فلاحَ حامليها في الدنيا والآخرة؛ إذ أن العقائد الفاسدة - مهما صلبت الأمة في التمسّك بها وأفادت منها أحياناً - لا تصلح في نهاية المطاف لأن تتجاوب ومقتضيات الحياة وتطوراتها، وكثيراً ما تجرّ الخراب والدمار على الجيل الإنساني(٣).

---

(١) رواه الشيخان، انظر: مسلم ١١/٢٨.

(٢) نريد أن نشير إلى ما وقع قريباً من أحوال الجيش الياباني أثناء الحرب العالمية الثانية، خصوصاً في سبيل الدفاع عن مدينة (أوكي ناوا) إذ كانوا يلقون بأنفسهم إلى الهلاك وينتحرون بناءً على عقيدتهم الباطلة بأن أرواح آبائهم في مكانة عالية تنتظرهم لترحب بهم؛ فجاء عملهم هذا بحاصل كبير من الخسائر الجسيمة لجيوش الحلفاء. (انظر: رمضان لاوند، الحرب العالمية الثانية، ٥٧٠-٥٧٣).

(٣) فلننظر بهذه المناسبة إلى نتائج عقيدة اليهود الباطلة: «أنهم شعب الله المختار» وما جرّت=

الثاني: أن تكون الأمة متصلبة في التمسّك بها، إذ أن الضعف أو التضعضع في الاستمساك بالعقائد يجعل الأمة مُزعزعة الكيان، ضعيفة الإيمان، كما يبعث فيها أمراضاً معنوية متنوعة[1].

فبدأ رسول الله ﷺ مهمته الجليلة بدعوة أمته إلى أصول الدين، وهي: الإيمان بالله، وتوحيده في الألوهية والربوبية والأسماء والصفات، والإيمان بملائكته ورُسله، والإيمان باليوم الآخر والبعث والجزاء، والدعوة إلى مكارم الأخلاق.

كانت حياة الرسول العظيم ﷺ في مكة عبارة عن الجهد المتواصل لإيضاح الرؤية العقائدية على أساس التوحيد الخالص في جوٍّ مكفهر يهيمن عليه الشرك والوثنية؛ لأن التوحيد رأس العقيدة، وأولُ دعوة الرسل[2] - عليهم الصلاة والسلام - فكان يذمّ الأصنام[3]، ويقيم على كفـار مكة حججاً قاطعة وبراهين دامغة، كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ ۝٧٣ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[4].

= هذه العقيدة على العالم الإنساني من الكوارث والمآسي، وما يُتوقع أن تجرّه في المستقبل على أهلها وغيرهم.

(١) هذه الأمة الوسط ما دامت متصلبة في التمسك بعقائدها السماوية جاءت بمعجزات في تاريخها الزاهر، ولما بعدت - مع الأسف الشديد - تدريجياً عن التمسّك بأهداب العقيدة الراسخة - وذلك بصورة نشأة المذاهب الكلامية والباطنية - شاهدت ما شاهدت من المآسي المؤلمة والكوارث المفضوحة في تاريخها الحاضر والماضي، ولا يخفى ذلك على العيون الساهرة في رباط الإسلام.

(٢) ابن أبي العز، شرح العقيدة الطحاوية، ٧٤.

(٣) ابن هشام، سيرة النبي ﷺ، ١/ ٢٦٢.

(٤) سورة الحج: الآيتان ٧٣-٧٤.

ولم تجد عقلية المشركين الواهنة مساغاً لتردّ على هذه البينات الواضحة القوية المتدفقة غير أن تظل صامتة مبهوتة[1] أو أن تقوم - وقد جُنّ جنونها - فتحاول أن تطفيء نور الله الساطع بأفواهها، والله متمٌّ نورَه ولو كره الكافرون.

وقام المشركون - وقد ثارت حميتهم الجاهلية - فآذوا رسولَ اللهِ ﷺ وأصحابَه إيذاءً شديداً[2]، فتحمّله هو وأصحابه بغاية الصبر والصمود؛ إذ أن مصلحة هذه المرحلة من الدعوة كانت تقتضي مواجهةَ الظروف بأساليب سلمية؛ لأن الأمل في قبول الناس الدعوة لم ينقطع، والجوّ الحالك لم ينجلِ، ولم تـجد الدعـوة من الشخصيات الإيمانية عدداً تتمكّن به من إيجاد مجتمع إيماني دَعَوي[3]، وكيلا يجد أعداء الدعوة فرصةً ليتّهموها بالعنف والشدة والقساوة والفظاظة.

ولعلنا نستجلي خلاصة دعوة رسول الله ﷺ في مكة المكرمة من بيان جعفر ابن أبي طالب رضي الله عنه أمام النجـاشي ملك الحبشة إذ قال[4]: «أيها الملك، كنّـا قوماً أهـل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي، الفواحش ونقطع الأرحام، ونسيء الـجـوار، يأكـل القويُّ منـا الضعيف، فكـنّا على ذلك حتى بعثَ الله إلينا رسولاً مـنّا نعرف نَسَبه وصِدقه وأمانته وعفافـه، فدعـانا إلى الله لنوحّده

---

(١) ابن هشام، سيرة النبي ﷺ، ١/ ٣٧٤.

(٢) ابن هشام، سيرة النبي ﷺ، ١/ ٣٢٤-٣٢٩.

(٣) ونستطيع أن نستأنس لذلك بقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقد قاتل قريشاً وقاتلوه بعد أن أسلم وقاموا على رأسه وهو يقول: «وافعلوا ما بدا لكم، فأحلف بالله أن لو كنا ثلاث مئة رجل، لقد تركناها لـكم أو تركتموهـا لنا». ابن هشام، سيرة النبي ﷺ، ١/ ٣٧٤.

(٤) إن هذه الرواية ذات قيمة كبيرة بصدد ما نحن فيه من بيان خصائص الدعوة، ولا سيما في بدايتها، وهنالك آيات وأحاديث تجلو لنا هذه الخصائص وسنذكرها في محالها إن شاء الله.

ونعبده، ونخلع ما كنّا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان[1]، وأمرَنا بصدق الحديث[2]، وأداء الأمانة[3]، وصلة الرحم[4]، وحسن

---

(١) السور المكية مليئة بهذه المعاني، ومنها: قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾ [سورة لقمان: الآيتان ٢١- ٢٢]، وقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ۞ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۞ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ [الأنعام: الآيات ١٠٠-١٠٢]، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۞ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴾ [الزمر: الآيتان ٢-٣].

(٢) الصدق من أسمى شعارات المسلم، ولقد اهتمّ به الإسلام في كل مرحلة من مراحل دعوته، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِي جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ [سورة الزمر: الآية ٣٣] والآية مكية، قال قتادة وغيره: ((الذي جاء بالصدق النبي ﷺ، والذي صدّق به المؤمنون)) انظر: الشوكاني، فتح القدير، ٤/ ٤٦٣) ونصّ القرآن على التزام المسلم بالصدق بقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ [الأحزاب: الآية ٧٠] والآية مدنية.

(٣) وتؤيد الآية المكية هذا المعنى، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴾ [سورة المؤمنون: الآية ٨].

(٤) ويؤيده قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ [سورة النحل: الآية ٩٠]، كما يؤيده عملُ رسول الله ﷺ الذي أبرزته زوجه خديجة الكبرى رضي الله عنها بقولها: ((كلا! والله ما يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم..)) الحديث (انظر:=

الجوار[1]، والكفّ عن المحارم والدماء[2]، ونهانا عن الفواحش[3]، وقول الزور[4]، وأكل مال اليتيم[5]، وقذف المحصنات[6] وأمرنا أن نعبد

= البخاري، الجامع الصحيح، ١/ ٢٢) وذلك تسليةً لرسول الله ﷺ عند شعوره بشدة بداية الوحي.

(١) حسن الجوار من أهم تعليمات الإسلام وميزات المجتمع الإسلامي، ووردت فيه أحاديث كثيرة، وكان معمولاً به في كل مرحلة من مراحل الدعوة المكية والمدنية، ونصّ عليه القرآن الكريم في الآية التي نزلت بعد الهجرة فقال تعالى: ﴿ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ ﴾ [النساء: الآية ٣٦].

(٢) وتؤيد الآية المكية هذا المعنى، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ [سورة الإسراء: الآية ٣٣].

(٣) الفواحش: جمع الفاحشة، وقد أريد بها في الإسلام كبار الذنوب وكل ما لا يلائم القيم الإنسانية العالية ومكارم الأخلاق من قول أو فعل (انظر: الشوكاني، فتح القدير، ٣/ ١٨٨)، ومن أكبر مظاهرها: الزنا، وسدّ الإسلام بالنهي عن الفواحش باب كل رذيلة - صغيرة كانت أو كبيرة - تدخل في نفس الإنسان وتفسد عليه أخلاقه وقيم مجتمعه فتجرّ عليه من المآسي التي لا يدرك آثارها في بداية الأمر، فالفاحشة كانت منهيًا عنها في كل مرحلة من مراحل الدعوة، وإليكم بعض الآيات المكية التي تؤيد هذا المعنى: قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ [سورة الأعراف: الآية ٣٣] وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ﴾ [سورة النحل: الآية ٩٠].

(٤) قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴾ [سورة الفرقان: الآية ٧٢].

(٥) قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ﴾ [سورة الإسراء: الآية ٣٤].

(٦) قذف المحصنات أيضاً فاحشة من الفواحش التي تأتي على المجتمع الإسلامي بأنواع =

الله وحده ولا نشرك به شيئاً، وأمرنا بالصلاة[1] والزكاة[2] والصيام[3] - قالت أمّ سلمة: فعدّد عليه أمورَ الإسلام - فصدّقناه وآمنّا به واتبعناه على ما جاء به مِن الله، فعبدنا اللهَ وحدَه فلم نشركْ به شيئاً، وحرّمنا ما حرّم علينا

= من المفاسد والمآسي، ومن أجل ذلك حرّم الإسلام قذف المحصنات في كل مرحلة من مراحل دعوته، حتى نصَّ القرآن الكريم على إقامة الحدّ على من يقذف المحصنات وذلك بعدما رسخت دعائم المجتمع الإسلامي بالمدينة المنورة فنزلت الآية الكريمة: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [سورة النور: الآية ٤]. ولفظ المحصَنات يشمل النساء والرجال تغليباً (انظر: الشوكاني، فتح القدير، ٤/ ٧).

(١) افترضت الصلاة في بداية الدعوة كما تشير إليه الآيات القرآنية التي نزلت بمكة، منها قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ [سورة الأنعام: الآيتان ٧١-٧٢]، ومنها قوله تعالى: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴾ [سورة الكوثر: الآية ٢] وسورة الكوثر من أوائل السور التي نزلت على رسول الله ﷺ.

(٢) نرجح القول بأن الزكاة كانت واجبة في مكة، إلاّ أنها كانت زكاةً مطلقة من القيود والحدود، وكانت موكلة إلى إحساس الأفراد وشعورهم بواجبهم الأخوي نحو المؤمنين الضعفاء، تدبّر قوله تعالى: ﴿ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴾ [سورة فصلت: ٦، ٧].

(٣) فرض صيام رمضان في السنة الثانية من الهجرة (انظر: ابن كثير، البداية والنهاية، ١/ ٢٥٤) أما الصيام في مكة فقد رُوي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «كانت قريش تصوم عاشوراء في الجاهلية، وكان رسول الله ﷺ يصومه، فلمّا هاجر إلى المدينة صامه وأمر بصيامه، فلما فُرِضَ شهر رمضان قال: من شاء صامه ومن شاء تركه» (رواه مسلم، ٨/ ٤-٥).

وأحللنا ما أحلّ لنا، فعدا علينا قومُنا»[1].

(ب) تكوين شخصيات إيمانية

إذا كان الرسول الأعظم ﷺ يبذل جهوده البناءة المتواصلة في إيضاح عقيدة التوحيد الخالص أمام مشركي مكة المكرمة، فقد كان يهتمّ اهتماماً كبيراً في تربية نفوس طاهرة وبناء شخصيات دعوية فعالـة تحمل لواء الدعوة وتشيد الحياة الإسلامية المنتظرة، لتخرج الناس من ظلمة الوثنية إلى نور التوحيد، ومن بيئة يعلو فيها - بين آونة وأخرى - صليل السيوف إلى بيئة يسودها الهدوء والمسالمة، ومن قساوة نزعات النهب إلى طمأنينة التجاوب والتعاون، ومِن دمار نظام الثأر والانتقام إلى حياة نظام القصاص، ومن فوضى الحياة القبلية إلى تنظيم الحياة الاجتماعيـة، ومن شـرور نظـام الطبقات إلى روائع نظام المساواة.

وكانت شعاب مكة المكرمة مجالاً فسيحاً لهذه النشاطات المباركة[2]، كما كانت دار الأرقم[3] بن أبي الأرقم بناءً ومقراً لاجتماع هؤلاء المقبلين على دعوة محمد ﷺ[4]، وخرّجت هذه المدرسة المحمدية رجالاتٍ عباقرة، تجسّدت الدعوة الإسلامية في شخصياتهم الفذة وعقليتهم النيرة، فأسهموا في تغييـر مجرى التـاريخ ومسار الحياة الإنسانية، وملأوا ربوع المعمورة - في مدةٍ يسيرةٍ - عدلاً

---

(١) ابن هشام، سيرة النبي ﷺ، ١/ ٣٤٨.

(٢) ابن هشام، سيرة النبي ﷺ، ١/ ٢٥١-٢٦١.

(٣) هو: الأرقم بن عبد مناف بن أسد بن عبد الله بن عمر بن مخزوم القرشي المخزومي، كان من السابقين الأولين إلى الإسلام، كان ثاني عشر ممن أسلم، وكان من المهاجرين الأولين، شهد بدراً، واستعمله رسول الله ﷺ على الصدقات، توفي سنة ثلاث أو خمس وخمسين ودفن بالبقيع. ابن الأثير، أسد الغابة، ١/ ٧٤-٧٥.

(٤) ابن سعد، الطبقات، ٣/ ٢٤٢؛ ابن الجوزي، صفة الصفوة، ١/ ٤٤٢.

وسلاماً ورفاهيةً وسعادةً، وأخرجوا عباد الله من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها.

وفتحوا أمامهم آفاق العلوم والحضارة، كما كانوا في أنفسهم رمزاً للتفاني في سبيل إعلاء كلمة الله والتضحية في سبيل الكفاح والحيوية والنشاط في خدمة الدين الحنيف، إذ رأينا أبا بكر الصديق رضي الله عنه يقدّم نفسه تضحيةً في سبيل إعلاء كلمة الله، ويتحمل شديد الأذى في رحاب المسجد الحرام وهو يدافع عن النبي ﷺ قائلاً: «أتقتلون رجلاً يقول: ربي الله؟!»[1]، وجدنا هناك بلالاً رضي الله عنه نموذجاً مدهشاً في تحمل الأذى والاضطهاد والصلابة في عقيدة التوحيد، ولعلّ صوته السرمدي «أحَدٌ أحَد»[2] يدوّي حتى الآن في شعاب مكة المكرمة.

وهذا عمار بن ياسر وأسرته، وذاك خبّاب بن الأرتّ، وهناك عمر بن الخطاب الذي خرج من بيته يريد قتل محمد ﷺ، فإذا هو قد انقض على بيعته ﷺ على أن يقدّم جميع ما يملكه من نفسه وماله في سبيل الدعوة الإسلامية، ثم يدوّي ربعُ الكون بعدله وإنصافه وزهده وتقشفه رضي الله عنهم أجمعين.

هكذا كان أصحابُ رسولِ اللهِ ﷺ شخصياتٍ إيمانيةً عظيمةً، ونماذج إنسانية فذّة، قد أُشرِبوا روحَ الدعوة صافيةً سائغةً، ولا غرو؛ فقد تربّوا في رعاية سيد المرسَلين ﷺ واشتركوا في بناء الصرح العظيم للمجتمع الإيماني الدعوي، رضوان الله تعالى عليهم أجمعين.

---

(١) ابن الجوزي، صفة الصفوة، ١/ ٢٣٩-٢٤٠.

(٢) ابن هشام، سيرة النبي ﷺ، ١/ ٣٢٤-٣٢٥.

(ج) تكوين مجتمع إيماني

كان الهدف الأكبر من أهداف رسول الله ﷺ إيجادَ مجتمع إيماني يكون مثالاً رائعاً لتطبيق التعاليم الإسلامية على وجه الأرض؛ إذ الاجتماع من مقتضيات البشرية؛ لأن الإنسان مدني بالطبع، ولا يمكنه أن يعيش منعزلاً عن البيئة وحيداً ومنفرداً في هذا الكون، وإلاّ لم يكمل وجوده وما أراده الله تبارك وتعالى من اعتمار العالم به واستخلافه إياه، كما أشار إليه الإمام ابن تيمية رحمه الله في كتابه «الحسبة»[١] وابن خلدون رحمه الله في المقدمة[٢].

وكان أمام رسولِ الله ﷺ مجتمع جاهلي فارغ عن القيم العالية التي ينبني على أساسها أي مجتمع إنساني فاضل، فجهّز شخصيات إيمانية ليصيروا دعائم لذلك المجتمع، إلاّ أن الظروف القاسية في مكة المكرّمة ما كانت تواتي هذه المحاولة ولا تستجيب لها، بل كان المجتمع الجاهلي يتقدم بكل ما يملك من الإهانات لإحداث العقبات والمشكلات في طريق إيجاد هذا المجتمع الدعوي المثالي، فهاجر رسول الله ﷺ إلى يثرب التي عُرفت بعد ذلك بمدينة الرسول ﷺ، وأوجد هناك المجتمع المطلوب الذي تغلّب فيه على العقبات التي واجهته بعد الهجرة.

كان هذا المجتمع الإيماني يقوم على دعائم لم يألفها قط أي مجتمع إنساني قام على وجه الأرض - غير مجتمعات الأنبياء السابقين عليهم الصلاة والسلام - ومن أهمها ما يلي:-

١- وحدة الدين

٢- الأخوة

٣- الحرية

---

(١) ص ٢-٣.

(٢) ١/ ٤٢٠-٤٢٢.

٤- العدالة والمساواة

٥- التكافل

٦- نظام الأسرة

٧- التوازن الاقتصادي

٨- العلم والتعليم

٩- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

١٠- الحياطة البالغة في العلاقات.

إن شرح هذه النواحي وإعطاءَها حقها من البحث يقتضي رسالةً ضخمة، فنكتفي بإشاراتٍ إلى معانيها ومدلولاتها حسب ما يقتضيه المقام؛ إذ أن مميزات هذا المجتمع الإيماني من أهم ثمرات الدعوة ولوازمها في العهد النبوي والراشدي، وباستعراضها - ولو بإيجاز - نستطيع أن نتبين تلك الانحرافات التي حدثت في العصور المتعاقبة، ومن أوائلها العصر العباسي الأول.

ا- وحدة الدين

إذا قام مجتمع على أساس الجنس، أو اللون، أو النسَب - على نحو ما تقوم عليه المجتمعات الجاهلية[١] - اندثرت آثاره بمرور الأيام والليالي؛ لأن الأجناس قد تتنافر، والألوان قد تتباين، والأنساب قد تختلط، ومن أجل ذلك قام المجتمع الإسلامي على أساس وحدة الدين[٢]؛ فالإيمان الرباني الجامع لا يضعف مهما

---

(١) أريد بالجاهلية: المجتمعات التي تنافى الإسلام في أصولها وسلوكها وأهدافها، سواء تقدم بها الزمان أم تأخر.

(٢) يقوم الدين الإسلامي على أساس الإيمان بتوحيد الله سبحانه وتعالى في الوهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته، والإيمان بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والبعث بعد الموت والقدر خيره وشره، وعلى أساس إقرار فرضية الصلاة والزكاة والصيام =

صدمته صخور الانحرافات، ولا يتمايل مهما هبَّت عواصف الوهم والخرافات، ولا يقتلع مهما اشتدت تيارات السيل الجارف.

فقد أرسى رسول الله ﷺ حجر الأساس للمجتمع الإسلامي، على توحيد الإيمان، ونذكر ههنا بعض الآيات من القرآن الكريم وبعض أحاديث النبي ﷺ تشير إلى الوحدة الإيمانية التي تربط بين المؤمنين وتفرّق بينهم وبين الكفار، منها قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ ۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمْ ۚ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴾(1).

وقال تعالى: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾(2).

وقال تعالى: ﴿ لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾(3).

= والحج، وكل ذلك في ضوء ما ثبت من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ بدون تأويل أو تحريف. راجع التفصيل في كتاب: شرح العقيدة الطحاوية.

(1) سورة الأنفال، الآيات: ٧٢، ٧٣، ٧٤، ٧٥.

(2) سورة التوبة، الآية:٧١.

(3) سورة آل عمران، الآية:٢٨.

وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾[1][2].

وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[3].

وقال رسول الله ﷺ: «من صلَّى صلاتنا واستقبل قبلتَنا وأكل ذبيحتنا؛ فذلك المسلم الذي له ذمة الله وذمة رسوله، فلا تُخفروا اللهَ في ذمته»[4].

وقال عليه الصلاة والسلام: «أُمِرْتُ أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكـاةَ، فإذا فعلوا ذلك عصموا منِّي دماءَهم إلا بحق الإسلام، وحسابهم على الله»[5].

وعن عمرو بن العاص ﷺ قال: «سمعتُ رسولَ الله ﷺ جِهاراً غير سرٍّ يقول:... ألا! إن آل أبي - يعني فلاناً - ليسوا لي بأولياء، إنما وليِّي اللهُ وصالحُ

---

(١) إنما هي وحدة الإيمان التي حضت الأبناء على أن يقفوا في وجوه الآباء الذين استحبوا الكفر على الإيمان. هذا أبو حذيفة - رضي الله عنه - يشهد معركة بدر، وينادي أباه عتبة بن ربيعة - سيد قريش - أن يبارزه في ساحة القتال ويجرب ضربة سيف ابنه على عنقه في معركة الحق والباطل، فلم يخرج إليه، ولم يكن يدرك الكفر كنه هذه الوحدة الإيمانية، فاندفعت أخت أبي حذيفة هند تقول:-

الأحول الأثعَلُ المشئوم طائره ... أبو حذيفة شرُّ الناس في الدين
أما شكرت أبًا ربّاك من صِغرٍ ... حتى شببتَ شباباً غير محجون

غير محجون: غير مُعدم. أثعل: الذي تراكبت أسنانه إحداها على الأخرى. انظر: ابن سعد: الطبقات، ٣/ ٨٥.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٢٣.

(٣) سورة المائدة، الآية: ٥١.

(٤) رواه البخاري: ١/ ٤٩٦.

(٥) متفق عليه، واللفظ للبخاري: ١/ ٧٥.

المؤمنين»[1].

فهذه الوحدة الإيمانية التي أشير إليها فيما ذكرنا من الآيات والأحاديث، ظلت تربطُ المسلمين في مجتمعهم وتقودهم طوال العهد النبوي والراشدي، وحدثت بعد ذلك انحرافات فتحت أبواب التأويل والتحريف والتملص، تزحزح كيان هذه الوحدة عن أصله، واستمر هذا الوضع إلى العصر العباسي الأول، ولم يُتدارك، كما سنرى، فيما يُستقبل من الكلام.

٢- الأخوة:

إذا قام المجتمع على أساس وحدة الدين، فمن الطبيعي جداً أن تنبثق منه الأخوّة رابطةً حقيقيةً تُفَضّل على كل رابطة سواها، كرابطة الجنس واللون والنسب، وقد جاء الإسلام بنوع فريد من الأخوة لم يعهده المجتمع العربي، وربما لم يعهده أي مجتمع آخر من قبل، فأصبح بلال الحبشي أقرب إلى رسول الله ﷺ من عمه الشقيق أبي لهب القرشي الهاشمي الذي سجل القرآن الكريم تبابه وهلاكه[2]، ولم يجد أيُّ حبشي أو رومي أو فارسي حائلاً يمنعه من الانتساب إلى هذا المجتمع الفاضل، بل التصدر فيه، ولقد أشار القرآن الكريم في آياته إلى هذه الأخوة الأصلية في آيات، منها:

قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾[3].

وقوله تعالى: ﴿ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا ﴾[4].

---

(١) رواه مسلم: ٣/ ٨٧.

(٢) اقرأ سورة اللهب.

(٣) سورة الحجرات، الآية: ١٠.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٠٣.

وهناك أحاديث كثيرة تقرر مبدأ الأخوة بين المسلمين، نذكر ها هنا بعضاً منها:-

- قال رسول الله ﷺ: «المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يسلمه، من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرَّج عن مسلم كُربةً، فرَّجَ اللهُ عنه بها كربةً من كُرَب يوم القيامة، ومن سترَ مسلماً ستره الله يوم القيامة»[1].
- وقال عليه الصلاة والسلام: «إياكم والظن؛ فإن الظن أكذب الحديث، ولا تحَسَّسوا ولا تجَسَّسوا، ولا تنافسوا ولا تحاسَدوا ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً»[2].
- وقال عليه الصلاة والسلام: «لا تحَاسدوا ولا تنَاجشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا، ولا يبعْ بعضكم على بيع بعضٍ، وكونوا عبادَ الله إخوانا، المسلم أخو المسلم لا يظلِمُه ولا يخذُله ولا يحقره، التقوى ها هنا - ويشير إلى صدره ثلاث مرات - بحسب امرئ من الشر أن يحقرَ أخاه المسلم، كلُّ المسلم على المسلم حرام؛ دمُه ومالُه وعِرضُه»[3].
- وقال عليه الصلاة والسلام: «لا يحلُّ لمسلمٍ أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال؛ يلتقيان فيُعرِض هذا ويُعرِض هذا، وخيرهما الذي يبدأ بالسلام»[4].
- وقال عليه الصلاة والسلام في حجة الوداع: «أيها الناس اسمعوا قولي واعقلوه، تعلمن أن كل مسلم أخ للمسلم، وأن للمسلمين أخوّةً؛ فلا يحل لامرئ من أخيه إلا ما أعطاه مِن طِيبِ نفس فلا تظلمُنَّ أنفسكم، ألا هل

---

(١) متفق عليه واللفظ لمسلم: ١٦/ ١٣٥.

(٢) متفق عليه واللفظ لمسلم: ١٦/ ١١٨-١١٩.

(٣) متفق عليه واللفظ لمسلم: ١٦/ ١٢٠-١٢١.

(٤) ابن هشام، سيرة النبي، ١٦/ ١١٧.

بلَّغتُ؟[1] ».

ولم تكن هذه الأخوة نظريةً فحسب، بل شاهدت السماوات على وجه الأرض نماذج رائعة ومدهشة لهذه الرابطة القوية الفريدة التي جاء بها الإسلام، اقرؤوا ما جرى بين عبد الرحمن بن عوف المهاجر وبين أخيه الأنصاري سعد بن الربيع[2] إذ بَهَشَ[3] سعد إلى عبد الرحمن أن يقاسمه ماله ويتنازل عن إحدى زوجاته، فأبى وقال: دلّني على السوق[4].

وهناك مصعب بن عمير يوم بدر يقول لأخيه الأنصاري الذي أمسك شقيقه أبا عزير بن عمير: «شُدَّ يديك به، فإن أمه ذات متاع» فيقول أبو عزير: «يا أخي! هذه وصاتك بي؟» ويجيبه مصعب بن عمير: «إنه أخي دونك»[5].

ولم تنته هذه العلاقة الأخوية إلى حدٍّ محدود، بل استمرت طولَ الحياة، كان بلال رضي الله عنه قد خرج إلى الشام مجاهداً في سبيل الله بعد وفاة رسول الله ﷺ، فلما دوّن أمير المؤمنين عمرُ بن الخطاب الدواوين بالشام قال لبلال: «إلى من تجعل ديوانك يا بلال؟»، قال بلال: «مع رويحة[6]، لا أفارقه أبداً»، وذلك للمؤاخاة التي عقدها رسول الله ﷺ بينهما إثرَ مجيئه المدينة[7].

---

(١) ابن هشام، سيرة النبي، ٤/ ٣٥٦.

(٢) هو سعد بن الربيع بن عمرو بن أبي زهير الأنصاري الخزرجي، كان كاتباً في الجاهلية، شهد العقبةَ الأولى والثانية، كان أحد نقباء الأنصار، قتل يوم أحد شهيداً. ابن سعد، الطبقات، ٣/ ٥٢٢-٥٢٤.

(٣) أي عرض عليه مسروراً.

(٤) ابن سعد، الطبقات، ٣/ ١٢٥؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ٣/ ٢٢٨.

(٥) ابن هشام، سيرة النبي، ٢/ ٣٣٦-٣٣٧.

(٦) هو أبو رويحة عبد الله بن عبد الرحمن الخثعمي. انظر ترجمته في: أسد الغابة، ٦/ ١١٤.

(٧) ابن سعد، الطبقات، ٣/ ٢٣٤؛ وابن هشام، السيرة، ٢/ ١٢٨.

وقد بلغت هذه الأخوّة من القوة مبلغاً عظيماً بحيث كان المتآخون يتوارثون بها دون النسب، وبَقِيَ هذا الحكمُ معمولاً به إلى أن أدى مهمته في صياغة المجتمع الدَّعَوي وتقويته، وعندها نزل قول الله تعالى: ﴿ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ...﴾[1] الآية، أما الأخوة فيما عدا هذا الحكم، فهي مستمرة أبداً.

وهزت هذه الدعامة الأساسية للمجتمع الإسلامي (الدَّعَوِيّ) تلك المأساة الأليمة التي حـدثت في العصر الأموي - الا وهي العصبية بين المُضَرِيَّة واليمانية - ولم تزل ترفع رأسَها بين آونةٍ وأخرى في العصر العباسي الأول، وذهبت آلاف من النفوس الزكية ضحية هذه العصبية المنتنة، وسنراها في موضعها إن شاء الله.

٣- الحرية:

ليس المراد بالحرية في الإسلام: الحريةُ المطلَقة التي لا مجال فيها للقيم الإنسانية والأخلاقية، وأوامرُ الله ونواهيه، والحقوقُ والواجبات المحدّدة، فهي ليست بِحُرية، إنما هي الفوضَى التي تَهُزُّ المجتمع البشري، والطبيعة نفسها تنكرها إنكاراً شديداً، فماء النهر ما دام يجري مقيداً بين ضفتيه، فهو حر تماماً يجري كيف يشاء ويستفيد منه الخلق في حاجاتهم المختلفة، وإذا أراد هذا الماء أن يتحرر من قيد الضفتين اللتينَ تضبطان مَسيرَتَهُ وتُعِدَّانه للخير والفائدة، وأن يجري كيف يشاء وأين يشاء؛ فيسمَّى - عندها - فَيَضاناً أو سيلاً جارفاً يكتسح العمران ويُبيد الإنسان، ويُحدث الخرابَ والدمار ويتعوَّذ منه الخلق؛ فلا مساغ في الإسلام- الذي هو دين فطري - لمثل هذه الحرية.

إنما المراد بالحرية التي هي دعامة مهمة من دعائم المجتمع الإسلامي (الدعَوِيّ): إخراج عباد الله من جميع أنواع الرق والعبودية لغير الله، وتسليمُهم

---

(١) الشوكاني، فتح القدير، ٢/ ٣٢٩، ٣٣٠.

إلى عبادة الله وحده لا شريك له؛ فلا يعبدون إلا الله، ولا يطيعون أحداً إلا إياه، ولا يوالون غيره، بالإضافة إلى توفير الأمن الاستقرار لهم في الأرض.

فالإنسان حُر تماماً في المجتمع الإسلامي، لا يَحُدُّ من حريته شيء البتة سوى حق الإسلام الذي تتمثل فيه مصلحته الحقيقية في العاجلة والآجلة.

وقد أشار القرآن إلى هذه الحرية المنظمة الهادفة في آيات منها ما يلي:

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾[1].

ومن أجل تحقيق هذا الأمن والاستقرار أذنَ اللهَ للمؤمنين أن يهاجروا كما أذن لهم بالقتال في سبيل الله، فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾[2].

وكم من أحاديث رسول الله ﷺ تشير إلى أن المجتمع الإسلامي يضمن الأمن والاستقرار لأفراده ضماناً كاملاً، منها:

قوله ﷺ: «إن القوم إذا أسلموا أحرزوا[3] دماءَهم وأموالهم»[4].

وقوله عليه الصلاة والسلام: «كلُّ المسلم على المسلم حرام؛ دمه، وماله، وعِرضُه»[5].

وقوله ﷺ: «مَن حملَ علينا السلاح فليس منّا»[6].

وقوله ﷺ: «المسلمُ مَن سَلِمَ المسلمون مِن لسانه ويده»[7].

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٨٢.

(٢) سورة النحل، الآية: ٤١.

(٣) أي: صانوا.

(٤) رواه أبو داود، ٣/ ٤٤٩.

(٥) متفق عليه، واللفظ لمسلم، ١٦/ ١٢١.

(٦) متفق عليه، انظر: مسلم، ٢/ ١٠٧.

(٧) متفق عليه، انظر: مسلم، ٢/ ١٢.

وقوله ﷺ: «سِبابُ المسلم فُسوقٌ وقتاله كفرٌ»[١].

وقوله ﷺ: «من اقتطعَ حقَّ امرئٍ مسلم بيمينه أوجبَ الله له النارَ وحرَّمَ عليه الجنَة، فقال له رجل: وإن كان شيئاً يسيراً يا رسول الله؟ قال: وإن كان قضيباً[٢] من أراك»[٣].

فتدل هذه الأحاديث والآيات القرآنية على أن المجتمع الإسلامي يوفّر لأفراده الأمن والاستقرار، كما يمنحهم الحرية الكاملة في شؤونهم إلا بحق الإسلام؛ فاستفاد المسلمون من هذه الحِرية في العهد النبوي والراشدي، ولكن السياسة الجبرية التي اختارها الخلفاء الذين جاءوا بعد العهد الراشدي، من الأمويين والعباسيين - باستثناء بعض منهم - قد ابتزّت[٤] الأمة حريتها إلى حدٍّ لم تَعُدِ الحياة الإسلامية تستقيم على منهجها الطبيعي، ونسوق توضيح ذلك في محله إن شاء الله.

٤- العدالة والمساواة:

العدالة والمساواة، متداخلتان إحداهما مع الأخرى من حيث المعنى، ومن أجل ذلك أوردناهما تحت عنوان واحد؛ فالعدل من أهم مزايا المجتمع الإسلامي؛ إذ لا يتصور هذا المجتمع إلا والعدل يُظَلّل جميع مجالاته.

قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾[٥].

---

(١) متفق عليه، واللفظ لمسلم، ٢/ ٥٤.

(٢) أي سواكاً، والأراك: شجر ذو شوك طويلُ الساق كثير الورق والأغصان خوّار العود وتتخذ منه السواك.

(٣) رواه مسلم، ٢/ ١٥٧.

(٤) أي: نزعت.

(٥) سورة النساء، الآية: ٥٨.

وقال تعالى: ﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾(١).

وقال جل شأنه: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾(٢).

فالمجتمع الإسلامي يتمسك بالعدل وينفي الظلم بناءً على عقائده السليمة، فالمسلم الذي يعتقد اعتقاداً جازماً بأن الله تعالى واحد وهو أحكم الحاكمين، وبأنه سوف يقف أمام ربه يوم القيامة ليحَاسِبَه حساباً دقيقاً؛ لا يميل إلى الظلم ولا ينحرف عن جادة العدل.

وكل ما جاء من معاني العدل والمنع عن الظلم في الآيات القرآنية وأحاديث رسول الله ﷺ، يحمل في ثناياه الإشارة إلى هذه الحقيقة الناصعة.

فقال رسول الله ﷺ: «إن المقسطين عند الله على منابرَ من نورٍ عن يمين الرحمن عزَّ وجلّ، وكلتا يديْه يمين، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما وَلُوا»(٣).

وقال عليه الصلاة والسلام: «إن مِن أحبِّ الناسِ إليَّ وأقربِهم مني مجلساً يوم القيامة: إمامٌ عادل، وإنَّ أبغضَ الناسِ إليَّ يوم القيامة وأشدَّهم عذاباً: إمامٌ جائر»(٤).

وقال عليه الصلاة والسلام: «أتدرون ما المفلس؟ قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، فقال: إنَّ المفلس مِن أمتي: مَن يأتي يوم القيامة بصلاةٍ

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٥٢.

(٢) سورة النحل، الآية: ٩٠.

(٣) رواه مسلم، ١٢/ ٢١١.

(٤) أبو يوسف، كتاب الخراج، ص٩.

وصيامٍ وزكاةٍ، ويأتي: وقد شتَم هذا، وقذفَ هذا، وأكلَ مال هذا، وسفكَ دم هذا، وضربَ هذا، فيُعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يُقضى ما عليه أُخِذَ من خطاياهم فطُرحت عليه ثم طُرح في النار»[1].

وقال عليه الصلاة والسلام: «اتَّقِ دعوةَ المظلوم؛ فإنه ليس بينها وبين الله حجاب»[2].

فهذه نبذة من آيات القرن الكريم وأحاديث رسول الله ﷺ تدل على أن المجتمع الإسلامي (الدعويّ) يقوم على أساس العدل والإنصاف فيما بين أفراده ومع الغير والأعداء.

وأما المساواة، فمعناها: أن يؤتى كل امريء ما يستحقه على قدر عمله أو بلائه في سبيل الله، ودون ما نظرٍ إلى عِرْقه أو لونه أو ضَعفه أو قوته، ورحم الله أبا بكر ﷺ إذ عبّر عن هذا المعنى أدقَّ تعبير؛ إذ قال في خطبته بعد أن بويع بالخلافة: «والضعيف فيكم قوي عندي حتى أُرجِعَ عليه حقه إن شاء الله، والقويّ فيكم ضعيف عندي حتى آخذَ الحق منه إن شاء الله»[3].

ومما يزيد في قيمة هـذه الخطبة ويرفعها إلى مستوى ليس فوقه إلا كلام الله وكلام رسوله ﷺ أن قائلها قد طبّقها تطبيقاً دقيقاً في دولته، وقدَّم - هو وزملاؤه الراشدون - أمام العالم مثالاً رائعاً للمساواة التي صرح بها القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[4].

ولنسُق الآن بعض نماذج عملية رائعة لهذه المساواة منتزعةً من السيرة النبوية

---

(١) رواه مسلم، ١٦/ ١٣٦،١٣٥.

(٢) رواه الترمذي، ٦/ ١٥٥.

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية، ٦/ ٣٠١.

(٤) سورة الحجرات، الآية: ١٣.

الكريمة:

أولاً: روى الإمام مسلم[1] رحمه الله بسنده المتصل عن عائشة رضي الله عنها: «أن قريشاً أهمهم شأن المرأة التي سرقت في عهد النبي ﷺ في غزوة الفتح، فقالوا: من يكلم فيها رسولَ الله ﷺ؟ فقالوا: ومن يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد حِبُّ رسول الله ﷺ، فأتى بها رسولَ الله ﷺ، فكلّمه فيها أسامة بن زيد، فتلوَّن وجهُ رسول الله ﷺ وقال: أتشفعُ في حدٍّ مِن حدودِ الله؟ فقال له أسامة: استغفر لي يا رسول الله! فلما كان العَشيّ[2] قام رسولُ الله ﷺ فاختطب، فأثنى على الله بما هو أهله ثم قال: أما بعد، فإنما أهلكَ الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرقَ فيهم الشريفُ تركوه، وإذا سرقَ فيهم الضعيفُ أقاموا عليه الحدّ، أما والذي نفسِي بيده، لو أن فاطمةَ بنت محمد سرقتْ، لقطعتُ يدَها، ثم أمر بتلك المرأة التي سرقت فقُطِعَتْ يدُها».

ثانياً: زوَّج رسولُ الله ﷺ بنتَ عمته زينب بنت جحش القرشية من زيد بن حارثة الذي قضى أياماً من حياته في مكة عبداً اشتراه حكيم بن حزام من سوق عكاظ بأربعمائة درهم[3]، [وذلك] بغض النظر عما حدث فيما بعد من الفراق بينهما، فسبَّبَ ذلك عدم التجانس والاتحاد في الأفكار والآراء، ولكن كان هذا الزواج في حد ذاته مثالاً عملياً رائعاً للمساواة التي هي من أهم مميزات المجتمع الإسلامي الدعوي.

ثالثاً: اتبعَ رسولَ الله ﷺ صاحبُه الجليل أبو حذيفة رضي الله تعالى عنه في تدعيم هذه الدعامة المهمة للمجتمع الإسلامي، فكان من أشراف قريش، وكان

---

(١) صحيح مسلم، ١١/ ١٨٧.

(٢) أي: العشاء.

(٣) ابن سعد، الطبقات، ٣/ ٤٠؛ وابن هشام، سيرة النبي، ١/ ٢٥٢.

أبوه عتبةُ بن ربيعة سيدَ قومه، وزوَّجَ أبو حذيفة ابنةَ أخيه فاطمة بنت الوليد بن عتبة بن ربيعة مولاه سالماً، وسالمٌ هذا كان بعد أن هاجر إلى المدينةَ يؤمُّ القوم في الصلاة وفيهم عمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح؛ لأن سالماً كان أقرؤهم قرآناً[1].

رابعاً: خرج المسلمون إلى بدر يريدون عيرَ قريش، ولم يكن معهم إلا سبعون بعيراً وفرسان، فجعل كل ثلاثة منهم يتناوبون الركوب على بعير واحد، واحدًا بعد واحد، وكان أبو لبابة وعلي رضي الله عنهما زميلي رسول الله ﷺ على بعير واحد، فقالا له: نحن نمشي عنكَ يا رسول الله! فقال: ما أنتما بأقوى مني ولا أنا بأغنى عن الأجر منكما، فركبوا البعير متناوبين[2]، وهكذا قدَّمَ رسولُ الله ﷺ أروعَ مثالٍ للمساواة بين الأمير والمأمورين.

خامساً: المهاجرون والأنصار يبنون مسجدَ رسولِ الله ﷺ بالمدينة ولم يتخلف عنهم الرسول الكريم، حتى قال قائلٌ منهم:

لئن قعدنا والنبيُّ يعمَلْ لَذاكَ منّا العملُ المضَلّلْ

النبي الجليل وأصحابه بناؤون، يبنون بيتاً لله وينشدون:

لا عيشَ إلا عيش الآخرة اللهمَّ ارحم الأنصارَ والمهاجرة

والرسول الكريم ﷺ يعملِ معهم ويردّد معهم هذه الكلمات[3]...، يا حبذا هذا المنظر البهيج! ويا لروعةَ حُسنِ هذا المشهد! وهل شاهدَ العالمُ أجملَ من هذا المنظر للمساواة؟؟.

---

(١) الطبقات الكبرى، ٣/ ٨٦-٨٧؛ والبداية والنهاية، ٣/ ١٧٤.

(٢) البداية والنهاية، ٣/ ٢٦٠-٢٦١.

(٣) سيرة النبي لابن هشام، ٣/ ١٢٣.

٥- التكافل[١]

إن مِن أهم سمات المجتمع الإسلامي (الدَّعَوِي): ظهورُ معنى التكافل والتضامن فيما بين المسلمين بأجلَى صوره وأشكاله، بحيث ألقى الدين الحنيف مسئولية بعضٍ منهم على كواهل بعض في شؤون دنياهم وآخرتهم، فقال رسول الله ﷺ: «ألا! كلكم راعٍ وكلكم مسئول عن رعيته؛ فالأمير الذي على الناس راعٍ وهو مسئول عن رعيته، والرجل راعٍ على أهل بيته وهو مسئول عنهم، والمرأة راعية على بيت بعلها وولده وهي مسئولة عنهم، والعبدُ راعٍ على مال سيده وهو مسئول عنه، ألا فكلكم راع، وكلكم مسئول عن رعيته»[٢].

وقال عليه الصلاة والسلام: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدُّ بعضُه بعضاً، وشبّـك بين أصابعه»[٣]، فهذا التشبيه الرائع يصوِّر لنا بشكلٍ محسوسٍ مؤثر، العلاقةَ التي يجب أن تكون بين المسلم وأخيه؛ إنها علاقة تكاتف وتضامن تامَّين، فكما أن أيّ حجر في البناء لا يستقلّ وحده في إتمام البناء، إنما يتم البناء بتكاتف أعضائه جميعاً وأن أي حجر من أحجار البناء الشامخ لِيصبحَ حجراً عادياً ملقًى على الأرض حين ينفصل عن الحجارة الأخرى، وهكذا.. فإن أي مسلم - مهما كان شأنه - يهون ويضعف إذا هو اعتزلَ مجتمعَه وتحلَّل من واجباته نحوه، ويسلك سلوكاً فردياً متجاهلاً واجبات الجماعة عليه؛ فحياة الجماعة إذن هي إلى حد بعيد ثمرة تكاتف أعضائها وتعاونهم وتكاتفهم.

والتكافل الاجتماعي الذي نوّر الإسلامُ سبيلَه له نواحٍ عدة؛ فهناك تكافل معيشي واقتصادي وتكافل سياسي وتكافل أدبي وتكافل علمي وما إلى ذلك، فهذه النواحي كلها إما مادية أو معنوية، فينقسم التكافل إذن إلى قسمين:-

---

(١) يقال تكافل القوم: أي كفل بعضهم بعضاً.

(٢) متفق عليه، واللفظ لمسلم، ١٢/ ٢١٣.

(٣) متفق عليه واللفظ للبخاري، ١/ ٥٦٥.

التكافل المادي، والتكافل المعنوي، ولعله أشير إلى هذين القسمين من التكافل في قول الرسول الكريم ﷺ في خطبته الأولى[1] التي ألقاها إثر مجيئه المدينة المنورة: «اتقوا النار ولو بشق تمرة، فإن لم تجدوا فبكلمة طيبة»[2].

والجانب المادي من التكافل يشمل الإنفاق في سبيل الله بصورة زكوات وصدقات، والتعاون فيما بين المسلمين في حاجاتهم المادية المختلفة واستيفاء حقوقهم؛ مثل حقوق الأقرباء والأصدقاء والجيران وغيرهم؛ فإن المجتمع الإسلامي (الدعوي) نشأ في هذا العالم المادي، ولا بد له من حاجات مادية يحتاج إلى تسديدها، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا الجانب المادي من التكافل في آياته العديدة، نذكر منها ما يلي:-

قال تعالى: ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ۝١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿ فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[4].

وقال تعالى: ﴿ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾[5][6].

---

(١) ابن هشام، سيرة النبي، ٢/ ١٢٨.

(٢) متفق عليه، واللفظ لمسلم، ٧/ ١٠٢.

(٣) سورة آل عمران، الآيتين: ١٣٣، ١٣٤.

(٤) سورة الروم، الآية: ٣٨.

(٥) سورة النساء، الآية: ٣٦.

(٦) قال ابن حزم رحمه الله في معنى التكافل: وفرضٌ على الأغنياء من أهل كل بلد=

وهناك أحاديث كثيرة لرسول الله ﷺ تحمل في ثناياها المعاني السامية للتكافل الاجتماعي بمعناه الواسع، وتشمل سائر نواحيه المادية والمعنوية، من شعور الحب والعطف والتراحم، والتساند والتعاون في جميع مجالات حياة المسلمين، فنذكر منها ما يلي:-

قال رسول الله ﷺ: «لا يؤمنُ أحدُكُم حتى يحبَّ لأخيه ما يحبُّ لنفسه»(١)(٢).

وقال عليه الصلاة والسلام: «مَثَلُ المؤمنين في توادِّهم وتراحمِهم وتعاطفهم

= أن يقوموا بفقرائهم، ويُجبرهم السلطانُ على ذلك إن لم تقم الزكوات بهم، فيقام لهم بما يأكلون من القوت الذي لا بد منه، ومن اللباس للشتاء والصيف بمثل ذلك، وبسكن يُكِنُّهم من المطر والصيف والشمس وعيون المارة، برهان ذلك قول الله تعالى: ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ﴾، وقال تعالى: ﴿ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ ﴾، فأوجب تعالى حق المساكين وابن السبيل وما ملكت اليمين مع حق ذي القربى، وافترض الإحسان إلى الأبوين وذي القربى والمساكين والجار وما ملكت اليمين، والإحسان يقتضي كل ما ذكرنا، ومنعه إساءة بلا شك. انظر: المحلى، ٦/ ٤٥٢،٤٥٣.

(١) رواه الشيخان واللفظ للبخاري، ١/ ٥٧.

(٢) لو شُرح هذا الحديث العظيم الجامع بما يحمل في ثناياه من المعاني الدقيقة والعميقة لجاءت رسالة ضخمة، ونود أن نشير إلى روح هذا الحديث بإيجاز: لا شك أن الإنسان يحب نفسَه فطرياً وأكثر بالنسبة إلى غيره، فجعل الإسلام نفسَه ميزاناً لعمله، وقال له: اجعل نفسك ميزاناً فيما بينك وبين أخيك المسلم في المجتمع الإسلامي، فأحبب له ما تحب لها، واكره له ما تكره لها. فلا تظلمه لأنك لا تحب أن تُظلم، ولا تفضحه لأنك لا تحب فضيحة نفسك، وأوفِ حقَّه لأنك تحب استيفاءَ حقوقك، وأحببْ له مستوى العيش الذي تحب لنفسك، وكما تجتهد للحصول على ذلك المستوى اجتهد لأخيك، أو تعاون معه في جهده لذلك خير التعاون، وهلم جراً... وهذا كله في المعروف، أما المنكر، فلا يحبه ربك لنفسك، فكيف تحبه لأخيك؟.

مَثلُ الجسدِ إذا اشتكى منه عضوٌ تداعَى له سائر الجسد بالسهر والحمَّى»[1].

وقال: «المسلم أخو المسلم، لا يظلمُه ولا يُسلِمُه[2]، مَن كان في حاجة أخيه كـان الله في حاجته، ومن فرّج عن مسلمٍ كربةً فرَّجَ اللهُ بها كربةً من كرب يوم القيامة، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة»[3].

وقال: «مَن نفّس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربةً من كرب يوم القيامة، ومن يسَّر على معسِرٍ يسَّر اللهُ عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلماً ستره اللهُ في الدنيا والآخرة، واللهُ في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه»[4].

وقال: «الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله، أو كالذي يصومُ النهارَ ويقوم الليل»[5].

وقال: «واللهِ لا يؤمن، واللهِ لا يؤمن، واللهِ لا يؤمن، قيل: ومن يا رسول الله؟ قال: الذي لا يأمن جارُه بوائقه»[6].

وقال ﷺ: «ليس المؤمن الذي يبيت جارُه إلى جنبه جائع»[7].

وقال: «أيمّا أهلُ عرصةٍ أصبح فيهم امرؤ جائع فقد برئتْ منهم ذمةُ الله

(١) متفق عليه واللفظ لمسلم، ١٦/ ١٤٠.

(٢) قال ابن حزم رحمه الله: من تركه يجوع ويعرى وهو قادر على إطعامه وكسوته فقد أسلمه. المحلى، ٦/ ٤٥٤.

(٣) متفق عليه واللفظ لمسلم، ١٦/ ١٣٥،١٣٤.

(٤) متفق عليه واللفظ لمسلم، ١٧/ ٢١.

(٥) متفق عليه واللفظ للبخاري، ١٠/ ٤٣٧.

(٦) متفق عليه، واللفظ للبخاري، ١٠/ ٤٤٣.

(٧) رواه الحاكم وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. المستدرك، ٤/ ١٦٧.

تعالى»[1][2].

ولعله قدّ تبين لنا مما سلفَ أن المجتمع الإسلامي ينبغي أن يكون مجتمعاً متكافلاً متضامناً، بحيث يستطيع أن يكون الصورةَ الواقعية للمجتمع الذي يرضَى اللهُ ورسولُه عنه، وبحيث يكون أهلاً لتحقيق دعوة الله في واقعه، وأهلاً لحملها للناس كافة، وإذا فُقدت معاني التكافل والتضامن في المجتمع فإنه لا يبقى ذلك المجتمع الذي يرضَى اللهُ ورسوله، ولا يبقى أهلاً للقيام بحق الدعوة التي ائتمنه اللهُ عليها، بل قد لا يكون أهلاً للصمود والثبات في معركة الحياة الدائرة بها.

٦- نظام الأسرة:

الأسرة عبارة عن صورة مصغرة للمجتمع؛ إذ المجتمع يتكون من الأُسَر، ومن أجل ذلك اهتم الإسلام اهتماماً بالغاً بنظام الأسرة، أحله محل الصدارة بين مميزات المجتمع الإسلامي أو دعائمه، والتفصيل في هذا الباب يقتضي التطويل، فنشير اختصاراً إلى جوانب مهمة لهذا النظام:

إن الأسرة تتكون - غالباً - من أب وأم وأولاد، وبينهم علاقات دقيقة حسّاسة فهناكَ علاقة بين الأبَ والأم، وهي علاقة الزواج، وعلاقة بين الأبوين

---

(١) رواه أحمد، المسند، ٢/ ٣٣.

(٢) روى الإمام ابن حزم رحمه الله بسنده عن محمد بن علي بن أبي طالب أنه سمع علي بن أبي طالب يقول: إن الله فرض على الأغنياء في أموالهم بقدر ما يكفي فقراءهم، فإن جاعوا، أو عروا، أو جهدوا فبمنع الأغنياء، وحقٌ على الله تعالى أن يحاسبهم يوم القيامة ويعذبهم عليه.

وعن ابن عمر أنه قال: في مالكَ حقٌّ سوى الزكاة.

وعن عائشة أم المؤمنين، والحسن بن علي، وابن عمر رضي الله تعالى عنهم أنهم قالوا كلهم لمن سألهم: إن كنتَ تسأل في دم موجع أو غرم مفظع أو فقر مدقع، فقد وجب حقك. المحلى، ٦/ ٤٥٥.

والأولاد، وعلاقةٌ بين الأولاد بين الإخوة والأخوات، ولقد تناول الإسلام دراسة هذه العلاقات بأسرها بغاية الدقة والإمعان، وأرشد المسلم إلى مبادئ لو التزم بها لبلغ نظامُ الأسرة إلى ذِروة مجده وشرفه، وانتشرتْ منه نفحاتٌ عَطِرة إلى المجتمع الإسلامي (الدعَوي)، وإذا تطرَّقَ الفسادُ - لا سمحَ الله - إلى هذا النظام تسرَّب في المجتمع وباءاً يعمّه شيئاً فشيئاً.

ولم يستحسن الإسلام للمسلم حياة العزوبة، بل حثه على أن يختار حياةً أسرية؛ فقال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[1]، وقال رسول الله ﷺ: «يا معشر الشباب! من استطاع منكم الباءة فليتزوج؛ فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم؛ فـإنه له وجـاء»[2].

وإذا استعد المسلم أن يختار حياة أسرية، وأراد الزواج، فأرشده الإسلام إلى ما يرجحه في اختياره زوجة يبدأ معها حياته الجديدة ويؤسس بمساندتها بناء أسرة صالحة تزيد في قوة صلاحية المجتمع الإسلامي (الدعوي)، فقال رسول الله ﷺ: «تُنكح المرأة لأربع: لمالها، ولحسبها، ولجمالها، ولدينها؛ فاظفر بذات الدين، تَرِبَتْ يداك»[3].

وبعد ما تزوجَ الرجلُ امرأةً صالحة ذات دينٍ وصلاح، برزت أسرةٌ صغيرة في بيئة المجتمع الإسلامي، فيرشد الإسلام الطرفين إلى ما فيه صلاحهما في الدنيا والآخرة، فقال للزوج: ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟

---

(١) سورة الروم، الآية: ٢١.

(٢) متفق عليه، واللفظ لمسلم، ٩/ ١٧٢.

(٣) متفق عليه واللفظ لمسلم، ١٠/ ٥١.

شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾[1].

وقال له الرسول الكريم ﷺ: «والرجلُ راعٍ في أهله، وهو مسئول عن رعيته»[2]، وقال: «خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي»[3]، وقال: «إن المرأة خُلقت من ضلع، لن تستقيم لكَ على طريقةٍ، فإن استمتعتَ بها استمتعت بها وبها عِوَج، وإن ذهبتَ تقيمها كسرتَها، وكسرُها طلاقها»[4]، وقال: «إن من شرّ الناس عند الله منزلة يوم القيامة، الرجلُ يفضي إلى امرأته وتُفضي إليه ثم ينشر سرَّها»[5].

وقال للزوجة: ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ﴾[6]، وقال الرسول الكريم ﷺ: «والمرأة راعيةٌ على بيت زوجها وولده»[7]، وقال أيضاً: «لو كنتُ آمِراً أحداً أن يسجد لأحدٍ لأمرتُ النساء أن يسجدن لأزواجهن لما جعلَ اللهُ لهم عليهن من الحق»[8]، وقال عليه الصلاة والسلام: «إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه، فبات غضبانَ عليها، لعنتها الملائكة حتى تصبح»[9].

فيجب على هذه الأسرة أن تراعي ما قال اللهُ ورسوله في شئونها، وتسير

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٩.

(٢) متفق عليه، انظر: مسلم، ١٢/ ٢١٣.

(٣) رواه ابن ماجه، ١/ ٦٣٦.

(٤) متفق عليه واللفظ لمسلم، ١٠/ ٥٧.

(٥) رواه مسلم، ١٠/ ٨.

(٦) سورة النساء، الآية: ٣٤.

(٧) متفق عليه، انظر: مسلم، ١٢/ ٢١٣.

(٨) رواه أبو داود، ٢/ ٦٠٥.

(٩) متفق عليه واللفظ لمسلم، ١٠/ ٨.

رويداً تؤدي واجبها نحو المجتمع الإسلامي (الدعوي)، وإذا حدثَ لا قدَّرَ الله أيّ نوع من الخلاف بين الزوجين، فأرشدَ الإسلامُ الزوجَ أن يعالج القضية بغاية الحكمة والتدبر والإتقان:

فقال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴾[1].

ولم يشجع الزوجَ على أن يتصور الطلاق حلاً وحيداً للأزمات الأسرية، وأشار إلى أن الطلاق هو علاجٌ نهائي يختاره المسلم إذا ضَجِرَ وَعيِيَ من المسايرة معها بعد ما اختار تدابيرَ متنوعةً لرفع الخلاف الذي حدث بين الزوجين، وليس الطلاق مسدساً دفعه الإسلام إلى الزوج ليطلق ناره على المرأة متى شاء وكيف شاء! فقال رسول الله ﷺ: «ما أحلَّ اللهُ شيئاً أبغضَ إليه من الطلاق»[2].

وإذا اضطر الزوجان وأهلُهما أن يختاروا هذا الحل النهائي للمشكلات العائلية المعقّدة، فعليهم أن يلتزموا بالنظام الذي أرشد إليه الإسلام بهذا الصدد ولا يحولوا للخروج عنه:

فقال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ

(١) سورة النساء، الآيتين: ٣٤، ٣٥.

(٢) رواه أبو داود، ٢/ ٦٣١.

﴿عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَـٰدَةَ لِلَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾[1].

وقال: ﴿ٱلطَّلَـٰقُ مَرَّتَانِ ۖ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَـٰنٍ ۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ ۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۗ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾[2].

وهناك تفاصيل أخرى في أحكام الطلاق والزواج اهتمَّ بذكرها الكتاب والسنة، وعلى الزوجين التزامها التزاماً كاملاً.

وبعدَ ما أشرنا إلى العلاقة الدقيقة بين الزوجين وإلى ما يجب عليهما من رعاية هذه العلاقة الحساسة كيما تستمر الألفةُ والمودةُ بينهما فينجبا أولاداً صالحين، فيساهموا في ازدهار المجتمع الإسلامي (الدعوي)؛ نود أن نشير إلى ما يجب على الوالدين نحو الأولاد، وعلى الأولاد نحو الوالدين، وقد جاءت في ذلك آياتٌ وأحاديثُ كثيرة نجتزيء فيها بما يلي:

---

(١) سورة الطلاق، الآيتين: ١، ٢.

(٢) سورة البقرة، الآيات: ٢٢٩، ٢٣٠، ٢٣١.

قال رسول الله ﷺ: «أكرِموا أولادَكُم وأحسِنوا آدابهم»[1]، وقال: «مَن عالَ[2] جاريتين حتى تبلغا، جاء يوم القيامة أنا وهو، وضمّ أصابعه»[3]، وقال: «مُروا أولادكم بالصلاة لسبع سنين، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر سنين، وفرّقوا بينهم في المضاجع»[4]، وقال الله تعالى للأولاد: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾[5]، وقال رسول الله ﷺ: «رَغِمَ أنفُه، رغم أنفه، رغم أنفه، قيل: من يا رسول الله؟ قال: من أدرك والديه عند الكبر أحدهما أو كليهما ثم لم يدخل الجنة»[6]، وقال ﷺ: «إنّ مِن أبرّ البرّ صِلةُ الرجل وُدّ أبيه بعد أن يولّيَ»[7].

ولرعاية العلاقة بين الأولاد فيما بينهم والعلاقة بين الأقارب، اهتم الإسلام بإبراز صلة الرحم إبرازاً يلفت نظرَ كلِّ مسلمٍ يريد الالتزام بمبادئ الدين الحنيف، ويحثّه على أن يهتم اهتمامًا بالغاً بالعناية بهذه العلاقة التي تربط بين أعضاء الأسرة ربطاً محكَماً ومتيناً.

فقال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ

---

(١) رواه ابن ماجه، ٢/ ١٢١١.

(٢) عال: أي: أنفق عليهما. انظر: ابن الأثير، النهاية، ٣/ ٣٢١.

(٣) رواه مسلم، ١/ ٣٣٤.

(٤) رواه أبو داود، ١/ ٣٣٤.

(٥) سورة الإسراء، الآيتين: ٢٣، ٢٤.

(٦) رواه مسلم، ١٦/ ١٠٩.

(٧) رواه مسلم، ١٦/ ١١٠.

عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾[1].

وقال رسول الله ﷺ: «إن الله خلق الخلق، حتى إذا فرغ منهم قامت الرحم فقالت: هذا مقام العائذ من القطيعة، قال: نعم، أما تُرضَيْن أن أصِلَ من وَصَلَكِ وأقطَعَ من قطعكِ؟ قالت: بلى، قال: فذاك لكِ، ثم قال رسول الله ﷺ: اقرؤوا إن شئتم: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ۝ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ۝ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾[2][3].

وهكذا وضعَ الإسلامُ نظاماً شاملاً ومحكَماً للأسرة، وهذا النظام له أثر عميق وبالغ في بناء المجتمع الفاضل، بحيث لا تنفصم قوى المجتمع الإسلامي طالما اهتم المسلمون بالمحافظة على نظام الأسرة، وإذا اختل هذا النظام تأثر به المجتمع وتسربَ الفساد - تسرُّبَ الماء إلى جذور الحيطان - من الأسرة إلى المجتمع.

ولم يفسد نظام الأسرة ما دام المسلمون ملتزمين بمبادئه التزاماً شديداً، ولمّا نسيَ المسلمُ غايةَ الزواج وآدابه، وحسبَه وسيلةً لتسلية نفسه ولإشباع غرائزه الجنسية فحسْب، واستغل رخصة التعدد في الزواج لهذا الغرض، ونسِيَ العدلَ ومقتضاه بهذا الصدد؛ اختل نظام الأسرة وشاع الفساد.

٧- التوازن الاقتصادي:

إن الاقتصاد في حياة الأمم والشعوب يحلّ محل العمود الفقري من الإنسان، والمالُ له أثرٌ كبير في إسعاد الناس والترفيه عنهم، كما هو عاملٌ من عوامل

---

(١) سورة النساء، الآية الأولى.

(٢) سورة محمد، الآيات: ٢٢، ٢٣، ٢٤.

(٣) متفق عليه واللفظ لمسلم، ١٦/ ١١٣.

توفير أسباب القوة والمَنَعة والتقدم الحضاري، ووسيلةٌ وقوةٌ يتحصَّن بهما الإنسان عِرضه وكرامته، وبما أن الإسلام دين فطري ورسالة سماوية خاتمة؛ لم يصرف نظرَه عن المال، ولم يعتبره شيئاً محظوراً يجب أن يُجتنب كل الاجتناب، بل عبَّر عنه بكلمة (خير)[1]، واهتم اهتمامًا بالغاً بحل المشكلات الاقتصادية، ووضع نظاماً مالياً محكَماً متكاملاً متزناً يستفيد منه الإنسان في كل زمان ومكان في بناء الحياة وتقدمها وفي كرامة الإنسان الذي يحيا هذه الحياة.

ولسنا - في هذا المقام - في وضعٍ نتكلم في جميع نواحي هذا النظام المالي والاقتصادي، فنكتفي بإشاراتٍ إلى بعض جوانبه المهمة:

أولاً: ملكية المال:

مما لا شك فيه أن الإنسان مولع بالمال، والرغبة في تملكه أمر قد وضعه الله في نفسه[2]، فسلبُ الملكية منه مطلقاً أمر مناقض لفطرته، ومن ثمَّ أقرّ الإسلام حق الملكية ضمن قيود سنعرِض لها، ومن ثم نسب المال إلى من يكتسبه في غير مكانٍ من القرآن الكريم؛ فقال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[3]، وقال: ﴿ وَءَاتُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ

(١) قال الله تعالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ [سورة البقرة، الآية: ١٨٠].

(٢) يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴾ [سورة آل عمران، الآية: ١٤]؛ وقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ [سورة العاديات، الآية: ٨].

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٨٨.

كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴾[1][2].

كما أنه نبه الإنسان إلى ألاّ ينخدع بهذا الاعتراف بملكيته للمال؛ فالمالك الحقيقي له ولجميع الأشياء في الكون هو الله سبحانه وتعالى، وليس الإنسانُ إلا خليفته في المال، استخلفه فيه لينتفع به وليؤدي الحقوق الشرعية الواجبة فيه وليقوم بالتكاليف التي كلفه الله إياها، فقال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾[4].

فها أننا نرى أن الإسلام قد أقرّ ملكية المال على أن يراعي المالكُ أوامر الله في كسبه وادخاره وإنفاقه.

ثانياً: كسب المال:

كسبُ المال من أهم عناصر الاقتصاد، ولم يصرف الإسلام نظره عنه، فبيَّن بالتفصيل حلالَ الكسب وحرامه، فقد حرَّم الربا والاحتكار والقمار وأكل مال اليتيم، وأحلَّ البيع والشراء الشرعيَّيْنِ إلى غير ذلك من التفاصيل التي تكفلت كتب الفقه ببيانها، وحسبُنا ههنا أن نذكر بعض الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة المتعلقة بذلك: قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴾[5]، وقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟

(١) حوبا: (بفتح الحاء وتضم) إثماً. ابن الأثير، النهاية، ١/ ٤٥٥.

(٢) سورة النساء، الآية: ٢.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٨٩.

(٤) سورة الحديد، الآية: ٧.

(٥) سورة المائدة، الآيتين: ٨٧، ٨٨.

أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾[1]، وقال: ﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟ ﴾[2]، وقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[3][4]، وقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾[5].

وقال رسول الله ﷺ: «إن الحلال بيّن وإن الحرام بيّن، وبينهما مشتَبِهات، لا يعلمهن كثيرٌ من الناس، فمن اتقى الشُّبُهاتِ فقد استبرأ لدينه وعرضِهِ، ومَن وقع في الشبهات؛ وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحِمى يوشك أن يرتَعَ فيه، الا وإن لكل ملِكٍ حمًى، الا وإن حمى الله محارمُه، الا وإن في الجسد مضغةً إذا صلحت صلحَ الجسدُ كله وإذا فسدت فسدَ الجسدُ كله، الا وهي القلب»[6]، وقال: «لا تزول قدما عبدٍ حتى يُسألَ عن عمره فيما أفناه، وعن عِلمه ماذا فعل به، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه، وعن جسمه فيما أبلاه»[7].

وقال جابر بن عبد الله رضي الله عنه: «لعنَ رسولُ الله ﷺ آكلَ الربا وموكِّلَه وكاتبَه

---

(١) سورة النساء، الآية: ٣٩.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٧٥.

(٣) الميسر هو القمار. انظر: ابن الأثير، النهاية، ٢٩٦.

(٤) سورة المائدة، الآية: ٩٠.

(٥) سورة النساء، الآية: ١٠.

(٦) متفق عليه، واللفظ لمسلم، ١١/ ٢٧-٢٨.

(٧) رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح، ٧/ ١٠١.

وشاهديه، وقال: هم سواء»[1]، وقال عليه الصلاة والسلام: «من احتكر فهو خاطيء - أي آثم -»[2].

ثالثاً: الإنفاق:

لم يمنح الدينُ أهلَه الحرية المطلقة في أن ينفقوا أموالهم التي خوَّلهم اللهُ حسب ما بدا لأنفسهم، بل حددَ لهم الحدودَ وحذرهم مِن أن يقعوا في الإفراط والتفريط في الإنفاق، فالإفراطُ في هذا المجال - الذي يعبَّر عنه بالإسراف والتبذير - يوصل الأمة إلى حياة البذخ والترف التي تُفضي إلى التحلل والانهيار، كما أن التفريط - الذي يعبَّر عنه بالشح والبخل- له نتائجه السيئة في الخُلُق والعلاقات الاجتماعية وفي حياة الأمة وسيرتها الحضارية.

فأرشد الدينُ الحنيف إلى الطريق الوسَط في الإنفاق الذي يحفَظ الأمةَ من أن تقع في مَهاوي النتائج المُهلكة، ونذكر بهذا الصدد بعضاً من الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة:

قال الله تعالى: ﴿ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾[3]، وقال

---

(١) رواه مسلم، ١/ ٢٦.

(٢) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (المحتكر هو الذي يعمد إلى شراء ما يحتاج إليه الناس من الطعام فيحبسه عنهم ويريد إغلاءه عليهم وهو ظالم للخلق والمشترين، = ولهذا كان لوليّ الأمر أن يُكرِه الناسَ على بيع ما عندهم بقيمته المِثل عند حدوث ضرورة الناس إليه، مثل مَن عنده طعام لا يحتاج إليه والناس في مَخمَصة فإنه يُجبر على بيعه للناس بقيمة المثل). الحسبة، ص١٥، وقال: (وأما إذا امتنع الناس من بيع ما يجب عليهم بيعه، فهنا يؤمرون بالواجب، ويعاقَبون على تركه. وكذلك من وجبَ عليه أن يبيع بثمن المثل فامتنع أن يبيع إلا بأكثر منه فهنا يؤمر بما يجب عليه ويعاقب على تركه بلا ريب). الحسبة، ص٣٣.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ٣١.

تعالى. ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾[1]، وقال: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾[2]، وقال: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴾[3][4].

وقال رسول الله ﷺ: «الاقتصاد في النفقة نصف المعيشة، والتودد إلى الناس نصفُ العقل، وحُسن السؤال نصف العلم»[5]، وقال: «كلْ واشرَب والبس وتصدَّق في غير سرفٍ ولا مِخْيلة[6]»[7]، وقال: «اتقوا الشحَّ[8] فإنه أهلكَ من كان قبلكم؛ حملَهم على أن سفكوا دماءَهم واستحلّوا محارمَهم»[9].

رابعاً: معالجة الفقر:

مشكلة الفقر تَحدُث في المجتمع بسوء التنظيم الاقتصادي في حدود قضاء الله وقدره، فتؤدي بالإنسان تارة إلى اختيار المكاسب المحرَّمة، وتارةً إلى إثارة الفساد والطغيان في المجتمع، ولم يترك الإسلام هذه المشكلة الإنسانية المعقَّدة على حالها، بل عالجَها بغاية الدقة والتوازن، بحيث لو اختار العالم الإنساني هذه المعالجة لانحلَّت هذه المشكلة ونذكرُ من هذه المعالجة الدقيقة بعضَ نواحيها المهمة فيما

---

(١) سورة الفرقان، الآية: ٦٧.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٢٩.

(٣) **أعطى**: أي بذل ماله في وجوه الخير. انظر: الشوكاني، فتح القدير، ٥/ ٤٥٢.

(٤) سورة الليل، الآيتين: ٧، ٨.

(٥) ابن الجوزي، صفة الصفوة، ١/ ٢١٢.

(٦) **المخيلة** (بكسر الخاء وسكون الياء): الكبر. ابن الأثير، النهاية، ٢/ ٩٣.

(٧) الصنعاني، سبل السلام، ٤/ ٢١٠.

(٨) **الشح**: أشد البخل. ابن الأثير، النهاية، ٢/ ٤٤٨.

(٩) رواه مسلم، ١٦/ ١٣٤.

يلي:

- أوضح الإسلام الحقيقة الناصعة بأن التفاضل في الأرزاق اقتضته حكمة الله تبارك وتعالى، فهو كتفاضلهم في المواهب والمَلَكات وفي الغباوة والذّكاء وفي الجمال والدّمامة وفي البياض والسّواد وفي قِصَر القامة وطولها، وفي ضَعف الجسم وقوته، فهذه صفات فطرية خلقها الله تعالى كما شاء، وليس في مَقدرة أي إنسان - مهما كان عبقرياً متفوقاً في العلم والحكمة والبصيرة والسُّلطة - أن يغيِّر هذه الصفات كما تريده نفسه، وكذلك الرزق بيد اللهِ يُعطي ما يشاء منه لمن يشاء من عباده دون أن تكون رابطةٌ حتمية بين الجُهد المبذول والرزق المحصَّل، على أنه لا بد من السعي والعمل؛ فإن السماء لا تُمطر ذهباً وإن الأرض لا تُنبت فضة، قال الله تعالى: ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ﴾[1]، وقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾[2].

فعلى الإنسان أن يعترف بهذه الحقيقة الناصعة ويقتنع بها، وينظر نظرة المشاهدة فيما حوله، كم مِن ساع للرزق يُتعب نفسَه في سبيله ويَجهد جُهداً كبيراً متواصلاً للحصول عليه والعرَقُ يسيل من مفرَقه إلى ساقه ولا يَحصل إلا على ما قُدِّرَ له، وكم من ساع للرزق جالس في مكتبه، يكسَب المبالغ الهائلة في لحظة واحدة وبمكالمة هاتفية، فهذه الحقيقة تابعة لحكمة شاءها الله تبارك وتعالى.

- ثم طمأن الفقراء إلى أن هذا التفاضل في الرزق إنما هو في هذه الدنيا فحسب، أما الآخرة - وهي دار القرار - فيعتبر هناك كل سعي قام به الإنسان وهو مؤمن، فعليه أن يصرف النظر عمّا هو فيه الآن، وينظر إلى

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ١٨.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٣٠.

ما في الآخرة، لأن كل سعي لها يأتي هناك بثمرة أضعافاً مضاعفة، قال الله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ۝ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ۝ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾[١].

وعن ابن مسعود ﷺ قال: «قالت أم حبيبة زوجُ النبي ﷺ: اللهمَّ متّعني بزوجي رسولِ الله ﷺ وبأبي أبي سفيان وبأخي معاوية، قال: فقال رسول الله ﷺ: قد سألتِ اللهَ لآجالٍ مضروبة وأيامٍ معدودة وأرزاق مقسومةٍ، لم يُعجّل شيئاً قبل حلّه، أو يؤخّر شيئاً عن حلّه، ولو سألتِ اللهَ أن يُعيذكِ من عذابٍ في النار أو عذابٍ في القبر، كان خيراً وأفضل»[٢].

- وأرشد الفقراء إلى اختيار القناعة والرضا بما قسم الله تعالى لهم في الأرزاق وإلى اختيار التعفف والصبر: فقال تعالى: ﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾[٣]، وقال رسول الله ﷺ: «قد أفلح من أسلم ورُزق كفافاً وقنّعه الله بما آتاه»[٤]، وعن أبي سعيد الخدري ﷺ: «إن أناساً من الأنصار سألوا رسول الله ﷺ فأعطاهم، ثم سألوه فأعطاهم، حتى إذا نفَدَ ما عنده قال: ما يكن عندي من خيرٍ فلن أدّخِرَه عنكم، ومَن يستعفِف يُعِفهُ الله، ومَن يستغنِ يُغنه الله، ومن يصبر يُصبرُه الله، وما أُعطِيَ أحدٌ مِن عطاءٍ خيراً وأوسع من

---

(١) سورة الإسراء، الآيات: ١٩، ٢٠، ٢١.

(٢) رواه مسلم، ١٦/ ٢١٢و٢١٣.

(٣) سورة النساء، الآية: ٣٢.

(٤) رواه مسلم، ٧/ ١٤٥.

الصبر»[1].

- حث الأغنياء على التصدق على الفقراء والمساكين، ومدّ يد العون إليهم من غير مَنٍّ ولا أذى، وأفهمهم أن في مالهم حقًّا معلوما للسائل والمحروم، وبيّن لهم أن إظهار الصدقة دون رياء لا بأس به، ولكنَّ إخفاءَها خير وأحب إلى الله؛ لأن فيه صيانةً لنفس المتصدق من الرياء ورعايةً لمشاعر الفقراء؛ وكرامةً للذين لا يسألون الناس من التعفف، قال الله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾[2][3][4].

وقال: ﴿ إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَـٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾[5]، وقال رسول الله ﷺ: «سبعةٌ يُظلُّهم الله في ظلّه يوم لا ظلَّ إلا ظلّه.. - وذكر منهم - ورجل تصدقَ بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم يمينُه ما تنفق شماله»[6].

---

(١) رواه مسلم، ٧/ ١٤٤-١٤٥.

(٢) الحجر الصلد الضخم.

(٣) الصلب: الأملس الذي لا ينبت شيئاً.

(٤) سورة البقرة، الآيتين: ٢٦٤، ٢٦٥.

(٥) سورة البقرة، الآية: ٢٧١.

(٦) متفق عليه واللفظ لمسلم، ٧/ ١٢٢،١٢١.

• ومن جهة أخرى علّم الفقراءَ ألاّ يبقَوا متطلّعين إلى ما يساعدهم الأغنياء من أموالهم، وحثهم على اختيار العمل؛ لأن العمل هو السبب لتحصيل الرزق وهو الذي يحفظ كرامتهم، فلا يَبذلوها بمدّ أيدي السؤال ويختاروا حياة التعفف، فقال الله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولاً فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ﴾[1][2][3]، وقال رسول الله ﷺ: «ما أكلَ أحدٌ طعاماً قطّ خيراً مِن أن يأكل مِن عمل يديه، وإنّ نبيَّ اللهِ داود عليه السلام كان يأكلُ من عمل يديه»[4]، وقال: «والذي نفسي بيده لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطبَ على ظهره، خيرٌ له من أن يأتي رجلاً فيسأله أعطاه أو منعه»[5]، وقال: «لا تزال المسألة بأحدكم حتى يلقَى اللهَ وليس في وجهه مُزْعَةُ[6] لحم»[7]، وقال: «اليد العليا خير من اليد السفلى، واليد العليا المنفقة، والسفلى: السائلة»[8].

وعن عوف بن مالك الأشجعي[9] رضي الله عنه قال: «كنا عند رسول الله ﷺ تسعةً أو

---

(١) سهلاً.

(٢) جمع منكب: ناحية كل شيء.

(٣) سورة الملك، الآية: ١٥.

(٤) رواه البخاري، ٤/ ٣٠٣.

(٥) متفق عليه، واللفظ للبخاري، ٣/ ٣٣٥.

(٦) قطعة.

(٧) متفق عليه، واللفظ لمسلم، ٧/ ١٣٠.

(٨) متفق عليه، واللفظ لمسلم، ٧/ ١٢٤.

(٩) هو عوف بن مالك بن أبي عوف الأشجعي، كان يكنى أبا عبد الرحمن أو أبا حماد أو أبا عمرو، على اختلاف الروايات، أول مشاهده خيبر، سكن الشام وتوفي بدمشق سنة ثلاث وسبعين. انظر: أسد الغابة، ٤/ ٣١٢.

ثمانيةً أو سبعةً فقال: ألا تبايعون رسول الله؟ وكنّا حديثِي عهد ببيعته، فقلنا: بايعناك يا رسول الله، ثم قال: ألا تبايعون رسولَ الله؟ فقلنا: بايعناك يا رسول الله، ثم قال: ألا تبايعون رسول الله؟ قال: فبسطنا أيدينا وقلنا: قد بايعناك يا رسول الله، فعلامَ نبايعك؟ قال: «على أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، والصلوات الخمس، وتطيعوا (وأسرَّ كلمة خفيفة)، وألاّ تسألوا الناس شيئاً». فلقد رأيتُ بعضَ أولئك النفرَ، يسقُط سوطُ أحدهم فما يسأل أحداً يُناوله إياه».

وهكذا قوّم الإسلام جميعَ جوانب حياة الإنسان الاقتصادية، فعلى كل مسلم أن يراقب مكاسبَه فيجتنب المحارمَ والمشتبهات، كما يجب عليه أن يكون حكيماً في إنفاق المال، فلا يُسرف ولا يبخل، وإن كان غنياً فعليه أن يراعي مصالح الفقراء والمساكين بزكواته وصدقاته، بل يبالغ في البحث عن الفقراء المستحقين لينفق عليهم وينالَ بذلك فضلَ الإنفاق في سبيل الله الذي اهتمت بذكره الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، وإن كان فقيراً فليكن أبيًا متعففًا، ولْيلتمسْ طرقَ المعاش الشريفة ولو بالاحتطاب من الجبال، وليتجنّب السؤالَ ولا يقبل الصدقات إلا مضطراً وفي حدود اضطراره فحسب.

٨- العلم والتعليم:

المميز الثامنة من مميزات المجتمع الإسلامي المهمة: العلم والتعليم. لم تظهر رسالة الإسلام إلا والعلم يغمُرها من جوانبها، واهتم الإسلام اهتماماً بالغاً بالعلم؛ إذ استعمل القرآن الكريم كلمة (العلم) ومشتقاتها أكثر من سبعمائة مرة[١]، وأول وحي نزل على رسول الله ﷺ كان يحمل في ثناياه ذكر العلم والتعليم بالقلم: فقال تعالى: ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ

(١) محمد فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن: مادة العلم.

﴿ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ﴾[1]، وأنزل بعده[2]: ﴿ نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ﴾[3]، وقد قال رسول الله ﷺ: «طلب العلم فريضةٌ على كل مسلم»[4].

وهناك نوعان للعلم نستطيع أن نعبر عنهما:

١- علم الأشياء.

٢- علم خالق الأشياء.

فعلم الأشياء:

هو العلم الذي يُبحث فيه عن الأشياء الموجودة في هذه الخليقة وعن حقائقها وخواصها؛ فجميع أنواع علم الكون والحياة يقال لها: علم الأشياء.

وعلم خالق الأشياء:

هو علم الأديان، العلم الذي يوصل الإنسان إلى معرفة رب العالمين ويقرّبه منه، وهو الذي خلق الأشياء بأجمعها في الكائنات، فعلوم الكتاب والسنة وعلوم العقائد والعبادات كلّها تدخل في هذا النوع من العلم.

وأشار الله سبحانه وتعالى إلى علم الأشياء بقوله: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمۡ عَلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۝ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ

---

(١) سورة العلق، الآيات: ١، ٢، ٣، ٤، ٥.

(٢) الإتقان في علوم القرآن، ٤٢.

(٣) نود أن نشير - بهذه المناسبة - إلى ما كتبه العلامة الإمام ابن القيم رحمه الله عن العلم والقلم في كتابه (البيان في أقسام القرآن)؛ فقد أورد رحمه الله بحثاً قيماً دقيقاً يقوي الإيمان ويغذّي الوجدان. انظر: ص١٢٦-١٣٧.

(٤) مسند الإمام أبي حنيفة، كتاب العلم؛ و جامع بيان العلم وفضله، ١/٧.

لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[1].

وأشار إلى علم خالق الأشياء بقوله:

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾[2][3][4].

والفضل للعلم الذي يوصل الإنسان إلى معرفة ربه، سواء حصل ذلك من علم الأشياء أو علم الأديان، والمهم في الإسلام أن يكون العلمُ نوراً يُنير أمام الإنسان الطريقَ الذي يوصِّله إلى ربه، فإذا حصلَ هذا من علم الأشياء فهو المطلوب، وليس هنالكَ أيّ تباعد - في الحقيقة - بين العلمين؛ لأن علم الأشياء إذا درسه الإنسان بفكره السليم، لن ينكرَ ربَّ الكائنات، بل يصبح إيمانه - في بعض الأحيان - برب العالمين أقوى وأرسخ من إيمان الدارس لعلم الأديان؛ إذ أن الثاني عرف ربَّه بمجرد إيمانه بما قرأه في الكتب المختصَّة، وقد يكون إيمانه قوياً، وقد يكون ضعيفاً، ولكن الأول وصلَ إلى معرفة ربه عن طريق مشاهداته في الأشياء مما أودعه الله تعالى فيها من العجائب التي تحير النفوس وتدهش

---

(١) سورة البقرة، الآيتين: ٣١، ٣٢.

(٢) الجدد: جمع جُدَّة: وهي الطريق؛ والغرابيب: جمع غِرْبيب: الشديد السواد الذي يشبه لونه لونَ الغراب. المعنى: أن الله سبحانه أخبر عن جدد الجبال وهي طرائقها أو الخطوط التي فيها بأن لونَ بعضها البياض، ولونَ بعضِها الحمرة، ومن الجبال غرابيب على لون واحد وهو السواد. فتح القدير، ٤/ ٣٤٧-٣٤٨.

(٣) أي إنما يخشاه سبحانه بالغيب: العالمون به، وبما يليق به من صفاته الجليلة وأفعاله الجميلة. فتح القدير، ٤/ ٣٤٨.

(٤) سورة فاطر، الآيتين: ٢٧، ٢٨.

العقول، فمن الطبيعي جداً أن يكون إيمانه قوياً، ومن أجل ذلك حض القرآن الكريم الإنسان على التفكير فيما خلقه الله تعالى في هذا الكون فقال:

﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾[1].

ومما لا ريب فيه أن الأشياء تدل على ربها بصورة مباشرة، وحقائق الأشياء تُبرز عظَمة ربها وخالقها، كما قال الشاعر:

وفي كل شيء له آيةٌ تدلُّ على أنه واحدُ

وعلمُ الأشياء وسيلة كبيرة لاهتداء الإنسان إلى طريق يوصله إلى ربه، ولذلك استدل القرآن الكريم على وحدانية الله تعالى وعلى وجوده بالأشياء الموجودة في هذا الكون والآيات القرآنية عديدة في هذا الصدد، منها:

قوله تعالى: ﴿ نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا[2] فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ[3] ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ[4] أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ

---

(١) سورة آل عمران، الآيتين: ١٩٠، ١٩١.

(٢) **حطاما**: أي متحطماً متكسراً، والحطام: الهشيم الذي لا ينتفع به ولا يحصل منه حب ولا شيء.

(٣) **تفكهون**: أي تتعجبون فيما نزل بكم في زرعكم.

(٤) **المزن**: السحاب.

نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا [1] فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ [2] ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ [3] ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ [4].

وقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ [5] وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ [6].

والمستوى الرفيع الذي عيَّنه الإسلامُ للعلم هو: معرفةُ الله سبحانه وتعالى، وإطاعةُ أمره، فالإنسان الذي يعرف ربَّه ويطيع أوامرَه ويكفُّ عمّا نهاه عنه، ويخشاه في سره وعلانيته، يُعتبر عالماً في الإسلام، والذي لا يعرف ربَّه ولا يطيع أوامره ولا يكفَّ عمّا نهاه عنه ولا يخشاه في سره وعلانيته، يعتبر جاهلاً [7] في الإسلام، مهما ارتفع شأنه في إدراك حقائق الأشياء وعلمها.

وقد صرَّح بذلك كتاب الله تعالى؛ فقال:

﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ

---

(١) **الأجاج**: الماء الشديد الملوحة الذي لا يمكن شربه.

(٢) **تورون**: تستخرجونها بالقدح من الشجر الرطب يقال: أوريت النار: إذا قدحتها.

(٣) **المقوين**: المستمتعين بالنار من الناس أجمعين في الطبخ والخبز والاصطلاء والاستضاءة. انظر لهذه المعاني: فتح القدير، ٥/ ١٥٧و١٥٨.

(٤) سورة الواقعة، الآيات: من ٥٧ إلى ٧٤.

(٥) **رواسي**: جمع راسية: الجبال الثوابت. فتح القدير، ٥/ ٧٢.

(٦) سورة ق، الآيات: ٦، ٧، ٨.

(٧) قال الربيع بن أنس: من لم يخش الله فليس بعالم؛ وقال الشعبي: العالم من خاف الله. فتح القدير، ٤/ ٣٤٨.

يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[1]، وقال: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾[2].

والمجتمع الإسلامي يؤكد الجانبين من العلم، فإذا أوجب على المسلم أن يتعلم ما يضمن نجاحه في الآخرة من علم الكتاب والسنة والعقائد السليمة وأحكام العبادات والمعاملات، لم يصرف نظره عن حض المسلم على تحصيل علم الأشياء[3]، لأن هذا الجانب من العلم قد يكون مساعداً كبيرًا لمصلحته الدعوية، وقد يكشف أمامه آفاقاً من الحقائق والمعارف، ويفتح عليه أبواباً من العجائب والبدائع، ويُتيح له ما يقرِّبه في سيادته للعالم وإفادته من ذخائره المكنونـة، ويشير إلى ذلك قـولُ الرسول الكريم ﷺ: «الكلمةُ من الحكمةِ ضالةُ المؤمن؛ فحيث وجَدها فهو أحقُّ بها»[4].

بل أوجب عليه - على الكفاية - تحصيل هذه العلوم إذا كانت الدعوة تقتضيها، فقال الله تعالى: ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٩.

(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٤٣.

(٣) قال المحدث المجتهد ابن عبد البر: «ومن الضروري أيضاً علم الناس أن في الدنيا مكة والهند، ومصر والصين، وبلداناً عرفوها، وأممًا قد خلقت.. والعلوم عند جميع أهل الديانات ثلاثة: علمٌ أعلى، وعلمٌ أسفل، وعلمٌ أوسط. فالعلم الأعلى عندهم علم الدين الذي لا يجوز لأحد الكلام فيه بغير ما أنزله الله في كتبه وعلى السنة أنبيائه - صلوات الله عليهم - نصًّا. والعلم الأوسط: هو معرفة علوم الدنيا التي يكون معرفة الشيء منها بمعرفة نظيره، ويستدل عليه بجنسه ونوعه كعلم الطب والهندسة، والعلم الأسفل: هو أحكام الصناعات وضروب الأعمال، مثل السباحة والفروسية والزي والتزويق والخط وما أشبه ذلك من الأعمال التي هي أكثر من أن يجمعها كتاب أو يأتي عليها وصف، وإنما تحصل بتدريب الجوارح فيها». جامع بيان العلم وفضله، ٢/ ٣٧.

(٤) رواه الترمذي، ٧/ ٤٥٨.

تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾[1]، وقال عقبة[2] بن عامر ﷺ: «سمعتُ رسولَ الله ﷺ وهو على المنبر يقول: وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة، ألا! إن القوةَ الرميُ، ألا! إن القوةَ الرميُ، ألا! إن القوة الرميُ»[3].

فالرمي كان قوةً قوية في الحرب في عهده ﷺ، فحضَّ عليه، وضرب المثل لأمته باقتباس بعض أساليب الحرب والدفاع مما لم تكن تعرفه العرب، فحفر الخندق[4] في غزوة الأحزاب، وكان ذلك أسلوباً من أساليب الدفاع عند الفرس، وكذلك استعملَ المنجنيقَ في غزوة الطائف، وقيل هو أول منجنيق[5] رُمِيَ به في الإسلام، وكان أرشدَ إليه سلمان الفارسي، كما أمر ﷺ زيدَ بن ثابت الأنصاري ﷺ بتعلُّم اللغة السريانية[6] ليكون بذلك مُطَّلعاً على ما كان يجري بين اليهود من المؤامرات، وهكذا تركَ الرسولُ الكريم ﷺ لأمته أمثلةً نقدر أن نتأسَّى بها في اقتباس الأساليب الجديدة والأسلحة الحديثة في حروبها ودفاعها في كل زمان ومكان.

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٦٠.

(٢) هو عقبة بن عامر بن عبس بن عمرو الجهني الأنصاري، أسلم بالمدينة، وشهد فتوح الشام، وكان البريد إلى عمر رضي الله عنه بفتح دمشق. كان أحسن الناس صوتاً، كان من أصحاب معاوية رضي الله عنهما وَلِيَ له مصر، وتوفي بها سنة ثمان وخمسين. أسد الغابة، ٤/ ٥٣-٥٤.

(٣) رواه مسلم، ١٣/ ٦٤.

(٤) سيرة النبي، ٣/ ١٦٨.

(٥) سيرة النبي، ٤/ ١٤٩؛ السيرة النبوية، ٣٦٥٨؛ السيرة الحلبية، ٣/ ١٣٤.

(٦) الترمذي، ٧/ ٤٩٧.

وقد فسَّر المفسرون «القوة» بما يُتقوَّى به في الحرب من أنواع السلاح[1]، فإذا أصبحتْ علومُ الأشياء من العلم والطب والرياضيات والهندسة والكيمياء والفيزياء والاقتصاد وما إلى ذلك مما يُتقوَّى به في الحرب، سواء كانت الحرب حاميةً أم باردة[2]، أم حربَ الأعصاب[3]، وجب على المسلم - على الكفاية - تحصيل هذه العلوم ليتقوى به على أعدائه ويستفيد منها في سبيل دعوته، ولو قصَّر المسلمون جميعاً في أداء هذا الواجب فاضمحلت الدعوة في شق طريقها، حاسَبهم اللهُ جميعاً[4].

(١) فتح القدير، ٢/ ٣٢٠.

(٢) **الحرب الباردة:** هي حرب تتصارع فيها الدول من غير أسلحة.

(٣) **حرب الأعصاب:** هي الحرب التي تُعتمد على فنون الدعاية والمؤامرات.

(٤) كان لهذا الحكم الشرعي ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾ وما إليه من تعاليم الإسلام، أثره البالغ في ازدهار الحضارة الإسلامية. فما أن اتصل المسلمون بالأمم الأخرى حتى أقبلوا على ما عندهم من علوم ومعارف، يترجمونها إلى اللغة العربية، ويصححونها، ويضيفون إليها الكثير من قرائحهم، مما ولد على أيديهم، وبجهودهم العبقرية، تلك الحضارة الإسلامية الباذخة، التي كانت - كما نعلم - من أجلّ مصادر الحضارة الغربية المعاصرة، وإن كان لنا ما نقوله بهذه المناسبة في ترجمة المسلمين علوم الأوائل، فهو: أننا نتمنى، لو أنهم اقتصروا على ترجمة ما يسمّى اليوم بالعلوم (Sciences)، كالرياضيات، والفيزياء، والكيمياء، وما يتبعها من طب وصيدلة... إلخ، ثم أننا تنمنى -أيضاً- لو نظّم الاشتغال بهذه العلوم الكونية المترجمة و[المكتشفة]، بحيث لا يتولاّه إلا الذين أوتوا - إلى جانب استعداد معين - القدر الكافي من التربية والتكوين الإسلامي، إذن لضَمِنّا المزيد من التماسك والتجانس في تاريخ المسلمين الفكري...، وما أجدرُنا، بأن نحتفظ بما مضى، فننظم - الآن - الأخذ عن الغرب بعد أن أخذوا منا الكثير، ونقصرَه على العلوم التطبيقية ونتائجها، ثم نولّي الاشتغال بهذه العلوم من أبنائنا ممن أوتوا - إلى جانب الشروط الموضوعية المعروفة - حظاً كافياً من المعرفة بدينهم، والتمثل له، والقدرة على النظر إلى الأمور من خلال الموازين والقيم

ولقد رفع الله تعالى منزلة العلماء إلى حد لا حد فوقه، بحيث ذكرهم قارناً إياهم بنفسه وملائكته في الشهادة بوحدانيته تعالى، فقال: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾[1].

فالمجتمع الإسلامي - على كل حال - مجتمعُ علمٍ وحضارةٍ، حريص على أن يكون أعضاؤه مضطلِعين بأعباء العلوم، علومِ الدين وعلومِ الكون والحياة، وقد وردت أحاديثُ كثيرةٌ في فضل العلم، وحسبُنا ذكرُ بعضها فيما يلي:

قال رسول الله ﷺ: «لا حسدَ إلا في اثنتين: رجلٌ آتاه اللهُ مالاً فسلَّطه على هلكته في الحق، ورجلٌ آتاه اللهُ الحكمةَ فهو يقضي بها ويُعلِّمها»[2]، وقال: «يا أبا ذر لأن تغدو فتُعلِّم آيةً من كتاب الله خيرٌ لك مِن أن تصلِّي مائةَ ركعة، ولأن تغدو فتُعلِّم بابًا من العلم، عُمِل به أو لم يُعمل، خير لك من أن تصلي ألف ركعة»[3]، وقال: «يا عائشة! لِيكُن شعارُكِ العلمَ والقرآن»[4].

٩- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر شعارُ هذه الأمة ووظيفةٌ جوهريةٌ لهذه الأمة الوسط، وهي دعامة مركزية من دعائم المجتمع الإسلامي، قال الله تعالى: ﴿ كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ

الإسلامية..، ولا شك أن هذا المطلب جليل الخطر، وعليه يتوقف مستقبل أمتنا الحقيقي، وهو يستدعي - في الحقيقة - إعادة النظر في نظم التربية والتعليم القائمة في العالم الإسلامي.

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٨.

(٢) متفق عليه، واللفظ للبخاري، ١/ ١٦٥.

(٣) رواه ابن ماجة، ١/٧٩.

(٤) مسند الإمام أبي حنيفة، كتاب العلم.

بِٱللَّهِ ﴾[1]، وقال: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[2]، وقال: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُولَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[3]، وقال: ﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴾.

فالتواصِي بالحق معنًى شاملٌ للأمر بالمعروف والنهيِ عن المنكر[4]، ويدل على أهمية هذا المعنى ما رُوِيَ[5] عن أصحاب رسول الله ﷺ أن الرجلين منهم كانا كلما التقيا لم يفترقا حتى يقرأ أحدُهما على الآخر سورةَ العصر، وقال رسول الله ﷺ: «من رأى منكم منكراً فليغيِّره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، وإن لم يستطع فبقلبِه وذلك أضعفُ الإيمان»[6]، وقال: «والذي نفسي بيده لتأمرنَّ بالمعروف ولتنهَوُنّ عن المنكر، أو ليوشكنَّ اللهُ أن يبعثَ عليكم عقاباً منه فتدْعونه فلا يستجيب لكم»[7]، وقال: «مَن أمر بالمعروف ونهى عن المنكر هو خليفة اللهِ في الأرض وخليفةُ كتابِه وخليفةُ رسولِه»[8].

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١١٠.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٠٤.

(٣) سورة التوبة، الآية: ٧١.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ٤/ ٥٤٨؛ وفتح القدير، ٥/ ٤٩٢.

(٥) تفسير القرآن العظيم، ٤/ ٥٤٧؛ وفتح القدير، ٥/ ٤٩١.

(٦) متفق عليه، واللفظ لمسلم، ٢/ ٢٢و٢٥.

(٧) رواه الترمذي، ٦/ ٣٩١.

(٨) كنز العمال، ٣/ ٣٩(روايةً عن الديلمي عن ثوبان).

وعن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: «جمعنا رسولُ الله ﷺ ونحن أربعون، قال عبد الله: فكنت آخِرَ من أتاه، فقال: إنكم مصيبون ومنصورون ومفتوحٌ لكم، فمن أدركَ ذلك منكم فليتَّقِ اللهَ وليأمر بالمعروف ولينهَ عن المنكر، ومن كذبَ عليَّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار»[١].

١٠- الحياطة البالغة في العلاقات:

إن علاقة الأمة الإسلامية بالأمم الأخرى علاقة دعوةٍ وإرشاد، فمِن سمات المجتمع الإسلامي الحياطة البالغة في هذه العلاقة، ألم تر أن الله ورسوله قد حدّدا لهذه العلاقة حدوداً يجب على الأمة أن تلتزمها؛ فالموقف حرج جداً، والإفراط أو التفريط فيه ربما يُخرج الأمة عن كيانها الدعوي، ونريد أن نشير - بإيجاز - فيما يأتي إلى نوعية هذه الحدود وإلى دقة هذه العلاقة:

هناك ناحيتان مهمتان لهذه العلاقة، وهما: الموالاة والمداراة.

فالموالاة:

عبارة عن الولاء والمحبة فيما بين الناس من صميم الفؤاد، وهي خاصة بالمسلمين فحسب؛ فلا يسمح لأفراد المجتمع الإسلامي - في حال من الأحوال - أن تتوثق بينهم وبين الكفار علاقة الموالاة، قال الله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَـٰنًا مُّبِينًا ﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾[٣]، وقال: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟

---

(١) مسند الإمام أحمد، ٥/ ٢٣٧.

(٢) سورة النساء، الآية: ١٤٤.

(٣) سورة المائدة، الآية: ٥١.

بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلۡحَقِّ يُخۡرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمۡ أَن تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمۡ إِن كُنتُمۡ خَرَجۡتُمۡ جِهَٰدٗا فِي سَبِيلِي وَٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِيۚ تُسِرُّونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعۡلَمُ بِمَآ أَخۡفَيۡتُمۡ وَمَآ أَعۡلَنتُمۡۚ وَمَن يَفۡعَلۡهُ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾[١].

والمداراة:

معناها: الملاينة[٢]، وخفض الجناح للناس، ولين الكلمة، وترك الإغلاظ لهم في القول[٣]، ويجيز الإسلام اصطناعَ هذه العلاقة مع غير المسلمين في الحالات الثلاثة الآتية:-

أولاً: دفع الضرر:

وأشير إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿ لَّا يَتَّخِذِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَلَيۡسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيۡءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تُقَىٰةٗۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾[٤].

ويستفاد من هذه الآية الكريمة أنه يجوز إظهار الموالاة للكفار والمشركين إظهاراً فحسب إذا خاف على نفسه، وتلك هي المداراة، قال الشوكاني[٥]: «أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم من طرق عدة: ﴿ نهى الله المؤمنين أن يلاطفوا الكفارَ ويتخذوهم وليجةً من دون المؤمنين إلا أن يكون الكفار عليهم ظاهرين، فيُظهرون لهم اللطفَ، ويخالفونهم في الدين، وذلك قوله تعالى: ﴿ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تُقَىٰةٗ ﴾».

---

(١) سورة الممتحنة، الآية الأولى.

(٢) النهاية، ٢/ ١١٥؛ لسان العرب، ١٤/ ٢٥٥.

(٣) فتح الباري، ١٠/ ٥٢٨.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ٢٨.

(٥) فتح القدير، ١/ ٣٣٢.

وروي عن عائشة رضي الله عنها قالت: «إن رجلاً استأذن على النبي ﷺ فقال: ائذنوا له فلبئسَ ابنُ العشيرة، أو بئس رجلُ العشيرة، فلما دخل عليه ألانَ له القولَ، قالت عائشة: فقلتُ: يا رسول الله! قلتَ له الذي قلتَ ثم ألنتَ له القول؟!! قال: يا عائشة! إن شرَّ الناس منزلةً عند الله يوم القيامة من ودعَه، أو تركه الناس اتقاءَ فحشه»(١).

ثانياً: رجاء هدايتهم:

أي يجوز مداراة الكفار والمشركين رجاءَ هدايتهم، أي من أجل مصلحة الدعوة، وهذا الباب واسعٌ جداً، فكلُّ ما صدر من النبي ﷺ وأصحابه من مداراتهم الكفار والمشركين يدخل تحت هذا الباب، ولقد أشار الله سبحانه وتعالى إلى هذا النوع من مداراة الكفار والمشركين في عدة آيات من كتابه العزيز، منها:

قوله تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾(٢)، وقوله تعالى لموسى وهارون عليهما السلام: ﴿ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾(٣)، وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تُجَـٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَـٰهُنَا وَإِلَـٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾(٤).

ونذكر خبرين من الأخبار التي تدل على مداراة رسول الله ﷺ الكفار رجاء

(١) متفق عليه واللفظ لمسلم، ١٦/ ١٤٤.

(٢) سورة النحل، الآية: ١٢٥.

(٣) سورة طه، الآيتين: ٤٣، ٤٤.

(٤) سورة العنكبوت، الآية: ٤٦.

هدايتهم:

عن أنس بن مالك ﷺ قال: «إن غلاماً ليهودٍ كان يخدمُ النبيَّ ﷺ، فمرضَ، فأتاه النبيُّ ﷺ يعوده، فقال: أسلِم، فأسلَمَ»(١)، وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «دخل رهطٌ من اليهود على رسول الله ﷺ فقالوا: «السام عليكم»، قالت عائشة: ففهمتُها فقلت: وعليكم السام واللعنة، قالت: فقال رسول الله ﷺ: مهلاً يا عائشة، إن اللهَ يحب الرفقَ في الأمر كله، فقلت: يا رسول الله! أولم تسمع ما قالوا؟ قال رسول الله: قد قلتُ: وعليكُم»(٢).

ثالثاً: إكرام الضيف:

إكرام الضيف من العادات العربية القديمة، وقد أمر الإسلامُ بإكرام الضيف سواء كان مسلماً أم كافراً، إلا أن المسلم من أجل حقوقه الأخرى يستحق هذا الإكرام أكثر من الكفار، وقد عدّ رسول الله ﷺ إكرامَ الضيف مما يقتضيه الإيمان بالله وباليوم الآخر، فقال: «ومَن كان يؤمن باللهِ واليوم الآخِرِ فليُكْرِم ضيفَه»(٣).

ولإكرام الضيوف أخبارٌ كثيرة في سيرة المصطفى ﷺ نذكر منها ثلاثة فقط:

عن أبي هريرة ﷺ: «أن رسول الله ﷺ ضاف ضيفاً وهو كافر، فأمر له رسول الله ﷺ بشاةٍ فحُلب، فشربَ حِلابَها، ثم أخرى فشربه ثم أخرى فشربه حتى شرب حلابَ سبع شياة، ثم أصبح فأسلَم، فأمر له رسول الله ﷺ بشاة فشرب حِلابَها، ثم أمر بأخرى فلم يستتمَّها، فقال رسول الله ﷺ: المؤمن يشرب من مَعيٍ واحد، والكافر يشرب في سبعة أمعاء»(٤).

---

(١) رواه البخاري، ١٠/ ١١٩.

(٢) رواه البخاري، ١٠/ ٤٤٩.

(٣) مسلم، ٢/ ١٨.

(٤) متفق عليه، واللفظ لمسلم، ١٤/ ٢٥.

جاء إلى رسول الله ﷺ وفد نصارى نجران فدخلوا عليه في المسجد وقد صلّى رسول الله ﷺ صلاة العصر وحان وقت صلاتهم فقاموا في مسجد رسول الله ﷺ يصلون متجهين إلى المشرق، فقال رسول الله ﷺ: دَعوهم[(١)]. وهذا من كمال حسن أخلاق رسول الله ﷺ بحيث تركَ عبدةَ الصليب يصلّون في مسجده، وكان ذلك من غاية إكرامه للضيوف.

جاء وفد ثقيف إلى رسول الله ﷺ برئاسة عبد يا ليل، فدخلوا عليه وحيُّوه بتحية الجاهلية، وضربَ لهم رسولُ الله ﷺ قبةً في ناحية المسجد، وكان يبعث إليهم الطعامَ مِن عنده[(٢)].

ولا يجيز الإسلام مداراة الكفار والمشركين على حساب المصالح الإسلامية، وأشار إلى هذا قول الله سبحانه وتعالى: ﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾[(٣)].

ويستفاد من هذه الآيات الكريمات أن عَلاقة مداراة الكفار إذا أصبحت تضر مصالح الإسلام والمسلمين؛ وجبَ أن تُقطعَ فوراً بدون أي تردد، كما تدل على أن توثيق الصلة مع الكفار وهم يهاجمون الإسلام ومبادئه ويستهزئون بها، من شأن المنافقين، ومصير المنافقين معلوم، ومن أجل ذلك يجب على المجتمع الإسلامي أن يكون حذراً جداً في علاقته مع غير المسلمين، ولا يجوز له أبداً أن يساوم الكفارَ على حساب القيم الإسلامية والمبادئ الدينية.

فهذه عشر خصال من أهم مميزات المجتمع الإسلامي (الإيماني) الذي أوجده

---

(١) سيرة النبي، ٢/ ٢٤٠.

(٢) سيرة النبي، ٤/ ٢٤٠-٢٤١.

(٣) سورة النساء، الآيات: ١٣٨، ١٣٩.

الرسول الكريم ﷺ بالمدينة المنوَّرة، وهذا المجتمع - في مميزاته - من أهم دعائم الدعوة الإسلامية وحُججها؛ إذ أن الدعوة لا تُثمر ولا تزدهر - كما ينبغي - إلا بوجود مجتمع مثالي دَعَوي على وجه الأرض يشهدها شهادة واقعية ملموسة، وعلى الأمة الإسلامية أن تحافظ على هذا المجتمع ومميزاته، كيما تسير الدعوة سيرها بقوةٍ ونشاط - فهل احتفظت الدولة العباسية - في عصرها الأول - بهذا المجتمع الذي هو حجةٌ للدعوة؟ سوف نرى جوابه في محله إن شاء الله تعالى، والآن ننتقل إلى مقوِّمة أخرى للدعوة الإسلامية، وهي:

(د) إنشاء دولة تحافظ على المجتمع داخلياً وخارجياً

إن المجتمع الإسلامي الإيماني الذي أقامه رسول الله ﷺ في المدينة - وقد تكلمنا عليها آنفاً - قام على أساس الاعتراف بطبائع الأشياء التي فطر اللهُ الحياة عليها، ومِن ثمَّ كان واقعياً، بمعنى أنه بُني على سُنن الله في الكون التي تقتضي إقامة الدول بضبط حياة الإنسان على ظهر هذا الكوكب على نحوٍ يتيح لها تحقيق أهدافها الفطرية.

ومن المعلوم أن الإسلام لَقِيَ - وما يزال يلقَى - مقاومةً عنيفة من الشيطان وجنوده الذين أصرُّوا - وما زالوا يصرُّون - على الحيلولة دون قيام مثل هذا المجتمع مهما كلفهم ذلك من جهد، ومن هنا اشتدت - وما تزال تشتد - حاجة المجتمع الإسلامي إلى دولة تنبثق من كيانه الإسلامي الخالص لتحرسه حراسة شاملة وتحمل رسالته وتؤدي أمانته وتحقق أهدافه على الصعيدين الداخلي والخارجي.

ولم تكن هذه الحاجة بدعاً، إنما هي تلقائية وفطرية - كما قلنا - لأنها من

مقتضيات الاجتماع[1]، بل هي واجبة[2]؛ من حيث كونها من مقتضيات ما أسنده الله تعالى إلى هذه الأمة الوسط من مسؤوليات ضخمة وأعباء ثقيلة نتيجة تكليفها بالمحافظة على (الإسلام) ودعوة الناس كافة إلى ما جاء به من الهُدى والحق، والشهادة[3] بذلك أمام الله، وبناءً على ذلك أنشأ رسول الله ﷺ دولةً

---

(١) قال ابن خلدون: «ثم إن هذا الاجتماع إذا حصل للبشر - كما قررناه - وتم عمران العالم بهم، فلا بد من وازع يدفع بعضهم عن بعض؛ لما في طباعهم الحيوانية من العدوان والظلم». المقدمة، ١/ ٤٢٢.

(٢) قال الإمام ابن تيمية رحمه الله: «يجب أن يُعرف، أن ولاية أمر الناس من أعظم واجبات الدين، بل لا قيام للدين إلا بها؛ فإن بني آدم لا تتم مصلحتهم إلا بالاجتماع، لحاجة بعضهم إلى بعض، ولا بد لهم عند الاجتماع من رأس حتى قال النبي ﷺ: «إذا خرج ثلاثة في سفر، فيلؤمِّروا أحدَهم» رواه أبو داود من حديث أبي سعيد وأبي هريرة، وروى الإمام أحمد في المسند عن عبد الله بن عمرو، أن النبي ﷺ قال: «لا يحل لثلاثة يكونون بفلاة من الأرض إلا أمَّروا عليهم أحدهم» - فأوجبَ ﷺ تامير الواحد في الاجتماع القليل العارض في السفر، تنبيهاً بذلك على سائر أنواع الاجتماع، ولأن الله تعالى أوجبَ الأمر بالمعروف والنهيَ عن المنكر، ولا يتم ذلك إلا بقوة وإمارة، وكذلك سائر ما أوجبه من الجهاد والعدل وإقامة الحج والجُمَع والأعياد، ونظر المظلوم وإقامة الحدود لا تتم إلا بالقوة والإمارة، ولهذا روي: «أن السلطان ظل الله في الأرض» ويقال: «ستون سنة من إمام جائر أصلح من ليلة بلا سلطان» والتجربة تبين ذلك، ولهذا، كان السلف الصالح كالفضيل بن عياض وأحمد بن حنبل وغيرهما يقولون: «لو كان لنا دعوة مجابة لدعونا بها للسلطان». السياسة الشرعية، ١٦٩-١٧٠.

(٣) قال الله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [سورة البقرة الآية: ١٤٣]، وقال العلامة أبو الأعلى المودودي رحمه الله في تفسير هذه الآية الكريمة: «إن هذه الآية إعلان عن إمامة أمة محمد ﷺ، وإن كلمة «كذلك» تشير إلى معنيين هما:

أولاً: إنها إشارة إلى التوجيه الإلهي الذي وصل به أتباع محمد ﷺ إلى الصراط المستقيم، كما وصلوا إلى منصب (الأمة الوسط) بعد ما اجتازوا مراحل المجاهدة للتزكية والرقي الذاتيين.

ثانياً: إنها إشارة إلى تحويل القبلة، وهذا التحويل - الذي يعتبره غير الراسخين محض تحويل من جهة إلى أخرى - وفي الحقيقة إنه يعني عزل بني إسرائيل من منصب الإمامة وإقامة أمة محمد ﷺ في هذا المنصب الجليل.

وقوله تعالى: ﴿ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ يحمل في ثناياه معاني عميقة لا يمكن أن نعبر عنها بأي لغة أخرى، ومن معانيها: أنها جماعة ذات علو وشرف قائمة على العدل والاعتدال ولها الصدارة بين الأمم الأخرى، وعلاقاتها بالأمم علاقة صدق وأمانة لا علاقة كذب وخيانة.

﴿ شُهَدَآءَ ﴾ ومعنى الشهادة: أنه إذا حاسب الله تبارك وتعالى الناس يوم القيامة، شهد الرسول ﷺ، وهو المبعوث من عند الله والمسئول أمامه، بأن ما أعطاه تعالى من نظام العدل والعمل الصالح والفكر السليم، قد أبلغه إليكم بأسره، وطبقه تماماً بعمله، ثم يأتي دوركم بعد ذلك، فتشهدون على الناس كافةً مؤتسين برسول الله ﷺ بأنكم لم تدخروا جهدًا في إبلاغ الناس كافّةً ما بلّغكم إياه رسول الله ﷺ، وإذا منح الله تعالى فرداً أو أمةً منصب الشهادة هذه، دلَّ ذلك على أنه أحلَّها منصب الإمامة والسيادة، وفي ذلك تكريم لها وتقدير من جهة، وتكليفٌ بأعباء ومسئوليات ضخمة من جهة أخرى، وكان معنى ذلك أنه كما كان الرسول الكريم ﷺ رمزاً وشهادةً حية للصدق والأمانة والحق والعدالة، وجبَ على أمته أيضاً أن تكون صورةً حية لهذه الشهادة الكريمة بحيث ترى فيها أممُ العالم الاستقامةَ قولاً وعملاً وسلوكاً، وتستضيء بها قائلةً: ليس هناك أيّ تقوى إلا ما تحمله هذه الأمة، ولا صِدْقَ إلا ما تقوله هذه الأمة، ولا عدالة إلا ما تسلكه هذه الأمة، ولا أمانة إلا ما تقدمه هذه الأمة، وهناك معنى آخر: وهو أن مسئولية الرسول ﷺ كانت عظيمةً ودقيقةً جداً في إبلاغ رسالة الله إلينا، فلو قصَّر في ذلك - وما كان له أن يقصِّر - مقدار خردلةٍ، لأخذه اللهُ أخذَ عزيزٍ مقتدر، وكذلك مسئوليتنا - نحن الأمة الوسط - أيضاً أصبحت عظيمة ودقيقة جداً في إبلاغ ما أبلغه الرسول ﷺ إلينا إلى الناس كافة، بحيث لو لم نستطع أن نشهد أمام رب العالمين=

تحمي هذا المجتمع الفاضل من داخله وخارجه، وقد أوحى الله سبحانه وتعالى إليه أن يسأله قوةً للدعوة تؤيدها، وسلطاناً يردّ عنها الكيد والعدوان، ويزيل العقبات من طريقها، فقال تعالى(١): ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴾(٢).

وعقد رسول الله ﷺ عند تأسيس هذه الدولة الإسلامية الفتية معاهدةً بين المسلمين ويهود يثرب، يمكن أن نعتبرها دستوراً لهذه الدولة الإسلامية في تلك

= بأننا لم ندخر جهداً في إبلاغ الهداية الربانية إلى الناس جميعاً، لأخذنا الله تعالى أخذاً شديداً، ولأضحت هذه الإمامة التي نفتخر بها في الدنيا، سوطَ عذاب إلينا في الآخرة. وكل ما حدث في عهد إمامتنا من الضلال العملي والفكري، فبسبب تقصيرنا في أداء واجبنا، وكل ما حدث من الفساد والفتن في هذا العالم، سوف يؤاخذ الله به أئمة الشر وشياطين الإنس والجن، ولكن لن نفلت من المؤاخذة أبداً، سوف يسألنا الله تعالى عما عملنا، عندما كانت تهب في الدنيا عواصف العصيان والظلم والضلال، هل أدينا ما علينا من واجب الإمامة؟ أم كنا في عداد الأموات غافلين عن ذلك؟. (تفهيم القرآن، ١/ ١٢٠،١١٩، وهو باللغة الأردية والترجمة لي).

(١) سورة الإسراء، الآية: ٨٠.

(٢) ﴿ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴾ أي اجعل لي من لدنك مُلكاً وعزًّا قوياً، وكأنه ﷺ علم أنه لا طاقة له بهذا الأمر إلا بسلطان، فسألَ اللهَ سلطاناً نصيراً، وبه قال الحسن وقتادة، واختاره ابن جرير، قال ابن كثير: وهو الأرجح؛ لأنه لا بد مع الحق من قهر لمن عاداه وناوأه، ولهذا يقول تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾، إلى قوله: ﴿ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ ﴾ الآية، وفي الحديث: «إن الله ليزعُ بالسلطان ما لا يزع بالقرآن»؛ أي ليمنع بالسلطان عن ارتكاب الفواحش والآثام ما لا يمنع كثيراً من الناس بالقرآن وما فيه من الوعيد الأكيد والتهديد الشديد، وهذا هو الواقع. انظر: جامع البيان في تفسير القرآن، ١٥/ ١٠٢؛ وتفسير القرآن العظيم، ٢/ ٣٩٦ (اختصار وتحقيق: محمد علي الصابوني)؛ وفتح القدير، ٣/ ٢٥٢.

المرحلة من مراحل نشوئها؛ إذ أن كلمات الوثيقة لا تخص شئون اليهود والمسلمين فحسب، بل تشمل ما يَهُمُّ المسلمين فيما بينهم، كما أنها تصلح أن تُدوَّنَ كدستور - حسب المصطلح الحديث - مُوزَّعٍ إلى البنود والمواد.

وقد اعتبرها بعضُ[1] العلماء أولَ دستور مكتوب في العالم يحمل عدداً من بنود دستورية احتفظ بها تاريخنا الزاهر، ولا شك أن كلمة الوثيقة تحمل معاني دقيقة تتحدث بلسان الحال بأن الذي أملاها يتفوق مستواه العقلي أضعافاً على مستوى العصر الذي كُتبت فيه هذه الوثيقة، وكيف لا؟ إنها خرجت من لسان الوحي الذي لا ينطق عن الهوى.

إن هذه الصحيفة[2] كانت مخططاً تمهيدياً ذات نواح لوضع نظام دولة إسلامية عادلة؛ فهي كانت تصميماً رائداً لكل دولة من عهده ﷺ إلى قيام الساعة، تريد وضع نظامها على أساس الإسلام، كما كانت - من ناحية أخرى - طليعةً لمعاهدات سلمية بين المسلمين وغيرهم، ومن ناحية ثالثة: كانت إعلاناً صريحاً من جانب الإسلام بأنه رسالةُ سلامٍ حقيقي، وأنه لا يحمل السيف إلا إذا اقتضت مصلحة الدعوة التي هي مِلاك دولته، كما كانت - من ناحية رابعة - معالجة دقيقة نفاذة لتكوين المجتمع المثالي الجديد وحمل رسالته داخلياً وخارجياً.

ولم يمض على قيام هذا المجتمع الإيماني إلا قليل من الزمن؛ فإذا به يواجه هجمات من خارج مستقره وداخله، وكان يقود الغزو الخارجي قريش مكة ومن عضَّدها من العرب، أما الغزو الداخلي فكانت تتحرك من خلفه أصابع

---

(١) هو الدكتور محمد حميد الله، كتب بحثاً علمياً عن هذا الموضوع بعنوان: (أول دستور مكتوب في العالم) ونشره في مجلة كانت تصدر في حيدر آباد دكن (الهند) عام ١٩٢٩م، ثم نشره في كتيب باللغة الإنجليزية باسم (The first written constitution in the world) ووجهة نظره في المقال المذكور تستحق التقدير والعناية بها.

(٢) اقرأ هذه الصحيفة بنصها الكامل في سيرة ابن هشام، ٢/ ١٣٠-١٣٤.

اليهود وأصابع عملائهم من المشركين والمنافقين، إن هؤلاء اليهود تترّسوا بتُرسِ المعاهدة مع المسلمين خوفاً على أنفسهم من قوة المسلمين المتزايدة وحيويتهم المتصاعدة، فنجحوا في دس بذور النفاق في داخل مجتمع المسلمين، وعالج رسول الله ﷺ هذه المشكلات ببصيرته النفاذة وعقليته النيِّرة في ضوء ما كان ينزل عليه من الوحي في فترة تمتد عشر سنوات.

أما الغزو الخارجي، فقاومه المسلمون بقيادة رسول الله ﷺ بكل شجاعة وبسالة وبصيرة في ميدان بدر، وسحقوا رؤوس الكفار وقتلوا أئمة الضلال، وعند سفح جبل أحد، ومن وراء الخندق في غزوة الأحزاب، يحملون السلاح وجهاً لوجه أمام أئمة الطغاة وأعداء الدولة الدعوية، وكذلك قاوم رسول الله ﷺ هذا الغزو الخارجي في ساحة الحديبية مُبرزاً الطريق السِّلمي لإزالة العقبات عن طريق الدعوة، كما عالج القضيةَ بإرسال سرايا عديدة بقيادة نفر من أصحابه ﷺ أجمعين.

وما كان هدف رسول الله ﷺ من وراء هذه الأنشطة الحربية إلا شق الطريق للدعوة وصيانةَ المجتمع الإيماني الذي أبرزه للناس كافة كمجتمع مثالي دعوي، فكان مُهِمًّا جداً أن تُهاضَ[1] قوة قريش الحربية وتُحطَّم معنوياتُها؛ لأنها كانت خطراً كبيراً على وجود مجتمع المدينة الإيماني، كما كانت قوةً تصدّ القبائل التي تعيش في أنحاء شبه الجزيرة عن أن تأتي إلى عاصمة الإسلام الأولى وتنظر عن كثب ما أوجده هذا المجتمع الحديث الإيماني من حياةٍ مستجمِعةً لمقومات الحياة بوحدته الدينية الصحيحة وروابطه الأخَويةِ، وما قدمه هذا المجتمع المثالي من مباديء ساميةٍ إلى النوع البشري ليشِيدَ على أساسها كيانه، ويفوز باتباعها في دنياه وآخرته، ولتتم بذلك غايةُ خلقه في هذه المعمورة.

---

(١) تُهاض: تكسر. هاض يهيض هيضاً: هاض فلانٌ العظمَ: أي كسره بعد الجبور.

ونذكر ههنا حديثاً يحتوي على وصايا النبي الكريم ﷺ التي كان يوصي بها أمراءه عندما يرسلهم في السرايا، وهذا الحديث الشريف يبرز لنا الغايات الدعوية التي كان يهدف إليها الرسول العظيم ﷺ في نشاطه الحربي:

عن سليمان[1] بن بريدة عن أبيه قال: «كان رسول الله ﷺ إذا أمّر أميراً على جيش أو سرية، أوصاه في خاصته بتقوى الله ومَن معه من المسلمين خيراً، ثم قال: اغزوا باسم الله في سبيل الله، قاتلوا مَن كفرَ بالله، اغزوا ولا تغُلّوا ولا تغدروا ولا تُمثّلوا ولا تقتلوا وليداً، وإذا لقيتَ عدوك من المشركين فادعُهم إلى ثلاث خصال (أو خلال) فأيتهُن ما أجابوك[2] فاقبل منهم وكف عنهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، فإن أجابوك فاقبلْ منهم وكفَّ عنهم، ثم ادعُهم إلى التحويل من دارهم إلى دار المهاجرين، وأخبِرْهُم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين، فإن أبَوْا أن يحَولوا منها، فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجري عليهم حكمُ الله الذي يجري على المؤمنين، ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء شيءٌ إلا أن يجاهدوا مع المسلمين، فإن هم أبوا، فسَلْهُم الجزية، فإنْ هم أجابوك فاقبلْ منهم وكفّ عنهم، فإن هم أبَوا، فاستعن بالله وقاتلهم، وإذا حاصرتَ أهلَ حصنٍ فأرادوك أن تجعل لهم ذِمة الله وذمة نبيه، فلا تجعل لهم ذمةَ الله ولا ذمةَ نبيه، ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك، فإنكم إن تُخفِروا ذِمَمكم وذممَ أصحابكم أهونُ من أن تُخفروا ذمَّةَ اللهِ وذمَّةَ رسوله، وإذا حاصرتَ أهل حصنٍ فأرادوك أن تُنْزِلَهم على حُكْمِ الله

---

(١) هو سليمان بن بريدة بن الحصيب الأسلمي المروزي، تابعيّ ثقة، روى عن أبيه وعمران بن حصين وعائشة رضي الله عنهم. وروَى عنه خلقٌ كثير، وُلد مع أخيه عبد الله توأماً في سنة ١٥هـ، وماتا في يوم واحد سنة ١٠٥هـ. (تهذيب التهذيب، ٤/ ١٧٥،١٧٤).

(٢) أي: فأي تلك الخصال قبلوها منك فاقبلها منهم، فما زائدة.

فلا تُنزِلْهم على حكم الله، ولكن أنزِلْهم على حكمك؛ فإنك لا تدري أتصيب حُكمَ اللهِ فيهم أم لا؟.[1]

وهذا الحديث - كما قلنا - يدل على أن غاية حروب المصطفى ﷺ هي مصلحة الدعوة التي هي المصلحة الحقيقية للبشر كافة في العاجلة والآجلة، ولا غرو؛ فالدولة في حقيقتها إنما هي دولةُ دعوةٍ أو دولةٌ دعوية، يتبدَّى ذلك في شئونها كلها من حرب أو سِلْم أو تشريعٍ أو تنظيم أو ما إلى ذلك.

وأما الغزو الداخلي، فلم يكن أقل خطراً من الغزو الخارجي، بل لعله كان أشدّ منه؛ إذ أنه يكون - في غالب الأحيان - غزوًا معنوياً يُخفي حقيقته الهدامة المدمرة بقِناع الرغبةِ في الإصلاح، وقد أشير إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ۝ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴾[2]، ولا يدركه إلا من وهبه الله قلباً سليماً وبصيرة نفاذة.

ويشتد خطر الغزو الداخلي بصفة خاصة إذا كان مِن ورائه مثلُ أصابع اليهود الخفيةِ الماكرة، تلك الأمة التي لعنها الله تعالى لخُبثها وتمرّدها على تعاليمه عز وجل، فناصبت هذه الدعوةَ العداءَ، ودبّرت لها الدسائس والمكائد.

ومقاومة هذا الغزو الرهيب تحتاج إلى انتباه تام ويقظة كاملةٍ ومؤهلات عالية وبصيرة نفاذة، أكثر مما تحتاجه في مقاومة الغزو الخارجي، فقاومت الدولة الفتية الإسلامية بإمامة الرسول العظيم ﷺ هذا الغزو الداخلي بكل مهارة وجدارة، وأنشأت حصناً على كل نقطة حساسة كان من المحتمل أن تحدُثَ فيها فجوة أو ثُلمة يخلُص منها فكر الماكرين إلى هذا المجتمع الإسلامي الدعوي، ونذكر فيما يلي بعض الجوانب المهمة مما اختاره الرسول الكريم ﷺ من التدابير في مقاومته

---

(١) رواه مسلم، ١٢/ ٣٧-٤٠.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١١، ١٢.

هذا الغزو الداخلي حفاظاً على سلامة دولة الدعوة ومجتمعها:

أ- الجانب الحضاري:

إن المجتمع الإسلامي الدعوي يحتاج أشد احتياج إلى الاختلاط بالناس وتوطيد الروابط بالأمم الأخرى من أجل تحقيق أهدافه الدعوية، وكان طبيعياً جداً أن يتأثر بحضارة تلك الأمم وثقافتها أثناء هذا الاختلاط وتمكين الروابط، فيجد الباطل ثُلمةً يدخل منها في داخل المجتمع ويحاول طمْسَ معالمه وإفساد قِيَمه، ومن أجل ذلك أمرَ رسولُ الله ﷺ المسلمين أن يخالفوا اليهود والنصارى عامةً، وخصوصاً في طقوسهم الدينية وحذّرهم من التشبّه بالكفار، فقال: «من تشبَّه بقومٍ فهو منهم»[1]، وقال: «ليس مِنّا مَن تشبَّه بغيرنا، لا تشبَّهوا باليهود ولا بالنصارى؛ فإن تسليم اليهود الإشارة بالأصابع، وتسليم النصارى الإشارة بالكف»[2].

وقال عليه الصلاة والسلام أيضاً: «إن اليهود والنصارى لا يَصبِغُون؛ فخالفوهم»[3]، وعن عبادة[4] بن الصامت ﷺ قال: «كان رسول الله ﷺ إذا

(١) رواه أبو داود، ٤/ ٣١٤، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في إسناد هذا الحديث: «وهذا إسناد جيد؛ فإن ابن أبي شيبة وأبا النصر وحسان بن عطية ثقات مشاهير أجلاء من رجال الصحيحين، وهم أجل من أن يحتاجوا إلى أن يقال: هم من رجال الصحيحين». اقتضاء الصراط المستقيم، ص٨٢.

(٢) رواه الترمذي، ٧/ ٤٧٢.

(٣) متفق عليه، واللفظ لمسلم، ١٤/ ٨٠.

(٤) هو عباده بن الصامت بن قيس بن أصرم الأنصاري الخزرجي، كان يكنَى أبا الوليد، شهد العقبة الأولى والثانية، وكان أحد نقباء الأنصار، شهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، كان يعلّم أصحاب الصُفّة القرآنَ الكريم، وبعثه الفاروق مع معاذ بن جبل وأبي الدرداء رضي الله عنهم إلى الشام ليعلّموا الناس القرآن ويفقّهوهم في الدين، توفي بالرملة سنة ٣٤هـ. طبقات ابن سعد، ٣/ ٥٤٦؛ وأسد الغابة، ٣/ ١٦٠-١٦١.

اتبعَ جنازة لم يقعد حتى توضع في اللحد، فعرض له حَبْرٌ[1] فقال: هكـذا نصنع يا محمد. فجلس رسول الله ﷺ وقال: خالفوهم»[2]، وقال: «خالفوا المشركين؛ أَحِفّوا[3] الشواربَ وأَوْفوا[4] اللحَى»[5].

وهكذا صان الرسول الكريم ﷺ شخصية الأمة الإسلامية من أن يخدِشها أيُّ مؤثر حضاري أو ثقافي؛ لأنه رأى أن تبقى الشخصية الإسلامية بارزة بجميع سماتها وخصائصها أمام المجتمعات الإنسانية كمنارة تستضيء بها تلك الحضارات والثقافات.

ومعنى منع التشبه بالكفار: الاجتناب[6] الكامل لطقوسهم الدينية بصفة خاصة، وألاّ يتأثر المسلمون - تأثر تقليد واستسلام - بحضارة الكفار وثقافتهم، لأن الحضارة هي حضارة الإسلام، والثقافة هي ثقافة الإسلام، والإسلام هو منبع الأخلاق والحضارة، قال الله تعالى: ﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَـٰبِدُونَ ﴾[7]، وقال: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى

---

(١) حَبر (بالفتح والكسر): عالم، جمعه: أحبار. انظر: النهاية، ١٣٢٨، والمراد ههنا: عالم من علماء اليهود.

(٢) رواه ابن ماجه، ١/ ٤٩٣.

(٣) أحفوا الشوارب: أي بالغوا في قصها. النهاية، ١/ ٤١٠.

(٤) أوفوا: بمعنى: اتركوها وافية كاملة لا تقصوها. النووي، ٣/ ١٥١.

(٥) صحيح مسلم، ٣/ ١٤٧.

(٦) لقد تكلم شيخ الإسلام الإمام ابن تيمية في هذا الباب كلاماً شافياً مدعّمًا بالأدلة والبراهين، انظر كتابه: «اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم»، وخصوصاً من ص١٢إلى ص٢١٦.

(٧) سورة البقرة، الآية: ١٣٨.

﴿ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾[1].

فلا يُسمح للمؤمن أن ينظر إلى حضارة غيره وثقافته نظرةَ الاستكانة والتبعية؛ إذ أن في ذلك نوعاً من الخدش لشخصيته التي يريد الإسلام أن يراها عالية سامية وصافية نقية، كما أنه من المحتمل أن تجد تلك الحضارات فجوة تدخل منها في داخل المجتمع الإسلامي وتثير عواصف الانحرافات والضلال الفكري حتى لا تستطيع تلك الدولة التي تحرس المجتمع أن تقاومها وتقف في وجهها[2]، وقد أشار رسول الله ﷺ إلى هذا الخطر العظيم وحذر أمته منه لتكون

---

(١) سورة الصف، الآية: ٩.

(٢) نريد أن نجيب ههنا عن سؤال يرد تلقائياً على ما نقول، وهو: أن الأمم التي اعتنقت الإسلام لها حضارات وثقافات تخص بيئتها وأقطارها، فمن المستبعد جداً أن ترفض تلك الأمم ثقافتها بأسرها، كما أن إجبارها على رفض ثقافتها لا يلائم الطبيعة؟، والجواب باختصار:
أولاً: لم يأمر الإسلام برفض ثقافة غيره بأسرها، بل منع المسلمَ عن قبول ثقافات تخدش كيانه الإسلامي، وإن لم يكن كذلك فحكم الانتفاع بها يدور مع مصلحة الدعوة وجوداً وعدماً.
ثانياً: أن الإسلام يطلب ممن اعتنقه التخلي عن طقوسه الدينية، وإلا فلا، فمن استعد للتخلي عن طقوسه الدينية، رضي بالتخلي عن ثقافته وحضارته بطريق أولى، ولكن المهم أن تحمل الحضارة الإسلامية قوةَ التغلب والسيطرة والانتخاب، بحيث تمتلك مشاعرَ أولئك المتعتنين- ولم تزل هذه خَصيصَةً من خصائص ثقافات الفاتحين - وإلا أصبحت مغلوبةً، ويحصل من امتزاجها بالثقافة الغالبة ثقافةٌ لن تزيد المجتمعَ الإسلامي إلا خساراً، وهذا هو سرٌ من أسرار الانحطاط الذي ألمّ بالمسلمين حين فقدت ثقافتهم الإسلامية حيويتها وصلابتها الذاتية وقوتها المسيطرة شيئاً فشيئاً بعد عهد الصحابة رضي الله عنهم، فتأثرت بثقافات الفرس والروم واليونان والسريان، ويتبين ذلك بإمعان النظر في خريطة العالم، فالأقطار التي فتحها الصحابة رضي الله عنهم تأثرت بثقافة العرب - وكانوا قليلاً جداً بالنسبة إلى سكان البلاد - وبقيت بلاداً عربية =

منتبهة واعية في كل لحظة وآن، فقال: «لتتبعنّ سَنَن[1] الذين من قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع حتى لو دخلوا في جحر ضبّ لاتبعتموهم، فقلنا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: فمن؟»[2]، كما أرشد ﷺ أمته إلى حضارة واحدة وثقافة متميزة وهي: «ما هو عليه وأصحابه»[3].

وليس معنى ذلك أن تكون الأمة المسلمة جامدة على أسلوب واحد من أساليب الحياة - والحياة دائماً متجددة ومتطورة -، بل ترك رسول الله ﷺ مجالاً لاقتباس ما ينفع الأمة من أساليب حياة غيرهم، بشرط الا يخدش كيانها، فإذا وجدناه ﷺ يمنع أمته من اختيار ثقافة المجوس فيقول: «جُزُّوا[4] الشوارب وأرخوا اللحى، خالفوا المجوس»[5]؛ وجدناه ﷺ يقتبس من المجوس أساليبهم الحربية، وهي: استخدام المنجنيق[6]، وحفر

= عريقة إلى يومنا هذا، والفتوحات الأخرى بعد ذلك، وإن كانت واسعة النطاق من حيث رقعتها وقوتها المادية، ولكن لم تزد - معنوياً - في فتوحات الصحابة شيئاً يذكر.
[لا أتفق مع هذا الرأي، فليس الدخول إلى الإسلام يعني الدخول إلى الأمة العربية حتى نقول إن على المسلم الجديد التخلي عن ثقافته وحضارته! كما أن بعض البلاد العربية التي فتحها الصحابة رضي الله عنهم تعاني اليوم من سوء الفهم والتطبيق للإسلام ما لا تعاني منه بعض الدول التي فتحها الآخرون فيما بعد. د. محمد عامر].

(١) السنن والسنة: الطريقة. النهاية، ٢/ ٤١٠.

(٢) متفق عليه، واللفظ لمسلم، ١٦/ ٢١٩،٢٢٠.

(٣) قال رسول الله ﷺ: «... وإن بني إسرائيل تفرقت على اثنتين وسبعين ملة، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين كلهم في النار إلا ملة واحدة، قيل: من هي يا رسول الله؟ قال: ما أنا عليه وأصحابي». رواه الترمذي، ٧/ ٣٩٩-٤٠٠.

(٤) جزوا: أي قصّوا، من الجز وهو قص الشعر والصوف. النهاية، ١/ ٢٦٨.

(٥) رواه مسلم، ٣/ ١٤٧.

(٦) السيرة النبوية، ٣/ ٦٥٨؛ و السيرة الحلبية، ٣/ ١٣٤.

الخندق[1]، كما نراه ﷺ يتخذ خاتماً يختم به رسائله الموجَّهة إلى الملوك والأمراء لما أُخبر أنهم لا يقرءون الرسائل التي لا تُختم[2].

ولعلنا لا نخطيء إذا استنبطنا من فعل رسول الله ﷺ هذا أنه ﷺ قد أعطى أمته - بهذه الصورة - منهجاً كاملاً قيماً في تطوير ثقافتها وحضارتها دون أن تمس ذاتيتَها قليلاً أو كثيراً، ونستطيع أن نعبر عنه بمنهج: (نعومة الحرير وصلابة الحديد)؛ بحيث تختار الأمة نعومةَ الحرير في اقتباس ما ينفعها في أمور دنياها دون ضرر في دينها وآخرتها، كما يجب عليها أن تختار صلابةَ الحديد في تمسكها بأهداب الدين وعقائده وعضِّها عليها بالنواجذ، وفي قيامها بالواجبات التي كلَّفها الدينُ أداءَها، وقوام هذه الواجبات: (الدعوة إلى الله)، إذ لا تسمح لأي نوع من الخلل أو الضعف أن يُلين تلك الصلابة الفولاذية في أي حال من الأحوال.

ولقد رأينا - فعلاً - أن الأمة اختارت هذا المنهج القويم بعد وفاته ﷺ، كان الخليفة الراشد عمر الفاروق شديداً في أمر الله، فنراه يعاقب صبيغاً[3] العراقي لخوضه في متشابهات القرآن ويضربه حتى يُدْمِي رأسه[4]، ونراه في مناسبة أخرى يقتبس - فيما يقال - أسلوباً من أساليب الفرس في الإدارة، وهو تدوين الدواوين لتنظيم العطاء بين المسلمين[5].

---

(١) سيرة النبي، ٣/ ١٦٨.

(٢) صحيح مسلم، ١٤/ ٦٩.

(٣) صبيغ على وزن: عظيم، رجل من أهل العراق كان يتجول في الجيش بمصر ويسأل الناس عن متشابهات القرآن، فأمسكه عمرو بن العاص وبعثه إلى أمير المؤمنين عمر الفاروق فضربه وأدّبه، انظر ترجمته في تهذيب التهذيب: ٦/ ٣٨٧.

(٤) سنن الدارمي، ١/ ٥٤.

(٥) الوزراء والكتاب، ١٦-١٧.

فالحفـاظ على الجانب الحضاري للمجتمع الإسلامي أمرٌ بالغ الخطورة والدقة، ومن ثم سنَّ رسول الله ﷺ بصفته إماماً للدولة الإسلامية الأولى سُنَّةً متزنة بهذا الصدد، وترك لأمته أسوةً تكـفل نجاحَها - إذا مارستها في دقة وأمانة - في العاجلة والآجلة.

(٢)- الجانب التربوي:

من أهم واجبات الدولة الإسلامية الاهتمام بالجانب التربوي، لتحافظ به على مقوماتها الذاتية واتجاهاتها الجوهرية الأصيلة، ولتدفع به العوامل التي يُمكن أن تعترض طريق هذه الدولة الدعوية - خلال الزمن السرمدي - فتفرغها من حقيقتها، وتخرج بها عن كيانها الذاتي، ومن أجل ذلك كان رسول الله ﷺ يهتم بهذا الجانب اهتماماً كبيراً، وينتهز كل فرصة تتاح له لتربية أصحابه تربية إسلامية دقيقة، إذ أن هذه التربية كانت جزءاً أساسياً من رسالته ﷺ وفي ذلك قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[١].

وقد كانت تربيته ﷺ لأمته عامَّةً؛ كان يربيها على العقائد السليمة الصافية النقية، ويحذّرها من الوقوع في ضلال الشرك بعد أن أخرجها الله تعالى من ظلماته إلى نور التوحيد، كما كان يهتم بتعليم الكتاب والحكمة، ويحض المؤمنين على تحصيل العلم بأقواله وأفعاله، وكان مسجده ﷺ مركزَ التحقيق ذلك، ثم إن رسول الله ﷺ كلف كل فرد من أفراد المجتمع الإسلامي أن يسهم في تربية المجتمع عن طريق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كما سبق ذكره.

ومن معالم تربيته ﷺ أمرُه المسلمين بالصلاة أمراً لا هوادة فيه؛ إذ الصلاة هي التي تنهَى عن الفحشاء والمنكر، وهي الفارق بين الكفر والإسلام، كما رواه

---

(١) سورة الجمعة، الآية: ٢.

جابر بن عبد الله رضي الله عنهما فقال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن بين الرجل وبين الشرك والكفر: تركُ الصلاة»[1]، وكان يحض المجتمع الإسلامي على أداء الصلاة في جماعة، ويراقب ذلك فقال: «إن أثقل صلاةٍ على المنافقين صلاةُ العشاء وصلاةُ الفجر، ولو يعلمون ما فيها لأتوْهما ولو حبواً، ولقد هممتُ أن آمر بالصلاة فتقام، ثم آمر رجلاً فيصلّي بالناس ثم أنطلق معي برجال معهم حِزم من حطب إلى قوم لا يشهدون الصلاة فأحرّق عليهم بيوتهم بالنار»[2]، وروى أبو هريرة ﷺ: «أتى النبيَّ ﷺ رجلٌ أعمى، فقال: يا رسول الله إنه ليس لي قائد يقودني إلى المسجد، فسأل رسول الله ﷺ أن يرخص له فيصلي في بيته، فلما ولّى دعاه فقال: هل تسمع النداء؟ فقال: نعم! قال: فأجب»[3].

ومما لا ريب فيه، أن الأمة إذا واظبت على الصلوات وأقامتها على النحو الذي أرشد إليه النبي عليه الصلاة والسلام، أفادت منها كثيراً في بناء شخصيتها الإسلامية القادرة على تحقيق رسالة الإسلام ودعوته على المستويين الداخلي والخارجي.

ومن جهة أخرى حذّرَ رسولُ الله ﷺ أمته مِن البدع أشد تحذير؛ فاجتنابُ البدع جانبٌ مهم من جوانب الحفاظ على التربية الإسلامية، ولا شك أن البدعة تخلخل[4] معالم شخصية الأمة وتعرّضها للضَياع بل للذوبان (كما يذوب الملح في الماء)، ولذا قال رسول الله ﷺ: «من أحدثَ في أمرنا هذا ما ليس منه فهو

---

(١) متفق عليه واللفظ لمسلم، ٢/ ٧١.

(٢) متفق عليه واللفظ لمسلم، ٥/ ١٥٤.

(٣) متفق عليه واللفظ لمسلم، ٥/ ١٥٥.

(٤) يقال: خلخل العظم: أي نزع ما عليه من اللحم.

رد»[1].

ولقد أكملَ اللهُ سبحانه وتعالى دينَه وختَم بنبيه سيدِ المرسلين محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام، فمن أحدثَ بعده في الدين شيئاً فمعنى ذلك أنه رأى نقصاً في جانبٍ من جوانب الدين فحاول إكماله، وهذا أمرٌ لا يرضَى به الله ورسوله، ولذا قال رسولُ الله ﷺ: «لا يقبل اللهُ لصاحب بدعةٍ صوماً ولا صلاة ولا صدقة ولا حجًا ولا عمرةً ولا جهاداً ولا صرفاً ولا عدلاً، يخرج من الإسلام كما تخرج الشعرة من العجين»[2]، وقال: «أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن تأمّر عليكم عبد حبشي؛ فإنه من يعش منكم ير اختلافاً كثيراً، وإياكم ومحدثات الأمور؛ فإنها ضلالة، فمن أدرك ذلكم منكم فعليه بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عَضّوا عليها بالنواجذ»[3].

وكان من ضمن تربيته ﷺ مراقبته أفراد الأمة أشد مراقبة، فلا يُمهلهم أن يَميلوا أدنى ميل إلى جانب آخر، وتبدو شدة هذه المراقبة مما رواه جابر بن عبد الله قال: «إن عمر بن الخطاب أتى رسولَ الله ﷺ بنسخةٍ من التوراة فقال: يا رسولَ الله، هذه النسخة من التوراة، فسكتَ، فجعل يقرأ ووجهُ رسولِ الله ﷺ يتغير، فقال أبو بكر: ثكلتكَ الثواكل، أما ترى بوجه رسول الله ﷺ؟ فنظر عمر إلى وجه رسول الله ﷺ، فقال: أعوذ بالله من غضب الله ومن غضب رسوله، رضينا بالله ربًا وبالإسلام ديناً، وبمحمد نبياً، فقال رسول الله ﷺ: والذي نفسُ محمدٍ بيده، لو بدا لكم موسى فاتبعتموه وتركتموني لَضللتم عن سواء السبيل، ولو كان حياً وأدرك نبوّتي لاتبعني»[4].

---

(١) متفق عليه، انظر: البخاري، ٥/ ٣٠١.

(٢) رواه ابن ماجه، ١/ ١٩.

(٣) رواه الترمذي، ٧/ ٤٣٩-٤٤٢.

(٤) رواه الدارمي، ١/ ١١٥-١١٦.

وهكذا سنّ رسول الله ﷺ للدولة الإسلامية سَننا يتيح لها الحفاظ على أصالة المجتمع الإسلامي الدعَوي عن طريق تربيته وتزكيته وتوجيهه وسد كل ثلمة يمكن أن تدخل منها البدع والأهواء والضلال الفكري في المجتمع الذي هو منبثق الدولة.

٣- حماية قيم المجتمع:

الدولة التي تحرس قيم المجتمع الإسلامي الدعوي ولا تغفل عنها لا بد لها من صلاحيات جزائية تحمي بها هذه القيم، ومن ثَـمَّ جاء الشرع الإسلامي بالحدود[١] والقصاص والتعزيرات[٢]؛ ولكن إلى أي حد تحتاج الدولة إلى استخدام هذه الصلاحيات في مجتمع يرفُل[٣] في غلاَلةٍ[٤] من الأصالة الإسلامية تصوراً وسلوكاً؟، أحسَبُ أنها لا تحتاج إلى ذلك إلا قليلاً وفي مواجهة شرذمة فاسدة؛ لأن الدولة ما دامت تهتم بالحفاظ على الثقافة والحضارة الإسلاميتين العريقتين، وما دامت تهتم بالتزام التربية الإسلامية الصحيحة، فلا يستطيع الفساد أن

---

(١) **الحد**: لغةً: الفصل بين الشيئين لئلا يختلط أحدهما بالآخر، أو لئلا يعتدي أحدهما على الآخر، وجمعه: حدود، واصطلاحاً: عقوباتٌ جُعلت لمن ركب ما نهي عنه، كحد السارق: وهو قطع يمينه في ربع دينار فصاعداً، وكحد الزاني البكر: وهو جلدُ مائةٍ وتغريبُ عامٍ، وكحدُ المحصن إذا زنـَى وهو الرجم، وكحدِّ القذفِ: وهو ثمانون جلدة، = = سُميت حدوداً لأنها تحدّ أي تمنع من إتيان ما جعلت عقوبات فيها. (لسان العرب، ٣/ ١٤٠).

(٢) **التعزير**: هو التأديب الذي دون الحد لمنع الجاني من المعاودة وردعه عن المعصية. النهاية ٣/ ٢٢٨.

(٣) **رفل**: جرّ ذيله وتبختر.

(٤) **غلالة**: شعار يلبس تحت الثوب أو تحت الدرع، جمعه: غلائل.

يتمكن من المجتمع الإسلامي إلا في حدود ضيقة[1]، ومع ذلك فلا بد من أن يكون هنالك وازع يخافه كل من أراد الانحراف عن الجادة، ومن أجل ذلك منح الإسلام الدولة الصلاحيات التي أشرنا إليها لتأخذ على يد الجاني الخارج على قيم المجتمع، وكما يكـون هذا النظام وقاية للمجتمع الصالح العادل من نزوات فرد منه يهدد عدلَه بظلمه وصلاحَه بفساده، فمن البديهي جداً أنّ مَن أراد توفير النمو للحاصلات، التزمَ باقتلاع كثير من الحشائش والأعشاب، ومن ثم جدَّ النبي ﷺ كل الجد في تطبيق الحدود والقصاص وأخذ كل مُحدِث بما أحدث.

ومما لا ريب فيه أن إقامة الحدود والقصاص والتعزيرات تفتح على المجتمع بركاتٍ من السماوات والأرض، ويغشى المجتمع الهدوء والراحة والأمن والاستقرار والسكينة والطمأنينة، ويدل على ذلك ما رواه أبو هريرة ﷺ فقـال: «قال رسول الله ﷺ: حَدٌّ يعمل به في الأرض خير لأهل الأرض من أن يُمطَروا أربعين صباحاً»[2]، وعلى هذا، يجب على الدولة الإسلامية أن تحافظ على المجتمع الإسلامي وتحمي قيمه، وتُعدَّه لحمل رسالته وإبلاغ دعوته، ونعم المعين على ذلك إقامة الحدود وتطبيق القصاص والتعزيرات.

---

(١) لا نقول إن المجتمع الإسلامي هو مجتمع الملائكة المعصومين، إنما نريد أن نقول: إن المجتمع الإسلامي يسوده دائماً تقوى الله وخشيته والعدالة والصلاح، وبما أن الإنسان عُرضة للخطأ والنسيان، فلا بد لكل عضو من أعضاء المجتمع أن يقوّي صلته بالله العليم الحكيم وأن يسارع إلى التوبة المشروعة بشروطها المعروفة، وبذلك يعود إلى حظيرة الخير في المجتمع الإسلامي ويقبلُ الله منه توبته ويغفر له والله غفور رحيم، ولكن الإصرار على المعاصي علانيةً وارتكاب الجنايات أمرٌ ينافي الطبيعة العاملة للمجتمع الإسلامي، لا يرضى عنه الله و لا رسوله ﷺ ولا عباده، وعليه حينئذ أن يواجه العقوبات التي يستحقها شرعاً.

(٢) رواه ابن ماجه، ٢/ ٨٤٨.

(هـ) توجيه الدعوة لتعميم هذا المجتمع

هذا آخر ما أردنا أن نذكر من مقومات الدعوة الإسلامية، وقد ذكرنا فيما سبق أنه كان من أهداف رسول الله ﷺ الدعوية تكوينُ مجتمع إيماني دعوي، فكوّنه، فإنشاء دولة تحرس ذلك المجتمع وتحمل رسالته، فأنشأها وجعلت تحافظ على قيم المجتمع لإبقائها على ذاتيتها الإسلامية، أما حملُ رسالة هذا المجتمع إلى الناس والعمل على تعميمه حتى تشملَ رحمةُ الله عباده جميعاً، فهو أمر جوهري جداً يقتضي أن يُعنَى بذكره بصفة خاصة، فنذكره فيما يلي:

بُعث محمد بن عبد الله ﷺ رسولاً إلى الناس كافة[1] ورحمةً للعالمين[2]، ولقد صرَّح القرآنُ الكريم بأن الله تعالى لن يقبل ديناً غير الإسلام[3]، كما جعله ديناً يجب أن يكون مهيمناً[4] على جميع أديان العالم، فكان ضرورياً جداً أن تُبرزَ معالمَ هذا الدين الحنيف على الناس جميعاً، وتعُمَّ رسالتُه العالم كافة، والإسلام دينٌ عمليّ أكثر من كونه نظرياً، ومن أجل ذلك كان الشغل الشاغل لرسول الله ﷺ تركيز الجهود والعناية بتربية أصحابه تربية دقيقة، وتنقية سمات المجتمع الإسلامي، وتهذيب نظام الدولة الإسلامية؛ إذ أن الدعوة إذا وُجِّهت إلى العالم فمن الطبيعي أن ينظر المدعوّن - أولاً وقبلَ كل شيء - إلى ما حققته هذه

---

(١) قال الله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾. [سورة سبأ، الآية: ٢٨].

(٢) قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾. [سورة الأنبياء، الآية: ١٠٧].

(٣) قال تعالى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [سورة آل عمران، الآية: ٨٥].

(٤) قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾. [سورة الفتح، الآية: ٢٨].

الدعوة في كيان حامليها من صفات عالية ومميزات فائقة - على نحو واقعي - مما يدعونهم إليه، وخصوصاً إذا وُجِّهت الدعوة إلى الأمم التي تزعم أن مجتمعها أرفق المجتمعات وحضارتها أسمَى الحضارات، فيكاد يكون واجبها أن يُبرَزَ تفوق مميزاتِ المجتمع الإسلامي على مميزات هذه المجتمعات المزعومة، ومن جهة أخرى كان ﷺ يعمل على إزالة العقبات من طريق الدعوة بالمعاهدات والغزوات والسرايا، ولمّا تمّ صلحُ الحديبية وزالت العقبة الكبرى - وهي قوة قريش المانعة - عن طريق الدعوة؛ وجّه رسول الله ﷺ عديداً من الرسائل الدعوية إلى ملوك الفُرس والرومان وأمراء الجزيرة وما حولها، فالرسائل التي أرسلها رسول الله ﷺ - في هذه المناسبة وفي مناسبات أخرى - يبلغ عددها مئتين وخمساً وسبعين رسالةً أو أكثر[1]، وكان مضمونُ جميع الرسائل الدعوية واحداً وهو: الدعوة إلى الله، وحسبُنا نصٌ واحدٌ من نصوص تلك الرسائل، فنذكر ههنا نصَّ الرسالة الكريمة التي وجهها ﷺ إلى هرقل عظيم الروم، وهو:



من محمد رسول الله

إلى هرقل عظيم الروم

سَلامٌ على من اتَّبعَ الهُدىَ

أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام، اسلِم تسلَم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين[2]،

---

(١) الوثائق السياسية، ص٣٩و٢٨١و٢٨٢.

(٢) من أجل إيمانه بعيسى عليه الصلاة والسلام، وإيمانه بخاتم المرسلين محمد ﷺ، كما جاء في حديث صحيح: «ثلاثة لهم أجران: (وذكر منهم) رجلٌ من أهل الكتاب آمن بنبيه وبمحمد ﷺ» الحديث، رواه البخاري، ٦/ ١٤٥.

وإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين[1]، ﴿ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾»[2].

ذهب دحيةُ[3] الكلبي رضي الله عنه بهذه الرسالة إلى الشام، ودفعها إلى عظيم بُصرى، وقدَّمها عظيمُ بُصرَى إلى هرقل وهو بإيلياء (بيت المقدس)، وحدث فعلاً ما ذكرناه آنفاً أن من دُعي إلى الإسلام أراد تلقائياً أن يستوثق مما يدعَى إليه، أحقٌّ أم لا؟ وما حقيقةُ هذه الدعوة؟ فأمرَ هرقلُ بإحضار بعض قريش، فأحضروهم، وجرى بينهما حوارٌ رواه الشيخان بالتفصيل[4].

وكانت رسائل رسول الله ﷺ مشتملة على مضمون الدعوة إلى الله دون تعرُّض مباشر إلى ملكهم ودولتهم، بل كلمة «أسلم، تسلم» تدل عل سلامة ملكهم في الدنيا وسلامة أنفسهم في الدنيا والآخرة، وقد صرح بذلك الرسول الكريم ﷺ في خطابه الذي وجَّهه إلى المنذر بن الحارث بن أبي شمر الغساني - حاكم دمشق - بقوله: «وأدعوك إلى أن تؤمن بالله وحده لا شريك له، ويبقى ملكُك»[5].

---

(١) **الأريسيين**: الفلاحين والزارعين، وخصَّهم بالذكر دون جميع الرعايا لأنهم الأغلب ولأنهم أسرع انقياداً، فإذا أسلمَ أسلموا، وإذا امتنعَ امتنعوا. شرح صحيح مسلم للنووي، ١٢/ ١٠٩.

(٢) رواه الشيخان، انظر: صحيح مسلم، ١٢/ ١٠٩.

(٣) هو: دحية بن خليفة بن فروة بن غضالة الكلبي، شهدَ أحُداً وما بعدها، كان جبريل يأتي أحياناً في صورته إلى النبي ﷺ، وكان يُضرَب به المثل في حسن الصورة، شهد معركة اليرموك وعاش إلى خلافة معاوية رضي الله عنه، توفي سنة ٤٥هـ. تهذيب تاريخ دمشق، ٥/ ٢٢٣،٢٢١.

(٤) صحيح البخاري، ١/ ٣١-٣٣.

(٥) البداية والنهاية، ٤/ ٢٦٨.

وأشار بذلك رسولُ الله ﷺ أن الدولة الإسلامية ليس من غايتها استلابُ الناس ممالكَهم ودولتهم، إنما توجّه الدعوة إلى الملوك والأمراء لمصلحتهم، فمَن قبلها انتقلتْ إليه واجبات الدولة الإسلامية من تربية الرعايا تربية إسلامية دقيقة، ورفع مستوى المجتمع العادي إلى مستوى المجتمع الإسلامي العالي، وأن تحرس دولته هذا المجتمع وتحمل رسالةَ الإسلام إلى من جاورها، ومن لم يقبل الدعوة الإسلامية كان معنى ذلك أنه يريد الحؤولَ دونَ قبول رعاياه هذه الدعوة التي تتحقق فيها مصلحتهم في الدنيا والآخرة، فيصير من واجب الدولة الإسلامية أن ترفع هذا الحاجز بين الدعوة وعامة الناس، فتحمل السلاح، وتبدأ حروبها من أجل إزالة العقبات عن طريق الدعوة[1]، فهذه هي الميزة البارزة للدولة الإسلامية الأولى، التي تكمن في انتشارها، المصلحة الحقيقية للبشرية قاطبة في الدنيا والآخرة، ولقد ساهم أصحاب رسول الله ﷺ في إبراز هذه الميزة الفائقة، فنريد أن نذكر بهذه المناسبة نصَّ خطاب خالد بن الوليد ﷺ إلى ملوك فارس، وهو:

(١) لا أتفق مع والدي رحمه الله في هذه النقطة؛ إذ لا أرى أن الإسلام يدعو إلى حمل السلاح بمجرد رفض حاكم أي دولة الإيمان بالله؛ لأن هذا الرفض وحده لا يعني بالضرورة محاربته للإسلام ودعوته، ولذلك كان من واجب قادة الجهاد الإسلامي الدعوة إلى دفع الجزية بعد الدعوة إلى الإسلام؛ لأن قبول دفع الجزية مع رفض الدخول في الإسلام يعني السماح لرسل الإسلام بالدخول إلى أراضي تلك الدولة بسلام، ومن ثم يترتب على هؤلاء الرسل أن يقوموا بنشر الدعوة بين العامة مستفيدين من فرصة دخول البلاد لجباية الجزية، وهكذا، فإنّ القتال لا يجوز ما دامت فُرَص الدعوة قائمة، وما دامت العداوة لم تُعلَن ضد الإسلام صراحةً. د. محمد عامر.

بسم الله الرحمن الرحيم

من خالد بن الوليد

إلى ملوك فارس

أما بعد، فالحمد لله الذي حلّ نظامَكم، ووهَّن كيدَكم، وفرَّق كلمتكم، ولو لم يفعل ذلك بكم كان شرًا لكم، فادخلوا في أمرنا ندَعَكم وأرضكم، ونجوِّزكم إلى غيركم، وإلا كان ذلك وأنتم كارهون على غلب على أيدي قوم يحبون الموت كما تحبون الحياة»[1].

فخلاصة جهاد رسول الله ﷺ في سبيل الدعوة الإسلامية أنه ربى شخصيات إيمانية عبقرية في إيمانها، وكوّن بهم مجتمعاً إيمانياً إسلامياً، وأنشأ دولة ترعى المجتمع وتحرسه وتحمل رسالته وتؤدي أمانته إلى الناس جميعاً، وكل ذلك في مدة ثلاث وعشرين سنة، وأورثَ الأمةَ كتابَ الله وسنة رسوله ﷺ كدستور أبدي لأفرادهم ومجتمعاتهم ودولتهم، وجمع - في حجة الوداع - هذه الأمة التي بذل في تربيتها جهوده الهادية المتواصلة على صعيد واحد - وهو ميدان عرفات - وكأن رسول الله ﷺ يقدم بذلك إلى الله عز وجل أمة جاهزة قد بذل في تربيتها وتهيئتها ما اللهُ به أعلم من الجهد والعناء، فها هي أمة مستعدة لتحمُّل مسئولية وراثة الأنبياء عليهم السلام الضخمة، وهي أداء أمانة الدعوة مستوفيةً جميع مقوماتها، وهو يسألهم: ألا هل بلَّغت؟ مراراً وتكراراً، وتشهد الأمة بلسان واحد: نعم قد بلغتَ الرسالة وأديتَ الأمانة، فيقول كلمته الجامعة: «فليبلغ الشاهد الغائب»[2].

وهكذا نقل الرسول الكريم ﷺ مسئولياته الضخمة إلى هذه الأمة، وتهيَّأ للَّحاق بالرفيق الأعلى، صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين.

---

(١) تاريخ الرسل والملوك، ٣/ ٣٧٠.

(٢) صحيح البخاري، ١/ ١٩٩.

المحافظة على أصالة الدعوة في العهد الراشدي:

إن العهد الراشدي أكملُ أدوار التاريخ الإسلامي وأعظمها بعد عهد النبوة من حيث المحافظة على أصالة الدعوة الإسلامية وجوهرها ومن حيث التزامها والنهوض بمسئولياتها، ولعلّنا لا نعدو الحق إذا قلنا إنه امتداد بشرى لعهد النبوة ذاته، وقد ساعدت هذا العصر الزاهر قوةُ الروح والأخلاق وقوة الدين والعلم وإحكام الأسباب المادية الممكنة في إبراز الشخصية الإسلامية الإيمانية وفي ظهور الحضارة الصالحة وفي ازدهار المدنية المثالية، ومن ثم أصبحت الدولة الإسلامية قوة سياسية رسالية تفوق كلَّ قوةٍ سواها؛ إذ كانت المُثل الخلقية العليا حَكَماً في حياة الناس ونظامِ الحكم، وحسُنت العلاقة فيما بين الأفراد والجماعة، وتفتحت رياحين الأخلاق والروحانية في كل بقعة من بقاع هذه الدولة المباركة، وصدق مَن ذهب إلى أن العصر الذهبي في تاريخ الإسلام كله هو عصر الراشدين(١).

وفي الحق، إن هذه الدولة المثالية كانت حجة قاطعة على النوع البشري بصدد إمكان المحافظة على أصالة الدعوة الإسلامية؛ إذ أنها أثبتت إثباتًا عملياً أن الحفاظ على كيان الأمة الداعية وعلى نظام الدولة الإسلامية الدعوية لم ينحصر في إمكان شخصية الرسول الكريم ﷺ المعصومة فحسب، بل أن ذلك في استطاعة أمته ﷺ غير المعصومة، حين تريد ذلك وتأخذ بأسبابه الموضوعية.

ولقد أشار إلى ذلك أبو بكر الصديق رضي الله عنه في موقفٍ حرجٍ لما لحق الرسول

---

(١) وقد فرضت هذه الحقيقة نفسها على المؤرخ النصراني (جرجي زيدان) على الرغم من نصرانيته وكيده المعروف للإسلام وتاريخه، فهو يقول: «هذا هو عصر الإسلام الذهبي، عصر العدل والتقوى، كانت الحكومة جارية فيه على سنن العدل والاستقامة والغيرة الحقيقية على الدين ونبذ الدنيا، وهو العصر الذي اتخذه المسلمون منوالاً ينسجون عليه، وكلما حادت دولة من دولهم عن جادة الحق طلبوا منها الرجوع إليه والسير على خطا الراشدين». تاريخ التمدن الإسلامي، ١/ ٢٦٤.

العظيم ﷺ بالرفيق الأعلى وفوجئ أصحابه رضوان الله عليهم أجمعين بهذا النبأ المذهل، وطار لُب كثير منهم من أصحاب العقلية العبقرية، فقال الصديق: «أيها الناس إنه مَن كان يعبد محمداً، فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، ثم تلا هذه الآية: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِين مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔاۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾[1].

وهكذا لفت أبو بكر ﷺ نظر الأمة إلى تلك الحقيقة الناصعة التي يجب عليها أن تجعلها نُصْب أعينها، الا وهي: أن الرسول عليه الصلاة والسلام قد أبلغ الرسالةَ وأدَّى الأمانةَ، وعلى الأمة أن تحمل هذه الرسالة بعده، وهي مكلفة بإقامتِها على وجه الأرض إلى يوم القيامة، وهذه الفريضة المحكَمة غير مربوطة بوجود شخصية الرسول الكريم ﷺ، فضلاً عن أن تكون مربوطةً بوجود شخصيات أخرى، فعلى الأمة كلَّما واجهتها مواقفُ حرجة حاسمة في حياتها أن تنظر دائماً إلى واجبها المتمثِّل في تعاليم الكتاب والسنة، وأن تنهض بهذا الواجب دون أن يؤثر في عزمها تقصيرُ المقصِّرين أو تواني المتوانين في الماضي والحاضر.

لا شك أن العهد الراشدي كان عهداً دعَوياً خالصاً كما شهد الواقع التاريخي، فلا نحتاج الآن أن نتوسع في بحثه، ولا سيما أنه ليس من صميم موضوعنا، وحسبُنا أن نلقي نظرةً موجَزة عليه، وهناك مثل معروف في الفارسية معناه: «أن المسك هو ما يفوح بنفسه ولا يحتاج إلى أن يعرِّف به العطار»، فسنعرض لهذا العهد الدعوي بإيجاز كالتالي:

---

(١) سيرة النبي، ٤/ ٤٤٧.

أولاً: مبادئ الراشدين في ضوء بعض خطبهم

(أ) أبو بكر الصديق ﷺ

بويع أبو بكر الصديق ﷺ بالخلافة بعد رسول الله ﷺ بناءً على كفاءته وتقواه[1]، ولم يكن قط حريصاً على هذا المنصب الجليل فهو يقول عن نفسه: «وأيم الله! ما حرصت عليها ليلاً ولا نهاراً، ولا سألتها اللهَ قطّ في سرٍّ ولا علانية»[2]، وبعد ما تمت بيعته الخاصة في سقيفة بني ساعدة، ثم بيعتُه العامة في مسجد رسول الله ﷺ[3]؛ ألقى أمام الناس خطبةً كانت بمثابة أول بيان رسمي يدلي به بعد مبايعته، فقال:

«أما بعد، أيها الناس، فإني قد وُليت عليكم ولستُ بخيركم، فإن أحسنتُ فأعينوني، وإن أسأتُ فقوّموني، الصدقُ أمانة، والكذبُ خيانة، والضعيف فيكم قويّ عندي حتى أرجع عليه حقَّه إن شاء الله، والقويّ فيكم ضعيفٌ عندي حتى آخذ الحقّ منه إن شاء الله، لا يدع قومٌ الجهادَ في سبيل الله إلا خذلهم الله بالذل، ولا تشيع الفاحشة في قوم إلا عمّهم الله بالبلاء، أطيعوني ما أطعتُ اللهَ ورسولَهَ، فإذا عصيتُ اللهَ فلا طاعة لي عليكم، قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله»[4].

ترسم هذه الخطبة خطوطاً رئيسة، يجب على كل رئيس للدولة الإسلامية الدعوية أن يجعلها معالم طريقه، ونودّ ههنا أن نشير إليها بإيجاز:

١- إن الخلافة ليست استعلاءً ولا تسلطاً، بل هي أمانة ومسئولية؛ فالخليفة

---

(١) الإمامة والسياسة، ١/ ١٦.

(٢) الإمامة والسياسة، ١/ ٢٢.

(٣) سيرة النبي، ٤/ ٤٥٦.

(٤) البداية والنهاية، ٦/ ٣٠١.

فردٌ من الأمة، ولا يجوز له أن يفتخر بنسب ولا يباهي بعنصر ولا يتعالى بالسلطة ولا يتجبّر بالحكم، وأشار إليه الصدِّيق بقوله: (إني قد وُلِّيت عليكم ولستُ بخيركم).

٢- لا يزعم الخليفة أنه منزّهٌ عن الخطأ؛ فهو بَشَرٌ مُعرَّضٌ لأن يحسن ولأن يسيء، وعلى الأمة أن تتعاون معه على ما أحسنَ بأداء كل فرد منها واجبه المَنوط به في جميع مجالات الحياة، وعليها أن تقوِّم الخليفة - بكل شجاعة وأمانة - وتعدّل سلوكه وتغيّر اتجاهه إذا ما رأته يميل عن سواء السبيل، وعلى الخليفة أن يقـبل نصحَ الناصحين، بل عليه أن يطلبه، قال الصدِّيق ﷺ: «إن أحسنتُ فاعينوني، وإن أسأتُ فقوِّموني».

٣- على الأمة الإسلامية - وفي مقدمتها رئيس الدولة الإسلامية - أن يلتزم الصدقَ ويتجنب الكذبَ، يلتزم الصدق في كل شيء، في القول والعمل وفي السياسة والحكم، فهو أمانةٌ يجب أن تؤدَّى بدقة، والكذبُ في أي من الأمور السابقة خيانة، يجب على المسلم أن ينزّه نفسه عنها، فالصدق والأمانة هما مصدر كل خير في حياة المسلم، والكذب والخيانة مصدرُ كل شر في حياته.

٤- القوي في الإسلام هو صاحب الحق كائناً من كان، والضعيف هو حليف الباطل كائناً مَن كان، هذا هو المبدأ المثالي في إقامة العدل في المجتمع الإسلامي.

٥- القتال في سبيل الله لإعلاء كلمته وإزالة العقبات عن طريق الدعوة، كيما تنتشر في الناس، ويَسعَدوا بها في دنياهم وآخرتهم، والحفاظ على العقيدة والشريعة واجب على الدولة الإسلامية، والإعراض عن هذا الواجب أو التأويل فيه مضيعةٌ للأمة ومجلبةٌ لذلها وهوانها.

٦- إن البلاء يقع بسبب الذنوب والمعاصي، ويرتفع بالتوبة والإنابة إلى الله، فعلى الأمة - وعلى رأسها إمام الدولة الإسلامية - أن تجعل هذه الحقيقة الناصعة نُصْبَ أعينها.

٧- أن طاعة الحكام مشروطة بطاعتهم لله ورسوله، فعلى الأمة أن تطيع الحكام في المعروف فقط، فلو أمروا بمعصيته تعالى فلا طاعة لمخلوق في معصية الله[١].

(بـ) عمر الفاروق رضي الله عنه:

وهذا الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول في خطبة له:

«أيها الناس! إنه لم يبلغ ذو حق في حقه أن يطاع في معصية الله، وإني لا أجد هذا المال يُصلحه إلا خِلالٌ ثلاث: أن يؤخذ بالحق ويُعطَى في الحق ويُمنع من الباطل، وإنما أنا ومالكم كوليِّ اليتيم، إن استغنيتُ استعففتُ، وإن افتقرتُ أكلتُ بالمعروف، ولست أدَعُ أحداً يظلم أحداً ولا يعتدي عليه حتى أضع خده على الأرض وأضعَ قدمي على الخد الآخر حتى يذعن للحق، ولكم عليَّ أيها الناس خصالٌ أذكرها لكم فخذوني بها، لكم عليَّ ألاّ أجتبي شيئاً من خراجكم ولا ما أفاء الله عليكم إلا مِن وجهه، ولكم عليَّ إذا وقع في يدي ألاّ يخرج مني إلا في حقه، ولكم عليَّ أن أزيد أعطياتكم وأرزاقكم إن شاء الله، وأسدّ ثغوركم، ولكم عليَّ ألاّ ألقيكم في المهالك ولا أجمركم في ثغوركم[٢]، وقد اقترب منكم زمانٌ قليلُ الأمناء كثير الفقراء قليل الفقهاء كثير الأمل، يعمل فيه أقوامٌ للآخرة يطلبون به دنيا عريضة تأكل دين صاحبها كما تأكل النار الحطب،

---

(١) أما الخروج عل الحكام الجائرين، فلا يجوز إلا إذا ظهر منهم كفرٌ بواح، وذلك لحديث رواه عبادة بن الصامت رضي الله عنه فقال: «دعانا رسول الله ﷺ فبايعناه، فكان فيما أخذ علينا أنْ بايعنا على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا، وعسرنا ويسرنا، وأثرة علينا، وألا ننازع الأمرَ أهلَه، قال: إلا أن تروا كفراً بواحاً عندكم من الله فيه برهان». رواه الشيخان، واللفظ لمسلم، ١٢/ ٢٢٨؛ وانظر: شرح العقيدة الطحاوية، ص٤٢٨-٤٣٠.

(٢) تجمير الجيش: جمعهم في الثغور وحبسهم عن العود إلى أهلهم. النهاية، ١/ ٢٩٢.

ألا كل من أدرك فليتق الله به وليصبر، أيها الناس! إن الله عظّم حقه فوق حق خلقه، فقال فيما عظّم في حقه: ﴿ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾[1]، ألا وإني لم أبعثكم أمراء ولا جبارين، ولكن بعثتكم أئمة يُهتدَى بكم، فأدرّوا[2] على المسلمين حقوقهم، ولا تضربوهم ولا تحمدوهم فتَفتِنوهم، ولا تُغلِقوا الأبواب دونهم فيأكلَ قويُهم ضعيفَهم، ولا تستأثروا عليهم فتظلموهم، ولا تجهلوا عليهم، وقاتلوا لهم الكفار طاقتَهم، فإذا رأيتم بهم كلالةً فكُفُّوا عن ذلك؛ فإن ذلك أبلغُ في جهاد عدوكم، أيها الناس! إني أشهدكم على أمراء الأمصار، أني لم أبعثهم إلا ليُفَقِّهوا الناس في دينهم ويَقسِموا عليهم فيئهم ويحكموا بينهم، فإن أشكل عليهم شيء رفعوه إليّ»[3].

ألا نلمس نحن في هذه الخطبة الغالية نفحاتٍ من العهد النبوي في السياسة والحكم؟ ألسنا نحن فيها الدليل الذي لا يُدفع على ما نذهب إليه من أن الدولة الراشدية هي امتداد الدولة النبوية، تلتزم حدودها وتترسم خطاها، وتتفيأ ظلالُها سياستها الداخلية والخارجية؟ إن تحليل معاني هذه الخطبة يقتضي تصنيف رسالة مستقلة، فنكتفي ههنا بأن نقول: إن الراشدين رضي الله تعالى عنهم فعلوا أكثرَ مما قالوا، والتاريخُ أكبر شاهدٍ على ما فعلوا، ولا شك أن المسكَ هو ما يفوح ولا يحتاج إلى أن يعرّف به العطار.

(ج) عثمان بن عفان رضي الله عنه

والخليفة الراشد الثالث عثمان ذو النورين لم يدَّخِر جهدَه في أن تستمر

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٨٠.

(٢) أدروا: أي يسروا لهم استيفاء حقوقهم، من (أدرت الناقة، فهي مدر، إذ أدر لبنها). لسان العرب، ٤/ ٢٨٠.

(٣) كتاب الخراج، ١٢٧-١٢٨.

الدولة على منهجها الدَعِوي، ومما يؤكد هذا المعنى تلك الأوامر التي أصدرها ذو النورين فيما بعد وهو خليفة، إليكم بعض النماذج منها:

١- كتب عثمانُ إلى عماله:

«أما بعد، فإن الله أمرَ الأئمة أن يكونوا رعاة، ولم يتقدم إليهم أن يكونوا جباة، وإنّ صدر هذه الأمة خُلقوا رعاة ولم يُخلقوا جباة، وليوشكن أئمتكم أن يصيروا جباة، ولا يكونوا رعاة، فإذا عادوا كذلك؛ انقطع الحياء والأمانة والوفاء، ألا إن أعدل السيرة أن تنظروا في أمور المسلمين فيما عليهم، فتعطوهم ما لهم وتأخذوا ما عليهم ثم تُثنّوا[١] بالـذمة، فتعطوهم الذي لهم وتأخذوهم بالذي عليهم، ثم العدوّ الذي تنتابون، فاستفتحوا عليهم بالوفاء»[٢].

٢- وكتب إلى أمراء الجيوش:

«أما بعد، فإنكم حماة المسلمين وذادتهم[٣]، وقد وضع لكم عمر ما لم يغب عنا، بل كان عن ملأ منا، ولا يبلغني عن أحد منكم تغيير ولا تبديـل، فيغيـر الله ما بكم، ويستبدل بكم غيركم، فانظروا كيف تكونون، فإني أنظر فيما ألزمني الله النظر فيه والقيام عليه»[٤].

٣- وكتب إلى عمال الخراج:

«فإن الله خلق الحق فلا يقبل إلا الحق، خذوا الحق وأعطوا الحق به، والأمانة الأمانة، قوموا عليها ولا تكونوا أولَ مَن يسلبُها فتكونوا شركاءَ مَن بعدَكم إلى ما اكتسبتم، والوفاءَ الوفاءَ، لا تظلموا اليتيمَ ولا المعاهدَ؛ فإن الله خصمٌ لمن

---

(١) ثم تثنوا بالذمة: أي ضَمّوا إليه أمرَ أهل الذمة إذا فعل أمرًا ثم ضم إليه آخر قيل: ثنى بالأمر الثاني. لسان العرب، ١٤/ ١١٥.

(٢) تاريخ الرسل والملوك، ٤/ ٢٤٤-٢٤٥.

(٣) الذادة: جمع ذائد: وهو الحامي المدافع. النهاية، ٢/ ١٧٢.

(٤) تاريخ الرسل والملوك، ٤/ ٢٤٥.

ظلمهم»[1].

(د) علي بن أبي طالب ﷺ:

وبرز على منصة التاريخ الخليفة الراشد الرابع علي بن أبي طالب ﷺ في مرحلة عصيبة من مراحل تاريخ الأمة الإسلامية؛ إذ كانت الفتنة الكبرى تتفاقم في جوانب العالم الإسلامي آنذاك، وقتل الخليفة الراشد الثالث ذو النورين مظلوماً، فانتخبه أهل الحل والعقد من الصحابة المهاجرين والأنصار، ولم يكن هو نفسه متطلعاً إلى هذا المنصب، بل رفض طلب المهاجرين والأنصار قائلاً: (لا حاجة لي في أمركم، أنا معكم، فمن اخترتم فقد رضيت به)[2]، ولما أصرّوا عليه وأجبروه على قبول هذا المنصب، صعد منبر رسول الله ﷺ وقال: «إني قد كنت كارهاً لأمركم، فأبيتم إلا أن أكون عليكم، ألا وإنه ليس لي أمرٌ دونكم، ألا إن مفاتيح مالكم معي، ألا وإنه ليس لي أن آخذ منه درهماً دونكم، رضيتم؟ قالوا: نعم، قال: اللهم اشهد عليهم»، ثم بايعهم[3].

وقال في أول خطبته التي ألقاها بعد ما تحمّل عِبء الخلافة:

«إن الله تعالى أنزل كتاباً هادياً، بيَّن فيه الخير والشر؛ فخذوا بالخير، ودعوا الشر، إن الله حرّم حُرماً مجهولة، وفضل حرمة المسلم على الحُرُم كلها، وشد بالإخلاص والتوحيد حقوق المسلمين، والمسلمُ مَن سلمَ المسلمون من لسانه ويده إلا بالحق، لا يحل لمسلم أذى مسلم إلا بما يجب، بادروا أمر العامة وخاصة أحدكم الموت؛ فإن الناس أمامكم، وإنما خلفكم الساعة تحدو بكم، فتخففوا تلحقوا، فإنما يُنتظر بالناس أخراهم، اتقوا الله عباده في عباده وبلاده؛ فإنكم

(١) تاريخ الرسل والملوك، ٤/ ٢٤٥.

(٢) تاريخ الرسل والملوك، ٤/ ٤٢٧.

(٣) تاريخ الرسل والملوك، ٤/ ٤٢٨.

مسئولون حتى عن البقاع والبهائم، ثم أطيعوا الله ولا تعصُوه، وإذا رأيتم الخير فخذوا به، وإذا رأيتم الشر فدعوه»[1].

لا شك أن هذه الخطبة مَعلَمٌ من معالم الدولة الدعوية، ولقد شهد التاريخ أن عمل علي بن أبي طالب ﷺ كان أثبتَ وأقرَّ بما قاله.

والحق أن الراشدين ﷺ صدقوا في قولهم وفعلهم وفي سياستهم للدولة، ونَحَوا نفس المنحى الذي عينوه في خطبهم في ضوء كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، والسر في نجاحهم بالحفاظ على مبادئهم الدعوية: زهدُهم الرائع وتقواهم المثالية، فلم يروا أنفسَهم فوق رعاياهم، كما لم يخطر ببال أحدٍ منهم - في حين من الأحيان - أن يدبِّر لتدعيم سلطته الشخصية، فلم يحدث أن تغيّر في حياتهم قبل الخلافة وبعدها، فيُروَى أن أبا بكر الصديق ﷺ كان يحلب للحي أغنامهم قبل أن يُلقَى على كاهلِهِ عبء الخلافة، واستمر في خدمته هذه بعد ذلك[2].

وفرض أصحابُ رسول الله ﷺ للصدِّيق بُردين، حتى إذا أخلقهما أخذ مثليهما، ودابةً إذا سافر، والنفقةَ لأهله بمقدار ما كان ينفق عليهم قبل توليه الخلافة[3]، وعاش الصديق على ما فُرض له، ولم يطلب زيادةً من بيت مال المسلمين، وقال عندما احتضر: «انظروا مُلاءتيَّ[4] هاتين، فإذا مت فاغسلوهما وكفنوني فيهما؛ فإن الحي أحوج إلى الجديد من الميت»[5].

وكذلك عمر الفاروق ﷺ كان يدخل على عجوز عمياء ويخدمها ويُخرج

---

(١) البداية والنهاية، ٧/ ٢٢٧-٢٢٨.

(٢) صفة الصفوة، ١/ ٢٥٨.

(٣) الطبقات، ٣/ ١٨٤و١٨٥.

(٤) الملاءة: الإزار أو الملحفة، جمعه: ملاء. لسان العرب، ١/ ١٦٠.

(٥) الطبقات، ٣/ ١٩٦.

عنها الأذى، واستمرَّ في هذه الخدمة بعد ما تولى منصب الخلافة[1]، ورآه الناس قائماً في الشمس في يومٍ شديد الحر يتفقد إبل الصدقة ويكتب ألوانها وأسنانها[2].

وها هو عثمان بن عفان رضي الله عنه ثالث الراشدين، يُقيل في المسجد، ويقوم وعلى جنبه أثرُ الحصى، وكان يُطعم الناسَ طعامَ الإمارة، ويدخل بيتَه فيأكل الخل والزيت[3].

وهذا علي بن أبي طالب رضي الله عنه رابع الراشدين، يتجوَّل في السوق وبيده الدرة، ولا يشتري ممن يعرفه شيئاً مخافةَ أن يُراعِيَه في الثمن، ويشتري من غلام لا يعرفه قميصاً بثلاثة دراهم، ولما أراد والدُ ذلك الغلام أن يرد إليه درهمًا؛ لأن ثمن القميص كان درهمين لم يقبله[4]، وخرج مرة إلى السوق ليبيع سيفه ويشتري بثمنه إزاراً كان يحتاج إليه، وقال: «لو كان عندي أربعة دراهم أشتري بهما إزاراً ما بعته»[5].

ثانياً: حياطة الراشدين البالغة لمقومات المجتمع الإسلامي:

لا ريب أن الراشدين رضي الله عنهم استطاعوا أن يحافظوا على أصالة الدعوة الإسلامية في الحكم بزهدهم الرائع وتقواهم المثالية، فكانوا أروع مثال للحياطة البالغة لمقومات المجتمع الإسلامي؛ إذ لم يتركوا فجوة يدخل منها الضعف والوهن في مجالات الإيمان والعمل والأخلاق والاجتماع؛ فإصرار أبي بكر

(١) صفة الصفوة، ١/ ٢٨١.

(٢) تاريخ الرسل والملوك، ٤/ ٢٠١.

(٣) صفة الصفوة، ١/ ٣٠٣.

(٤) البداية والنهاية، ٨/ ٤.

(٥) البداية والنهاية، ٨/ ٣.

الصديق ﷺ على إرسال جيش أسامة رغم إشارة أصحاب رسول الله ﷺ بإرجائه[1]؛ دليلٌ واضح على تمسكه بأهداب النبوة تمسكاً لا هوادة فيه، وكذلك عزمه وصموده على قتال أهل الردة[2]، ومباشرة ذلك شخصياً يدل على شدة محافظته على وحدة الإيمان والعمل في بيئة المجتمع الإسلامي، ولم يقتصر الصدِّيق على قمع فتنة الردة واستئصالها فحسب، بل اختار سياسةً حَذِرَة غاية الحذر ودقيقةً غاية الدقة في معالجة هذه الفتنة، إذ لم يَسمَح لهؤلاء الذين اكتسحهم سيل الردة بالتسرب في المجتمع الإسلامي، فكان لا يستعين في الجهاد بأحد من أهل الردة، وجعل ذلك جزءاً من سياسته وبرنامجه في الحكم، فكتب إلى عماله: «أما بعد! فإن أحبَّ مَن أدخلتم في أموركم إليّ: مَن لم يرتدّ ومن كان ممن لم يرتد، فأجمعوا على ذلك، فاتخذوا منها صنائع، وائذنوا لمن شاء في الانصراف، ولا تستعينوا بمرتدٍّ في جهاد عدو»[3]، كما كتب إلى خالد بن الوليد وعياض[4] بن غنم رضي الله عنهما: «ولا يغزُوَنَّ معكم أحدٌ ارتدّ، حتى أرى رأيي»[5].

ويبدو لنا من هذا الموقف الذي وقفه الصدِّيق ﷺ دقةَ نظره وعمقَ فكره ومبلغَ حياطته بسلامة الإسلام وسلامة مجتمعه.

وكان الفاروق ﷺ أذنَ لمن ارتد أن يشارك في جهادهم، وذلك بعد ما قوي

---

(١) البداية والنهاية، ٦/ ٣٠٩.

(٢) تاريخ الخلفاء، ٧٤-٧٥.

(٣) تاريخ الرسل والملوك، ٣/ ٣٤١.

(٤) هو عياض بن غنم بن زهير بن أبي شداد القرشي، أسلم قبل الحديبية وشهدها، كان ابن عم أبي عبيدة، استخلفه أبو عبيدة بالشام عندما احتضر: فأقره الفاروق، وهو الذي فتح بلاد الجزيرة، كان صالحاً فاضلاً سمحاً يسمى: زاد الركب، لأنه كان يطعم الناس زاده، فإذا نفد نحر لهم جمله، توفي بالشام سنة عشرين. أسد الغابة، ٤/ ٣٢٧-٣٢٩.

(٥) تاريخ الرسل والملوك، ٣/ ٣٤٧.

أمر المسلمين، فرأى ألاّ تبقى هذه القوة معطَّلة، ولكنه أيضاً كان حذِراً جداً في هذه المعاملة، فكتب إلى سعد بن أبي وقاص ﷺ ألاّ يولّي أحداً من رؤساء أهل الردة على مائة[1]، ومن جهة أخرى كان الفاروق ﷺ يحذّر غاية الحذر أن يتسرب في زمرة عماله من المنافقين، وأيٌّ خطر أخطر على الإسلام من النفـاق؟ إن النفاق - سواء كان عملياً أم اعتقادياً - كمثل سوسٍ يصيب الغلة فيأكلها ويفسدها، ولا يعلم صاحبها خطر الدمار الذي أتت به هذه الحشرة الصغيرة، وكذلك النفاق يأكل شجرة الإيمان والعمل من داخلها ويتركها جوفاء خاوية، ولا يشعر به إلا من أعطاه الله قلباً سليماً وبصيرة نافذة، ومن هنا تُعرف قيمةُ شدةِ حياطة الخليفة الراشد الثاني في هذا الأمر، فسأل مرة حذيفة بن اليمان ﷺ: أفي عمالي أحد من المنافقين؟ وكان حذيفة صاحبَ سرِّ رسول الله ﷺ في المنافقين، بحيث لم يخبر الرسول الكريم ﷺ عن المنافقين وأسمائهم أحد من الصحابة غير حذيفة، فقال حذيفة: نعم، ولكن لم يدلّ عليه مباشراً، فعرفه عمر ببصيرته وعزلَه، وكان عمر إذا مات ميتٌ يسأل عن حذيفة، فإن حضر الصلاة عليه صلَّى عليه عمر، وإن لم يحضر حذيفة لم يحضر عمر[2]، وهكذا لم يستطع النفاق أن يستشري في المجتمع الإسلامي في العهد الراشدي، وخصوصاً في دعائم الدولة وهي: عمال الولايات.

وكان من حياطة الفاروق البالغة لمقومات المجتمع أنه لم يحبذ تزوُّجَ غير المسلمات لعماله، فعلم أن حذيفة بن اليمان ﷺ تزوج غيرَ مُسلمة[3]، وكان والياً على المدائن في تلك الأيام، فأمره أن يطلّقها، وطلَّقها بعدما اقتنع من

(١) تاريخ الرسل والملوك، ٣/ ٥٥٧.

(٢) أسد الغابة، ١/ ٤٦٨.

(٣) كانت يهودية. انظر: الجصاص، أحكام القرآن، ١/ ٣٣٣.

استدلال الفاروق[1].

ولا يظهر سر هذا الفكر الفاروقي العميق ودقتة وأبعاده، إلا بإمعان النظر في تاريخ الإسلام، وفيما مرَّ به العالم الإسلامي من الضعف والشيخوخة في الحكم، وما عاناه من الانحطاط والانهيار والشتات، بأنه كان للزواج بغير المسلمات أثر بعيد في ذلك، ولا سيما إذا كنَّ زوجاتٍ للزعماء[2].

ويدلّ كذلك على شدة حياطة عمر لمقومات المجتمع الإسلامي ما فعله برجل يقال له صبيغ، كان يتجول في معسكرات الجيوش الإسلامية و يتساءل عن متشابهات القرآن، فقبض عليه عمرو بن العاص ﷺ عامل مصر، وبعثه إلى الفاروق، فضربه عمر حتى أدمى رأسه، فقال صبيغ: «يا أمير المؤمنين، إن كنتَ تريد قتلي فاقتلني قتلاً جميلاً، وإن كنتَ تريد أن تداويَني، فقد ذهب الذي كنت أجد في رأسي»، فخلَّى سبيله، ولكن كتب إلى أبي موسى الأشعري ﷺ عامل البصرة ألاّ يجالسه أحد من المسلمين، فكان الناس إذا رأوه يأتي إلى مجالسهم قاموا وتفرّقوا ولو كانوا مائة[3].

وهل كان التساؤل عن متشابهات القرآن جريمةً نكراء تستحق تلك العقوبة الموجعة التي عاقب بها عمر صبيغاً؟ الظاهر لا يوافقه، ولكن إذا نظرنا في أبعاد

---

(١) تاريخ الرسل والملوك، ٣/ ٥٨٨.

(٢) ونضرب لذلك مثلاً فقط: السلطان العظيم سليمان القانوني (١٥٢٠م-١٥٦٦م) الذي كان من أعظم حكام عصره، كانت له زوجة يهودية روسية اسمها (خرم) أي الباسمة، استطاعت هذه الزوجة الأجنبية أن تُنكّب الدولة العثمانية نكَباتٍ فاقرةً؛ بتدبير اغتيال ولي عهد السلطان نفسه، وهو ابنه مصطفى، واغتيال بعض الوزراء الذين كانوا من أكبر دعائم الدولة، ففعلت بهم هذه اليهودية ما فعلت، وإنّ في خبرها لعبرةً لمن كان له قلب. تاريخ الدولة العثمانية، ٣٧-٣٨.

(٣) سنن الدارمي، ١/ ٥٤-٥٦؛ و تهذيب تاريخ دمشق، ٦/ ٣٨٧.

ما ارتكبه صبيغ، تبيَّن لنا إصابة رأي عمر ودقة نظره وعمق فكره، فلا يخفى على الذين لهم علمٌ بنشاط عملاء الحركات الهدّامة المعاصرة، أنهم يعملون غالباً على جبهتين، وهما: الجيش، والتعليم، فيستغلون قلة صلة الجنود بالمعارف الإسلامية وغيرها وجوانب ضعفهم الأخرى، كما يستغلون نعومة فكر النشء الجديد في المدارس والمعاهد والجامعات، فكان تجوّل صبيغ العراقي في معسكرات الجيوش خطراً تنبهت إليه بصيرة عمر الفاروق، فعالج القضية حسب مقتضاها على الفور.

وفي الحق تحتاج الدولة الإسلامية الدعوية إلى هذه النباهة الفكرية وإلى هذه الحياطة البالغة لمقومات المجتمع الإسلامي أكثر من الماضي في الحاضر، وأكثر من الحاضر في المستقبل؛ لأن بُعد الزمان مِن خير القرون يفتح أبواباً متنوعة للشر والفساد، فتشتد حاجة سد الأبواب من هذه النسبة، والتاريخ الإسلامي شاهد - مع الأسف الشديد - على أن الدولة الإسلامية لم تنحرف عن الجادة الدعوية إلا بسبب ضعف مسئوليها في جانب هذه النباهة الفكرية والحياطة البالغة اللتين كانتا من أهم مميزات الراشدين رضي الله تعالى عنهم.

ثالثاً: دعوية الحكم الراشدي في ضوء علاقاته الخارجية

وأما دور الراشدين في المجال الخارجي وهو: حمل رسالة الإسلام إلى الناس كافة، فقد أدوا واجبهم بغاية الحكمة والحنكة، ونجد هذه الحكمة والكياسة في وصايا الراشدين لأمراء الجيوش وفي رسائلهم، فاقرءوا وصايا الصدِّيق(١)

(١) اقرأ نص هذه الوصايا بكاملها في:

١- عيون الأخبار لابن قتيبة، ١/ ١٠٨-١٠٩.

٢- العقد الفريد لابن عبد ربه، ١/ ١٢٩.

٣- الكامل في التاريخ لابن الأثير، ٢/ ٢٧٦-٢٧٧.

الموجهة إلى يزيد بن أبي سفيان حين بعثه إلى الشام، واقرءوا وصايا الفاروق[١] إلى سعد بن أبي وقاص رضي الله عنهم أجمعين، تجدوها تنم عن الكياسة الراشدية العبقرية، وتوضّح أهدافهم الدعويةَ العَطِرة، كما أنها تبرز أخلاق المسلمين الفاضلة وسلوكهم المتميز إزاء أعدائهم وإن كانوا محاربين، وقد يخيل لمن يسمع هذه الوصايا - وهو لا يعرف صاحبها - أنها صدرت من معلّم مرشد شفيق، لا من حاكم تهاوت الممالك أمام جحافله، ولكن لا غرو! فإنها خرجت من قلب قد اعتبر الدولة بكاملها أداةً من أجل مصلحة الدعوة التي تكمن فيها المصلحة الحقيقية للبشر قاطبةً في آجلتهم وعاجلتهم، ونلمح في آفاق هذه الوصايا نُضجاً ومهارةً متفوقَين في معالجة علاقات الدولة الدعوية بأعدائها.

وهناك معاهدات الصلح للراشدين، وهي تنم عن أبعاد أهدافهم السامية في حروبهم من أجل مصلحة الدعوة، وتبرز استقامتهم على الروح الدعوية لدولة الإسلام، كما كانت هذه المعاهدات تكفل مصالح المستسلمين للدولة الدعوية إلى أبعد حد ممكن، وتُهَيِّئ لهم الجو المناسب ليعاشروا المسلمين، وليشاهدوا البركات التي فتحها الله على المسلمين، ولِينظروا عن كثب إلى الجو المثالي الرائع للمجتمع الإسلامي الدعوي، فلعلهم ينتفعون بالهداية الربانية.

ويمكن أن نلخص تلك المباديء الأساسية التي تشملها هذه المعاهدات كالآتي:

(أ) إعطاء الأمان للمعاهَدين على أنفسهم وأموالهم وأديانهم ومعابدهم.

(ب) تعيين الفئات التي تشملها المعاهدة، وإعطاؤها حرية الاختيار بين الإقامة في البلاد أو الخروج منها، ومن خرج فله الأمان حتى يبلغ مأمنه.

---

(١) اقرأ نص هذه الوصايا بكاملها في العقد الفريد، ١/ ١٣٠-١٣٢.

(ج) فرضُ الجزية عليهم قدرَ الطاقة وبشروط محددة[1].

(د) وضعُ الجزية عمَّن يستعين بهم المسلمون في الحروب[2].

(هـ) تكفل الدفاع عن المعاهدين[3].

(و) إبرازُ سيطرة الحكم الإسلامي على المعاهدين[4].

(ز) المحافظة على مقومات الكيان الإسلامي وعدم السماح بتسرب خصائص أخرى إليها؛ كيما يبقى سليماً قوياً قادراً على حمل الرسالة وأداء الأمانة اللتين أنيطتا به.

(ح) وقد تضاف شروط تقتضيها الظروف وتحقيق الأهداف.

وجاءت الدولة الراشدية بفضل سياستها الدعوية وبحكم هذه الوصايا القيمة والمعاهدات العادلة بثمرات كثيرة في حقل الدعوة الإسلامية، وانتشرت الدعوة في جزء كبير من المعمورة في مدة لا تتجاوز ربع القرن[5]، ولم يكن فتح

---

(١) مبادىء عامة تشمل كل معاهدة الصلح للمسلمين في تلك الأيام، انظر على سبيل المثال: نص معاهدة إيلياء (بيت المقدس). تاريخ الرسل والملوك، ٣/ ٦٠٩.

(٢) انظر نص معاهدة أهل جرجان. تاريخ الرسل والملوك، ٤/ ١٥٢.

(٣) كتاب الخراج، ١٥٠.

(٤) انظر نص معاهدة الصلح بنصارى الشام:

١- ابن حزم، المحلى، ٧/ ٤٠٥.

٢- ابن عساكر، تهذيب تاريخ دمشق، ١/ ١٧٩.

٣- ابن القيم، أحكام أهل الذمة، ٦٥٧-٨٧٣.

(٥) كان قد وصل الفتح الإسلامي في عهد الخليفة الراشد الثالث عثمان بن عفان ذي النورين في سنة ثلاثين: في الشرق إلى سجستان وكابول (عاصمة أفغانستان) وفي الشمال: إلى جرجان وطبرستان، وفي المغرب الشمالي إلى أرمينية، وفي الغرب إلى قرطاجنة (طرابلس) وشمال قارة إفريقية. فتوح البلدان، ٤١١،٢٦٧،٤٨٥،٤٨٤؛ والكامل في التاريخ، ٣/ ٨٣-٨٦و٩٢و١٢٨.

الراشدين فتحًا للبلاد والأقطار فحسب، إنما كان فتحهم فتحَ القلوب والمشاعر، وامتلاكَ الأذهان والعواطف، ويكفي أن نضرب لذلك مثالاً واحداً:

كانت الجيوش الإسلامية زاحفة على أرض الشام تفتح القرى والمدن، فتآمرت الروم أن تقاوم هذه القوة الزاحفة بكل عُددها وعُدَّتها واجتمع جمع كبير لهم بميدان اليرموك، وكان أبو عبيدةُ بن الجراح أميرُ الجيوش الإسلامية قرر بعض تسهيلاتٍ للمعاهدين، فأصبحوا جواسيس للمسلمين، وكانوا يأتون إليهم بأخبار الروم، فجاءوا بخبر اجتماع الروم في اليرموك، فكتب أبو عبيدة إلى جميع من تولى إمارة البلاد المفتوحة أن يرد إلى المعاهدين ما جُبي منهم من الجزية والخراج، ويُصَرِّحَ لهم بأن هذا المال أخذناه بشرط أن ندافع عنكم، أما الآن فلا نقدر على ذلك فنردّه إليكم، ونحن على عهدنا إذا انتصرنا على عدونا بإذن الله، ولما خرج المسلمون إلى اليرموك ليقاوموا هناك القوة المجتمعة للروم، قال أهل الذمة: «ردَّكم اللهُ علينا، ونصركم عليهم، فلو كانوا مكانكم، لم يردُّوا علينا شيئاً وأخذوا كل شيء بقي لنا حتى لا يدعوا لنا شيئاً»[1].

فلا شك، أن الدولة الراشدية كانت دولة دعوية خالصة، وامتداداً بشرياً لعهد النبوة، وجاءت بعدَها دولةُ بني أمية، وسوف نرى فيما يلي مدى ثبات هذه الدولة على المبادىء الدعوية إن شاء الله.

(١) كتاب الخراج، ١٤٩و١٥٠.

الدعوة في ظل الأمويين

لقد استعرضنا الدعوة الإسلامية في أصالتها وجوهرها في العهد النبوي، كما استعرضنا امتدادها السوي في العهد الراشدي، أما العهد الأموي، فنعتبره جسراً إلى العصر العباسي الذي هو صلبُ موضوعنا، ولذا فإننا نعرض له في إيجاز حتى نصير إلى الكلام في العهد العباسي.

[قامت الدولة الأموية على يد الصحابي معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما عام ٤١هـ متخذة من دمشق عاصمة لها، وقد نجح معاوية الذي حكم من ٤١ إلى ٦٠هـ في إعادة الوحدة إلى جماعة المسلمين بعد سنوات من الفتنة والانقسام، ولذا عُرف العام الذي بويع فيه بالخلافة بعام الجماعة، وأما عبد الملك بن مروان الذي حكم من ٦٥ إلى ٨٦هـ؛ فقد سجل له التاريخ عدداً من الإنجازات، حيث أعاد تأسيس الدولة الأموية من جديد بعد أن تأرجحت على حافة السقوط عدة سنوات نتيجة بعض الدعوات المناهضة للدولة وفي مقدمتها دعوة عبد الله بن الزبير في الحجاز، فاستطاع القضاء على هذه الدعوة ومن ثم إعادة الوحدة السياسية إلى جماعة المسلمين وبالتالي قدرتهم على مواجهة التحديات الخارجية، كما ساهم عبد الملك في التنمية الاقتصادية للدولة الإسلامية بتحقيق استقلال العملة الإسلامية عن التبعية البيزنطية.

وبرز في تاريخ الدولة الأموية كذلك الوليد بن عبد الملك الذي حكم من ٨٦ إلى ٩٦هـ؛ حيث تحققت في عهده حركة الفتوحات الكبرى في تاريخ الإسلام بعد فتوحات عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقد أوصل قاداتُ عبد الملك نورَ الإسلام إلى بلاد السند في المشرق وإلى بلاد ما وراء النهر في الشمال وإلى شمال أفريقيا والأندلس في المغرب، وضُمت جميع هذه المناطق الجديدة إلى الدولة الإسلامية، وارتفع فيها الأذان وذُكر فيها اسم الله تعالى، وحقق عبد

الملك كذلك عدداً من الإصلاحات الداخلية المتمثلة في إنشاء مستشفيات (بيمارستانات) ودور الضيافة وما نعرفه اليوم باسم الأعمال الخيرية من مساعدة العميان والمساكين وإطعام الفقراء في شهر رمضان.

ولعل أبرز خلفاء بني أمية هو الخليفة الزاهد عمر بن عبد العزيز رحمه الله الذي حكم من عام ٩٩ إلى عام ١٠١هـ، وقيمة هذا الرجل التاريخية تبرز في أنه استطاع - وبنجاح - أن يعيد أسس الحكم في الدولة الأموية إلى الأصول الإسلامية النقية وبذلك استحق لقب «خامس الخلفاء الراشدين»، وبهذه الحركة الإصلاحية قدّم عمر بن عبد العزيز للأجيال التالية تطبيقًا عمليا في إمكانية محاكاة فترة الخلافة الراشدة مهما تباينت الأحوال وابتعد الزمان، فرحمه الله رحمةً واسعة.

وبعد هذا الإيجاز وتقديم الإيجابيات العامة للدولة الأموية نلقي نظرة أوسع إلى خلفاء هذه الدولة وإلى مدى تمثلهم للروح الإسلامية الصافية، تلك الروح التي كانت نابضة طوال العهد الراشدي المبارك دون التأثر بالمتغيرات والأهوال](1).

يعتبر المؤرخون معاوية بن أبي سفيان - رضي الله تعالى عنهما - مؤسساً للدولة الأموية؛ فهو الذي اختار ابنه يزيد ولياً لعهده، وبغضٌ النظر عن كون هذه الخطوة صواباً أو خطأً، فقد استبدلت هذه الخطوة بطريقة الشورى الراشدية طريقةً أخرى، ونتيجةً لذلك حدثت الكثير من المآسي في التاريخ الإسلامي، ولكنّ هذا لا يبرر لنا أن نسيء الظن في نية معاوية ﷺ، أو نُنسِب إليه نتائج كلٌ من هذه المآسي، وذلك لأمرين:-

أولاً: كل من جاء بعد معاوية من الخلفاء، لم يكن مكلفاً أن يتبعَ اجتهاد معاوية في انتهاج نظام الحكم الذي انتهجه، وإنما كان مكلفاً أن يتبع ما يجده في

---

(١) مختصر التاريخ الإسلامي، ص٨-١٠.

الكتاب والسنة، فإذا اختار اجتهاد معاوية، اختاره برأيه واجتهاده فهو المسئول عن رأيه واجتهاده.

ثانياً: قال معاوية عن نفسه: «واللهُ على ذلك شهيد: ما كنت لأُخَيِّرَ بين الله وغيره، إلا اخترتُ اللهَ على غيره مما سواه»[1]، فلا يجوز لأحدٍ أن ينسب إليه سوءَ النية فيما فعله طول عهد حكمه وإمارته، فهو صحابي قد اجتهد، فإن أصاب فله أجران، وإن أخطأ فله أجرٌ واحد.

أما حكمُ معاوية ﷺ، فنعتبره حكماً إسلامياً دعوياً أعملَ فيه اجتهادَه بنحوٍ من الأنحاء، وقد أثنى عليه بعض الصحابة الكبار: يروى أن سعد بن أبي وقاص ﷺ قال: «ما رأيتُ أحداً بعد عثمان أقضى من صاحب هذا الباب»[2] يعني معاوية، كما يروِي عن حَبر الأمة عبدِ الله بن عباس رضي الله عنهما قولـه: «ما رأيت رجلاً أخلق بالملك من معاوية»[3].

لقد أسس ﷺ دولةً تُرهب العدو وتُبزُّه في العظمة والأُبَّهة والروعة والبهاء والإعداد والاستعداد والعَدد والعُدة، وتُبرزه في ميدان السياسة الخارجية والمواقف الدولية، وحفظَ على الرعية - في السياسة الداخلية - مبادئَ الشريعة الإسلامية التي تُهيِّء لهم فرص السعادة والرِّفاهية في إطار ما أجازه الإسلام وأباحه.

ولكن كان هذا الجمع بين القديم الصالح والجديد النافع، جسراً رقيقاً ودقيقاً، أرق من الشّعرة وأحد من السيف، فمن عبره بتوفيق الله سبحانه وتعالى فقد عبر، ومن التفت يميناً وشمالاً سقط، وكان معاوية ﷺ ممن عبر هذا الجسر

---

(١) البداية والنهاية: ٨/ ١٣٤.

(٢) البداية والنهاية: ٨/ ١٣٣.

(٣) البداية والنهاية: ٨/ ١٣٥.

الرقيق بتوفيق الله تعالى سالماً وغانماً كما شهد به علماء هذه الأمة، فقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «فلم يكن من ملوك المسلمين ملكٌ خيراً من معاوية، ولا كان الناس في زمان ملكٍ من الملوك خيراً منهم في زمن معاوية، إذا نُسبت أيامه إلى أيامِ مَن بعده، وأما إذا نُسبَتْ إلى أيام أبي بكر وعمر، ظهر التفاضل»[(١)].

وقال الحافظ ابنُ كثير رحمه الله: «وأجمعت الرعايا على بيعته في سنة إحدى وأربعين ٤١هـ، فلم يزل مستقلاً بالأمر في هذه المدة إلى هذه السنة التي كانت فيها وفاته، والجهاد في بلاد العدو قائم، وكلمةُ الله هي العليا، والغنائم تَرِدُ إليه من أطراف الأرض، والمسلمون معه في راحة وعدل، وصفح وعفو»[(٢)].

أما الخلفاء الأمويون الذين جاءوا بعد معاوية ﷺ فلم يستطيعوا - عدا عمر بن عبد العزيز رحمه الله - أن يحاكوا معاوية في اجتياز الجسر بسلام وأن يسوّغوا ما يقتضيه هذا الموقف الحرج، واكتسحهم سيل حب السلطة، فبدأ كل من اعتلى عرش السلطة أعماله بإزالة العقبات عن طريق تدعيم سلطته وسطوته، فمن الطبعي جداً أن تتراكم العقبات في جهة أخرى، ألا وهي جهة الدعوة التي هي أساس الدولة الإسلامية، وهي لا تبرر نزعةَ تدعيم السلطة الشخصية.

ومن ثم بدأت الدولة تنحرفُ شيئاً فشيئاً عن هدفها الأصلي، وتحوّلَتْ عن منحى الدولة الإسلامية الدعَوِيّ، ونريد أن نذكر نبذة من تلك التحولات الحيوية التي غيرت اتجاه الدولة الإسلامية عن وجهتها الدعوية:

(أ) سفك الدماء لتدعيم السلطة:

إن السلطة ليست مقصودة بذاتها في الدولة الدعوية، إنما السلطة فيها لاستخدامها في إقامة حدود الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ونجد أمثلةً

---

(١) منهاج السنة: ٣/ ١٨٥.

(٢) البداية والنهاية: ٨/ ١١٩.

كثيرة منها في الدولة النبوية والراشدية، نكتفي بذكر مثال واحد مدهش، هذا سواد[1] بن غزية الأنصاري ﷺ قد برز من الصف يوم بدر، والرسولُ الكريم ﷺ يُعدّل صفوف أصحابه، وبيـده سهمٌ فطعن به في بطن سواد وقال: استوِ يا سواد! قال سواد: أوجعَتني يا رسول الله وقد بعثك بالحق والعدل، فأَقِدْني، فيكشف رسول الله ﷺ عن بطنه ويقول له: استقد، فاعتنقه وقبله، فقال: ما حملك على هذا يا سواد؟ قال: حضر ما ترى يا رسول الله، فأحببت أن يكون آخر عهدي بك أن يمسَّ جلدي جلدك[2].

إن هذا المشهد الرائع أعطانا مستوًى رفيعاً للدولة الدعوية، وأبان لنا أن السلطة فيها ليست لتدعيم الشخصيات، وإذا استخدمت السلطة لتدعيم الشخصيات بدأ من هنالك الانحراف عن جادة الدعوة، ولم ينحرف الراشدون عن هذه الجادة ولكن رأينا خلفاء بني أمية - باستثناء بعض منهم - بالغوا في استخدام السلطة لتدعيم سطوتهم، ألم تكن وقعة الحَرَّة لتدعيم السلطة الشخصية؟، وهل تباح دماء المسلمين وأعراضهم لمصلحة الدعوة؟، [فلمَ] استباح المدينةَ جيشُ يزيد لثلاثة أيـام؟[3].

وأعجب منه حال عبد الملك بن مروان الذي أنكر إنكاراً شديداً على جيش يزيد الذي وجهه إلى مكة لمحاربة عبد الله بن الزبير[4] رضي الله عنهما ثم فعل

---

(١) هو سواد بن غزية بن وهب بن بلي بن عمرو بن إلحاف بن قضاعة، من البدريين، وشهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، كان عامل رسول الله ﷺ على خيبر، لم أعثر له على سنة وفاته. انظر ترجمته في الطبقات: ٣/ ٥١٦؛ وأسد الغابة: ٢/ ٤٨٤.

(٢) سيرة النبي: ٢/ ٣١٠-٣١١.

(٣) الإمامة والسياسة: ١/ ١٨٠-١٨٥؛ والبداية والنهاية: ٨/ ٢١٧-٢٢٢.

(٤) تاريخ الخلفاء: ٢١٧.

بعبد الله هذا ما فعل بعدما تولى السلطة[1]، كما أنه غضَّ بصره عن كل ما فعله عامله السفاك الحجاج بن يوسف الثقفي لتدعيم سطوته، قيل: إن عدد من قتلهم الحجاج صبراً بلغ مائة ألف وعشرين ألفاً وفيهم بعضٌ من الصحابة وأكابرُ التابعين، وعدد ما بقي في سجن الحجاج بعد موته كان ثمانين ألفاً، منهم ثلاثون ألف امرأة، واستُعرضت السجون بعد الحجاج، فوجدوا فيها ثلاثة وثلاثين ألفاً لم يجب على أحد منهم قطعٌ ولا صلب[2]، وعبد الملك يستحسن فعل الحجاج فيقول في وصيته لابنه الوليد: «وانظر إلى الحجاج بن يوسف فأكرمه، فإنه هو الذي مهَّد لك البلاد وقهر الأعداء وخلص لكم الملك وشتت الخوارج»[3].

وكيف لا يستحسن عبد الملك أعمال عامله الحجاج بن يوسف! إذ أنه كان نفسه يميل إلى سفك الدماء في سبيل تدعيم السلطة، يقول عنه المسعودي[4]: «وكان له إقدام على الدماء[5]، وكان عماله على مثل مذهبه، كالحجاج بالعراق، والمهلب[6] بخراسان، وهشام[7] بن إسماعيل بالمدينة، وغيرهم (بغيرها)، وكان

---

(١) الإمامة والسياسة: ٢/ ٢٣-٢٥؛ والبداية والنهاية: ٨/ ٣٢٩-٣٤٥.

(٢) البداية والنهاية: ٩/ ١٣٦؛ وتاريخ الخلفاء: ٢٢٠.

(٣) البداية والنهاية: ٩/ ٦٧.

(٤) مروج الذهب: ٣/ ٩٩.

(٥) البداية والنهاية: ٩/ ٦٣.

(٦) هو أبو سعيد المهلب بن أبي صفرة ظالم بن سراقة بن صبح بن كندي الأزدي، كان من أشجع الناس، وحمى البصرة من الخوارج، وله معهم وقائع مشهورة، قاد عدة معارك، استعمله الحجاج على خراسان، وظل والياً عليها حتى توفي في سنة ٨٣هـ. انظر ترجمته في وفيات الأعيان، ٥/ ٣٥٠-٣٥٩.

(٧) هو هشام بن إسماعيل بن هشام بن الوليد بن المغيرة المخزومي، صهر عبد الملك بن مروان، هو الذي أجبر آل علي بالمدينة على شتم آل الزبير، وأجبر آل الزبير على =

الحجاج من أظلمهم وأسفكهم للدماء».

ويقول عبد الملك نفسه بعد مقتل عبد الله بن الزبير: «وأيم الله لا يأمرني أحد بتقوى الله بعد مقامي هذا إلا ضربت عنقه»[1]، ويقـول في وصيته للوليد: «وإذا متُّ فادع الناسَ إلى بيعتك، فمَن أبَى فالسيف»[2].

وهذا الوليد بن عبد الملك، يحمل نزعة أبيه نفسها من سفك الدماء لتدعيم السلطة، قال في خطبته الأولى: « أيها الناس! من أبدى لنا ذات نفسه، ضربنا الذي في عينيه، ومن سكتَ، ماتَ بدائه» [3]، وقد نقل ابن عبد ربه[4] خبراً مفاده أن الوليد أمر بضرب عنق رجلٍ اعترض عليه لتأخيره صلاة الجمعة حتى اصفرت الشمس.

أين هؤلاء الخلفاء الأمويون من أولئك الرعيل الأول الراشد؟ شتّان ما بينهم وما أعظم الفارق بين الحكم الراشدي الدعَويّ وبين الحكم الأموي الذي أخذه الانحراف عن جادة الدعوة؛ فالراشدون كانوا يرون أنفسهم خداماً للمسلمين، كما يرون السلطة أمانة إلهية لتنفيذ أوامر الله ولتطبيق شريعته، أما رجـال بني أمية - عدا معاوية وعمر بن عبد العزيز - فقد نأوا عن هذا المعنى، واستجاب لهم عمالهم في الولايات والأمصار، وبالغوا في إحداث المعاني للطاعة، ليبرروا بذلك ما سفكوه من الدماء، فيقول الحجاج: « إن عبد الملك بن مروان لو أمر الناس أن يدخلوا في شعب، فدخلوا في غيره حلّت دماؤهم له، ويستدل على

= شتم آل علي، مات بعد سنة ٨٧هـ. الأعلام، ٩/ ٨١.

(١) تاريخ الخلفاء: ٢١٩.

(٢) البداية والنهاية: ٩/ ٦٧و١٦١.

(٣) البداية والنهاية: ٩/ ٧٠.

(٤) العقد الفريد: ١/ ٥٣.

زعمه الفاسد بالآيات القرآنية[1]، وبلغ بعضهم في إحداث معاني السمع والطاعة إلى حد خطير، رُوي أن الحجاج قال: «رسولُ أحدِكم في حاجته أكرم عليه أم خليفته في أهله!».

ويقول الحافظ ابن كثير رحمه الله بعدما نقل هذا الخبر: « فإن صح هذا عنه، فظاهره كفرٌ، إن أراد تفضيل منصب الخلافة على الرسالة، أو أراد أن الخليفة من بني أمية أفضل من الرسول»[2].

ونقل عن خالد[3] بن عبد الله القسري أيضاً مثل قول الحجاج[4]، كما نقل عنه أنه قال وكان مسنداً ظهره إلى الكعبة المشرفة: «والله لو علمت أن عبد الملك لا يرضى عني إلا بنقض هذا البيت حجراً حجراً لنقضته في مرضاته»[5]، فإذا صحت نسبة هذا القول إلى خالد القسري، ثبت به ذلك الإفراط المَرَضِيّ في معنى الطاعة الذي كان مستولياً على نفسية عمال بني أمية، مما يتنافى ومعنى الطاعة في الإسلام.

إلا أن عمر بن عبد العزيز رحمه اللهُ تعالى جاءَ في وسطهم كهبّاتِ نسيمٍ تخللت عواصفَ السَّموم، فارتفع صوته على نحوٍ يذكّر بأيام الراشدين، فها هو يقول في خطبة له: «أيها الناس! إنه لا كتاب بعد القرآن، ولا نبي بعد محمد عليه الصلاة والسلام، ألا وإني لست بقاض، ولكنني منفِّذ، ألا وإني لست بمبتدع،

---

(١) مروج الذهب: ٣/ ١٥١.

(٢) البداية والنهاية: ٩/ ١٣١.

(٣) هو أبو يزيد وأبو الهيثم خالد بن عبد الله بن يزيد بن أسد بن كرز البجلي ثم القسري، كان أمير العراقين من جهة هشام بن عبد الملك، أمه نصرانية وبنى لها كنيسة خاصة، قتله يوسف بن عمر الثقفي ابن عم الحجاج شر قتلة في أيام الوليد بن يزيد في سنة ١٢٦هـ. انظر: وفيات الأعيان، ٢/ ٢٢٦-٢٢٩.

(٤) البداية والنهاية: ٩/ ٧٦-٧٧.

(٥) الإمامة والسياسة: ٢/ ٤٢.

ولكني متَّبع، وإن الرجل الهارب من الإمام الظالم ليس بعاصٍ، ولكن الإمام الظالم هو العاصي، ألا، لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق»[1].

ولكن الشر كان قد بدأ يشق سبيله بكل طاقة وقوة، فنَحَّى هذه الشخصية الفذة الخالدة عن سبيله، ولم يُمهلها إلا مدةً أقل من سنتين[2] ونصف، ثم استمر الوضع على نمطه الأول، ثم جاءت شخصية أخرى تدعو إلى تحويل الوضع إلى ما كان عليه في العهد الراشدي، وهي شخصية يزيد بن الوليد بن عبد الملك، المعروف بيزيد الناقص، فقال في خطبته: «أيها الناس أما والله ما خرجتُ أشِراً ولا بَطِراً[3]، ولا حرصاً على الدنيا، ولا رغبةً في الملك، وما بي إطراء نفسي[4]، إنّي لظلومٌ لنفسي إن لم يرحمني ربّي؛ فإني هالك، وإني خرجتُ غضباً لله ولرسوله ولدينه، وداعياً إلى الله وكتابه وسنة نبيه محمدٍ ﷺ لما هدّمت معالم الهدى، وأُطْفِئَ نورُ أهل التقوى، وظهر الجبار العنيد[5] المستحلّ لكلٍّ حرمة، والراكب كل بدعة..»[6].

ولكن لم يُتَح له أن يحقق منهجه في الحكم كاملاً، فما بقي في الخلافة إلا أقل من ستة[7] أشهر وتوفي رحمه الله، واستمر الوضع حتى ثار العباسيون على بني

---

(١) مروج الذهب: ٣/ ١٩٤-١٩٥.

(٢) بويع بالخلافة في شهر صفر سنة ٩٩هـ وتوفي في شهر رجب سنة ١٠١هـ وكانت وفاته بالسم. انظر: تاريخ الخلفاء، ٢٣١و٢٤٦.

(٣) أي متكبراً، ولا مستخِفٌ بالنعمة جهلاً وكبراً.

(٤) أي مدح نفسي.

(٥) يريد به الخليفة الماجن الوليد بن يزيد بن عبد الملك (٩٠هـ-١٢٦هـ).

(٦) اقرأ نص الخطبة بكاملها في: تاريخ الرسل والملوك، ٧/ ٢٦٨-٢٦٩.

(٧) تولى زمام الخلافة بعد مقتل ابن عمه الوليد بن يزيد بن عبد الملك في جمادي الآخرة ١٢٦هـ وتوفي في نفس العام في سابع ذي الحجة. انظر: تاريخ الخلفاء، ٢٥٠ - ٢٥٣.

أمية، وانتقل هذا الوضع المنحرف عن الجادة الدعوية إلى بني العباس، وساروا على ما سار عليه بنو أمية، وسوف نتكلم فيه في فصول الكتاب القادمة إن شاء الله.

(بـ) البذخ والترف والإسراف:

ودخل نوعٌ من الانحراف عن الجادة الدعوية في حياة رجال بني أمية وهو: ارتفاع مستوى عيشهم من البساطة الإسلامية إلى الترف الأعجمي، ونريد بذلك الإفراط في ذلك؛ إذ أن الإسلام لم يحظر لنا التمتع بما خلق الله من نعيمه في هذه الدنيا، ولكن الإفراط في التمتع بها - إلى حدٍّ يُحدث أنواعاً من الفساد في حياة الإنسان ويُبعده عن أهدافه - محرَّم، لا يرضَى به الإسلام أبداً، فوجدنا هذا الانحراف قد حدث في حياة بعض من الخلفاء الأمويين، فقيل: إن يزيد بن معاوية كان أشد الناس كلَفاً بالصيد، وكان يُلبس كلاب الصيد الأساور من الذهب والجِلال المنسوجة منه[١]، كما كان مولَعاً بالنطاح بين الكباش والدِّباب والقرود، ويُلبس القردَ قلانس الذهب[٢]، وكذلك كان الوليد بن يزيد بن عبد الملك مغرى بالخيل وحبها[٣] وجَمعِها وإقامة الحَلبة[٤].

ومن اقتضاء حياة البذخ والترف: الإسراف والتبذير، وحدث فعلاً هذا المرض في بعض خلفاء بني أمية، فذكر ابنُ كثير[٥] رحمه الله أن عبد الملك بن مروان أمر بعشرة آلاف درهم لقائد إبله حينما أنشدَ أبياتاً بسيطة في مدحه، كما

---

(١) الفخري، ص٥٥.

(٢) البداية والنهاية: ٨/ ٢٣٥؛ ومروج الذهب: ٣/ ٧٧.

(٣) مروج الذهب: ٣/ ٢٣٠.

(٤) الحلبة: بفتح الحاء وسكون اللام: الدفعة من الخيل في الرهان خاصة، والجمع: حلائب على غير القياس. لسان العرب، ١/ ٣٣١.

(٥) البداية والنهاية: ٩/ ٦٤.

قيل: إنه أعطى الأخطل الشاعر النصراني جفنةً مملوءة بالدراهم على إنشاد قصيدة في مدحه، وأمر أن ينادَى في الناس أن الأخطل شاعر أمير المؤمنين وأنه أشعر العرب(١)، ورُوي أن الوليد بن يزيد أعطى حماد(٢) الراوية مائة ألف درهم(٣)، كما أعطى عبد الملك جريراً(٤) الشاعر مائة ناقة وثمانية من الرعاة على إنشاد قصيدة في مدحه(٥).

ولا شك أن هذا - إن صح - منهج كسروي وقيصري؛ إذ كيف يسوغ في الإسلام أن تُبذل أموال بيت مال المسلمين على فرد أو أفراد من الأمة بمجرد مدح شخصي، وهو ينافي مميزات الدولة الدعوية، ولكن هذا المنهج كان له دوره لدى بعض خلفاء الدولة الأموية، وهكذا دخل نوع من الانحراف في أوساط الحكم الإسلامي.

ومن اقتضاء حياة البذخ والترف: اللهوُ واللعبُ، واستماع الأغاني والمعازف والمزامير، وشرب الخمور، فدخل هذا الانحراف أيضاً في حياة بعض من خلفاء بني أمية، ومِن أشهرهم الوليد بن يزيد بن عبد الملك، فقد كان شاعراً ماجناً

---

(١) الأغاني: ٨/ ٢٨٧-٢٨٨.

(٢) هو أبو القاسم حماد سابور بن المبارك، كان مِن أعلم الناس بأيام العرب وأشعارها وأخبارها، وأنسابها ولغاتها، أصله من الديلم، ومولدُه بالكوفة، هو الذي جمع السبع المعلقات، ولد في سنة ٧٥هـ، وتوفي ببغداد سنة ١٥٥هـ. انظر ترجمته في: وفيات الأعيان، ٢/ ٢٠٦-٢١٠.

(٣) البداية والنهاية: ١٠/ ١١٤.

(٤) هو أبو حرزة جرير بن عطية بن حذيفة بن بدر الكلبي، من تميم، كان من فحول شعراء الإسلام، وأشعر أهل عصره، عاش عمره كله يناضل شعراء عصره، ولم يثبت أمامه الفرزدق والأخطل النصراني، ولد في سنة ٢٨هـ في اليمامة ومات فيها في سنة ١١١هـ. انظر ترجمته في: وفيات الأعيان، ١/ ٣٢١-٣٢٧.

(٥) البداية والنهاية: ٩/ ٢٦١.

مجاهراً بالفواحش، مصرًّا عليها، حتى اتهمه بعض الناس بالزندقة والانحلال من الدين[1]، وكان يُدعى: خليع بني مروان[2].

كما نُسِبَ إلى يزيد بن معاوية أيضاً شرب الخمر، فنقل ابن كثير[3] رحمه الله أنه لا يمرّ يومٌ إلا ويصبح فيه مخموراً، وقيل إنه ظهر في أيامه الغناء بمكة والمدينة، واستُعمِلتِ الملاهي، وأظهر الناس شُربَ الشراب[4]، ونُسب إلى عبد الملك بن مروان[5] أيضاً أنه كان يشرب الطلاء[6]، وقد كان الأخطل النصراني يمدح الخمر بين يديه وهو لا ينكر عليه[7].

وما أردنا بهذا الذكر أن نقدح في خلفاء بني أمية - وقد أعرضنا عن كثير مما كتب في حالهم بهذا الصدد[8] -، إنما أردنا بالإشارة إلى بعض جوانب ضعفهم - وهي قليلة بالنسبة إلى حسناتهم - أن نقول: إنه ضروري جداً أن تكون شخصية الخليفة أو شخصيةُ رئيس الدولة الدعوية سليمةً صافية من الشوائب ومن نقائصَ أخرى دينية، كما ينبغي أن تكون شخصيةً قويةً ممسكةً بأمور الدين بقوة، إذ أنه هو المسئول عن تنفيذ أوامر الله في عباده، فإذا سرى الضعف - أيًا كان - إلى شخصيته، كان طبيعياً جداً أن تتأثر به رعيته، بناءً على قولٍ مأثور في

---

(١) البداية والنهاية: ١٠/ ٢-٦.

(٢) مروج الذهب: ٣/ ٢٢٨.

(٣) البداية والنهاية: ٨/ ٢٣٥.

(٤) مروج الذهب: ٣/ ٧٧.

(٥) البداية والنهاية: ٩/ ٦٦.

(٦) الطلاء بالكسر والمد: الشراب المطبوخ من عصير العنب أو النبيذ المسكر المطبوخ. النهاية: ٣/ ١٣٧.

(٧) تاريخ الخلفاء: ٢٢٢.

(٨) نشير على سبيل المثال إلى كتاب: المختار من قطب السرور، على نور الدين المسعودي، ص١٥٥-١٩٦.

الناس: «الناس على دين مليكهم».

ولقد أشار إلى ذلك ابنُ كثير[1] رحمه الله فقال: «قالوا: وكانت همة الوليد في البناء، وكان الناس كذلك، يلْقَى الرجلُ الرجلَ فيقول: ماذا بنيتَ؟ ماذا عمّرت؟ وكانت همة أخيه سليمان في النساء، وكان الناس كذلك، يلقَى الرجلُ الرجل فيقول: كم تزوجت؟ وماذا عندك من السراري؟ وكانت همة عمر بن عبد العزيز في قراءة القرآن وفي الصلاة وفي العبادة، وكان الناس كذلك، يلقَى الرجلُ الرجلَ، فيقول: كم وِردُك؟ كم تقرأ كل يوم؟ ماذا صليت البارحة؟، وإن الناس يقولون: " إن الناس على دين مليكهم " إن كان خمّاراً كثرَ الخمر...».

فمسئولية الخلفاء والحكام خطيرة من جهة، ودقيقة وحرجة من جهة أخرى، ولم يعمل - مع الأسف - بهذه الحقيقة الجادة بعضٌ من أولئك الخلفاء.

(ج) العصبية الجاهلية

ودخل انحراف آخر في أوساط الحكم وهو: تغلُّب النزعة العربية على بعض الخلفاء والحكّام الأمويين، وظهرت هذه النزعة بسلوكهم مع الموالي، وهم الذين دخلوا في الإسلام أفواجاً، واشتغلوا بالعلوم الإسلامية واعتنوا بها عنايةً بالغة، بينما كان العرب منصرفين إلى الحكم ومقتضياته في ذلك الزمان، ووصلَ عدد كبير من الموالي إلى قمة المجد والشرف في الأوساط العلمية، ولم يستحسنه بعضُ الحكام الأمويين وضاقوا بذلك صدرًا، وذلك لأنهم ليسوا بعرب[2]،

---

(١) البداية والنهاية: ٩/ ١٦٥.

(٢) يبدو هذا القلق والضجر من الحوار الطويل الذي دار بين عبد الملك بن مروان والإمام ابن شهاب الزهري بحيث كلما أخبره الزهري عن إمام من الموالي، يسود سيادة علمية في مدينة من مدن مملكته، ازداد ضجره وقلقه. اقرأ هذا الحوار بالتفصيل في: معرفة علوم الحديث للحاكم، ص١٩٨-١٩٩.

ونذكر ههنا خبرين - والأخبار كثيرة - نستخلص منها نظرة بني أمية إلى الموالي:

١- عاقبَ عاملُ البصرة بلالُ[١] بن أبي بردة الإمامَ عبد الله بن عون[٢] رحمه الله وضربه بالأسواط، ولكن لأي جريمة؟ يجيبنا ابن سعد فيقول: «لأنه كان تزوَّجَ امرأةً عربية»[٣]، ما أعظم شأن الجريمة، وقد ارتكبها صحابي جليل وهو سالم مولى أبي حذيفة فتزوج بنت أخي أبي حذيفة وهي: فاطمة بنت الوليد بن عتبة بن ربيعة، سيد قريش، ومن الذي زوَّجها سالماً؟ هو أبو حذيفة نفسه[٤] رضي الله تعالى عنهم أجمعين، أين أولئك الرجال الذين تمثلوا الدينَ والدعوةَ إليه، من هؤلاء الذي ئنكَّروا لذلك؟ فلم يمنحوا عالماً كبيراً حرية الزواج بعربية، وذلك لكونه مولىً من الموالي، فضلاً عن أن يمنحوا هذه الحرية عامة الموالي.

٢- تبدو هذه العصبية[٥] الجاهلية من قصة أخرى، وهي: أن علي زين

---

(١) هو بلال بن أبي بردة عامر بن أبي موسى الأشعري، أمير البصرة وقاضيها ولاّه خالد القسري سنة ١٠٩هـ لم تُحمد سيرته في القضاء، نقل فيه ابن حجر قول أبي العباس المبرد إن أول من أظهر الجور من القضاة في الحكم بلال، وكتب فيه عمر بن عبد العزيز إلى عامله بالكوفة: إن بلالاً غرَّنا بالله، فكدنا أن نغتر به، ثم سبكناه فوجدناه خبيثاً كله. عزله وسجنه يوسف بن عمر الثقفي في سنة ١٢٥هـ ومات سجيناً في سنة ١٢٦هـ. تهذيب التهذيب، ١/ ٥٠٠-٥٠١.

(٢) هو الإمام أبو عون بن عبد الله عون بن أرطبان المزني بالولاء، شيخ أهل البصرة، قال الذهبي: لابن عون جلالةٌ عجيبة ووقعٌ في النفوس؛ لأنه كان إماماً في العلم رأساً في العبادة، حافظاً لأنفاسه، كبير الشأن، توفي في رجب سنة ١٥١هـ. تذكرة الحفاظ، ١/ ١٥٦-١٥٧.

(٣) الطبقات الكبرى: ٧/ ٢٦٣.

(٤) الطبقات الكبرى: ٣/ ٨٧.

(٥) العصبية: الكبر. النهاية: ٣/ ١٦٩.

العابدين رحمه الله زوَّج ابنته مولاه، وأعتق أمَةً له ثم تزوجها هو نفسه، ولمّا علمَ بذلك عبد الملك بن مروان كتب إليه يعيِّره بذلك، فكتب رحمه الله إليه فقال: «قد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة، قد أعتق رسول الله ﷺ صفية بنت حيي وتزوجها، وأعتقَ زيدَ بن حارثة وزوَّجه ابنةَ عمه زينب بنت جحش»[1].

ويبدو من مثل هذه الوقائع أن سياسة الأمويين - باستثناء بعض منهم - كانت تميل أحياناً عن سواء الهَدي الإسلامي الأصيل الصافي في علاقة المسلمين بعضهم ببعض، عرباً كانوا أم عجماً، وهذه النزعة نزعةٌ جاهلية رفضها الإسلام، وأنكرها إنكاراً شديداً، فقال عليه الصلاة والسلام: «دَعُوها فإنها منتـنة»[2]، ولم تأت هذه العصبية الجاهلية - بوجه عام - بخيرٍ قَط، بل جرّت على العالم الإسلامي مآسي وكوارث، وأحدثت فعلاً في أيام الأمويين كارثتين:

الأولى: انقسمت العرب أنفسهم إلى كتلتين: كتلة عربية شمالية، وهي مُضَرية أو نزارية، وكتلة عربية جنوبية، وهي يمَانية، والتاريخ أكبر شاهد على الكوارث التي حدثت باحتكاك الكتلتين، وضربت ضربة قاسية على دعامة الأخوة في المجتمع الإسلامي.

والثانية: انقسمت الزعامةُ - من غير شعور وبتدرُّجٍ خَفِيّ - إلى قسمين:

زعامةٌ دينية: وكان يمتلكها العلماء الكبار، وجُلُّهم من الموالي.

وزعامة سياسية: وعليها خلفاءُ بني أمية وعمالهم.

والثانية كانت أخطرَ مِن الأولى؛ إذ أنها لم تبرز في تلك الأيام بصورة محسوسة وبصورة مبدأ سياسي متميز، كما صارت في العصور المتأخرة، وقد ظهرت في أيامنا بصورة مبدأ فصل الدين عن الدولة، فنجد بذور هذه المأساة الأليمة في حكم الأمويين؛ فإنهم لم يرضوا بأن يتدخل العلماء في الأمور السياسية،

---

(١) الطبقات الكبرى: ٥/ ٢١٤.

(٢) صحيح البخاري: ٨/ ٦٤٨.

وحسبوا أنفسهم أحراراً في مباشرة أمورهم السياسية حسبما تزيِّن لهم أنفسهم، واستمر هذا الوضع طوال العهد الأموي - باستثناء عهد معاوية وعمر بن عبد العزيز رضي الله عنهما.

ولم يحاول أحد من الخلفاء إصلاح الأحوال، وكان في وسع عبد الملك بن مروان أن يحوِّل هذا الوضع، بما كانت شخصيته تجمع بين العلم والفقه[1] والذكاء والفطانة في جانب، والحزم والصلابة والكياسة والشهامة وصلابة الرأي وإصابته في جانب آخر، ولكنه مع جميع أوصافه الفائقة لم يدرك خطورة هذا الوضع، ورجَّح تدعيم السطوة على أن تظل الدولةُ دعويةً، فقيل في روايةٍ لابن كثير: إنه لما بُشّر بالخلافة كان يتلو القرآن الكريم، فأطبق المصحفَ وقال: «هذا فِراقُ بيني وبينَك»[2] وفي روايةٍ أخرى: قال: «هذا آخِرُ العهدِ منكَ»[3]، فإذا صحَّ هذا الخبر، أفلا نعتبره شِبه نزعة من نزعات الفصل بين الدين والدولة؟ ولونًا من التخلي عن منهج الخلفاء الراشدين الدعوي؟.

(د) الابتــداع:

ومن انحراف الدولة الأموية عن الجادة الدعوية، تسرُّب البدعة في بعض خلفائها، فكما روى البخاري[4]: أن مروان بن الحكم كان يقدِّم خطبةَ العيد - في عهد إمارته بالمدينة - على الصلاة، فاعترض عليه صحابيٌّ رسول الله ﷺ أبو

---

(١) كان عبد الملك بن مروان يعتبر من فقهاء المدينة وعبّادها قبل أن يتولى منصب الخلافة، ولكن سقطت عدالته بعدما سفك الدماء، يقول فيه الإمام الذهبي: «أنىّ له العدالة وقد سفك الدماء وفعل الأفاعيل». ميزان الاعتدال، ٢/ ٦٦٤؛ والبداية والنهاية، ٩/ ٦٢-٦٣.

(٢) البداية والنهاية: ٩/ ٦٣؛ والفخري: ص١٢٢؛ وتاريخ الخلفاء: ص٣٠٢.

(٣) البداية والنهاية: ٩/ ٦٣.

(٤) الجامع الصحيح: ٣/ ٤٤٩.

سعيد الخدري ﷺ، ولكنه لم يمتنع، وقال لأبي سعيد الخدري: « قد ذهب ما تعلم، إن الناس لم يكونوا يجلسون لنا بعد الصلاة؛ فجعلتُها قبل الصلاة».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله إشارةً إلى هذه البدعة: «ومثال ما حدثت الحاجة إليه من البدع بتفريطٍ من الناس، تقديمُ الخطبة على الصلاة في العيدين، فإنه لمّا فعله بعض الأمراء أنكره المسلمون لأنه بدعة، واعتذارُ مَن أحدثه بأن الناس قد صاروا ينفضُّون قبل سماع الخطبة، وكانوا على عهد رسول الله ﷺ لا ينفضون حتى يسمعوا، أو أكثرهم؛ فيقال له: سببُ هذا تفريطُك؛ فإن النبي ﷺ كان يخطبهم خطبةً يقصد بها نفعهم وتبليغهم وهدايتهم، وأنت تقصد إقامة رياستك، وإن قصدتَ صلاح دينهم فلست تُعَلِّمُهم ما ينفعهم، فهذه المعصية منك لا تبيح لك إحداثَ معصية أخرى، بل الطريق في ذلك أن تتوب إلى الله وتتبع سنةَ نبيه، وقد استقام الأمر، وإن لم يستقم؛ فلا يسألك الله إلا عن عملك، لا عن عملهم»(1).

وأحدث عبد الملك بن مروان بدعةً أخرى لغرضٍ سياسي تافه؛ إذ بَنَى قبةً على الصخرة في بيت المقدس، ومنذ ذلك الوقت بدأ الناس يقدِّسون الصخرة، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله إشارة إلى هذه البدعة: «وكانت الصخرة مكشوفة، ولم يكن أحدٌ من الصحابة، ولا ولاتهم ولا علماؤهم، يخصُّها بعبادة، وكـانت مكشوفة في خلافة عمر وعثمان رضي الله عنهما مع حكمهما على الشام، وكذلك في خلافة علي ﷺ، وإن كان لم يحكم عليها، ثم كذلك في إمارة معاوية وابنه وابن ابنه، فلما كان في زمن عبد الملك وجرى بينه وبين ابن الزبير من الفتنة ما جرى، كان هو الذي بنى القبة على الصخرة، وقد قيل: إن الناس كانوا يقصدون الحجَّ فيجتمعون بابن الزبير، أو يقصدونه بحُجة الحج، فعظَّم عبد

---

(1) اقتضاء الصراط المستقيم: ص٢٨٠-٢٨١.

الملك شأنَ الصخرة بما بناه عليها، وجعل عليها من الكسوة في الشتاء والصيف ليكثُر قصدُ الناس لبيت المقدس، فيشتغلوا بذلك عن قصد ابن الزبير، والناس على دين الملوك، وظهر من ذلك الوقت من تعظيم الصخرة وبيت المقدس ما لم يكن المسلمون يعرفونه بمثل هذا»[1].

ومما لا ريب فيه أن إحداث البدع مشأمةٌ تجرُّ الانحرافاتِ بسرعة كبيرة في حياة الأمة وتُبعدها من مبادئ الدين الأصيلة، كما تلقيها في مهاوي الأوهام والخرافات وتقرّبها من الشرك والوثنية، ولكن - مع الأسف الشديد - نسي رجال بني أمية مسؤوليتهم الضخمة الحرجة بهذا الصدد، فانحرافهم القليل أحدث صدوعاً في بناء المجتمع الإسلامي، وبدأ سيل الباطل يدخل منها في المجتمع بقوة واندفـاع، وهذه الحال قد انحرفت بالدولة - قليلاً أو كثيراً - عن وجهتها الدعوية.

هـذه نبذةٌ من تلك الانحرافات التي أبعدت الدولة الإسلامية عن هدفها الحقيقي، وهو: حمل راية الدعوة إلى الحق، وجعلُ هذه الدعوة حقيقةً واقعيةً في حياة الناس ومنهجاً شاملاً لسلوكهم أجمع، ولكن ليس معنى ذلك بوجه من الوجوه أن الأمة كانت قد انحرفت عن الجادة المستقيمة، أو أن الدولة الأموية قد انحرفت عن الدعوية كلياً، لم يكن الأمر كذلك، بل كانت أغلبية الأمة في العهد الأموي تسير على الجادة المستقيمة، والدولة كانت تحكم بوجه عام بالشريعة الإسلامية، وكانت قوانين الدولة إسلاميةً، فكانت الأيدي السارقة تُقطع، وكان القاتل يُقتل في القصاص، وكانت المحاكم تفصل القضايا في ضوء الكتاب والسنة واجتهادات الفقهاء، والجهاد قائم، ترفرف رايات الفتح الإسلامي في الشرق إلى السند[2]، وفي الغرب إلى

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم: ص٤٣٥.

(٢) فتوح البلدان: ص٥٣٦-٥٣٧، القسم الثالث.

الأندلس[1]، وكانت الصبغة العامة إسلامية.

ولو قارنّا ذلك العصرَ بعصورٍ جاءت بعده، ظهر فضلُه، كما كان الخلفاء على الرغم مما حلَّ ببعضهم من انحرافات، يتّصفون بصفاتٍ حميدة، فقد نُقل عن عبد الملك بن مروان أنه لما بلغه عن عامل من عماله أنه يقبل الهدايا دعاه وعاقبه ثم عزله[2]، وكان يجهش بالبكاء فيستغفرُ الله[3]، ومن أكبر حسنات سليمان بن عبد الملك اختياره عمر بن عبد العزيز خليفةً بعده، ويمدحه الحافظ ابن كثير رحمه الله بقوله: «.. وكان فصيحاً بليغاً يحُسن العربية، ويرجع إلى دين وخير ومحبة للحق وأهله واتباع القرآن والسنة وإظهار الشرائع الإسلامية، رحمه الله، وقد كان آلَى على نفسه حين خرج من دمشق إلى مرج دابق - ودابق قريب من بلاد حلب - لما جهز الجيوش إلى مدينة الروم المسماة بالقسطنطينية، ألاّ يرجع إلى دمشق حتى تُفتَح أو يموت، فمات هنالك، فحصل له بهذه النية أجر الرباط في سبيل الله»[4] إن شاء الله.

كما قيل: إن سليمان كان يمنع استماعَ الأغاني[5]، وما عدا ذلك حسناتٌ عديدة لخلفاء بني أمية، وقد سجلها التاريخ، ولو قارنّا بينهم وبين كثير من زعماء الدول الإسلامية في العصور المتأخرة لظهرَ فضلُهم، فمع الاعتراف بفضلهم وحسناتهم؛ يجب أن نعترف بتلك الحقيقة المُرة: أنهم ـ باستثناء بعضٍ منهم ـ قصّروا في أداء واجبهم نحو الحفاظ على قيم المجتمع الإسلامي الأصيلة والقيام بمسئولياتهم نحو استمرار الدولة على الخطوط الدعوية، فانشغلوا في

---

(١) الكامل في التاريخ: ٤/ ٥٣٦-٥٦٧.

(٢) مروج الذهب: ٣/ ١٢٥.

(٣) البداية والنهاية: ٩/ ٦٧.

(٤) البداية والنهاية: ٩/ ١٨٣.

(٥) البداية والنهاية: ٩/ ١٨٠.

بعض الأمور التي تخالف التعاليم الإسلامية النَّيِّرَة.

وهكذا وقعت ثلماتٌ في بنية المجتمع الإسلامي الذي أوجده الرسولُ العظيم ﷺ وصحابته ﷺ أجمعين ليكون مجتمعاً مثالياً دعوياً إماماً لسائر المجتمعات البشرية، ولم تُرقع تلك الثلمات، فكبُرت، وبدأ سيل الباطل الجارف يدخل منها ويكتسح كل صغير وكبير بقوة شديدة، وأصبح العالم الإسلامي يصادف ويلاتٍ تلو الويلات.

هكذا كان الوضعُ حين قامتْ الدولة العباسية، فما كان واجبُ تلك الدولة الفتية؟ أليس كان مِن واجبها الأول والأكبر أن تهتمَّ بترقيع تلك الثلمات التي وقعت في بنية المجتمع الإسلامي وبدأت تكبر يوماً بعد يوم؟ أما كانت وظيفتها الجوهرية أن تردّ كيانَ الدولة الإسلامية على أساسها الدعوي؟، فهل أدت هذه الدولة مهمتها الجوهرية؟ وهل أدت واجبَها الأول؟ هذه أسئلةٌ يردِّدها كلُّ قلب مسلم يهمُّه أمرَ العالم الإسلامي في الماضي والحاضر، وسوف نحاول الإجابة عن هذه التساؤلات فيما سيأتي إن شاء الله.

رقعة الدولة العباسية وموقعها الجغرافي:

إن الموقع الجغرافي له أهمية كبيرة في تاريخ الدول؛ من جهة إنجاز مهماتها الجوهرية وتحقيق أهدافها الأساسية، ولقد أكرم الله سبحانه وتعالى الأمة الإسلامية؛ إذ جعل مركز دعوتها شبه الجزيرة، فنهض الدعاة المخلصون من هذا المركز وانتشروا في أنحاء العالم ينشرون الدعوة الإسلامية، ويزيلون العقبات عن طريقها، واستولوا على جزء كبير من المعمورة حتى نهاية العهد الراشدي[(١)] وسادَ بنو أمية العالم الإسلامي حوالَيْ إحدى وتسعين سنةً[(٢)]، وقد كانت

---

(١) فتوح البلدان: ص٢٦٧ و ٤١١ و ٤٨٤ و ٤٨٥؛ و الكامل في التاريخ، ٣/ ٨٣-٨٦ و٩٢ و ١٢٨.

(٢) مروج الذهب: ٣/ ٢٤٩.

اتسعت رقعةُ العالم الإسلامي آنذاك من الشرق إلى نهر السند[1] من شبه القارة "الهندية "، ومن الشمال إلى بلاد ما وراء نهر جيحون وسيحون إلى بلاد كاشغر وفرغانة[2] البلاد التي تقع على ثغور الصين، وإلى بحر الخزر والبحر الأسود[3]، كما قرعوا أبواب القسطنطينية ليفتحوها[4]، واتسعت الفتوحات من جهة الغرب من مصر على طول شمال قارة إفريقية حتى المحيط الأطلنطي[5]، ومنه تدفقت الجيوش الإسلامية على أرض الأندلس[6] وواصلت تقدمها حتى توغلت الفتوحات الإسلامية إلى الحدود الجنوبية من بلاد الفرنج وهي فرنسا[7].

وقامت الدولة العباسية على هذه الرقعة الوسيعة من الأراضي المفتوحة، إلا أن الأندلس خرجت من تحت سيطرتها في سنة ثمان وثلاثين ومائة، وقامت هناك دولة أموية مستقلة بقيادة عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان، المعروف بعبد الرحمن الداخل[8]، كما انفصلت دولة الأدارسة عن العباسية في سنة اثنتين وسبعين ومائة ١٧٢هـ[9].

وإن خرجت الأندلس من أيدي العباسيين، ولكن الرقعة التي بقيت تحت سيطرتهم كانت تمتد شرقاً إلى نهر مهران المعروف بنهر السند، وشمالاً إلى

(١) فتوح البلدان: ص٥٣٦و٥٣٧؛ والكامل في التاريخ، ٤/ ٥٣٦.

(٢) الكامل في التاريخ: ٤/ ٥٨١ و٥/ ٥-٧.

(٣) فتوح البلدان: ص٢٤٤-٢٤٦.

(٤) الكامل في التاريخ: ٥/ ٢٧-٢٨.

(٥) فتوح البلدان: ص٢٧٢.

(٦) الكامل في التاريخ: ٤/ ٥٥٦.

(٧) الكامل في التاريخ: ٥/ ١٧٤.

(٨) البداية والنهاية: ١٠/ ٧٤.

(٩) تاريخ الإسلام لحسن إبراهيم: ٢/ ٢٠٧.

حدود الصين وإلى بحر الخزر والبحر الأسود، وغرباً إلى المحيط الأطلنطي، وكفاك أن تتصور اتساع هذه الرقعة بقول الرشيد حينما رأى سحابةً تمر من فوق رأسه فقال مشيراً إليها: «اذهبي حيثُ شئتِ سيأتيني خراجك»[1].

ونودُّ أن نذكر بهذه المناسبة موجزاً عن تلك الرقعة التي كانت الدولة العباسية تحكمها وتُنفذ عليها أوامرَها من خلال ما ذكره المقدسي في كتابه (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم)[2]، فقد ذكر أن الدولة الإسلامية كانت تنقسم في تلك الأيام إلى أربعة عشر إقليماً[3]، وكل إقليم يحتوي على عدة كُوَر[4]، وهي كالتالي:

(١) الإقليم الأول: جزيرة العرب[5]، وكانت تشمل أربع[6] كور جليلة وهي:

١- الحجاز ٢- اليمن ٣- عمان ٤- هَجَر.

(٢) الإقليم الثاني: العراق[7] وكانت تشمل ست كور[8] وهي:

١- الكوفة ٢- البصرة ٣- واسط ٤- المدائن ٥- حلوان ٦- سامراء.

(٣) الإقليم الثالث: أقور (وهي: الجزيرة، وهي: ما بين دجلة والفرات)، وكانت تشمل ثلاث كور، وهي:

---

(١) صبح الأعشى: ٣/ ٢٦٦.

(٢) انظر من: ص٦٧ إلى ص٤٧٤.

(٣) الإقليم: بلادٌ تسمى باسمٍ خاص، أو منطقة من مناطق الأرض تتحدث فيها الأحوال المناخية والنظم الاجتماعية. المعجم الوسيط: ص٧٦٢، مادة: قلم.

(٤) كور: جمع كورة: المدينة. لسان العرب: ٥/ ١٥٦.

(٥) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم للمقدسي، ص٦٧.

(٦) انظر: ص٦٨.

(٧) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم: ص١١٣.

(٨) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم: ص١١٤.

١- ديار ربيعة ٢- ديار مضر ٣- ديار بكر.

(٤) **الإقليم الرابع**: الشام، وكانت تشمل ست كور وهي:

١- قنّسرين ٢- حمص ٣- دمشق ٤- الأردن ٥- فلسطين ٦- الشراة.

(٥) **الإقليم الخامس**: مصر وكانت تشمل سبع كور وهي:

١- الجفار ٢- الحوف ٣- الريف ٤- الاسكندرية

٥- مقدونيا ٦- الصعيد ٧- الواحات.

(٦) **الإقليم السادس**: المغرب، وكانت تشمل ثماني كور[1] وهي:

١- برقة ٢- إفريقية ٣- تاهرت ٤- سجلماسة

٥- فاس ٦- السوس الأقصى ٧- جزيرة صقلية

٨- الأندلس[2].

(٧) **الإقليم السابع**: المشرق، وينقسم هذا الإقليم إلى قسمين، قسم في الشرق وسماه المقدسي: هيطلا، والمراد به المنطقة التي تقع على شرقي نهر جيحون ويسمى بما وراء النهر، وقسم في الغرب، وهو ما كان على غربي نهر جيحون ويسمى بخراسان.

(أ) كانت الهيطل - أو ما وراء النهر - تشتمل على ست كور وهي:

١- فرغانة ٢- اسبيجاب ٣- الشاش ٤- أشروسنة

٥- الصعد ٦- بخارا.

(ب) وخراسان كانت تشتمل على تسع كور وهي:

١- بلخ ٢- غزنين ٣- بست ٤- سجستان

٥- هراة ٦- جوزجانان ٧- مرو الشاهجان

٨- نيسابور ٩- قهستان.

---

(١) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم: ص١٣٦-٢١٦.

(٢) وانفصلت الأندلس عن الدولة العباسية في سنة ثمان وثلاثين ومائة كما سبق ذكره.

(٨) **الإقليم الثامن: الديلم**، وكانت تشتمل على خمس كور[1] وهي:

١- قومس ٢- جرجان ٣- طبرستان

٤- الديلمان ٥- الخزر.

(٩) **الإقليم التاسع: الرحاب**، وكانت تشتمل على ثلاث كور وهي:

١- الران ٢- أرمينية ٣- أذربيجان.

(١٠) **الإقليم العاشر: الجبال**، وكانت تشتمل على ثلاث كور وهي:

١- الري ٢- همذان ٣- أصفهان.

(١١) **الإقليم الحادي عشر: خوزستان**، وكانت تشتمل على سبع كور وهي:

١- السوس ٢- جندي سابور ٣- تستر ٤- عسكر مكرم

٥- الأهواز ٦- رام هرمز ٧- الدورق.

(١٢) **الإقليم الثاني عشر: فارس**، وكانت تشتمل على ست كور وهي:

١- أرجان ٢- أردشير خره ٣- درا بجرد

٤- شيراز ٥- سابور ٦- أصطخر.

(١٣) **الإقليم الثالث عشر: كرمان**، وكانت تشتمل على خمس كور وهي:

١- برد سير ٢- نرماسير ٣- السيرجان

٤- بم ٥- جيرفت.

(١٤) **الإقليم الرابع عشر: السند**، وكانت تشتمل على خمس كور[2] وهي:

١- مكران ٢- طوران ٣- السند

٤- ويهند ٥- قنوج.

وإذا نظرنا إلى خارطة العالم ظهر لنا أن الدولة العباسية كانت قد احتلت مكانة استراتيجية هامة على هذه الخريطة، بحيث كانت تتحكم على جزء من

---

(١) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص٣٥٣.

(٢) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم: ص٣٧٣-٤٧٣.

ساحل بحر الهند وبحيرة العرب، وعلى الخليج الفارسي في الجهة الشرقية والجنوبية، كما كانت تتحكم على الشاطيء الشرقي والشمالي للبحر الأحمر، وعلى الشاطيء الشرقي والجنوبي كاملاً من البحر الأبيض، ومن المعلوم أن الشواطئ البحرية دائماً تكون ممراً مائياً للسفن التجارية، وهي مواضع اتصالات متنوعة بين شعوب العالم، وهكذا منحَ اللهُ سبحانه وتعالى فرصةً سعيدة طيبة للدولة العباسية كيما تسيطر على هذه الشواطئ، وتُبْرُز أمام شعوب العالم كلها ذات مستوى رفيع مثالي لدولة دعوية تعيش تحت رعايتها أمة ذات عقيدة سامية ورسالة سماوية قامت لتدعو العالم الإنساني إلى السعادة الحقيقية والفلاح الأبدي، إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ولتقدِّم إلى ممثلي شعوب العالم نموذجاً حياً للمجتمع الإسلامي المثالي، بحيث كل من رآه مالَ إليه ووجدَ فيه ضالتَه المنشودة وغايته المرجوَّة، فإذا رجع إلى وطنه تحدَّث أمام أبناء وطنه عن المميزات الفائقة لهذا المجتمع ورفاهيته الممتعة.

ولكن! هل حققت الدولة العباسية هذه الأهداف النيرة؟ ولم تكن الدولة في كيانها ضعيفة، فتعتذر بهذا الضعف والاستكانة عن تقصيرها في نيلها هدفها المنشود وغايتها المرجوة؛ إذ أن الذين استولوا على الحكم في العصر العباسي الأول، كانوا رجالاً على درجة عالية من الكفاءة والمقدرة، ولم يجد الضعف والوهن فرصة للتسرب إلى شخصياتهم من حيث كونهم ملوكاً أو خلفاء، وتغلبوا على أعدائهم ومنافسيهم تغلباً حاسماً، وقهروهم واستولوا عليهم استيلاء تاماً، فلم يبق لهم أيُّ مانع من تنفيذ أوامر الله ونواهيه، واتباعهم اتباعاً كاملاً سنة رسول الله ﷺ وسنة خلفائه الراشدين، وقبل أن نبحث عن جواب هذا السؤال المهم الأساسي، نريد أن نشير إجمالاً إلى تاريخ الدعوة العباسية وترجمة حامليها من الخلفاء في العصر العباسي الأول، ونذكر بعض الأحداث المهمة التي وقعت في عهدهم.

الدعوة العباسية وحاملوها:

كان بنو العباس يتطلعون إلى منصة الحكم لأخبارٍ[١] رويت مرفوعةً، منها ما رواه ابن كثير[٢] بسند الخطيب عن ثوبان ﷺ قال: «كان رسول الله ﷺ نائماً واضعاً رأسه على فخذ أم حبيبة بنت أبي سفيان، فنحبَ[٣] ثم تبسم، فقالوا: يا رسول الله رأيناك نحبتَ، ثم تبسمتَ؟! فقال: رأيت بني أمية يتعاورون[٤] على منبري، فساءني ذلك، ثم رأيت بني العباس يتعاورون على منبري فسرَّني ذلك»، وروى أبو هريرة ﷺ أن رسولَ الله ﷺ قال للعباس: «فيكم النبوة وفيكم المملكة»[٥].

وعدا ذلك كانت هناك تكهنات شائعة فيما بين هذه الأسرة، تنتقل من صدرٍ إلى صدر ومن جيل إلى جيل، مثل تكهنات بمقتل زيد بن علي بالكناسة وصلبه[٦]، وبأنه يقتل مروانَ بن محمد عينُ بنُ عين[٧] (أي عبد الله بن علي) وما إلى ذلك، ثم تهيأ لهم الجو بعد ما انتقلت الإمامة إليهم من إمام الفرقة الكيسانية من الشيعة وهو أبو هاشم عبد الله بن محمد بن علي بن أبي طالب، وكان مقيماً بالحميمة[٨]، ولما اقترب أجلُه أوصَى بانتقال الخلافة إلى علي بن عبد الله بن

---

(١) تاريخ الرسل والملوك: ٧/ ٤٢١.

(٢) البداية والنهاية: ١٠/ ٥٠.

(٣) النحب: البكاء بصوت طويل ومد. النهاية، ٥/ ٢٧.

(٤) يتعاورون: أي يختلفون ويتناوبون، كلما مضى واحد خلفه آخر. النهاية، ٤/ ٣٢٠.

(٥) البداية والنهاية: ١٠/ ٥١.

(٦) مروج الذهب: ٣/ ٣١٢.

(٧) تاريخ الرسل والملوك: ٧/ ٣٢٠؛ ومروج الذهب: ٣/ ٢٧٤.

(٨) الحميمة: بلد من أرض الشراة من أعمال عمان في أطراف الشام، كان منزل بني العباس، انظر: معجم البلدان: ٢/ ٣٠٧.

عباس وأولاده.

وكان عند أبي هاشم عِلْمٌ بتلك التكهنات الشائعة بين بني هاشم، فبشَّر عليَّ بن عبد الله بأن الخلافة ستكون في أولادك[1]، وهكذا بدأت الدعوة العباسية بالحميمة، فدعا محمد بن علي أولاً إلى نفسه وذلك في سنة ثمان وسبعين[2]، ولكن كانت الدعوة مجردةً عن التنظيم، وتنظمت في سنة مائة من الهجرة، والذي نظم الدعوة العباسية هو محمد بن علي بن عبد الله بن عباس، كان ذا رأي حصيف ونظرٍ بعيد، يعرف حقَّ المعرفة بأن تبدأ الدعوة برموز وإشارات، فلم يصرِّح دعاتُه للناس أنهم يطلبون الخلافة، بل كانوا يشيرون إلى أنهم يريدون إسقاط دولة بني أمية من أجل ظلمهم واستبدادهم، ويريدون نصرةَ الحُكم الصالح، ونصرة الحق والعدل على الظلم والباطل، كما لا يأخذون البيعة لأنفسهم بالخلافة وإنما يأخذونها لإمام رضا مِن آل البيت النبوي[3].

وهكذا كانوا يصيدون عصفورين بطلقة واحدة، كانوا ينالون تأييد الأمة لإسقاط الدولة الأموية في جانب، ويطمئنون أبناء عمهم العلويين بأنهم ليسوا منافسين لهم في ادعاء الإمامة، وهكذا كانوا ينتظرون جواً مناسباً وفرصة سانحة للقيام بإظهار الدعوة.

وألَّفَ محمدُ بن علي جمعيةً سريةً لدعوته في سنة مائة من الهجرة، وكان عندئذٍ الخليفةُ الأمويُّ الصالح عمرُ بن عبد العزيز رحمه الله يحكمُ العالَمَ الإسلامي، وجعل للدعوة مركزين أحدهما بالكوفة، وجعل ميسرةَ مولى علي بن عبد الله مسئولاً عن شئونها، والثاني بخراسان، وكان يعتبرها مركزاً حقيقياً لنشر دعوته، وأرسل إلى هذا المركز محمد بن خنيس وأبا عكرمة السراج، ونال

---

(١) البداية والنهاية: ١٠/ ٥.

(٢) البداية والنهاية: ٩/ ١٨٩.

(٣) تاريخ الرسل والملوك: ٧/ ٤٢١.

محمد بن علي من كلا المركزين استجابةً طيبةً استبشرَ بها، واختار أبو عكرمة السراج اثني عشر نقيباً لهذه الدعوة، وأسماؤهم كالتالي:

١- سليمان بن كثير الخزامي.

٢- لاهز بن قريظ التميمي.

٣- قحطبة بن شبيب الطائي.

٤- موسى بن كعب التميمي.

٥- أبو داود خالد بن إبراهيم الشيباني.

٦- القاسم بن مجاشع التميمي.

٧- عمران بن إسماعيل، مولى لآل أبي معيط.

٨- مالك بن الهيثم الخزامي.

٩- طلحة بن رزيق الخزامي.

١٠- أبو حمزة عمرو بن أعين، مولىً لخزاعة.

١١- أبو علي شبل بن طهمان، مولى لبني حذيفة.

١٢- عيسى بن أعين، مولى لخزاعة.

كما اختار سبعين آخرين، ليكونوا مستشارين لهؤلاء النقباء، وكتب محمد بن علي إلى هؤلاء النقباء كتاباً ليكون لهم مثالاً وسيرةً يقتدون بها ويسيرون عليها[١]، ولم يذكر الطبري ولا المؤرخون الآخرون نصَّ هذا الكتاب، ولكن وجدنا نصًّا ذكره ابن قتيبة الدينوري في كتابه عيون الأخبار[٢]، كما ذكره المقدسي في كتابه (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم)[٣]، وهناك فرق بين

---

(١) تاريخ الرسل والملوك: ٦٥٦٢؛ والكامل في التاريخ: ٥/ ٥٤؛ والبداية والنهاية: ٩/ ١٨٩.

(٢) انظر: ص١/ ٢٠٤-٢٠٥.

(٣) انظر: ص٢٩٣-٢٩٤.

النصَّين، ونذكر ههنا النصَّ الذي أورده ابن قتيبة فقال: «وقال محمد بن علي بن عبد الله بن عباس لرجال الدعوة، حين اختارهم للدعوة وأراد توجيههم:

«أما الكوفة وسوادها، هناك شيعة علي بن أبي طالب، وأما البصرة فعثمانيةٌ تدين بالكف وتقول: كن عبدَ الله المقتول ولا تكن عبد الله القاتل، وأما الجزيرة: فحروريةٌ مارقة، وأعرابٌ كأعلاج، ومسلمون في أخلاق النصارى، وأما أهل الشام: فليس يعرفون إلا آل أبي سفيان وطاعة بني مروان، عداوةً لنا راسخةً، وجهلاً متراكماً، وأما أهل مكة والمدينة: فقد غلب عليهما أبو بكر وعمر، ولكن عليكم بخراسان، فإن هناك العدد الكثير والجلَدَ الظاهر، وصدورًا سليمة، وقلوباً فارغة لم تقسمها الأهواء ولم توزعها النِّحَلُ، ولم تشغلها ديانة، ولم يتقدم فيها فساد، وليست لهم اليوم هممُ العرب، ولا فيهم كتحازب الأتباع بالسادات وكتحالف القبائل وعصبية العشائر، ولم يزالوا يُذَلّون ويُمتَهنون ويُظلَمون ويَكظمون ويتمنون الفرَج ويُؤَمِلون الدِوَلَ[1]، وهم جندٌ لهم أجسام وأبدان ومناكب وكواهل وهامات ولحى وشوارب، وأصوات هائلة ولغات فخمة تخرج من أفواه منكرة، وبعد، فكأني أتفاءل إلى المشرق، وإلى مطلع سراج الدنيا ومصباح الخلق».

وتمتد هذه الدعوة على مدة اثنتين وثلاثين سنة، وكانت على مرحلتين: سرية، وجهرية.

المرحلة السرية:

تمتد هذه المرحلة من سنة مائة إلى سنة ثمان وعشرين ومائة، فكانت الدعوة تُنشر سرياً؛ إذ أن قوة بني أمية كانت متماسكة في هذه الفترة، ولم يظهر الضعف والانشقاق في الأسرة المالكة؛ فكان الدعاة يتجولون في المدن والقرى، وزيهم زي التجار، يبيعون ويشترون، ويدعون المسلمين خفيةً إلى إمامٍ من آل بيت النبي

---

(١) **يؤملون الدول:** أي يأملون الانتقال من حال إلى حال. لسان العرب: ١١/ ٢٥٢.

ﷺ، بدون أن يصرِّحوا باسم ذلك الإمام، وهكذا كانوا ينالون ثقة شيعة علي، وكانوا قد ركزوا توجيه دعوتهم إلى خراسان حسبَما أرشدهم قائدهم محمد بن علي، وكانوا يرسلون خبر من انضم إلى دعوتهم إلى مركزهم بالكوفة، ومن هناك إلى الحميمة[1]، كما كانوا يعززون العهد بالاجتماع في موسم الحج، فالمتأثرون بهذه الدعوة كانوا يحضرون لأداء مناسك الحج والحميمة في طريقهم ذهاباً وأياباً، فكانوا يزورون محمد بن علي، ثم يرجعون إلى خراسان نشطين في بث الدعوة العباسية[2].

وفي سنة خمس ومائة ١٠٥هـ انضم إلى هذه الدعوة بكير بن ماهان، وكان من كبار دهاقنة العراق، وكان له مكان مرموق في أوساط الناس، فبانضمامه وجدت الدعوة قوة وحيوية جديدتين؛ إذ كان من الأثرياء، أنفق ماله في سبيل نشر هذه الدعوة بالكوفة، فعين محمد بن علي بكير بن ماهان مكانه، فنظم الأمور بغاية الدقة والمهارة[3].

إن الدعوة العباسية، وإن ظلت سريةً في بدايتها، ولكن لم تكن مكتومة عن عيون ولاة بني أمية، فكانت تظهر حالهم بين آونة وأخرى على حكام بني أمية، فتارةً سلموا من بطش أولئك الولاة من أجل حيلهم اللطيفة، وتارةً وقعوا في عقاب شديد.

وأول ما ظهر أمرُهم بخراسان في سنة اثنتين ومائة، وكان أميرُها آنذاك سعيد ابن عبد العزيز المعروف بسعيد خذينة[4]، فجاء إليه رجل من تميم يقال له:

---

(١) تاريخ الرسل والملوك: ٦/ ٥٦٢.

(٢) أحمد شلبي، موسوعة التاريخ الإسلامي.

(٣) تاريخ الرسل والملوك: ٧/ ٢٥-٢٧؛ والكامل في التاريخ: ٥/ ١٢٥.

(٤) قال ابن الأثير: إنما لقب بذلك لأنه كان رجلاً ليناً متنعماً، فدخل عليه ملك أبخر، وسعيد في ثياب مصبغة وحوله مرافق مصبغة، فلما خرج من عنده، قالوا: كيف =

عمرو بن بجير بن ورقاء السعدي، وقال: إن ههنا رجالاً قد ظهر منهم كلامٌ قبيح، فبعث إليهم سعيد، فجيء بهم، فسألهم: من أنتم؟ قالوا: رجال من التجار، قال: فما هذا الخبر الذي وصلني عنكم؟ قالوا: لا ندري، قال: جئتم دعاةً؟ قالوا: إن لنا في أنفسنا وتجارتنا شغلاً عن هذا، فسأل سعيد عمّن يعرف هؤلاء الناس، فجاء إليه رجال من أهل خراسان جُلُّهم من ربيعة اليمن، فشهدوا بمعرفتهم إياهم، وتكفَّلوا عنهم، فخلَّى سبيلهم[1].

ونكث بعضٌ من أولئك الدعاةِ العهدَ، فوشَى إلى أمير خراسان أسد بن عبد الله القسري، وكان هذا الوالي من أشد ولاة بني أمية وأقساهم على الشيعة، فقبض على بعض الدعاة فيهم أبو عكرمة السراج ومحمد بن خنيس وعمار العبادي، وكان الأخير أفلتَ من يدي هذا الوالي وفرَّ هارباً إلى الكوفة وأخبر بكير بن ماهان ما جرى على الدعاة، وأما مَن بقي منهم محبوساً في سجون أسد بن عبد الله القسري فقطَّع أيديهم وأرجلَهم ثم صلبهم، ثم وقع عمار العبادي أيضاً في قبضة ذلك الوالي، ففعل به ما فعل بإخوانه[2] ولكن مع ذلك لم تخمد جذوة هذه الدعوة التي كانت تحمل في ذيلها حباً شديداً لآل بيت النبي ﷺ والتقديس لهم، وكان يلهب هذه النارَ جورُ بني أمية وولاتهم[3].

واستمرت الدعوة سريةً حتى مهدت الأوضاعُ سبيلَ إظهارها، وكان هناك عاملان كبيران أصبحا مساعداً مؤثراً في شق هذه الدعوة سبيلها إلى الأمام:

أولهما: وقوع الانشقاق والافتراق في الأسرة الحاكمة من بني أمية، وقد

= رأيت الأمير؟ قال: خذينة، فلُقِّب خذينة، وخذينة هي الدهقانة ربة البيت. الكامل في التاريخ: ٥/ ٩٠.

(١) تاريخ الرسل والملوك: ٦/ ٦١٦،٦١٧؛ والكامل في التاريخ: ٥/ ١٠٠.

(٢) تاريخ الرسل والملوك: ٧/ ٤٠و٤٣؛ والكامل في التاريخ: ٥/ ١٣٦و١٤٠.

(٣) مروج الذهب: ٣/ ٢٤١.

حدث هذا الانشقاق بشكل واضح بوثوب يزيد بن الوليد بن عبد الملك على ابن عمه الوليد بن يزيد بن عبد الملك.

ولا شك أن هذا الخروج على الخليفة الماجن، وإن كان يحمل في ثناياه مقاصدَ حسنة، غير أنه سبَّب انقسامَ بني أمية على أنفسهم وأحدثَ في بنيانهم ثلمةً لم تُرقع وأضعفَ قبضتهم على زمام الملك، فوجد المنافسون لبني أمية - وفي مقدمتهم بنو العباس - في الملك فرصةً طيبة ليشدُّوا عزائمهم في الخوض في معركة الحصول على السلطة.

والعامل الثاني الذي هيّأ الجوَّ لبني العباس أن يقوموا بدعوتهم جهاراً، هو حدوث العصبية الجاهلية بين العرب، فانقسمت إلى النزارية واليمانية.

وقد ذكر المسعودي[1] مثالاً للأسباب التي أوقدت نار هذه العصبية، ذلك أن الشاعر الكميت بن زيد الأسدي أنشد قصيدة في مناقب بني هاشم وعرضها على بعض ساداتها، ثم أنشد قصيدة أخرى وذكر فيها مناقب قومه من مضر بن نزار بن محمد وربيعة بن نزار، وبالغَ في وصفهم على أهل اليمن طاعناً فيهم، فأجابه دعبل بن علي الخزاعي وذكر مناقب أهل اليمن وفضائلهم وطعن في غيرهم.

ثم يقول المسعودي: «وافتخرتْ نزارُ على اليمن، وافتخرت اليمن على نزار، وأدلى كل فريق بما له من المناقب، وتَحزَّبتْ الناس، وثارت العصبية في البدو والحضَر، فنتج بذلك أمر مروان بن محمد الجعدي، وتعصب لقومه من نزار على اليمن، وانحرف اليمنُ عنه إلى الدعوة العباسية، وتغلغل الأمر إلى انتقال الدولة عن بني أمية إلى بني هاشم، ثم ما تلا ذلك من قصة معن بن زائدة[2] باليمن

---

(١) مروج الذهب: ٣/ ٢٤٢-٢٤٦.

(٢) هو أبو الوليد معن بن زائدة بن عبد الله بن مطر الشيباني، من أشهر أجواد العرب وأحد الشجعان الفصحاء، أدرك العصرين الأموي والعباسي، ولاّه المنصور بعدما =

وقتله أهلها تعصباً لقومه من ربيعة وغيرها من نزار، وقطعه الحلف الذي كان بين اليمن وربيعة في القدم، وفعل عتبة بن سالم بعمان والبحرين، وقتله عبدُ القيس وغيرُهم من ربيعة وسائرِ نزار ممن بأرض البحرين وعمان، كيدًا لمعن وتعصباً من عقبة بن سالم لقومه من قحطان».

مرحلة الجهر بالدعوة:

زعزعت هذه المأساة التي أثارها بعضُ مَن لا يتبصرون بعواقب الأمور، أساسَ الدولة الأموية في جانب، ومهَّدت السبيلَ في جانبٍ آخر لبني العباس أن يقوموا بإكمال برنامجهم وإقامة ملكهم ودولتهم، وكان آنذاك أمير خراسان نصر بن سيار، رئيس النزارية، وكان كبيرُ اليمانية جديع بن شبيب المعروف بالكرماني، وكانت بينهما صلة ود ومحبة قبل حدوث هذه العصبية المنتنة، ولكن نشبت الحرب بينهما بعد حدوث هذه العصبية الجاهلية، حتى انهزم نصر بن سيار واضطر إلى أن يخرج هارباً من مرو عاصمة خراسان، وانتقمت اليمانية من بيوت النزارية ومنازلهم فهدموها ونهبوا أموالهم(١).

وأثناء هذه الأيام توفي محمد بن علي، وأوصَى بالخلافة إلى ابنه إبراهيم، كما توفي بكير بن ماهان المسئول عن الدعوة بالكوفة، فعين إبراهيم بن محمد حفص بن سليمان المعروف بأبي سلمة الخلال مسئولاً مكان بكير بن ماهان، وكان أبو سلمة الخلاّل صهراً لبكير، وفي جانب آخر وجد إبراهيم بن محمد شاباً متحمساً شجاعاً باسلاً شديد البطش قوي العزيمة، هو أبو مسلم الخراساني الذي كان مولى بكير بن ماهان(٢)، فتلقى عنه مبادىء الدعوة العباسية، واتصل بمحمد بن

= عفا عنه اليمن، ثم ولي سجستان، وقتله الخوارج هناك في سنة إحدى وخمسين ومائة. الزركلي: الأعلام: ٨/ ١٩٢.

(١) تاريخ الرسل والملوك: ٧/ ٣٣٩.

(٢) تاريخ الرسل والملوك: ٧/ ١٩٨؛ و الكامل في التاريخ: ٥/ ٢٥٧.

علي في أيامه الأخيرة حتى انتقلت الإمامة إلى إبراهيم بن محمد، فوجد إبراهيم في أبي مسلم المؤهلات التي تحتاج إليها شيعة خراسان لانتهاز الفرصة بما حدث هناك من الاحتكاك بين نصر بن سيار وجديع بن شبيب الكرماني، فأرسل إبراهيم أبا مسلم إلى خراسان، وكتب إلى النقباء أن يسمعوه ويطيعوه، وعينه مسئولاً عن الدعوة بخراسان، وكان هذا في سنة ثمان وعشرين ومائة، ثم أمره في سنة تسع وعشرين ومائة بإظهار الدعوة واختيار السواد شعاراً للعباسيين[1]، ومن هنا تبدأ المرحلة الثانية للدعوة العباسية وهي: مرحلة الجهر بالدعوة ومرحلة العمل، أي إزالة العقبات عن طريق دعوتهم بكل ما يملكه المسئولون والنقباء هناك من الوسائل.

وكان مما أوصى به إبراهيم بن محمد أبا مسلم الخراساني بصدد قيامه بالدعوة العباسية في خراسان أن قال له ـ كما يحكي لنا ابن قتيبة[2] الدينوري: «يا أبا عبد الرحمن، إنك رجلٌ منّا أهلَ البيت، فاحفظ وصيتي، انظر هذا الحيَّ مِن اليمن فأكرِمْهم؛ فإن الله لا يُتِمُّ هذا الأمرَ إلا بهم، وانظر هذا الحي من ربيعة فإنهم معهم، وانظر هذا الحي من مضر فإنهم العدو القريب الدار، فاقتل من شككتَ في أمره، ومن وقع في نفسك منه تهمةٌ، فقال (أبو مسلم): أيها الإمام فإن وقع في أنفسنا من رجلٍ هو على غير ذلك، أحبسه حتى أستبينه؟ قال: لا، السيفَ السيفَ، لا تتَّقِ العدو بطرف، ثم قال للشيعة: من أطاعني فليطع هذا، يعني أبا مسلم، ومن عصاه فقد عصاني، ثم قال له: إن استطعت ألا تدع بخراسان أرضاً فيها عربي فافعل، وأيما غلام بلغ خمسة أشبار فاتهمتَه فاقتله، ولا تخالف هذا الشيخ يعني سليمان بن كثير، ولا تعصِه».

وبدأ أبو مسلم عملَه في خراسان، واتخذ راياتٍ سوداء لجيشه، ولم يتلكأ في

---

(١) تاريخ الأمم والملوك: ٧/ ٣٤٤-٣٦١.

(٢) الإمامة والسياسة: ٢/ ١١٤.

استغلال الفرصة مما نشب بين نصر بن سيار والكرماني من الحروب العصبية، فجعلت الرايات السود ترفرف في مدن خراسان وقراها، وبدأت تسقط حواضرها في أيدي أبي مسلم واحدةً بعد أخرى، وكان في مقدمة جيش أبي مسلم قحطبة بن شبيب الطائي، ومعه لواؤه الذي عقده له إبراهيم[١].

وفزع نصر بن سيار من هذه القوة الفتية الزاحفة، وكتب مرات إلى مروان بن محمد يستنجده وينبهه من هذا الخطر المحدق بدولته، ولكنه كان مشغولاً في حروبه مع الخوارج في الجزيرة، فلم يجبه[٢]، ثم كتب نصر بن سيار إلى يزيد بن عمر بن هبيرة الفزاري والي العراق، فلم يجبه لكونه مشغولاً في دفع الفتن بالعراق، ولم يستطع نصر بن سيار أن يقف في وجه هذه الجيوش الزاحفة لأبي مسلم، فخرجَ هارباً من خراسان واستولى أبو مسلم على مقاليدها، وذلك في سنة ثلاثين ومائة[٣].

وفي هذه الأثناء وقع كتابٌ بيد مروان بن محمد، كان موجهاً من إبراهيم بن محمد إلى أبي مسلم الخراساني، يأمره فيه بقتل كل من يتكلم بالعربية في خراسان[٤]، فأمر الوليد بن معاوية والي دمشق أن يكتب إلى والي البلقاء بالقبض على إبراهيم بن محمد[٥]، ولما قبضَ عليه تيقنَ بأنه سوف يقتل، فأوصى بالخلافة بعده إلى أخيه أبي العباس عبد الله بن محمد بن علي[٦]، وأمرهم أن لا يلبثوا بالحميمة، بل يتوجهوا إلى الكوفة، فخرج أبو العباس مع أخيه أبي جعفر

(١) تاريخ الرسل والملوك: ٧/ ٣٨٨.

(٢) مروج الذهب: ٣/ ٢٥٥.

(٣) البداية والنهاية: ١٠/ ٣١.

(٤) تاريخ الرسل والملوك: ٧/ ٣٧٠.

(٥) الإمامة والسياسة: ٢/ ١١٦.

(٦) تاريخ الرسل والملوك: ٧/ ٤٢٣؛ و الكامل في التاريخ: ٥/ ٤٠٩.

المنصور عبد الله بن محمد وأعمامه من الحميمة، ودخلوا الكوفةَ ونزلوا عند أبي سلمة الخلال المسئول عن الدعوة العباسية بالكوفة[1].

وقُتل إبراهيم في سجن حران مسموماً[2]، ولما وصل خبر مقتله إلى الكوفة أراد أبو سلمة الخلال صرفَ الدعوة من العباسيين إلى العلويين، وقد كان يكتم ذلك في نفسه، فكتب إلى أبي عبد الله جعفر بن محمد الصادق، وإلى أبي محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسين بن علي بالمدينة، يدعوهما لصرف الدعوة إلى أحد منهما. أما جعفر الصادق فأنكر وأحرق الكتاب بدون أن يقرأه، وقبله عبد الله بن الحسن. ولكن قبل أن يصل رسول أبي سلمة الخلال إلى الكوفة راجعاً من المدينة، بويع أبو العباس بالخلافة من جماعةٍ من قواد خراسان بالكوفة، ثم خرج بإصرارهم إلى المسجد الجامع من دار الإمارة وألقى أمام الناس خطبة الخلافـة، وكان مريضاً فلم يستطع أن يكمل الخطبة، فأكملها عمه داود بن علي، وبايعه الناس بالخلافة، وذلك في يوم الجمعة لاثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الآخر سنة اثنتين وثلاثين ومائة[3].

وهكذا انتقلت الدولة من بني أمية إلى بني العباس.

ولما بلغ هذا الخبر خليفةَ الوقت مروان بن محمد بن مروان الأموي، سار من الشام في مائة ألف مقاتل حتى نزل الراسَ دون الموصل، وجهز أبو العباس السفـاح عمّه عبد الله بن علي في جيش، فالتقى الجمعان في شهر جمادي الآخرة، وانكسر مروان فتقهقر إلى الجزيرة[4]، ثم بعث أبو مسلم قحطبة بن شبيب الطائي لقتال مروان، وبعث معه ثلاثين ألفاً من رجال اليمن وأهل

---

(١) مروج الذهب: ٣/ ٢٦٧-٢٦٨.

(٢) البداية والنهاية: ١٠/ ٤٠.

(٣) مروج الذهب: ٣/ ٢٦٨-٢٧٠.

(٤) النجوم الزاهرة: ١/ ٣١٩.

الشيعة وفرسان خراسان[1]، فحَمِيَ وطيسُ المعركة في بعض كور الشام حتى انهزمَ مروان وفرَّ هارباً إلى مصر، فاتبعه قحطبة ولكنه مات غريقاً في الفرات، وحمل لواءه ابنه حميد[2] بن قحطبة، ثم الحسن بن قحطبة[3]، ثم ولى الجيشَ صالح بن عبد الله بن عباس، ورجع ابن قحطبة إلى العراق امتثالاً لأمر أبي مسلم[4]، ثم بعث صالح بن علي رجلاً يقال له أبو عون إلى مصر لقتال مروان ومعه أربعة آلاف جندي، وانضم إلى هذا الجيش جيش سليمان[5] بن هشام من بني أمية، وكان بينه وبين أبي العباس مودة قديمة، ودارت المعركة بين الجيشين على شاطئ النيل في مصر، وقتل مروان وانهزم جيشه، فأرسل أبو عون نبأ الفتح مع سليمان بن هشام إلى أبي العباس[6]، وكان مقتل مروان لثلاث بقين من ذي الحجة سنة اثنتين وثلاثين ومائة[7]، وهكذا تم النصر للعباسيين واستولوا على مقاليد العالم الإسلامي آنذاك.

والآن نذكر ترجمة كل من الخلفاء العباسيين في العصر الأول، وأهم ما وقع من الأحداث في عهدهم، في سياق استعراض الناحية الدعوية لهذا العصر.

---

(١) الإمامة والسياسة: ٢/ ١١٧.

(٢) الإمامة والسياسة: ٢/ ١١٨؛ و تاريخ الرسل والملوك: ٧/ ٤١٤.

(٣) تاريخ الرسل والملوك: ٧/ ٤١٤.

(٤) الإمامة والسياسة: ٢/ ١١٨-١١٩.

(٥) هو سليمان بن هشام بن عبد الملك بن مروان، نشأ في دمشق، وغزا أرض الروم في زمن بعيد، وكان شاعراً مجيداً، حبسه الوليد بن يزيد بعد موت أبيه، طمع في الملك عندما امتلكه مروان بن محمد وفشل في محاولة الحصول عليه فمال إلى أبي العباس، قتله السفاح في سنة اثنتين وثلاثين ومائة. انظر ترجمته في: تهذيب تاريخ ابن عساكر، ٦/ ٢٢٨-٢٨٩.

(٦) الإمامة والسياسة: ٢/ ١٢٠.

(٧) مروج الذهب: ٣/ ٢٦١.

١- أبو العباس عبد الله السفاح، (١٣٢هـ-١٣٦هـ/ ٧٥٠م-٧٥٤م)

هو عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس، أمه: ريطة بنت عبد الله بن عبد الله بن عبد الدار الحارثي، وُلد بالحميمة سنة أربع ومائة (١٠٤هـ) ونشأ بها[١]، هو أول من جلس على عرش الدولة العباسية، وكان أبوه محمد بن علي أول من قام بنشر الدعوة العباسية في سنة مائة من الهجرة[٢]، حتى توفي في سنة خمس وعشرين ومائة، وأوصى بنقل الزعامة لدعوته إلى ابنه الأكبر إبراهيم، ولما ألقي إبراهيم في سجن مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية أوصى بنقل زعامة الدعوة إلى أخيه أبي العباس عبد الله، وأمرهم أن يرتحلوا إلى الكوفة فنزلوا بها، ولما وصل إلى الكوفة نبأ وفاة إبراهيم بن محمد في سجن حران، بويع أبو العباس، وسلم عليه الناس بالخلافة، وكان ذلك ليلة الجمعة، الثالث عشر من شهر ربيع الآخر، سنة اثنتين وثلاثين ومائة[٣].

وخرج أبو العباس إلى المسجد الجامع يوم الجمعة، فخطب على المنبر قائماً، بينما كان خلفاء بني أمية يخطبون قعوداً، فحياه الناس وقالوا: أحييتَ السنة يا ابن عم رسول الله ﷺ[٤]، وألقى خطبةً لا بأس باعتبارنا إياها إعلان دستور للدولة العباسية، وأكملَ خطبته - لأنه كان موعوكاً - عمُّه داود بن علي، والسفاح جالس على المنبر يُقِرُّ جميع ما قاله عمه[٥]، ونستطيع أن نتبين قوام الدولة العباسية في ضوء هاتين الخطبتين ومدى علاقتها بالدعوة التي هي الوظيفة الأساسية للدولة الإسلامية، وسوف نتكلم عليه فيما بعد إن شاء الله.

---

(١) البداية والنهاية: ١٠/ ٥٨.

(٢) البداية والنهاية: ٩/ ١٨٩.

(٣) البداية والنهاية: ١٠/ ٥ - ٤٠.

(٤) مروج الذهب: ٧/ ٤٢٥-٤٢٨.

(٥) تاريخ الرسل والملوك: ٧/ ٤٢٥-٤٢٨.

وبعد ما تمت البيعة لأبي العباس في الكوفة انتقل إلى الأنبار، وعمّرها وجعلها عاصمة للدولة العباسية واشتهرت بالهاشمية[1]، وحكم أبو العباس العالم الإسلامي نحو أربع سنين وثمانية أشهر[2]، وقضى هذه المدة في توطيد دعائم ملكه، فقاتل الثوارَ والخوارجَ، وأزال العقبات عن طريق حكمه، وكان من الذين ثاروا على حكمه: أبو الورد في قِنّسرين، وحبيب بن مرة المرى بحوران، وأهلُ الجزيرة، وبسام بن إبراهيم في المدائن، وزياد بن صالح ببلخ[3]، ومنصور بن جمهور بسند[4]، فأرسل أبو العباس قوادَه إلى الثائرين ليكبتوهم، فكبتَ عبدُ الله بن علي أبا الورد وحبيبَ بن مرة، كما كبت أبو جعفر المنصور أهل الجزيرة، وقاتل خازمَ بن خزيمة الخوارج وبسام بن إبراهيم، كما كبت أبو مسلم الخراساني زيادَ بن صالح، وكبت موسى بن كعب منصورَ بن جمهور والي السند.

وأزال أبو العباس في جانبٍ آخر عقباتٍ عن طريق حكمه، فقتل قائدين كبيرين هما: ابن هبيرة، وأبو سلمة الخلال، كان يزيد بن عمر بن هبيرة قائداً باسلاً من قواد بني أمية، وكان متحصناً بواسط، وكان قد حاصره الحسن بن قحطبة، ثم بعث أبو العباس أخاه أبا جعفر المنصور إلى ابن هبيرة، فشدَّدَ الحصار عليه وطالت مدته حتى اضطر ابن هبيرة إلى الصلح، فكاتب المنصور، وأخيراً كتب المنصور إلى ابن هبيرة يعطيه الأمان، فنزل من الحصن، وكان يحضر مجالس المنصور، ولكن أبا العباس كان يرى ابن هبيرة عائقاً كبيراً في سبيل

---

(١) تاريخ الرسل والملوك: ٧/ ٤٧٠؛ و مروج الذهب: ٣/ ٢٦٦؛ و صبح الأعشى: ٥/ ٢٦٨.

(٢) تاريخ الرسل والملوك: ٧/ ٤٧٠.

(٣) تاريخ الرسل والملوك: ٧/ ٤٤٣-٤٦٦.

(٤) الكامل في التاريخ: ٥/ ٤٥٣.

تدعيم سلطته فشاور فيه أبا مسلم الخراساني، فكتب إليه: «إن الطريق السهل إذا ألقيت فيه الحجارة فسد، لا واللهِ، لا يصلح طريقٌ فيه ابن هبيرة»، فألح أبو العباس على أبي جعفر المنصور يأمره بقتل ابن هبيرة، حتى قتله المنصور ومن معه من القواد، وذلك بعدما أعطاهم الأمان[1]، ولا شك أنه كان غدراً صدر من المنصور وأبي العباس، وقد قال رسول الله ﷺ: «لكل غادر لواءٌ يوم القيامة يُرفَع له بقدر غدره، ألا! ولا غادر أعظم غدراً من أمير عامة»[2].

وكان أبو سلمة الخلال ممن دعم الدعوة العباسية ونشرها، وكان يسمَّى (وزير آل محمد) كما كان يسمَّى أبو مسلم الخراساني (أمين آل محمد)، ولكن ميل أبي سلمة إلى العلويين كان يخالج نفس أبي العباس، فأغرى أبا مسلم الخراساني بأبي سلمة، فبعث إليه جماعةً في ظلام الليل، ثم أعلن صباحاً أن الخوارج قتلوا أبا سلمة الخلال، ومن جهة أخرى كان المنصور يحرض أبا العباس على قتل أبي مسلم الخراساني ولكنه كفّ عن قتله، وتوفي أبو العباس بالأنبار لثلاث عشرة مضت من ذي الحجة سنة ست وثلاثين ومائة، وعمره ثلاث وثلاثون سنة[3].

صفات أبي العباس

يقول فيه ابن الأثير[4]: «كان جعداً[5] طويلاً أبيض أقنى الأنف[6]، حسن الوجه واللحية...، نظر السفـاح يوماً في المرآة، وكان أجمل الناس وجهاً، فقال:

---

(١) تاريخ الرسل والملوك: ٧/ ٤٥٠-٤٥٦؛ والإمامة والسياسة: ٢/ ١٢٩-١٣١.

(٢) متفق عليه، واللفظ لمسلم: ١٢/ ٤٤.

(٣) تاريخ الرسل والملوك: ٧/ ٤٤٩-٤٧٠.

(٤) الكامل في التاريخ: ٥/ ٤٦٠.

(٥) الجعد: الذي شعره غير مسترسل.

(٦) أقنى الأنف: الذي يقع وسط قصبته ويضيق منخره.

اللهم إني لا أقول كما قال سليمان بن عبد الملك: أنا الملك الشاب، ولكني أقول: اللهم عمّرني طويلاً في طاعتك مُمَتَّعاً بالعافية، فما استتمّ كلامه حتى سمع غلاماً يقول لغلام آخر: " الأجل بيني وبينك شهران وخمسة أيام "، فتطيّر من كلامه وقال: حسبي الله ولا قوة إلا بالله، عليكَ توكلت وبك أستعين، فما مضت الأيام حتى أخذته الحمى واتصل مرضُه، فمات بعد شهرين وخمسة أيام».

ويقول فيه المسعودي[١]: «لم يكن أحدٌ من الخلفاء يحب مسامرةَ الرجال مثل أبي العباس السفاح،... وكان إذا تعادى رجلان من أصحابه وبطانته، لم يسمع من أحدهما في الآخر شيئاً ولم يقبله، وإن كان القائل عدلاً في شهادته، وإذا اصطلح الرجلان لم يقبل شهادةَ واحدٍ منهما لصاحبه ولا عليه، ويقول: إن الضغينة[٢] القديمة تولد العداوة المِمِضّة[٣]، وتحمل على إظهار المسالمة وتحتها الأفعَى التي إذا تمكنت لم تُبق،... وكان يطرب من وراء الستر، ويصيح بالمطرب له من المغنيين أحسنتَ والله، أعِدْ هذا الصوت، وكان لا ينصرف عنه أحد من ندمائه ولا من مطربيه إلا بصلة من مال أو كسوة، ويقول: « لا يكون سرورنا معجلاً، ومكافأةُ مَن سرَّنا وأطربنا مؤجلاً».

وقال السيوطي[٤] فيه: « قالوا: كان السفاح سريعاً إلى سفك الدماء، فاتبعه في ذلك عماله بالمشرق والمغرب، وكان مع ذلك جواداً بالمال،، وقال بعض أهل العلم: «كان آخر ما تكلم به السفاح: المُلكَ لله الحيّ القيوم، ملك الملوك وجبار

---

(١) مروج الذهب: ٣/ ٢٧٨-٢٧٩.

(٢) الضغينة: وجمعها: ضغائن: الحقد. لسان العرب، ١٣/ ٢٥٥.

(٣) الممضة: المحرقة، يقال: أمضني الهم والحزن، أي أحرقني وشق عليَّ. لسان العرب، ٧/ ٢٣٣.

(٤) تاريخ الخلفاء: ص٢٥٩.

الجبابرة»[1].

نعم وكذلك اعترف بهذه الحقيقة الناصعة كثيرٌ من الجبابرة، ولكن هذا الاعتراف عند الاحتضار، ولم يأت بثمرةٍ مثمرةٍ، فلو اعترف بهذه الحقيقة الأبدية عند استلامه زمامَ الملك اعترافاً عملياً، لم يسفك الدماء المحرَّمة ولم يخرج من إطار ما أمره الله ونهى عنه، ولحاول محاولةً جادة لجعل حكومته دعوية تلتزم حدود الله في كل ما تأتي وتدَع، وتجعل هَمَّها نشرَ الدعوة وتدعيمَها في الداخل والخارج ما وسعها ذلك.

والذي رأيناه في منَازعه ومن خلال ترجمته الأولى على الأقل: تدعيم سطوته.

٢- أبو جعفر المنصور: (١٣٦هـ-١٥٨هـ/ ٧٥٤م-٧٧٥م)

هو عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس، وُلد بالحميمة سنة خمس وتسعين[2]، وجلسَ على عرش السلطة إثر وفاة أخيه الأصغر أبي العباس عبد الله بن محمد بن علي السفاح، وكانت أمُّه بربريةً اسمها: سلاّمة[3]، ولعل المنصور تأخر في نيل السلطة من أخيه الأصغر؛ لأن أمه كانت أمَة بربرية.

وبُشر بالخلافة في طريق عودته من الحج، وكان أميراً على الحج، فأخذ عنه البيعة ابن أخيه[4] عيسى بن موسى بالأنبار، وكان وليًا للعهد بعد المنصور عن وصية السفاح، وحكم المنصور العالم الإسلامي حوالي اثنتين وعشرين سنة[5].

---

(١) البداية والنهاية: ١٠/ ٦١.

(٢) البداية والنهاية: ١٠/ ١٢٢.

(٣) مروج الذهب: ٣/ ٢٩٤.

(٤) يقول المسعودي: ثم أظهر أبو العباس أهلَ بيته على أمره، ودعا إلى مؤازرته ومكاشفته أخاه أبا جعفر عبد الله بن محمد، وعيسى بن موسى بن محمد، ابن أخيه، وعبد الله بن علي عمه. ٣/ ٢٦٧.

(٥) تاريخ الرسل والملوك: ٨/ ٦٢؛ والإمامة والسياسة: ٢١٣٣-١٣٤؛ والكامل في التاريخ: ٥/ ٤٦١.

يعتبر المنصور مؤسساً حقيقياً للدولة العباسية بمنزلة عبد الملك بن مروان في الأمويين، ووجد عهداً طويلاً للحكم على العالم الإسلامي آنذاك، وقد مهَّدَ سبيلَه أخوه أبو العباس بقمع الثائرين على الدولة وبقتل رجلَين كبيرين: ابن هبيرة، وأبي سلمة الخلال، ومع ذلك وجد المنصور ثلاثَ عقبات هائلة في طريق تدعيم السلطة، فأزالها، ومهد السبيل لمن يأتي بعده ليأخذ بناصية الأمور مطمئن الفؤاد، وكانت تلك العقبات الثلاثة:

١- ثورة عمه عبد الله بن علي.

٢- وجود أبي مسلم الخراساني المستبد برأيه.

٣- ثورة الأخوين العلويين محمد وإبراهيم ابني عبد الله بن الحسن.

ا- ثورة عبد الله بن علي:

أرسل عيسى بن موسى إلى عبد الله بن علي، يخبره موت أبي العباس السفاح ويأمره بالبيعة لأبي جعفر المنصور، وكان السفاح قد أمره بذلك قبل وفاته ولم يأتمر بذلك عبدُ الله بن علي، ودعا الناسَ إلى نفسه وجاء بمبرر لدعوته إلى نفسه، فأعلن أن أبا العباس السفاح لمّا أراد إرسالَ الجيش لمحاربة مروان بن محمد، دعا بني أمية وقال لهم: مَن انتدب منكم فسار إليه فهو وليُّ عهدي، فلم ينتدب له غيري، وشهدَ بذلك بعضُ القواد من جيشه، فبايعه الجيش والقواد جميعاً، ثم سار إلى حرّان وقتل واليها بعد ما حاصره أربعين يوماً[١].

وكان أبو مسلم الخراساني قد عاد من الحج، فبعثه المنصور لمحاربة عبد لله بن علي، فسار إلى عبد الله مع جيشه، ولما بلغ عبدَ الله إقبالُ أبي مسلم استعد لقتاله، ولكنه خاف من الخراسانيين في جيشه أن يميلوا إلى أبي مسلم، فقتل منهم نحواً من سبعة عشر ألفاً بدون أي ذنب ارتكبوه[٢]، كما خاف من قائدهم حميد

(١) تاريخ الرسل والملوك: ٧٤٧٤-٤٧٥؛ و الكامل في التاريخ: ٥/ ٤٦٤.

(٢) تاريخ الرسل والملوك: ٧/ ٤٧٥؛ والكامل في التاريخ: ٥/ ٤٦٥.

ابن قحطبة، لكنه لم يجترئ على قتله مباشرة، فأرسله إلى حلب وكتب إلى واليها زفربن عاصم يأمره بقتل حميد بن قحطبة إذا قدم عليه، ولكن حميداً فتح الكتاب وقرأه وهو في طريقه إلى حلب، فأخفى الأمر من عامة جيشه وأعلمَ خاصتَه بما يحويه الكتاب، ثم غيّر طريقه وسار إلى العراق، ثم لحقَ بجيش أبي مسلم[1].

وأقبل عبدُ الله بن عليّ حتى نزل نصيبين[2]، وجاء أبو مسلم مع جيشه من جانبٍ آخر، وقد لحقَ به الحسن بن قحطبة بأمر المنصور، وكان والياً من قبله على أرمينية، ودارت المعركة بين الجيشين واقتتلوا خمسة أشهر، حتى انهزم جيش عبد الله بن علي مع كثرة عدده وعُدته، وذلك في شهر جمادى الآخرة سنة ست وثلاثين ومائة، وفرّ عبد الله بن علي من جيشه، وجاء إلى البصرة، وكان واليها أخوه سليمان بن علي، فأقام عنده مختفيًا مدة طويلة، ولما علم المنصور بذلك أرسل إلى سليمان بإحضار عبد الله بن علي وأعطاه الأمان، فجاء به سليمان إلى المنصور وذلك في سنة سبع وثلاثين ومائة، فأمر بحبسه وحبس من كان معه، ثم أمر بقتل بعض منهم وأرسل بعضاً منهم إلى والي خراسان فقُتلوا هناك[3]، واستمر عبد الله بن علي محبوساً في السجن حتى مات في سنة سبع وأربعين ومائة (١٤٧ هـ)، وعمره اثنتان وخمسون سنة[4].

وهكذا استطاع المنصور إزالة عقبة كبيرة عن طريقه إلى التمكن من الحكم، كما نال ذلك القائد الباسل السفاك مصيره، وقد كان له حظ وافر في تدعيم

---

(١) الكامل في التاريخ: ٥/ ٤٦٥.

(٢) نصيبين: بالفتح ثم بالكسر، ثم ياء الجمع الصحيح: مدينة عامرة من بلاد الجزيرة على جادة القوافل من الموصل إلى الشام، فتحها عياض بن غنم رضي الله عنه صلحاً. معجم البلدان، ٥/ ٢٨٨-٢٨٩.

(٣) تاريخ الرسل والملوك: ٧/ ٤٧٩.

(٤) تاريخ الرسل والملوك: ٧/ ٥٠١-٥٠٢.

سطوة الدولة العباسية.

٢- قتل أبي مسلم الخراساني:

كان أبو مسلم الخراساني من أبرز دعاة الدعوة العباسية، وهو الذي دعم هذه الدعوة بالعدد والعدة، وكان يسمى بـ (أمين آل محمد)، وحصلت له مكانة مرموقة في أتباع الدولة العباسية، وخصوصاً أهل خراسان الذين كانوا تحت سيطرته الشخصية، ومن الطبيعي جداً أن الإنسان إذا حصل له الجاه والمنصب بهذه الصورة، أصبح معجباً بنفسه ورأيه، مغتراً بمؤهلاته، فلم يسْلَمْ أبو مسلم من هذه الغرَّة، فكان لا يبالي بأحد أمام نفسه، حتى صرف النظر عن مكانة المنصور في أيام أخيه أبي العباس[1].

ومن جهة أخرى كان المنصور يخاف مما حَظِي أبو مسلم من قبول عام في أوساط أتباع الدعوة العباسية، فأصبح ممن يُسمع كلامه وتُنفَّذ أوامره، ومن أجل ذلك كان يُغري أخاه السفاح بقتل أبي مسلم، ومن سوء حظ أبي مسلم أنه لم ينتبه إلى ما كان يجرُّه إليه إعجابه بنفسه، فظل باقياً على نهجه عندما استلم المنصور مقاليد الحكم، فكان لا يبالي بما يكتب إليه المنصور[2].

وحدث هناك حادث وسّع خليج سوء الظن وعدم الثقة بين المنصور وأبي مسلم، وذلك أنه لما حارب أبو مسلم عبدَ الله بن علي وهزمه، بعث المنصور رسولاً من قِبله يُحصي الغنائم، فغضب بذلك أبو مسلم وكاد أن يقتل الرسول من شدة غضبه، ثم رد الرسول قائلاً: أأمينٌ في الدماء، وخائن في الأموال؟ وشتم المنصور، فرجع الرسول إلى المنصور وأخبره، فخاف من أن يتغير عليه أبو مسلم ويرجع إلى خراسان ويقوى شأنه هناك، فكتب إليه يولّيه مصرَ والشام، وثار غضب أبي مسلم على ذلك، وقال: «يوليني الشام ومصر، وخراسان لي!».

---

(١) الكامل في التاريخ: ٥/ ٤٥٨.

(٢) الكامل في التاريخ: ٥/ ٤٦٩.

وبلغ هذا الخبر المنصورَ، فكتب إليه بالمثول بين يديه، فرفضه أبو مسلم بكلمات لطيفة تحمل في ثناياها التهديد من جهة، وإظهار الوفاء والمودة من جهة أخرى، وفطن المنصور إلى أنه لا بد من المكر والدهاء ليسيطر على عدوه ومنافسه في السلطة، فكتبَ إليه كلماتٍ لطيفة كيِّسة، كما هدده بتهديدات، وفي الوقت نفسه كتبَ إلى نائب أبي مسلم في خراسان بأن لك إمرة خراسان طول حياتي، فكتب ذلك النائب أبو داود إلى أبي مسلم ينصحه ويحرِّضه على طاعة أمير المؤمنين وعدم مخالفته، فاضطر أبو مسلم للحضور بين يدي المنصور، فجاء إلى الأنبار ومعه جنده، وقد طمأنه المنصور بحيلٍ عديدة أنه مأمون، وإنما حدث ما حدث بينهما من أجل سوء التفاهم، فطلبه المنصور في خلوته، وجرَّده من سيفه بحيل، وكان المنصور قد أخفى عدداً من الحراس وراء الستر، وعلمهم أن يقتلوا أبا مسلم فجأة عندما يسمعوا تصفيقه، ثم يجري بين المنصور وأبي مسلم حوار فيه العنف من المنصور، واللطف والاعتذار من أبي مسلم، فإذا المنصور يصفق، ويبرز الحراس من وراء الستر، فيقتلون أبا مسلم، ثم ينشد المنصور:

زعمتَ أن الدَّيْنَ لا يُقتضي   فاستوفِ الكيلَ أبا مجرمِ
سُقيتَ كأسا كنتَ تسقي بها   أمرَّ في الحلقِ من العلقمِ

وذلك في الخامس والعشرين من شعبان سنة سبع وثلاثين ومائة[1].

وهكذا لقي ذلك القائد الباسل مصرعه، وقد سفك الدماء غير مبال بشيء في تدعيم سطوة الدولة العباسية، قيل: إنه قتل في دولته وحروبه ستمائة ألف صبراً، وهكذا نجح المنصور في محاولته لإزالة عقبة كبيرة في طريق تدعيم سطوته، وكان يخاف جندَ أبي مسلم، فنثر عليهم جوائز ثمينة جعلت فيهم شخصية أبي مسلم كأنها كانت أسطورة من أساطير الروايات، ثم رجعوا وهم يقولون: «بِعْنا

(١) تاريخ الرسل والملوك: ٧/ ٤٧٩-٤٩١؛ و الكامل في التاريخ: ٥/ ٤٦٨-٤٧٦.

مولانا بالدراهم»[1].

٣- ثورة الأخوين العلويين:

كان المنصور يخاف من محمد بن عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب المعروف بالنفس الزكية لزهده وتقواه، إذ أن بني هشام كانوا قد انتخبوه للخلافة حينما ظهرت آثار الضعف والاضمحلال في حكم بني أمية، في آخر عهد مروان بن محمد، وقيل: إن المنصور كان ممن بايعوه بالخلافة، فلو طار النوم من عيني المنصور من أجل خوف ثورة محمد بن عبد الله بن الحسن هذا، كان على حَقّ؛ لأن الأسرة النبوية كانت مكانتها في أعماق قلوب الناس، فكان المنصور يبحث عن محمد وإبراهيم ابني عبد الله بن الحسن، وكانا قد اختفيا منذ أن حج المنصور سنة أربعين ومائة، فكان يتفقدهما في المدن والقرى والعمران والخرابات، ويعين العيون ويبث الجواسيس ويقبض على كل من شك فيه واتهمه.

ونُقل في ذلك خبر طريف فقيل: إنه قبض على رجل اشتبه عليه اسمه، وذلك أن جاسوساً للمنصور قد دخل سرّا في جماعة محمد بن عبد الله، وكان كاتباً للمنصور يحُب العلويين، فبعث إلى محمد بن عبد الله رجلاً اسمه أبو هبار ليخبره عن ذلك الجاسوس، فدخل على محمد بن عبد الله وهو جالسٌ في كهف ومعه جماعته وفيهم ذلك الجاسوس، فطلبَ أبو هبار من محمد أن يخلو به ثم أخبره الخبر، وقد تنبه ذلك الجاسوس فتسلل من المجلس وجاء إلى المنصور وأخبره، ولكنه نسي اسمَ أبي هبار وكنيته، فذكر: (وبار) فكتب المنصور في طلب (وبار المري) فحُمل إليه رجل اسمه: وبر، فسأله عن قصة محمد، وأين ذلك المسكين عن خبر محمد، فحلف أنه لا يعرف شيئاً، ولكنه ضُرب سبعمائة سوط، وظل محبوساً حتى مات المنصور[2].

---

(١) تاريخ الرسل والملوك: ٧/ ٤٩٣.

(٢) الكامل في التاريخ: ٥/ ٥١٤-٥١٦.

كما كان المنصور يستعمل ويعزل الولاةَ على المدينة بصدد البحث عن الأخوين، فكلُّ والٍ أخفق في طلبهما عُزل، حتى استعملَ رباح بن عثمان بن حيان المري، فحبس العلويين وفيهم عبد الله بن الحسن وأبناؤه غير محمد وإبراهيم، ثم أرسلهم إلى العراق فعذّبهم المنصور أشدَّ عذاب حتى مات عديد منهم في السجن[1]، وذلك لكي يُظهِرَ الأخَوان نفسَهما، لكنهما ظلا مختفيين، ينتظران جواً مناسباً للخروج، ثم اضطر الأخوان أن يصرفا نظرهما عن الفرصة المناسبة فقرَّرا موعداً للخروج في المدينة والبصرة معاً، فظهر محمد بن عبد الله في المدينة في شهر جمادي الآخرة سنة خمس وأربعين ومائة، ومعه مائة وخمسون رجلاً، فكسر بابَ السجن وأخرج مَن فيه، ثم جاءوا إلى دار الإمارة، وقبضوا على رباح وأخيه العباس وغيرهما، وحبسهم في دار الإمارة، ثم خرج إلى المسجد وصعد المنبر وخطب الناسَ وقال: إنه خرج على طغيان المنصور بعد ما أحلَّ ما حرَّمه الله وحرَّمَ ما أحلّه الله، وبأنه بويع في الأمصار كلها، واستفتى أهلُ المدينة إمام دار الهجرة مالك بن أنس رحمه الله في الخروج مع محمد وقالوا: إن في أعناقنا بيعةً لأبي جعفر، فقال: إنما بايعتم مكرهين، وليس على مكرَهٍ يمين، فأسرع الناس إلى محمد، ولزم مالك بيته[2].

وكان المنصور بدأ بناء بغداد في تلك الأيام، فخاف من خروج محمد بن عبد الله، واستشار كثيراً ممن كان يثق بهم، حتى عمه عبد الله بن علي الذي كان محبوساً عنده، ثم بدأ يراسل محمداً يهدده تارة ويؤمنه أخرى، وكاله محمد صاعاً بصاع وكيلاً بكيل، وأخيراً أرسل المنصور ابن أخيه عيسى بن موسى بن محمد لمحاربة محمد بن عبد الله، واستشار محمد أصحابه ثم رأى أن يحفر الخندق متبعاً سنة رسول الله ﷺ، واستعد للقتال، ولكنه أخطأ سياسياً فقال لمن التف حوله

---

(١) مروج الذهب: ٣/ ٣١٠؛ والبداية والنهاية: ١٠/ ٨١-٨٢.

(٢) الكامل في التاريخ: ٥/٥٢٩-٥٣٢.

من أهل المدينة وغيرهما: «مَن أحب منكم أن يقيم أقام، ومن أحب أن يظعن ظعن»، فخرج كثير من الناس إلى الأعراض والجبال، وبقي محمد في شرذمة قليلة، ثم حاول أن يردَّ أولئك الناس إليه فلم ينجح[1].

ونادى عيسى بن موسى: «يا أهل المدينة، إن الله حرم دماء بعضنا على بعض، فهلموا إلى الأمان، فمن قام تحت رايتنا فهو آمن، ومن دخل داره فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، ومن ألقى سلاحه فهو آمن، ومن خرج من المدينة فهو آمن، خلُّوا بيننا وبين صاحبنا، فإمّا لنا، وإمّا له»[2].

ولكن أهل المدينة رفضوه، ثم دارت المعركة بين جيش عيسى بن موسى وأصحاب محمد، وقاتل محمد بن عبد الله قتالاً عظيماً، فهزموا جيش عيسى بن موسى مرتين أو ثلاثاً، ولكن إلى متى تقاوم شرذمة قليلة جيشاً كبيراً مدججاً بالسلاح؟!، وقد غلب الخوف على أهل المدينة ففتح بعض منهم الطريق لأصحاب عيسى بن موسى فدخلوا المدينة وجاءوا من وراء أصحاب محمد، فأحدقوا به من كل جانب، ومع ذلك لم يستسلموا حتى صُرِعوا مقتولين، واجتُزّ رأس محمد ورؤوس بعض أصحابه، وكان رأس محمد لا يُعرف لكثرة الدماء، وحدثت هذه المأساة يوم الاثنين بعد العصر لأربع خلون من رمضان سنة خمس وأربعين ومائة، وأرسلت الرءوس إلى أبي جعفر المنصور، فأمر، فطيف برأس محمد في الكوفة، ثم سيَّره إلى الآفاق[3].

وخرج إبراهيم بن عبد الله بن الحسن بالبصرة يدعو إلى بيعة أخيه محمد، وكان خروجه قد تأخر من خروج محمد، وذلك لمرضٍ أصابه، فظهر في أول

---

(١) الكامل في التاريخ: ٥/ ٥٤٥.

(٢) الكامل في التاريخ: ٥/ ٥٤٦.

(٣) اقرأ القصة تفصيلاً في تاريخ الطبري: ٧/ من٥١٧ إلى٦٠١؛ و الكامل في التاريخ: ٥/ ٥١٣-٥٥٥.

شهر رمضان سنة خمس وأربعين ومائة، وصلى بالناس الفجر، وقصد دار الإمارة وطلب أمير البصرة سفيان بن معاوية منه الأمان، فأمّنه إبراهيم وقيده قيداً خفيفاً، ثم تابع إبراهيم أهل الأهواز وفارس وواسط والمدائن والكوفة، فأرسل المنصور عيسى بن موسى - وقد رجع إليه بعد ما قاتل محمد بن عبد الله في خمسة عشر ألفاً - والتزم المنصور مصلاّه خمسين يومًا[1] ينام عليه ويجلس ولا يلتفت إلى أمر آخر، وارتحل عيسى بن موسى وفي مقدمة جيشه حميد بن قحطبة، وتقدم إبراهيم بن عبد الله ونزل باخُمرِيْ - وهي من الكوفة على ستة عشر فرسخاً - وقابل جيش عيسى بن موسى، ودارت المعركة بين الجيشين، واقتتل الناسُ قتالاً شديداً حتى انهزم حميد بن قحطبة وجيشه، ولكن عيسى بن موسى ظل ثابتاً على مكانه مع نفر يسير، وإذا جيش إبراهيم حُصر من ورائه، إذ جاء جيش جعفر ومحمد ابني سليمان بن علي من وراء أصحاب إبراهيم، وكان أخرجهما من البصرة، فانقلب الانتصار هزيمةً، وقتل إبراهيم وأصحابه، وأرسلت رءوسهم إلى المنصور، ووقعت هذه المعركة في خمس وعشرين من ذي القعدة سنة خمس وأربعين ومائة[2].

وهكذا استطاع المنصور أن يزيل العقبات عن طريقه في التمكن من الحكم وتدعيم سلطته، فنحى الشخصية العملاقة لمحمد بن عبد الله عن طريقه، وكان في أغلب التقدير أن تحتل هذه الشخصية مكانة المنصور - لو قدره الله - ولكن حدث ما حدث، فقتل، وهرب أخٌ لمحمد وهو إدريس بن عبد الله بن الحسن إلى إفريقية، وقامت فيما بعد دولة الأدارسة هناك على يد ابنه إدريس بن

---

(١) البداية والنهاية: ١٠/ ٩٢.

(٢) اقرأ القصة تفصيلاً في تاريخ الطبري: ٧/ ٦٢٢-٦٤٩؛ والكامل في التاريخ: ٥/ ٥٦٠-٥٧١.

إدريس[1].

وتم للمنصور مهمة تمهيد السبيل لتدعيم السلطة، وما بقي له بعد ذلك إلا معرقل واحد، وهو وجود عيسى بن موسى الذي جعله السفاح ولياً للعهد بعد المنصور[2]، وكان المنصور يريد أن يتخذ ابنه محمد المهدي ولياً للعهد.

٤- خلع عيسى بن موسى:

كان عيسى بن موسى هو الذي تولى أخذ البيعة للمنصور وهو غائب عن العاصمة، وهو الذي قاتل محمداً وإبراهيم الأخوين العلويين لتدعيم سلطة المنصور، ولكن حُبَّ الجاه والسلطة يُنسي الإنسان اليد التي تُسدِي إليه النعمة، فعزم المنصور على خلع ابن أخيه عيسى بن موسى من ولاية العهد، وكان قبل أن يريد ذلك يكرم عيسى بن موسى ويُجله، فكان يجلسه عن يمينه وابنه المهدي عن يساره، ولما أراد المنصور أخذ البيعة للمهدي، كلّم عيسى بن موسى أن يخلع نفسه من ولاية العهد، فأبى، فبدأ المنصور يهينه في كل مناسبة، وجعل يُجلس ابنه محمد المهدي عن يمينه مكان عيسى.

كما أن أمراء الجيش جعلوا يهينون عيسى بن موسى من عدة طرق منها: أنهم كانوا يمشون وراءه إذا ركب ويقولون: «أنت البقرة التي قال الله: ﴿ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴾»، وهو يتحمل هذه الشدائد بكل صبر، وقيل: إنه سقاه المنصور السم بحيلة، فمرض ولم يمت، وضيّق عليه من كل جانب حتى أُضطرَّ عيسى أن يَخلع نفسه من ولاية العهد لابن المنصور محمد المهدي[3]، فاتخذه المنصور ولياً للعهد بعد المهدي، ولكنه لسوء حظه لم يستطع أن يرتقي منصة

---

(١) انظر: مروج الذهب: ٣/ ٣٠٨.

(٢) البداية والنهاية: ١٠/ ٦٠.

(٣) تاريخ الرسل والملوك: ٨/ ٩-٢٦؛ و الكامل في التاريخ: ٥/ ٥٧٧-٥٨١.

السلطة بعد المهدي؛ لأن المهدي أيضاً اختار نفس طريق أبيه المنصور، فأجبر عيسى بن موسى، وأزعجه إزعاجاً أرغمه على التنازل عن ولاية العهد لابن المهدي موسى الهادي[1].

وهكذا مهد المنصور سبيل الوصول إلى السلطة لأولاده، وأزال كل شوكة رآها مانعة في سبيله، فيقال: إنه لم يكن خليفة من بني العباس بعد المنصور إلا من سلالته[2]، وكان اتباع هذه الأساليب لتدعيم السلطة انحرافاً كبيراً عن مباديء الدولة الدعوية؛ إذ أنه ينافي تلك العدالة التي هي ميزة بارزة من مميزات المجتمع الإسلامي، ولكن - مع الأسف الشديد - صادف الحكم الإسلامي هذه المأساة.

وظل المنصور يحكم العالم الإسلامي نحو اثنتين وعشرين سنة، حتى وافته المنية وهو في طريقه إلى الحج، فتوفي في ست من ذي الحجة سنة ثمان وخمسين ومائة، وكان عمره عندئذ خمساً وستين سنة[3].

صفات المنصور:

كان المنصور يملك صفاتٍ تكاد تكون نادرة في إنسان، وهبه الله تعالى صفاتٍ يحتاج إليها خليفة المسلمين أو زعيم دولة إسلامية دعوية، فكان لبيباً حازما يقظاً في سياسة الدولة، وكانت تتبادر هذه الصفات من أقواله ووصاياه وخطبه ورسائله، فكان مما يقول:

«ما أحوجني إلى أن يكون على بابي أربعةُ نفر، قيل له: يا أمير المؤمنين من هم؟ قال: هم أركان الملك، ولا يصلح الملك إلا بهم كما أن السرير لا يصلح إلا بأربع قوائم، إن نقصت واحدة وَهَى، أما أحدهم فقاضٍ لا تأخذه في الله

---

(١) تاريخ الرسل والملوك: ٨/ ١٢٤-١٢٨.

(٢) البداية والنهاية: ١٠/ ١٠٥.

(٣) تاريخ الرسل والملوك: ٨/ ٦١.

لومة لائم، والآخر صاحب شرطة ينصف الضعيف من القوي، والثالث صاحب خَراج يستقصي ولا يظلم الرعية، فإني عن ظلمها غني، والرابع - ثم عض على إصبعه السبابة ثلاث مرات، يقول في كل مرة: آه، آه، آه - قيل: ومن هـو يا أمير المؤمنين؟ قـال: صاحب بريد يكتب بخبر هؤلاء على الصحة»[1].

قال لابنه المهدي: «لا تُبرم أمراً حتى تُفكّر فيه؛ فإن فِكر العاقل مرآته، تُرِيه حَسنه وسَيئَه... يا أبا عبد الله لا يصلُح السلطان إلا بالتقوى، ولا تصلُح رعيته إلا بالطاعة، ولا تُعَمَّر البلاد إلا بمثلِ العدل، ولا تدوم نعمة السلطان وطاعته إلا بالمال، ولا تُقدِّم في الحياطة بمثل نقل الأخبار، وأقدر الناس على العفو أقدرهم على العقوبة، وأعجز الناس مَن ظَلَم مَن هو دونه، واعتبِرْ عمل صاحبك وعلمَه باختباره»[2].

خُطبه ورسائله[3] تدل على فصاحته وبلاغته وعلى عقليته الفائقة وآرائه الصائبة وتدبيراته السديدة وعلى ذكائه وفطنته، قـال يزيد بن عمر بن هبيرة: «ما رأيتُ رجلاً في حربٍ أو سِلم أمكرَ ولا أنكرَ ولا أشد تيقظاً من المنصور، لقد حاصرني تسعة شهور ومعي فرسان العرب، فجهدْنا كل الجهد حتى ننال من عسكره شيئاً، فما قدرنا لشدة ضبطه لعسكره وكثرة تيقظه، ولقد حصرني وما في رأسي شعرة بيضاء، ثم انقضى ذلك وما في رأسي شعرة سوداء»[4].

ويذكر الطبري[5]: «كان شغله (أي المنصور) في صدر نهاره بالأمر والنهي والولايات والعزل وشحن الثغور والأطراف وأمن السبل والنظر في الخراج

---

(١) تاريخ الرسل والملوك: ٨/ ٦٧.

(٢) تاريخ الرسل والملوك: ٨/ ٧١-٧٢.

(٣) انظر للمزيد من خطبه ورسائله ووصاياه: تاريخ الرسل والملوك: ٨/ ٨٨-١٠٦.

(٤) الفخري: ١٦٠.

(٥) تاريخ الرسل والملوك: ٨/ ٧٠.

والنفقات ومصلحة معاش الرعية لطرح عالتهم والتلطف لسكونهم وهدوئهم، فإذا صلى العشاء الآخرةَ نظر فيما ورد عليه من كتب الثغور والأطراف والآفاق وشاور سُمّاره من ذلك فيما أرِبَ، فإذا مضى ثلث الليل قام إلى فراشه وانصرف سمّاره، فإذا مضى الثلث الثاني قام من فراشه فأسبغ وضوءه وصف في محرابه حتى يطلع الفجر، ثم يخرج فيصلي بالناس ثم يدخل فيجلس في إيوانه».

كان يتباعد عن اللهو واللعب، كما حكاه[1] الطبري: أنه لم يُرَ في دار المنصور لهوٌ قط، ولا شيء يشبه اللهو والعبث إلا مرة فقط، فتزيا ولده عبد العزيز بزي الأعراب، وخرج معمّماً يحاكي الأعراب، وعبر الجسر وذهب إلى المهدي وأخذ منه الجوائز، كما قيل: إنه سمع المنصور مرة صوتاً في داره، فسأل خادمه عنه، فأخبره أن خادماً له جلس بين الجواري وهو يضرب لهن بالطنبور وهنّ يضحكن، فدخل المنصور وانتشرن من خوفه، فأمر بضرب الطنبور على رأس الغلام حتى انكسر الطنبور، ثم أخرجه من قصره.

لم يشرب المنصور الخمر ولم تُشرب على مائدته، قيل: إنه جاء الطبيب النصراني بختيشوع الأكبر من السوس إلى المنصور، فأمر له المنصور بالغداء يتغدى به، فلما جلس على الطعام طلب الشراب، فقيل له: إن الشراب لا يُشرب على مائدة أمير المؤمنين، فقال: لا آكُل طعاماً ليس معه شراب، فأخبروا المنصور بذلك، فقال: دَعوه - أي لم يُجب طلبه - وفعل عند العشاء ما فعل عند الغداء، فقيل له ما قيل آنذاك، فاقتنع بماء دجلة[2].

نرى في مثل هذه الأخبار تديّن المنصور ورعايته الناحية الدعوية في حياته الخاصة، وكان من واجبه أن يراعي هذه الناحية المهمة في جميع شئون حياته

---

(١) تاريخ الرسل والملوك: ٨/ ٦٣.

(٢) تاريخ الرسل والملوك: ٨/ ٨٧.

وحياة شعبه؛ لأنه كان خليفة المسلمين، وله الصدارة في دولة الإسلام، ولأنه كان عالماً دينياً كما يحكي لنا الطبري[1]: أنه دخل على المنصور رجل من أهل العلم فازدراه، ولكنه لم يسأله عن شيء إلا وجد عنده، فتعجب وسأله قائلاً: أنّى لك هذا العلم! قال المنصور: لم أبخل بعلمٍ علمته ولم أستح مِن علمٍ أتعلمه، قال: فمِن هناك!.

ومع هذا هناك أخبار تجرح عدالته، منها: ميله إلى تكهنات المنجمين وثقته بها، حتى وضع أساس مدينة بغداد في وقتٍ اختاره له المنجم نوبخت[2]، وكان قد جعله المنصور من أخص أصحابه[3]، وكذلك غدره بابن هبيرة وأبي مسلم الخراساني وعيسى بن موسى معروف، وفعل ما فعل بابن أخيه محمد بن أبي العباس السفاح لإبعاده عن السلطة، فقيل: إن الخصيب النصراني الزنديق أشرب محمداً السم باسم الدواء فمات، وكان ذلك بإشارة من المنصور، ولما اشتكت بذلك أم محمد، قبض المنصور على الخصيب وضربه ثلاثين سوطاً ضرباً خفيفاً، وحبسه أياماً ثم أطلقه وأعطاه ثلاثمائة درهم[4].

فهذه الأمور لا تلائم أبداً أخلاق مسلم عادي، فضلاً عن أن تصدر من أمير المؤمنين الذي يجب عليه أن يكون على ذروة التقوى والتمسك بأهداب الدين ليحرس بذلك القيم الإسلامية السامية في المجتمع الإسلامي الدعوي، ثم يقدمها إلى شعوب العالم يدعوهم إلى تلك الصفات الإيمانية العالية، فإذا صدر الغدر والخيانة والإجبار والإكراه من أمير المؤمنين، فكيف لا تتعدى هذه الأمراض الروحية إلى الرعية؟ وكيف يمكن للرعية أن تظل على منهج الدعوة وأميرها قد

---

(١) تاريخ الرسل والملوك: ٨/ ٨٨.

(٢) البداية والنهاية: ١٠/ ٩٤-٩٨.

(٣) البداية والنهاية: ١٠/ ١٢٢.

(٤) تاريخ الرسل والملوك: ٨/ ٨٦.

انحرف عنه؟ والناس على دين مليكهم!!.

٣- محمد المهدي: (١٥٨هـ-١٦٩هـ/ ٧٧٥م-٧٨٥م)

هو محمد بن عبد الله بن علي بن عبد الله بن العباس، ويكنى أبا عبد الله، أمه أم موسى أروى بنت منصور بنت عبد الله بن ذي سهم بن أبي سرح، من ملوك حمير، وُلد سنة سبع وعشرين ومائة بالحميمة، وبويع له بالخلافة بمكة في اليوم السادس من ذي الحجة سنة ثمان وخمسين ومائة، وأخذ البيعة له مولاه الربيع[١]، وجاء إليه البريد بنعي أبيه يوم الثلاثاء النصف من ذي الحجة[٢]، فكتم الأمر يومين، ثم نودي في الناس: (الصلاة جامعة)، فقام فيهم خطيباً وأخبرهم موت أبيه، ثم بايعه الناس بيعة عامة بالخلافة[٣]، ومات في ثلاث وعشرين من محرم سنة تسع وستين ومائة (١٦٩ هـ)، فحكم العالم الإسلامي عشر سنين وشهراً وخمسة عشر يوماً[٤].

لقب بالمهدي تفاؤلاً بأن يكون هو الموعود به في الأحاديث[٥]، ولكن أين هذا من ذلك الإمام الذي يملأ الدنيا عدلاً، فلم يكنه.

وجد المهدي جواً هادئاً نسبياً للحكم على العالم الإسلامي؛ لأن أباه المنصور كان قد مهد السبيل لتدعيم السلطة بإزالة العقبات التي كانت من المحتمل أن تكون سدوداً في وجه الحكم العباسي، فلم يجد عقبة تستحق الذكر إلا أزالها، وبقيت السلطة في أسرة المنصور، ونجد عصر المهدي برزخاً بين حياة الجِد والعمل في عصر السفاح والمنصور، وبين حياة البذخ والترف التي بدأت من

---

(١) مروج الذهب: ٣/ ٣١٩.

(٢) البداية والنهاية: ١٠/ ١٢٩.

(٣) البداية والنهاية: ١٠/ ١٥٢.

(٤) مروج الذهب: ٣/ ٣١٩.

(٥) البداية والنهاية: ١٠/ ١٥١.

عهد الرشيد والمأمون ومَن بعدهما، فبما أنه كان قريب العهد بعصر أبيه المنصور نجد فيه العنف والشدة على أهل الإلحاد والزندقة، والمراقبة لرد المظالم، وبما أن عهده كان عهد هدوء ورفاهية نجد فيه الميل إلى الترف والبذخ واللهو، فكان مترفاً في ملبسه ومأكله، حتى قيل: إنه كان يحمل إليه الثلج من البصرة وهو بمكة في الحج[1]، وكان أول خليفة حمل له الثلج إلى مكة.

ومن أهم ما وقع في عهد حكمه:

ظهور المقنع:

ظهر المقنع بخراسان في سنة تسع وخمسين ومائة، كان رجلاً أعور قصيراً من أهل مرو، صنع وجهاً له من ذهب ووضعه على وجهه لئلا يُرَى عَوَرُه، وادعى الألوهية لنفسه، فكان يقول: «إن الله خلق آدم، فتحول في صورته، ثم في صورة نوح، وهلم جرا حتى إلى أبي مسلم الخراساني»، وسمّى نفسه: هاشما، وكان يعتقد بالتناسخ، كما كان يعتقد أن أبا مسلم أفضل من النبي ﷺ، وما عدا ذلك من عقائد فاسدة باطلة، فأضل كثيراً من الناس واجتمعوا حوله، وكانوا يسجدون له، كما كان أتباعه يهتفون في الحروب بـ (يا هاشم أعِنّا).

فأرسل المهدي إليه جيشاً فيه القواد أمثال معاذ بن مسلم وعقبة بن مسلم فحصر المقنع نفسه في قلعة، فأطالوا الحصار عليه حتى اضطرب أصحابه وخرج منهم حوالي ثلاثين ألفاً طالبين لأنفسهم الأمان، وبقي مع المقنع نفر يسير فلما تيقن بالهلاك جمع نساءه وأهله وسقاهم السم، ثم أضرم ناراً وقال: من أحب أن يرتفع معي إلى السماء فليلق نفسه في هذه النار، وألقى فيها نفسه مع أهله وخواصه، فاحترقوا، ووقع هذا في سنة إحدى وستين ومائة[2].

---

(١) البداية والنهاية: ١٠/ ١٣٢؛ وتاريخ الخلفاء: ٢٧٣.

(٢) الكامل في التاريخ: ٦/ ٣٩،٣٨و٥١-٥٢.

غزو الهند:

وجه المهدي جيشاً إلى الهند في سنة تسع وخمسين ومائة، وكان قائد الجيش عبد الملك بن شهاب المسمعي، واشترك في هذا الغزو المحدث الربيع ابن صبيح[1]، فوصل الجيش إلى مدينة باربد من بلاد الهند في سنة ستين ومائة، فنصبوا المنجنيق وقاتلوا وفتحوا البلاد عنوةً، واستشهد من المسلمين عدد قليل، إلا أنهم أصيبوا هناك بمرض في أفواههم، فمات نحو ألف رجل فيهم الربيع بن صبيح[2].

غزو الروم:

غزيت الروم أثناء حكم المهدي مرتين:

أولاً: خرج المهدي نفسه في سنة ثلاث وستين لغزو الروم واستصحب ابنه هارون كما استخلف ابنه موسى الهادي ببغداد، فخرج عن طريق الموصل وعلى الجزيرة آنذاك جده عبد الصمد بن علي، فغضب عليه لعَدم استقباله إياه ثم عزله، ووجّه ابنه هارون إلى الروم ومعه يحيى بن خالد بن برمك وغيره، فغزوا الروم وفتحوا فتوحاً كثيرة، ثم رجعوا إلى المهدي وعندما أقام المهدي بحلب - وهو راجع إلى بغداد - أرسل عبد الجبار المحتسب في طلب الزنادقة بتلك الناحية، فجاء بهم، فقتل جماعة منهم وصلبهم وأُتي بكتبهم فقطعت

---

(١) هو أبو بكر أو أبو حفص، الربيع بن صبيح السعدي بالولاء، البصري، من المحدثين، ضعّفه بعض الرجال ووثقه بعضهم، كان من عباد أهل البصرة وزهادهم، كان بيته يشبه بالليل ببيت النحل من كثرة التهجد، روى عن الحسن وحميد الطويل وغيرهما، كما روى عنه الثوري وابن المبارك وابن المهدي وغيرهم، مات غازياً سنة ستين ومائة بأرض السند. تهذيب التهذيب، ٣/ ٢٤٧-٢٤٨.

(٢) تاريخ الرسل والملوك: ٨/ ١١٦-١١٧و١٢٨؛ والكامل في التاريخ: ٦/ ٤٦.

بالسكاكين[1].

ثانياً: وجه المهدي ابنه هارون الرشيد في سنة خمس وستين ومائة بجيش كبير عدده خمس وتسعون ألفاً وتسعمائة وثلاثون رجلاً، فدخل هارون بلاد الروم وفتح بعضاً منها وسار حتى بلغ خليج القسطنطينية، وكانت حاكمة الروم في تلك الأيام ملكة تدعى أغسطة أو (إيريني) امرأة الملك الراحل ليون، إذ كان ابنه صغيراً في حجرها، فجرى الصلح بينها وبين هارون بشروط منها:

١- الهدنة لثلاث سنين.

٢- تدفع الروم فدية مقدارها سبعون ألف دينار سنوياً، تؤديها في شهري نيسان وحزيران.

٣- تقيم الروم للجيش الإسلامي الأدلاء والأسواق عند انصرافهم[2].

صفات المهدي:

كان المهدي محبباً إلى الخاص والعام؛ ذلك لأن الناس خرجوا فجأة - بعدما صار المهدي خليفة - مما أجهدهم المنصور في أيامه من شدته وقسوته وبخله إلى ما أعطاهم المهدي من العطايا ووسع في عيشهم من إجراء الأرزاق، فكان ينظر في رد المظالم بنفسه، وكان سخياً كريماً جواداً، أنفق جميع ما تركه أبوه المنصور في الخزانة، ومقداره أربعة عشر مليون دينار، وستمائة مليون درهم[3]، كما أمر بإطلاق من كان في سجن المنصور، غير المأخوذ في دم أو قتل أو من كان معروفاً بالسعي في الأرض بالفساد، أو من كان عليه حق لأحد[4].

كان يتأثر بتلاوة القرآن الكريم، فقيل: إنه كان يصلي في يوم، فتلا هذه الآية

---

(١) تاريخ الرسل والملوك: ٨/ ١٤٤-١٤٨.

(٢) تاريخ الرسل والملوك: ٨/ ١٥٢-١٥٣؛ و الكامل في التاريخ: ٦/ ٦٦-٦٧.

(٣) مروج الذهب: ٣/ ٣٢٢.

(٤) تاريخ الرسل والملوك: ٨/ ١١٧.

الكريمة: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾[1] فلما أتم الصلاة أمرَ حاجبه الربيع بإحضار موسى، ابن أخيه جعفر، وكان محبوساً عند الربيع، فجاء به، فقال له: «يا موسى إني قرأت هذه الآية، فخفت أن أكون قد قطعت رحمك، فوثق لي أنك لا تخرج عليَّ، فوثق له، فأطلقه[2].

ولكن، مع عدله وجوده وكرمه، وشدته على أهل الإلحاد والزندقة، ومع تمسكه بالدين، كانت بعض الانحرافات قد لحقته، أجل! كان لا يشرب النبيذ ولكن لا تحرجاً، بل لأنه كان لا يشتهيه - كما يظنه الطبري[3] - ومع ذلك كان ندماؤه يشربون النبيذ أمام عينيه وهو لا ينكره عليهم، وكان وزيره يعقوب[4] بن داود يعظه وينصحه ويلح عليه أن يمنع أصحابه، وكان يقول له: «إنه ليس على هذا استوزرتني، ولا على هذا صحبتُك، أبَعد الصلوات الخمس في المسجد الجامع يُشرب عندك النبيذ ويُسمع الغناء؟!»[5]، وقد ذكرنا أن أباه المنصور كان شديداً في هذا الأمر، فكان لا يُشرب الشراب على مائدته.

ومن انحرافه، شغفه باللعب بسباق الحمام، وتساهله بالمؤاخذة على أهل

---

(١) سورة محمد، الآية: ٢٢.

(٢) تاريخ الرسل والملوك: ٨/ ١٧٧.

(٣) تاريخ الرسل والملوك: ٨/ ١٦٠.

(٤) هو يعقوب بن داود بن طهمان، كان من الموالي، وكان آباؤه كُتاباً لنصر بن سيار أمير خراسان أيام بني أمية، وكان بينه وبين الربيع صداقة، فشفع له الربيع عند المهدي، فاستخبره فوجده عاقلاً متدينا ذا كفاءة، فاختاره وزيراً وفوض إليه الأمور، والحاسدون كانوا يسعون بيعقوب إلى المهدي، ووجد المهدي زلة ليعقوب، إذ أطلق علوياً كان دفعه المهدي ليقتله، فنكبه وجعله في المطبق، وهو حبس التجليد، فلم يزل في ذلك حتى أخرجه الرشيد، فدخل مكة وتوفي بها في سنة اثنتين وثمانين ومائة. ابن الطقطقي، الفخري، ص١٨١ وما بعدها؛ والبداية والنهاية، ١٠/ ١٤٧-١٤٩و١٨٢).

(٥) تاريخ الرسل والملوك: ٨/ ١٦٠؛ والبداية والنهاية: ١٠/ ١٤٩.

البدع والهوى والوضاعين للأحاديث[1]، كما كان يحب الغناء ويستلذ به، يقول الجاحظ[2]: «إن المهدي كان يحب القيان وسماع الأغاني، وكان معجباً بجارية يقال لها: (جوهر)، وكان اشتراها من مروان الشامي، فدخل عليه ذات يوم مروان الشامي، وجوهر تغنيه، فقال مروان:

أنت يا جوهر عندي جوهره في بياض الدرة المشتهره
فإذا عنَّيتِ فنار ضربت قذفت في كلِّ قلبٍ شرره

فاتهمه المهدي وأمر به فدُعَّ في عنقه إلى أن خرج، ثم قال لجوهر: أطربيني، فأنشأت تقول:

وأنت الذي أخلفتني ما وعدتني وأشمتَّ بي من كان فيكَ يلومُ
وأبرزتني للناس ثم تركتني لهم غرضاً أُرمَى و أنت سليمُ
فلو أن قولاً يَكلِم الجسمَ قد بدا بجسمِيَ مِن قول الوُشاة كُلُوم

فقال المهدي:

ألا يا جوهر القلب لقد زدت على الجوهرْ
وقد أكملكِ اللهُ بحسن الدلِّ والمنظرْ
إذا ما صلت ما أحسـ ـن خلقِ الله بالمزهرْ
وغنيتِ ففاح البيـ ـتُ من ريقكِ بالعنبرْ
فلا والله ما المهد ي أولى منك بالمنبرْ
فإنْ شئتِ ففي كفـ ـك خلعُ ابن أبي جعفرْ

فهذا القدر من الانحراف، من شاء أن يستصغره، فعل، ولكن المنهج الدعوي يَعُده ضخماً وكبيرًا؛ لأن الملوك والرؤساء لهم وقع ونفوذ في رعيتهم وأتباعهم، فما صدر منهم صغيراً وصل إلى الرعايا كبيراً، فما بالنا بما صدر منهم من

---

(١) البداية والنهاية: ١٠/ ١٥٣.

(٢) البيان والتبيين للجاحظ: ٥٥٥-٥٥٦.

الانحراف وهو غير صغير؟ وما نجد في أيامنا من (رعاية الفن) والاحتفال بالفنانين؛ نجد أصله في مثل هذه المجالس والمحافل، وعلى كلٍّ، كان المهدي يتصف بصفات حميدة كثيرة، كما كان يحمل بعض نواحي الضعف في شخصيته، وإذا كانت هذه الصفات الضعيفة بسيطة تصدر عن حاكم عادي، فإنها لا يجوز أن تُعتبر بسيطةً بالنسبة إلى خليفة يُتوقع منه أن يكون ذا شخصية دعوية.

٤- موسى الهادي: (١٦٩هـ-١٧٠هـ/ ٧٨٥م-٧٨٦م)

هو موسى بن محمد بن عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس، ولد بالسيروان[١] من الري[٢]، كانت كنيته أبا محمد، وأمه الخيزران أم ولد يمانية، بويع بالخلافة يوم توفي المهدي، أي في سنة تسع وستين ومائة، وهو كان عندئذ بجرجان يحارب أهل طبرستان، وأخذ له البيعة أخوه هارون[٣]، وتوفي ليلة الجمعة للنصف من شهر ربيع الأول سنة سبعين ومائة، وهو ابن أربع وعشرين سنة، ودامت خلافته سنة وثلاثة أشهر فقط[٤].

ولم يقع في العهد القصير لهذا الخليفة أمر يستحق الذكر بصفة خاصة، وكان خرج عليه الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن المحض بن الحسن بن علي بن أبي طالب بالمدينة، وذلك في سنة تسع وستين ومائة أيام الحج، فأقام بالمدينة أحد عشر يوماً ثم خرج إلى مكة يدعو الناس إلى بيعته، وأرسل الهادي إليه رجالاً قاتلوه يوم التروية وهزموه، وقتل الحسين بموضع يسمى بفخ، ولما أرسلت رءوس المقتولين إلى الهادي لم يستحسنه وغضب على الذين فعلوا ذلك.

وكان مع الحسين هذا إدريس بن عبد الله بن الحسن المحض أخو محمد

---

(١) موضع قرب الري: نزل بها المهدي. معجم البلدان، ٣/ ٢٩٧.

(٢) تاريخ الرسل والملوك: ٨/ ١٧١.

(٣) مروج الذهب: ٣/ ٣٣٤.

(٤) تاريخ الرسل والملوك: ٨/ ٢١٣.

وإبراهيم اللذي خرجا على المنصور، ولكنه لم يقع في أيدي الهادي، فخرج مختفياً إلى مصر، ومن هناك إلى المغرب ومال إليه الناس لكونه من عترة الرسول ﷺ، إلا أن هارون الرشيد في عهده دس إليه من أهدى إليه سواكاً مسموماً فمات به، ثم خلفه ابنه إدريس ابن إدريس، فقامت دولة الأدارسة هناك[1].

وفعل الهادي ما فعله جده المنصور وأبوه المهدي، أي أراد خلع أخيه هارون الذي اختاره المهدي ولياً للعهد بعد الهادي، وعزم أن يتخذ ابنه الصغير جعفراً ولياً لعهده، وسلك نفسَ طريق " قدوئيه " في هذا المسلك، أي أزعج هارون وضيّق عليه بطرق عديدة كيما يخلع نفسه، وكان هارون قد رضي بذلك ولكن يحيى بن خالد بن برمك الذي كان يتولى أمور هارون منذ عهد أبيه المهدي منعه من التنازل عن ولاية العهد، واختار حيلاً لطيفة لم ينجح الهادي بسببها في مرامه حتى وافته المنية[2].

صفات الهادي:

كان شديداً على الملحدين والزنادقة مثل أبيه المهدي، فقتل عدداً كبيراً منهم[3]، كما كان شديد الغيرة على النساء، كانت أمه الخيزران لها نفوذ وتدخل في أمور الحكومة في عهد أبيه المهدي، ومن أجل ذلك كانت مواكب رجال الدولة تغدو وتروح إلى بابها، فمنعَها الهادي من ذلك، وقال: لأضربن عنق من يأتي إليك من هؤلاء الناس، فغضبت عليه، وقيل: إن الهادي أرسل إلى أمه بعدما سخطت عليه، طعاماً جعل فيه السم، ولكنها لم تأكله، فسلمت وألقته إلى كلب أكله فمات على الفور، ويقال: إن الخيزران من أجل ذلك دست إلى

---

(١) تاريخ الرسل والملوك: ٨/ ١٩٢-٢-٣؛ ومروج الذهب: ٣/ ٣٠٦-٣٠٨.

(٢) تاريخ الرسل والملوك: ٨/ ٢٠٧-٢١٣؛ و الكامل في التاريخ: ٦/ ٩٦-٩٩.

(٣) الكامل في التاريخ: ٦/ ٨٩.

الهادي بعض جواريها فقتلنه في حالة مرضه[1]. والله أعلم بالصواب.

وقيل: إنه كان يشرب النبيذ ويستمع الأغاني[2]، وهذا ليس من شأن حاكم يُنتظر منه أن يكون في سلوكه وفي سياسته حاكماً دعوياً وأن يجعل من دولته دولة دعوية.

٥- هارون الرشيد: (١٧٠هـ-١٩٣هـ/ ٧٨٦م-٨٠٩م:

هو هارون بن محمد بن عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس، وُلد بالري في سبع وعشرين من ذي الحجة سنة خمس وأربعين ومائة، كان يكنى أبا جعفر، وأمه الخيزران التي سلف ذكرها، ولي الخلافة سنة سبعين ومائة وكان عمره إذ ذاك اثنتين وعشرين سنة، وتوفي في سنة ثلاث وتسعين ومائة وهو ابن أربع وأربعين سنة، وكانت مدة حكمه أكثر من ثلاث وعشرين سنة[3].

يعتبر عهد الرشيد من العهود البارزة في التاريخ الإسلامي، فقد وصلت العاصمة الإسلامية بغداد في عهده إلى قمة الرقي والازدهار من نواح شتى لم تبلغها من قبل[4]، ولكن الناحية الدعوية لم تكن - مع الأسف - في جملة هذه النواحي كما سنرى، وصادف عهده فتناً داخلية وخارجية تغلب على جميعها هارون بحنكته وتدبره، وبقي يحكم الدولة العباسية بما وهبه الله تعالى من فضل وعلم وكرم.

الفتن الداخلية:

منها خروج يحيى بن عبد الله بن الحسن المحض بالديلم، وذلك في سنة ست وسبعين ومائة، فوجّه إليه هارون الفضل بن يحيى البرمكي، الذي بذل جهده

---

(١) الكامل في التاريخ: ٦/ ٩٩-١٠٠.

(٢) تاريخ الرسل والملوك: ٨/ ٢٢٢-٢٢٧.

(٣) تاريخ الرسل والملوك: ٨/ ٢٣٠و٣٤٥؛ ومروج الذهب: ٣/ ٣٤٧.

(٤) صبح الأعشى: ٥/ ٢٧١-٢٧٢.

الكبير في إقناع يحيى بن عبد الله العلوي ليرجع عما أراده، حتى اقتنع يحيى بالصلح على أن يكتب له الرشيد أماناً، فأجابه الرشيد، فجاء إلى بغداد فرحب به الرشيد وبقي عنده، ثم أمر الرشيد بعد أيام بحبسه، وبقي محبوساً حتى مات في الحبس[١].

وهاجت العصبية المضرية واليمانية بدمشق في نفس السنة، وضاعت أموال كثيرة ونفوس ثمينة في الاحتكاك بين الطائفتين، فولّى الرشيد موسى بن يحيى البرمكي، فبذل موسى جهده وأصلح بين الطائفتين[٢].

وقامت فتنة في إفريقية، فظهر هناك في عدة مناطق أمراء يحارب بعضهم بعضاً باسم أمير المؤمنين، وفي مقدمتهم رجل يقال له: عبد الله بن الجارود المعروف بعبدويه الأنباري، فأرسل هارون هرثمة بن أعين والياً على إفريقية لقمع هذه الفتن، فتغلب جزئياً على استئصالها، فقبض على الجارود وبعثه إلى بغداد.

ولكن هرثمة استوحش من شدة اختلاف الأمراء هناك، فاستقال من إمارة إفريقية في سنة إحدى وثمانين ومائة، فاستعمل الرشيد عليها محمد بن مقاتل بن حكيم العكي، فخرج عليه بتونس رجل يقال له تمّام بن تميم التميمي، وأخرجه من القيروان وجاء إبراهيم بن الأغلب وهزم تمّاماً، فعاد محمد إلى القيروان، ثم هجم تمّامُ ثانية على القيروان، فلم ينجح وتقهقر منهزماً، ثم ولّى الرشيد إبراهيم بن الأغلب على إفريقية في سنة أربع وثمانين ومائة، فتغلب على الفتن، وبقي حاكماً على إفريقية إلى سنة ست وتسعين ومائة[٣].

وما عدا ذلك كانت هناك فتن وثورات أخرى تغلّب الرشيد على جميعها بحذقه ومهارته في السياسة ونصح وزرائه له.

---

(١) الكامل في التاريخ: ٦/ ١٢٥-١٢٦.

(٢) تاريخ الرسل والملوك: ٨/ ٢٥١.

(٣) الكامل في التاريخ: ٦/ ١٣٦-١٣٩و١٥٤-١٥٧.

الفتن الخارجية:

وأما الفتن الخارجية فكان من أهمها غزو الروم، فكانت الصوائف والشواتي جارية على الثغور، وكانت ملكة الروم في بداية عهد الرشيد امرأة تسمى (ريني) فخلعتها الروم في سنة سبع وثمانين ومائة، وجلس على عرش الملك والي الخراج السابق نقفور، فكتب إلى الرشيد خطاباً عنيفاً يطلب فيه أن يردَّ الرشيد جميع ما استلمه من خراج الروم، فغضب الرشيد غضباً شديداً وكتب إليه: «الجواب ما تراه دون ما تسمعه» ثم سار إليه مع جيش كبير وفتح هرقلة[١]، وغنم وأحرق وخرّب حتى اضطر نقفور على المصالحة بدفع الخراج سنوياً، فرجع الرشيد، وعندما وصل إلى الرقة[٢]، نقض نقفور العهد، فكرّ راجعاً والطقس شديد البرد، وفتح هرقلة ثانياً، وبعث نقفور الخراج والجزية عن نفسه وعن ولده وعن بطارقته[٣].

نكبة البرامكة:

كانت أسرة البرامكة فارسية الأصل، ولها فضلٌ كبير في إجلاس الرشيد على عرش السلطة، وكان يتولى يحيى بن خالد بن برمك أمور الرشيد من لدن أن عيّنه المهدي على ذلك، وهو الذي منع الرشيد من التنازل عن ولاية العهد عندما أجبره الهادي على ذلك، وكان الرشيد يخاطبه دائماً بـ (يا أبت)[٤] فكان

---

(١) هرقلة: بالكسر ثم الفتح: مدينة ببلاد الروم، واسم حصن أيضاً بناه الرشيد على الفرات، وهو قرب صفين. معجم البلدان، ٥/ ٣٩٨-٣٩٩.

(٢) الرقة: بفتح أوله وثانيه وتشديده: وهي مدينة مشهورة على الفرات، بينها وبين حران ثلاثة أيام، معدودة في بلاد الجزيرة. معجم البلدان، ٣/ ٥٩.

(٣) تاريخ الرسل والملوك: ٨/ ٣٠٧-٣١٠و٣٢٠؛ والكامل في التاريخ: ٦/ ١٨٤-١٨٦و١٩٦.

(٤) مروج الذهب: ٣/ ٣٤٨.

أبوه من الرضاعة، أرضعت زوجة يحيى الرشيد بلبان الفضل كما أرضعت الخيزران الفضل بلبان الرشيد[١]، ومن أجل ذلك سلّم الرشيد جميع أموره إلى يحيى بن خالد ودفعه خاتمه[٢]، وهكذا امتلك يحيى سواد ملك هارون وبياضَه، وكانت هذه الأسرة على قمة اللباقة والمؤهلات في سياسة الدولة، كما كانت ذات جود وسخاء وكرم، كان من أقوال يحيى بن خالد: «المواعيد شِباك الكِرام يصيدون بها محامد الأحرار»، وكان إذا ركب أعدّ صررًا، في كل صرة مائتا درهم يدفعها كلٌ من تعرَّض له[٣]، وقال الشاعر فيهم:

أولاد يحيى بن خالد وهم أربعـةٌ سيِّـد ومتـبـوع
الخير فيهم إذا سألتَ بهم مفـرّق فيـهم ومجمـوع

وهم الفضل بن يحيى المعروف في جوده وبراعته، وجعفر بن يحيى في كتابته وفصاحته، ومحمد بن يحيى في سخائه وبُعد همته، وموسى بن يحيى في شجاعته وبأسه[٤].

واحتلت الأسرة مكانة مرموقة في أوساط الحكم، كما أصبح الفضل وجعفر من أخص أصحاب الرشيد حتى كان الرشيد لا يصبر عن جعفر[٥]، وكان جعفر يفعل ما يشاء في أمر الرشيد وهو يقرر كل ما فعله جعفر[٦]، ولكن لكل كمال زوال، فكان الحساد يسعون بين الرشيد وبين هذه الأسرة، كما صدر من هذه الأسرة أيضاً بعض الأخطاء، فدارت عليهم الدائرة، فإذا الرشيد يأمر

---

(١) تاريخ الرسل والملوك: ٨/ ٣٣٠.
(٢) تاريخ الرسل والملوك: ٨/ ٢٥٦؛ ومروج الذهب: ٣/ ٣٤٨.
(٣) الفخري: ص٢٠١.
(٤) مروج الذهب: ٣/ ٣٧٧.
(٥) تاريخ الرسل والملوك: ٨/ ٢٩٤.
(٦) الفخري: ص٢٠٥-٢٠٦.

خادمه بقتل جعفر بن يحيى، فيُقتل ويُصلب جسده بعدما قُطع قطعتين على جانبي الجسر، وألقي القبض على الفضل بن يحيى، وحُبس يحيى بن خالد في منزله، وسُلب منهم ما وُجد بهم من مال وضياع ومتاع، وأرسل في نفس الليلة إلى سائر البلاد في قبض أموال البرامكة ووكلائهم ورقيقهم، ونودي في الآفاق بأن لا أمان لمن آوى البرامكة إلا محمد بن خالد بن برمك، وهكذا أفلت شمس أسرة البرامكة في آن واحد بعد أن ظلت مشرقة على أفق العالم الإسلامي نحو سبع عشرة سنة(١).

ولاية العهد:

فعل الرشيد ما فعله مَن سبقه في الحكم بصدد ولاية العهد، إلا أنه أفرط في ذلك وقسم الولاية في أبنائه الثلاثة، فجعل محمداً ابنه من زبيدة ولياً لعهده، وأخذ له البيعة وعمره خمس سنوات، ولقبه بـ (الأمين)(٢)، ثم أخذ البيعة لابنه عبد الله من أم ولد له اسمها مراجل، بأن يتولى الحكم بعد محمد الأمين، ولقبه بـ (المأمون) وذلك في سنة اثنتين وثمانين ومائة(٣)، ثم أخذ البيعة لابنه القاسم من أم ولد له اسمها قصيف، بأن يتولى الحكم بعد المأمون، ولقبه بـ (المؤتمن)، وذلك في سنة ست وثمانين ومائة.

ثم ولّى الأمينَ العراق والشام وآخر المغرب، وولى المأمونَ من همدان إلى آخر المشرق، وولى القاسمَ الجزيرة الثغور والعواصم، ثم حج الرشيد في نفس السنة وكتب كتاباً أشهد فيه على محمد الأمين، وأشهد فيه من حضر بالوفاء للمأمون، كما كتب كتاباً للمأمون أشهدهم عليه فيه بالوفاء للأمين، وعلق الكتابين في الكعبة، فقال الناس: قد ألقى " الرشيد " بذلك بينهم شراً وحرباً،

---

(١) تاريخ الرسل والملوك: ٨/ ٢٨٧-٣٠٢؛ والكامل في التاريخ: ٦/ ١٧٥-١٨٠.

(٢) تاريخ الرسل والملوك: ٨/ ٢٤٠.

(٣) تاريخ الرسل والملوك: ٨/ ٢٦٩.

وحدث ما توقعه الناس[1].

صفات الرشيد:

لعلنا لا نخطيء لو قلنا إن الرشيد كان ممن أمسك العصا من وسطها فيما بين أمور الشريعة وما يعارضها، فكان يحج سنة ويغزو سنة، وكان يصلي مائة ركعة كل يوم، كما كان يتصدق من صلب ماله[2] في كل يوم بألف درهم بعد زكاته، وكان إذا حج، حج معه مائة من الفقهاء وأبناؤهم، وإذا لم يحج، أرسل للحج ثلاث مائة رجل بالنفقة السابغة والكسوة الظاهرة[3].

وكان يستمع إلى الناصحين والعلماء الربانيين ويتعظ ويبكي، ومن جهة أخرى كان مولَعاً بشرب المسكِر - كما حكاه ابن كثير[4] -، ويسمع الأغاني من إسحاق بن إبراهيم الموصلي ويطرب طرباً شديداً، وكان قد جمع إليه مرة رؤساء المغنين فاستمع إليهم وقد أخذه النبيذ كل مأخذ[5]، وقيل: إن أول من جعل للمغنيين مراتب وطبقات هو الرشيد[6]، كما نقل السيوطي[7] قول الذهبي أنه قال: «أخبار الرشيد يطول شرحها، ومحاسنه جمّة، وله أخبار في اللهو واللذات

---

(١) تاريخ الرسل والملوك: ٨/ ٢٧٦-٢٨٦؛ والكامل في التاريخ: ٦/ ١٧٣.

(٢) قلت: وهل هذا المال قد كسبه الرشيد بعرق جبينه حتى يسمّى (ماله الخاص)! أم أنه قد كسبه من جراء استثمار ما ناله من ضياع وأراض من أسلافه بسبب كونه أحد أفراد الأسرة العباسية الحاكمة!!، ولو كان هذا الذي كسبه الرشيد بناءً على استغلال منصبه ومكانته؛ ماله الخاص.. لما قسّم عمر بن الخطاب رضي الله عنه أموال غير واحد من ولاته عندما اكتسبوا أموالاً باستغلال مناصبهم. د. محمد عامر.

(٣) تاريخ الرسل والملوك: ٨/ ٣٤٧؛ والكامل في التاريخ: ٦/ ٢١٧؛ والفخري: ص١٩٣.

(٤) البداية والنهاية: ١٠/ ١٨٩.

(٥) مروج الذهب: ٣/ ٣٧٠.

(٦) تاريخ الخلفاء: ٢٩٥.

(٧) تاريخ الخلفاء: ٢٨٦.

المحظورة والغناء، سامحه الله».

فانحراف الرشيد هذا لم يكن أمراً بسيطاً، بل كان خطيراً جداً نظراً إلى مسئوليته الضخمة من حيث كونه خليفة للمسلمين، ومن حيث إنه رئيس دولةٍ المفروض فيها أن تكون دولةً دعوية، وأن يكون رئيسها ذا شخصية دعوية بحاله وقاله، وكان ينبغي أن يكون حظ الدعوة من الرشيد ودولته أكثر مما كان، وكم كان حَظ الإنسانية عظيماً، لو حافظت هذه الدولة على المقومات والواجبات الحقيقية للدولة الإسلامية، [وكان الرشيد فوق ذلك كله؛ لا يبالي بالغدر بكل من رآه خطراً عليه وعلى حكمه، كما فعل مع محسنيه من أسرة آل برمك، وهذه الصفة ينبغي أن لا يتصف بها مسلم عادي، فكيف بزعيم أعظم دولة على وجه الأرض في حينها!!، وقد غدر بيحيى بن عبد الله بن الحسن المحض عندما أعطاه الأمان ثم ألقاه في غيابات السجن، بينما يقول الرسول عليه الصلاة والسلام: «لكل غادر لواء يوم القيامة يعرف به»[1]، كما أقدم هو وأسلافه وأبناؤه من بعده على قتل أنفس مسلمة بريئة كثيرة، بينما يقول النبي عليه الصلاة والسلام: «لا يزال المؤمن في فسحة من دينه ما لم يُصِبْ دمًا حراما»[2]].

٦- محمد الأمين (١٩٣هـ- ١٩٨هـ/ ٨٠٩م- ٨١٣م)

هو محمد بن هارون بن محمد بن عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس، ولد في سنة إحدى وسبعين ومائة، وبويع بالخلافة في جمادى الآخرة سنة ثلاث وتسعين ومائة[3]، كان يكنى أبا موسى، وقيل: أبا عبد الله، وأمه زبيدة بنت جعفر الأكبر بن أبي جعفر المنصور، وهو ثالث خليفة في التاريخ الإسلامي أبواه هاشميان، إذ الأول: علي بن أبي طالب، والثاني: الحسن بن

(١) صحيح البخاري، ٦/ ٢٥٥٥.

(٢) صحيح البخاري، ٦/ ٢٥١٧.

(٣) العقد الفريد: ٥/ ١١٨.

علي رضي الله عنهما.

وقتل الأمين ببغداد سنة سبع وتسعين ومائة، وكانت خلافته أربع سنين وثمانية أشهر[1].

كـان عهد الأمين مليئاً بالفتن والكوارث، وذلك لحدوث الخلاف بين الأخوين؛ إذ أن الأمين منذ بداية عهده لم يكن صافي القلب إزاء أخيه الأكبر عبد الله المأمون، وذلك لما جمع الرشيد للمأمون أموال خراسان والمشرق[2]، وزاد الطين بلّة حينما أشار على الأمين وزيره الفضل بن الربيع بخلع المأمون وأخذ البيعة لابنه موسى بولاية العهد[3]، وكان هذا الاقتراح من الفضل لحماية نفسه فقط، لا لنصح الأمين، ومن سوء حظ الأمين أنه استعد لتنفيذ هذا الاقتراح، فوافق على ذلك بعض قواده وخالفه بعضهم، ولكن الأمين أصر على رأيه فعزل القاسمُ المؤتمنَ وأصدر الأمر بالدعاء لابنه موسى بالإمارة.

ولما بلغ هذا الخبر المأمونَ بخراسان، أسقط اسم الأمين من الطراز[4] وقطع عنه البريد[5]، ثم أرسل الأمين مرتين مجموعة من الرجال إلى المأمون يأمره بالمثول بين يديه، ولكن المأمون امتنع، وهكذا بدأ يشتد الخلاف بين الأخوين[6]، ثم خلع الأمين المأمون، وبايع لابنه الصغير موسى في سنة خمس وتسعين ومائة ولقبه بـ (الناطق بالحق) ونهى عن ذكر المأمون والمؤتمن على المنابر، وطلب

---

(١) تاريخ الرسل والملوك: ٨/ ٤٩٨.

(٢) الكامل في التاريخ: ٦/ ٢٢٢.

(٣) تاريخ الرسل والملوك: ٨/ ٣٧٤.

(٤) **الطراز**: ما ينسج من الثياب للسلطان. لساب العرب، ٥/ ٣٦٨.

(٥) الكامل في التاريخ: ٦/ ٢٢٩.

(٦) تاريخ الرسل والملوك: ٨/ ٣٧٥-٣٧٦.

الكتابين المعلقين بالكعبة ومزقهما[1]، ثم أرسل الأمين جيشاً كبيراً لمحاربة المأمون يقوده علي بن عيسى بن ماهان، ونصحته زبيدة أم الأمين بالرفق بالمأمون إذا وجد عليه سبيلاً[2].

كما أرسل المأمون جيشاً عدده أقل من أربعة آلاف فارس، بقيادة طاهر بن الحسين، ودارت المعركة بين الجيشين، فكانت الغلبة في النهاية لجيش طاهر بن الحسين وقتل علي بن عيسى، فدخل الفضل بن سهل ذو الرياستين على المأمون وهنأه بالفتح، وأمر الناس فدخلوا عليه، فسلموا عليه بالخلافة، ثم وصل رأس علي بن عيسى فطيف به في خراسان، قيل: إنه لما بلغ الأمين خبر مقتل علي كان يصطاد السمك، فقال: ويلك، دعني؛ فإن كوثرا (يعني خادمه) قد اصطاد سمكتين وأنا ما صدت شيئاً بعد[3].

واستمر القتال بين الأخوين، وكان أمر الأمين إلى انهيار وانحطاط، وذلك لانهماكه في اللهو واللعب وعدم المبالاة بأمور الدولة، كما كان أمر المأمون إلى التقدم والإقبال، فكان جيشه يتقدم ويفتح المدن بقيادة طاهر بن الحسين، حتى خلع أهل الحرمين الأمين وبايعوا المأمون، وذلك في رجب سنة ست وتسعين

---

(١) تاريخ الرسل والملوك: ٨/ ٣٧٧و٣٨٩.

(٢) الكامل في التاريخ: ٦/ ٢٤٠.

(٣) انظر: تاريخ الرسل والملوك: ٨/ ٣٩٢و٣٩٥؛ والكامل في التاريخ: ٦/ ٢٤٢-٢٤٥.
وأوردت هذه القصة مع استغرابي إياها واستغرابي ما يماثلها، ذلك أنها منافية لطبائع الأمور، ونحن إذا نظرنا إليها من خلال الطبيعة البشرية وخوضها الأخطار، وحرصها على بقاء ما بيدها من المكاسب ولا سيما إذا كانت هذه المكاسب ملكاً، إننا حينئذ نستبعد صحة هذه القصة وأمثالها، بل نكاد نجزم بأنها منحولة، ولكن إذا نظرنا إليها من خلال ما يريده الله سبحانه وتعالى بقوم سوءاً - مِن سلب التوفيق ومسخ العقلية - لم نستبعدها، ﴿ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴾ [سورة الرعد: ١٣] صدق الله العظيم.

ومائة[1]، وحاصر جند طاهر بن الحسين بغداد في سنة سبع وتسعين ومائة، واستمر الحصار أربعة عشر شهراً أو أكثر، وفسد حال الأمين كما فسد حال بغداد، فتعطلت المساجد وتركت الصلاة، وأمال طاهر كثيراً من قواد الأمين إلى نفسه، فخرج إليه بعضٌ منهم، وبقي البعضُ مع الأمين للتجسس عليه، وكان الأمين قد عزم على الخروج من بغداد، ثم فسخ عزمَه نتيجةً لمؤامرة هؤلاء الخونة من أصحابه، حتى قتل ليلة الأحد لخمس بقين من المحرم سنة ثمان وتسعين ومائة[2].

صفات الأمين:

كان الأمين شجاعاً باسلاً، قيل: إنه قتل أسداً وحشياً بدون أي سلاح[3]!!، ولكنه كان شديد الانغماس في اللهو واللعب والشرب والسماع، قيل: إنه لم يترك الشراب والسماع في أيامه الأخيرة عندما كان محصوراً بمدينة المنصور[4]، وقال فيه ابن الأثير[5]: «ولم نجد في سيرته ما يستحسن ذكره من حلم أو معدلة أو تجربة حتى نذكرها»، فيا لسوء حظ الدولة التي يفترض فيها أن تكون دولة دعوية أن يتولى خلافتها رجل يقول فيه مؤرخ شهير مثل هذا المقال.

٧- عبد الله المأمون (١٩٨هـ- ٢١٨هـ/ ٨١٣م- ٨٣٣م)

هو عبد الله بن هارون بن محمد بن عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس، الملقب بالمأمون، كان يكنى بأبي العباس، وُلـد في سنة سبعين ومائة، وأمه أمُّ ولد اسمها مراجل، واستقل بالخلافة سنة ثمان وتسعين ومائة، وهو ابن

---

(١) تاريخ الرسل والملوك: ٨/ ٣٩٤-٣٩٥؛ والكامل في التاريخ: ٦/ ٢٤٢-٢٤٥.

(٢) تاريخ الرسل والملوك: ٨/ ٤٧٨-٤٨٩؛ ومروج الذهب: ٣/ ٤١٢-٤٢٠.

(٣) مروج الذهب: ٣/ ٤٠٣.

(٤) مروج الذهب: ٣/ ٤٠١-٤٠٢.

(٥) الكامل في التاريخ: ٦/ ٢٩٥.

ثمان وعشرين سنة، وتوفي بقرية بديدون، ثم حُمل إلى طرسوس[1] ودفن هناك، وذلك في سنة ثماني عشرة ومائتين، وعمره إذ ذاك ثمان وأربعون سنة وكانت مدة خلافته عشرين سنة وستة أشهر[2].

وكان عهد المأمون أيضاً مليئاً بالاضطراب والثورات، ولكنه تغلب على جميعها بلباقته وحسن تدبيره.

الثـورات:

خرج على المأمون أبو عبد الله محمد بن إبراهيم المعروف بابن طباطبا سنة تسع وتسعين ومائة وهو يدعو إلى الرضى من آل محمد ﷺ، واتصل برجل آخر خرج على المأمون يدعى بأبي السرايا، واستولوا على الكوفة، وأبو السرايا هذا ضربَ الدراهم باسمه في الكوفة وسيَّرَ جيوشه إلى البصرة فغلبوا عليها وعلى واسط والمدائن، فقاتله قائد للمأمون، وهو هرثمة بن أعين، وأخرجهم من الكوفة واستولى عليها في سنة مائتين، وهرب أبو السرايا إلى السوس بخوزستان فقاتله هناك الحسن بن علي المأموني فأسره وبعثه إلى الحسن بن سهل، فضرب عُنقَه وأرسل رأسه إلى المأمون' وخرج على المأمون بمكة علوي هو محمد بن جعفر الصادق، وأخذ البيعة لنفسه من الناس، وذلك بما حثه عليه ابنه والحسين بن الحسن الأفطس، وسرعان ما تحول الناس عنه لسوء أخلاق ابنه وابن الأفطس، فهرب من مكة فطاف بالبلـدان هائماً، ثم طلب العفو من المأمون فعفا عنه.

وفي سنة إحدى ومائتين، حول المأمون الخلافة من العباسيين إلى العلويين، وجعل علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي

---

(١) طرسوس: بفتح أوله وثانيه بوزن قربوس: وهي مدينة بثغور الشام بين أنطاكية وحلب بلاد الروم. معجم البلدان، ٤/ ٢٨.

(٢) تاريخ الرسل والملوك: ٨/ ٦٥٠؛ ومروج الذهب: ٤/ ٤؛ والعقد الفريد: ٥/ ١١٩.

طالب، الملقب بالرضي، ولياً لعهده، وكتب إلى الآفاق، وغيَّر اللباس من السواد الذي هو شعار العباسيين إلى الخضرة التي هي شعار العلويين، فثار غضب العباسيين، فبايعوا إبراهيم بن المهدي ببغداد ولقبوه بالمبارك، وخلعوا المأمون ولكن الفضل بن سهل ذا الرياستين أخفى هذا الأمر على المأمون ولكنه اطلع عليه فسار من خراسان إلى العراق، ودس على الفضل أناساً قتلوه في الحمام، ومات علي بن موسى الرضي في سنة ثلاث ومائتين فدفنه المأمون عند قبر أبيه الرشيد، وكتب الخبر إلى أهل بغداد، وطلب منهم الدخول في طاعته، ثم خلع أهل بغداد إبراهيم بن المهدي ودخلوا في طاعة المأمون، واختفى إبراهيم إلى أن ألقي القبض عليه في سنة عشرة ومائتين، وعفا عنه المأمون بشفاعة الحسن بن سهل[1].

ودخل المأمون بغداد سنة أربع ومائتين وقد تغلب على الفتن المائجة بتدبيره وسياسته، فغير اللباس الأخضر، ورجع إلى لبس السواد الذي هو شعار العباسيين، ثم ولى طاهر بن الحسين على خراسان، وابنه عبد الله على مصر، وكان قد تمرد أهل مصر، فذهب إليهم عبد الله بن طاهر وغلبهم[2].

وفي سنة إحدى ومائتين خرج رجلٌ اسمه بابك الخرمي يدعو الناس إلى الإباحية والزندقة وإلى العقائد الباطلة منها التناسخ[3] وإباحة الزواج بالأم

(١) الكامل في التاريخ: ٦/ ٣٠٣-٣٥٤.

(٢) الكامل في التاريخ: ٦/ ٣٩٦-٣٩٩.

(٣) التناسخ: مذهب مبني على إبطال النظر والاستدلال وإنكار المعاد والبعث بعد الموت، وعن عقائد هذا المذهب: قالت طائفة: ينقل روح الإنسان إلى كلب، وروح الكلب إلى إنسان، وقالت الأخرى: أرواح الصادقين إذا فارقت أجسامها سرت في عمود الصبح إلى النور الذي فوق الفلك، فبقيت في ذلك العالم على السرور الدائم، وأرواح أهل الضلال رُدَّتْ منعكسة إلى الأسفل، فتتناسخ في أجسام الحيوانات إلى أن تصفو من شوائب الظلمة ثم تلحق بالنور العالي. الفرق بين الفرق، ٢٧٠-٢٧١.

والأخت والبنت، لعنه الله، وأرسل المأمون عدداً من قواده فقاتلوا ذلك الكافر الزنديق، ولكنهم لم يظفروا به[1]، فبقي ينشر كفره وزندقته[2] حتى قتل في عهد المعتصم.

غزو الروم:

غزا المأمون نفسه الرومَ في سنة خمس عشرة ومائتين، فخرج من بغداد وخلف عليها إسحاق بن إبراهيم بن مصعب، واختار طريق الموصل، وفتح خمسة عشر حصناً كما فتح هرقلة، وبقي في هذه الغزوة إلى النصف من شعبان سنة ست عشرة ومائتين، ثم ارتحل إلى دمشق[3].

محنة خلق القرآن:

ابتُلي المأمون في أيامه الأخير بمحنة أوجدتها فرقةُ المعتزلة، ألا وهي فتنة القول بخلق القرآن التي ظلت مسيطرة على أوساط الحكم حوالي خمس عشرة سنة[4]، فكتب المأمون في سنة ثماني عشرة ومائتين إلى إسحاق بن إبراهيم ببغداد أن يمتحن القضاة والشهود والمحدِّثين بالقرآن، فمَن أقرّ أن القرآن مخلوق محدَث؛ خلّى سبيله، ومن أبَى؛ أعلمه به ليأمره فيه برأيه، وطوّل كتابه بإقامة الدليل على كون القرآن مخلوقاً - في زعمه - وتركِ الاستعانة بمن اقتنع عن القول بذلك، فأقرّ بذلك كثير من القضاة والفقهاء والمحدِّثين، مكرَهين متأولين، وذلك صيانةً لعرضهم ودينهم.

أما الإمامان الجليلان أحمد بن حنبل ومحمد بن نوح الجنديسابوري رحمهما الله تعالى فامتنعا عن القول بكون القرآن مخلوقاً، فشدهما إسحاق بن إبراهيم

---

(١) الكامل في التاريخ: ٦/ ٣٢٨.

(٢) الزندقة: الكفر باطناً مع التظاهر بالإيمان.

(٣) تاريخ الرسل والملوك: ٨/ ٦٢٣-٦٢٥.

(٤) لأن هذه المحنة أزالها المتوكل في سنة أربع وثلاثين ومائتين. مروج الذهب: ٤/ ٨٦.

بالحديد وأرسلهما إلى المأمون وكان مقيماً بطرسوس، فلم يزل الإمام أحمد يدعو في طريقه إلى المأمون ألاّ يجمع الله بينه وبين المأمون، وأمر المأمون إسحاق أن يرسل إليه أولئك الفقهاء والمحدّثين الذي أقروا بهذا القول مكرهين متأولين، لأنه لم يقتنع[1] بإقرارهم على هذا النمط، فأرسلهم أيضاً إلى المأمون، ولكن مات المأمون قبل أن يصلوا إليه فرُدُّوا جميعاً إلى بغداد[2].

صفات المأمون:

قال السيوطي[3] فيه: «وكان أفضل رجال بني العباس حزماً وعزماً وحلماً وعلماً ورأياً ودهاءً وهيبةً وشجاعةً وسؤددًا وسماحةً، وله محاسن وسيرة طويلة لولا ما أتاه من محنة الناس في القول بخلق القرآن، ولم يل الخلافة من بني العباس أعلم منه، وكان فصيحاً مفوها، وكان يقول: " معاوية بعَمْرِه، وعبد الملك بحجّاجه، وأنا بنفسي».

خـالف المأمون تلك التقاليد التي كانت قد راجت في خلفاء بني العباس، وهي: خلع الإخوان من ولاية العهد وصرفها إلى أبنائهم، فلم يتخذ المأمون ابنه العباس ولياً للعهد، بل اختار أخاه المعتصم ولياً للعهد بحضرة ابنه العباس، وأوصى المعتصم وصايا قيمة[4]، احتوت هذه الوصية معاني كثيرة طيبة، ولكنها

---

(١) إن هذا الطلب من المأمون ينم عن مبلغ تشدده في نصرة بدعته غير المعقولة، ولو أنه صرف همته هذه إلى نشر الدعوة الإسلامية الصافية في سماحتها وسدادها، لكان من المتوقع أن يصيب نجاحاً كبيراً، وأن يدخل خلقاً غير قليل في دين الله، ولزان بذلك تاريخه، بل التاريخ العباسي كله.

(٢) تاريخ الرسل والملوك: ٨/ ٦٣١-٦٤٥؛ والكامل في التاريخ: ٦/ ٤٢٣-٤٢٧؛ والبداية والنهاية: ١٠/ ٢٧٢-٢٧٤.

(٣) تاريخ الخلفاء: ٣٠٨؛ والبداية والنهاية:١٠/ ٣٠٦.

(٤) الكامل في التاريخ: ٦/ ٤٢٦-٤٣١.

كوصايا غيرها من خلفاء بني العباس، لم تنصّ على الوظيفة الأصلية للدولة وهي الدعوة إلى الله، وبذلك تفقد تلك الروح التي كانت تقوم عليها دولة الخلفاء الراشدين والتي يعبِّر عنها ربعي[1] بن عامر ﷺ وهو يخاطب رستم قائد جيش الفرس: «الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام»[2].

والمأمون هو أول خليفة عباسي اشتدت عنايته بعلوم الحكمة، فبذل جهداً كبيراً في الحصول على كتبها وعلى ترجمتها[3]، إلا أنه لم يوفق إلى أن يقوم بما ينبغي، وهو تحكيم الكتاب والسنة وما احتويا من مباديء فيما ترجم إليه من علوم الأوائل، وكان من المنتظر أن يسخّر ما يمكن أن يكون في هذه العلوم من الخير، أو بعضِ الخير، لخدمة كتاب الله وسنة رسول الله خالصَين، فلم يقم به، ومال إلى الفلسفة، وأدخل تحكيم العقل في العلوم النقلية، فأخطأ، وقام بالدعوة إلى القول بخلق القرآن، [كما أن المأمون اخترع بعض البدع[4]]، وكان يشرب النبيذ ويستمع الأغاني من القيان[5]، وهذا ما يقصيه عن مكانته الحقيقية التي يجب أن يكون عليها زعيم الدولة القائمة على (تمثّل) الدين والعمل به والدعوة إلى الله تعالى.

---

(١) هو ربعي بن عامر بن خالد بن عمرو، صحابي كان من أشراف العرب، كان الفاروق أمد به المثنى بن حارثة، كما وجُهه إلى العراق، وله ذكر أيضاً في معركة نهاوند. الإصابة في تمييز الصحابة: ١/ ٤٩١.

(٢) البداية والنهاية: ٧/ ٣٩.

(٣) الفخري: ٢١٦.

(٤) الأولى: لبس الخضرة، الثانية: القول بخلق القرآن، الثالثة: الصيحة قياماً وتكبيرات ثلاثة بعد الصلوات الخمسة والجمعة، والرابعة: إباحة المتعة. النجوم الزاهرة: ٢/ ٢١٣.

(٥) تاريخ الرسل والملوك: ٨/ ٦٦١و٦٦٤و٦٦٥.

٨ - المعتصم (٢١٨هـ- ٢٢٧هـ/ ٨٣٣م- ٨٤٢م):

هو محمد بن هارون بن محمد بن عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس، الملقب بالمعتصم، كان يكنى أبا إسحاق، ولد في شعبان سنة ثمانين ومائة، أمه أم ولد صفدية من مولودات الكوفة يقال لها: ماردة بنت شبيب، بويع بالخلافة في اليوم الذي توفي فيه المأمون، وهو يوم الخميس سابع عشر من رجب سنة ثماني عشرة ومائتين، وهو ابن ثمان وثلاثين سنة، وتوفي سنة سبع وعشرين ومائتين وهو ابن سبع وأربعين سنة، كانت مدة حكمه ثماني سنين وثمانية أشهر[١].

كان المعتصم أمّياً لم يقرأ إلا شيئاً يسيراً، ومن أجل ذلك قلّد أخاه المأمون وسار سيره في العقيدة الفاسدة بالقول بخلق القرآن، وكان المأمون أوصاه بذلك[٢]، فشدد على العلماء والمحدثين والفقهاء ليقبلوا هذه العقيدة الفاسدة التي أوجدتها المعتزلة، وكان رئيسهم أحمد بن أبي داود[٣] والذي قد نال ثقة المعتصم وغلب عليه[٤]، فكتب المعتصم إلى الآفاق بالتزام هذه العقيدة، كما أمر المعلمين أن يعلموها الصبيان[٥]، وبإغراء هؤلاء المعتزلة ضرب المعتصم الإمام الجليل

---

(١) تاريخ الرسل والملوك: ٩/ ١١٩؛ ومروج الذهب: ٤/ ٤٦؛ والكامل في التاريخ: ٦/ ٥٢٤-٥٢٥.

(٢) الكامل في التاريخ: ٦/ ٤٣٠.

(٣) هو أحمد بن أبي داود الإيادي المعتزلي، ولد سنة ستين ومائة، قال الصولي فيه: لم يكن بعد البرامكة أكرم منه، ولولا وضع نفسه من محبة المحنة لاجتمعت عليه الإنس، ولي منصب قاضي القضاة للمعتصم وللواثق، وكان موصوفاً بالجود والسخاء وحسن الخلق، مات سنة أربعين ومائتين. البداية والنهاية: ١٠/ ٣١٩.

(٤) مروج الذهب: ٤/ ٤٧.

(٥) ونقول ههنا كما قلنا بحق المأمون: ليت المعتصم صرف همته هذه إلى الدعوة إلى الإسلام الصافي الأصيل، كما جاء في الكتاب والسنة إذن لكانت ثمرات جهوده بالغة=

أحمد بن حنبل رحمه الله ضرباً شديداً غيَّبَ عقله وقطَّع جلده، ثم أمر بحبسه وبقي الإمام في السجن إلى عهد المتوكل[1].

وكان من أهم ما وقع في عهد حكمه:

محاربة الزُّط:

وهم قوم من الهنود، كانوا قد غلبوا على طريق البصرة ينهبون ويقطعون الطريق، فأرسل المعتصم إليهم جيشاً يقوده عجيف بن عنبسة، فحاربهم وقتل كثيراً منهم كما أسر عددا كبيراً منهم، وظل عجيف يحاربهم نحو سبعة أشهر حتى غلب عليهم في سنة عشرين ومائتين[2-3].

قتل بابك الخرمي:

مر بنا أن المأمون قد توفي دون أن يستطيع القضاء على حركة هذا المتمرد الزنديق[4]، فتقوّى أمره حتى دخل في دينه آلاف من الناس، وكان قد استولى على مدينة البذ، وهي مدينة تقع على الجبال، ولما جلس المعتصم على عرش السلطة وجّه قائده الكبير الأفشين - واسمه حيدر بن كاؤس - لمحاربة بابك، وذلك في سنة عشرين ومائتين، وظل الأفشين يحارب بابك محاربة طويلة ذات تدابير مختلفة ومكائد متنوعة، واستمر إلى سنة اثنتين وعشرين ومائتين حتى هزم بابك وفتح مدينة (البذ)، وهرب بابك مختفياً في جبال أرمينية، فوقع في يد سهل

= العظمة والجدوى.

(١) البداية والنهاية: ١٠/ ٣٣٢-٣٣٥.

(٢) تاريخ الرسل والملوك: ٩/ ٨-١١؛ والكامل في التاريخ: ٦/ ٤٤٣-٤٤٤-٤٤٦.

(٣) نود أن نقول ههنا إنه يقيني أن الدولة لو التزمت الإسلام والدعوة إليه التزاماً سوياً لحالت دون ظهور مثل هذه الحركات التي لو فرضنا أن بعضها ظهر بسبب ما، فإن معالجته بالإسلام الصحيح تكون أجدى وأبقى.

(٤) بابك كان في نواحي أذربيجان.

بن سنباط أحد دهاقنة تلك المناطق الجبلية، فأخبر الأفشين فقبض على بابك وأخيه عبد الله وجاء بهما إلى المعتصم في سنة ثلاث وعشرين ومائتين، فقُتلا وصُلبا، وقيل: إن مَن قتلهم بابك في مدة عشرين سنة يبلغ عددهم: مائتي ألف وخمسة وخمسين ألفاً وخمسمائة إنسان[1].

محاربة الروم:

هجم ملك الروم توفيل بن ميخائيل على عديد من مدن المسلمين وحصونهم وذلك مَدداً لبابك الخرمي، وسبى كثيراً من المسلمات، كما مثَّل بمن وقع في يده من رجال المسلمين، فسمَل أعينهم وقطع أنوفهم وآذانهم، قيل: كانت امرأة هاشمية ضمن الأسرى المسلمين فصاحت: «وا معتصماه»، وبلغ الخبر المعتصم وكان جالساً على سريره فقال: لبيكِ، لبيكِ، ونهض فوراً وصاح في قصره: الرحيل، الرحيل[2]، وجهَّز جيشاً لم يتجهز بمثله خليفة، ولما عزمَ على المسير، أحضر القضاةَ وأشهدهم أنه وقفَ أملاكه وأمواله على ثلاثة أثلاث: ثلث لله وثلث للأولاد والأقارب، وثلث لمواليه، ثم هجم على عمورية التي هي أشرف عند الروم من القسطنطينية، وفتحها بعد جهد كبير اشترك فيه كبار قواد المعتصم أمثال الأفشين وأشناس وأيتاخ، وأمر بعمورية فأحرقت وهُدّمت، وأقام عليها نحو خمسة وخمسين يوماً، وفرّق الأسارى على قواده ثم سار إلى

---

(١) تاريخ الرسل والملوك: ٩/ ١١/ ٥٥؛ والكامل في التاريخ: ٦/ ٤٤٧-٤٧٨؛ والبداية والنهاية: ١٠/ ٢٨٣-٢٨٥.

(٢) هكذا صنع المعتصم رحمه الله في ظل قوة المسلمين فخلّد ذكره في التاريخ، ولكن اليوم كم تنطلق نداءات ((وامعتصماه)) وتلامس آذاننا الصماء! غير أنها لا تجد نخوة المعتصم، وليس من الضروري أن ينطلق زعماء الأمة اليوم بجيوش جرارة على غرار المعتصم، فقد اختلفت موازين القوى العسكرية اليوم لصالح غيرنا، ولكن ألا يستطيع زعماؤنا التحرك ولو دبلوماسياً إذا انتهكت محارمنا!. د. محمد عامر.

طرسوس[1].

صفات المعتصم:

كان المعتصم شجاعاً مِقداماً صاحب بأس شديد، كان يحمل ألف رطل ويمشي بها خطوات[2]، قال السيوطي[3]: «وله محاسن وكلمات فصيحة وشعر لا بأس به، غير أنه إذا غضب لا يبالي من قتل»، وكان يحب جمع الأتراك وشراءهم، وغلب الأتراك في أيامه على الديوان، ومن أجل كثرة الأتراك في بغداد اضطر أن يعمر مدينة سامراء[4]، وكان يستمع الأغاني من القيان[5].... ولو أنه جند طاقاته لخدمة الدعوة، مؤتماً بالعهد الراشدي لجاء بخير كثير.

٩- الواثق بالله (٢٢٧هـ- ٢٣٢هـ/ ٨٤٢م- ٨٤٧م)

هو هارون بن محمد بن هارون بن محمد بن عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس الملقب بـ (الواثق بالله) وكان يكنى أبا جعفر، ولد سنة ست وتسعين ومائة، أمه أم ولد رومية تسمَّى قراطيس، بويع بالخلافة يوم توفي أبوه المعتصم وذلك في الثامن من ربيع الأول سنة سبع وعشرين ومائة، وعمره إذ ذاك إحدى وثلاثون سنة وتسعة أشهر، ومات سنة اثنتين وثلاثين ومائتين، وهو ابن ست وثلاثين سنة، وكانت مدة حكمه خمس سنين وتسعة أشهر[6].

لم يقع في أيام الواثق من الفتوح الكبار والحوادث المشهورة ما يؤثر[7]، ولكنه

---

(١) تاريخ الرسل والملوك: ٩/ ٥٥-٧٠؛ الكامل في التاريخ: ٦/ ٤٧٩-٤٨٨.

(٢) الفخري: ٢٢٩.

(٣) تاريخ الخلفاء: ٣٣٤.

(٤) مروج الذهب: ٤/ ٥٣-٥٤.

(٥) تاريخ الرسل والملوك: ٩/ ١٢٢. والبداية والنهاية: ١٠/ ٢٩٦. والعقد الفريد: ٦/ ٦٢.

(٦) تاريخ الرسل والملوك: ٩/ ١٢٣و١٥١؛ ومروج الذهب: ٤/ ٦٥.

(٧) الفخري: ص٢٣٦.

كان شديدًا في القول بخلق القرآن، متأسيًا مسلك أبيه المعتصم وعمه المأمون، فحبس خلقاً كثيراً بصدد هذه المحنة، وكتب إلى جميع قضاته بعدم قبول من لا يعترف بهذه العقيدة الضالة[1]، كما قتل إمامًا جليلاً ومحدثاً كبيراً هو أحمد بن نصر الخُزاعي[2] رحمه الله، وذلك بعدما جرى بينه وبين المعتزلة مناظرة وعجزت المعتزلة عن الجواب، فحرّضوا الواثق عليه بأنه ضال يَحِلّ دمه، فقتله الواثق بيده محتسباً في ظنه لله، وحبس من أصحابه نحواً من تسعة وعشرين رجلاً وظلمهم ظلماً كبيراً، وكان الواثق قد غلا في تمسكه بهذه العقيدة الفاسدة إلى حد لا نهاية له، بحيث أنه لمّا وقع الفداء بين الدولتين العباسية والرومية سنة إحدى وثلاثين ومائتين، استطاع أحمد بن داود المعتزلي أن يُقنع الواثق بأن يمتحن كل أسير مسلم في القول بخلق القرآن، فمن اعترف به فُودِي به، وإلاّ تُرك في أيدي الروم[3].

وقيل إن الواثق رجع عن القول بخلق القرآن في أيامه الأخيرة، وذلك أن شيخاً عليه قيود حُمل إليه، وكان ابنُ أبي داود حاضراً عنده، فسأله الشيخ: أخبرني عن هذا الرأي الذي دعوتم الناس إليه، أعَلِمَهُ رسولُ الله ﷺ فلم يدْعُ الناس إليه، أم شيءٌ لم يعلمه؟، قال ابن أبي داود: بل عَلِمه، قال الشيخ: فكان يسعه ﷺ الاّ يدعو الناس إليه وأنتم لا يسعكم؟ فبُهت داود، فقال الواثق وغلب عليه الضحك: وسعَ النبي ﷺ أن يسكت، ولا يسعنا!! ثم أمر للشيخ

---

(١) مروج الذهب: ٤/ ٣١٩.

(٢) هو أبو عبد الله أحمد بن نصر بن مالك الخزاعي، كان جده مالك أحد نقباء بني العباس في أول الدولة، روى عن مالك وابن عيينة وحماد بن زيد وغيرهم، وذكره ابن حبان في الثقات. تهذيب التهذيب، ١/ ٨٧.

(٣) تاريخ الرسل والملوك: ٩/ ١٤١-١٤٣.

بثلاث مائة دينار وأن يُردَّ إلى بلده، ولم يمتحن أحداً بعده[1].

صفات الواثق:

كان الواثق فاضلاً لبيباً عاقلاً فطناً فصيحاً شاعراً[2]، كان يُسمَّى المأمونَ الأصغر لأدبه وفضله[3]، كما كان واسع العطاء سهل الانقياد محبَّبًا إلى رعيته[4]، ومن ناحية أخرى كان كثير الأكل والشرب، يشرب النبيذ ويستمع الأغاني[5]، قيل إنه كان أعلمَ الخلفاء بالغناء، وله أصوات وألحان عملها نحو مائة صوت، وكان حاذقاً بضرب العود[6]، كما كان يثق بتكهّنات المنجّمين[7]، وليس هذا من شأن الحاكم الذي يُفترض فيه أن يكون حاكماً دعوياً.

وانتهى العصر العباسي الأول بموت الواثق بالله، ويعتبر هذا العصر عصراً ذهبياً في التاريخ الإسلامي، ولا شكَّ أنه كان قرناً ذهبياً من حيث عظمة الدولة وأبهتها وسطوتها، فكانت الدولة العباسية تفوق الدولة البيزنطية التي لم يكن أمامها إلا أن تدفع الجزية إلى بعض خلفاء هذا العصر، كما نعرف من تاريخ الرشيد رحمه الله، وكانت هذه الدولة قوية متماسكة في شئونها الداخلية من حيث التنظيم الإداري والاقتصادي، فكان الولاة البارزون والوزراء يديرون الإدارة الحكومية بدقة ومهارة، كما كانت هناك شخصيات عملاقة تملك زمام قيادة الجيش الإسلامي أمثال عبد الله بن علي وأبي مسلم الخراساني وهرثمة

---

(١) البداية والنهاية: ١٠/ ٣٢١؛ وتاريخ الخلفاء: ص٣٤١-٣٤٢.

(٢) الفخري: ص٢٣٦.

(٣) تاريخ الخلفاء: ص٣٤٢.

(٤) مروج الذهب: ٤/ ٣١٩.

(٥) تاريخ الرسل والملوك: ٩/ ١٢٥و١٥٢-١٥٣؛ ومروج الذهب: ٤/ ٦٦.

(٦) تاريخ الخلفاء: ص٣٤٣.

(٧) البداية والنهاية: ١٠/ ٣٠٨.

بن أعين وطاهر بن الحسين والأفشين حيدر بن كاؤس وغيرهم.

وأما الناحية الاقتصادية، فكانت عامرة خصبة، وكانت خزائن الدولة تفيض بالأموال، وقد ذكر ابن خلدون[١] تفصيلاً عن جباية الخراج في عهد المأمون، كما ذكر غيره من المؤرخين[٢] والكتاب تفاصيل أخرى، كل ذلك يدل على كون الناحية الاقتصادية على قمة الرقي والازدهار في العصر العباسي الأول، وفضلاً على ذلك كان الخلفاء الذين امتلكوا زمام الحكم وأشرفوا على جميع الأنظمة الحكومية لم يكونوا ضعفاء في شخصياتهم، والوصفُ الذي كان يشملهم جميعاً هو: القوة، الحزم، والصلابة، فكانوا - في جملتهم - ذوي بأس وهيبة وحزم ورأي وفكر، ومن أجل ذلك تغلبوا على جميع الفتن، داخليةً كانت أم خارجية، كما رأيناه في استعراضنا الموجز.

فالدولة التي ترأسها أمثال هذه الشخصيات القوية التي تملك مواهب عظيمة متنوعة، واستُوزِر فيها وزراء كانوا - بوجه عام - ذوي مؤهلات بارعة في تدبير أمور الدولة وتنظيم شئون الحكم، وقاد جيوشَها قوادٌ كانوا نادرين في الشَجاعة والبسالة والحنكة المهارة؛ كان من واجب هذه الدولة العظيمة أن تتنبه بالدرجة الأولى إلى الوظيفة الأساسية للدولة الإسلامية، ألا وهي: الدعوة إلى الله بجميع اعتباراتها، ولكن - مع الأسف الشديد - وجدنا هذه الناحية ضعيفة في مسلك الخلفاء، بل في مسلك الدولة العباسية من حيث هي، وكم نجد من الفرق بينها وبين دولة الراشدين في هذه الناحية، بلها دولة المصطفى ﷺ، كما استعرضناه آنفاً، ولكي نتوسع في استعراض هذه الناحية نتكلم عليها فيما يلي:

هل كانت الدولة العباسية دولة دعوية؟

إذا تساءلنا بهذه الصيغة، لم يكن معناه أننا نعتبر الناحية الدعوية كناحية عادية

(١) مقدمة ابن خلدون: ٢/ ٦٧٠-٦٧٤.

(٢) الوزراء والكتاب: ص٢٨١-٢٨٨.

من نواحي الدولة، بل كان معناه - كما قلنا أول الكتاب - أن الدولة الإسلامية لا تُتصور إلا بأن تغشاها الدعوة وتحيطها بجوانبها المتنوعة، وإذا تخلت أي دولة إسلامية عن هذه الصفة، وبتعبير أبلغ: عن هذه الصبغة؛ تكون مسؤولة أمام الله عز وجل ثم أمام الدعاة من أبناء الأمة الإسلامية، فما بالك بتلك الدولة التي جاءت في خير القرون وقد تخلت إلى حد ما عن الدعوة كوظيفة أولى ووظيفة جوهرية لها؟

فلا نستطيع أن نجيب بأن الدولة العباسية كانت دولة دعوية من طراز الدولة الراشدية؛ إذ أن عمودها الفقري - وهو كون الدعوة مسيطرة على جميع شؤونها - كان ضعيفاً، فلم يمكّنها أن تتبوأ مكان الدولة الدعوية المثالية، بحيث تطلُعُ على الناس بمنهج كامل متفوق للحياة تجعلُ همَّها الأول إدخال الناس فيه، فهي تُشبه مريضاً ظل مستلقياً على قفاه من أجل ضعف عموده الفقري، وهو يتمتع بأنواع الفواكه وألذ الأطعمة بفضل صحة جهازه الهضمي وسلامته، أو هي تشبه مصباحاً رائعاً صيغ من أثمن المعادن ولكنه غير مشتعل، ولذا بات من الضروري أن نستعرض أوضاع الدولة العباسية من الناحية الدعوية للإجابة عن هذا السؤال المطروح، وهذا ما سنتناوله في الصفحات التالية:

قوام الدولة العباسية

قامت الدولة العباسية على دعوة، ولكن... إلى أي شيء؟ هل كانت هذه الدعوة إلى الإسلام من جديد؟ أو إلى العمل بكتاب الله وسنة رسوله والعضّ عليها بالنواجذ؟ أو إلى إصلاحِ ما طرأ من الفساد على المجتمع الإسلامي؟

وللجواب عن هذه الأسئلة يجب أن نستعرض استعراضاً مُجدياً حياة خلفاء هذه الدولة ومن إليهم، ثم يجب أن ندرس منازعهم في الحكم من خلال وصاياهم ورسائلهم وخطبهم وأعمالهم، وقد استعرضنا فيما مضى حياةَ الخلفاء الذين عاشوا في العصر العباسي الأول، ونظرنا نظرة خاصة لحياتهم لأن الناس

إذ ذاك كانوا لهم تَبَعاً، ولم تكن الأمة تتمتع بشخصية متميزة إزاءهم، بل كانت أوضاع الأمة وأتباع الدولة كلها تتلون بلون شخصية الخليفة، فكانت مصداقًا للمقولة المشهورة: «الناس على دين ملوكهم»، وظهر لنا باستعراضنا الموجز أن حياة الخلفاء على ما فيها من نواح جديرة بالتقدير، ليست هي حياة حكامٍ دعويين ينحَون منحى النبي ﷺ وخلفائه الراشدين، وسنتكلم عن النواحي الأخرى وفق الفقرات التالية:

أ - تطور فكرة الإمامة الشيعية.

ب- استغلال الفرصة.

ج- الانتقام وتدعيم السطوة.

أولاً: تطور فكرة الإمامة الشيعية:

قلنا إن الدعوة العباسية تحكي لوناً من تطور فكرة الإمامة عند الشيعة، ويثبت ذلك الحقائق التاريخية، فقد نشأت عقيدة الإمامة عند الشيعة بدسيسة دسَّها يهود الحيرة ورفع لواءها عبدُ الله بن سبأ اليهودي، فبدأ بقوله: إن عليًا رضي الله عنه وَصِيّ رسول الله ﷺ، ثم نسب الألوهية إلى علي، فنفاه علي رضي الله عنه إلى المدائن وأحرق بعض أصحابه[1].

ومن هنا حدثت عقيدة الإمامة في الشيعة، فهم يُسبغون على الإمام نوعاً من التقديس والعِصمة والتخيير بين التحليل والتحريم[2]، والشيعة كانوا يعتقدون الإمامة في علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وبعده في ابنه الحسن وبعده في أخيه الحسين

---

(١) الفرق بين الفرق: ٢١و٢٣٣.

(٢) راجع لتفصيل هذه العقيدة كتاب (الكافي في أصول الدين) لأبي جعفر محمد بن يعقوب الكليني، المتوفى سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة ببغداد، فكتابه هذا يعتبر عند الشيعة كصحيح البخاري عند أهل السنة.

رضي الله عنهما، واختلفوا بعد مقتل الحسين ﷺ، فقال بعضهم: انتقلت الإمامة إلى محمد بن علي بن أبي طالب المعروف بابن الحنفية، وقال بعضهم: إنها منحصرة في أبناء علي من فاطمة الزهراء رضي الله تعالى عنهم، فاعتقدوا أن الإمامة انتقلت بعد الحسين إلى ابنه علي زين العابدين.

واختلف أولئك الذين كانوا يعتقدون الإمامة في محمد بن الحنفية بعد موته، فغلا فيه بعضهم فأنكروا موته وقالوا: إنه تغيّب وسوف يرجع، وقال شاعرهم كُثير عَزّه:

الا إن الأئمةَ مِن قريشٍ	وُلاةُ الحق أربعةٌ سَواءُ
عليٌّ والثلاثةُ مِن بنيه	هم الأسباط ليس بها خفاءُ
فسبطٌ سبطُ إيمانٍ وبِرٌّ	وسبطٌ غَيّبته كربلاءُ
وسبطٌ لا يذوق الموتَ حتى	يقودَ الخيلَ يقدُمُها اللواءُ
تغيّب لا يرى فيهم زمانًا	برَضْوَى[1] عنده عسلٌ وماءُ

وبعضهم اعتقدوا انتقال الإمامة في ابنه عبد الله أبي هاشم فبايعوه[2]، والتقى أبو هاشم هذا بسليمان بن عبد الملك، فتأثر سليمان بشخصية أبي هاشم وعلمه وأدبه وفصاحته، فحسده فدس إليه من أشربه الحليب المسموم، وإليكم القصة كما يرويها ابن عبد ربه[3]:

«... فلما شربَ واستقر بجوفه قال لأصحابه: إني ميت فانظروا من القوم؟، فنظروا، فإذا هم قوّضوا أبنيتهم وذهبوا، فقال: ميلوا بي إلى ابن عمي، وما

---

(١) رَضوى: بفتح أوله وسكون ثانيه: جبل بالمدينة، والنسبة إليه: رضوي بالفتح والتحريك. (معجم البلدان؛ ٣/ ٥١.

(٢) الفرق بين الفرق: ٣٩-٤١؛ و الملل والنحل: ١/ ١٣٣-١٣٤؛ و مروج الذهب: ٣/ ٨٧-٨٨.

(٣) العقد الفريد: ٤/ ٤٧٥-٤٧٧.

أحسبني أُدرِكه، فأسرعوا السير حتى أتوا الحميمة من أرض الشراة وبها محمد بن علي بن عبد الله بن العباس فنزل به، فقال: «يا ابن عمي، إني ميت وقد صرتُ إليك وأنت صاحب هذا الأمر، وولدك القائم به، ثم أخوه من بعده، واللهِ ليتمَّنَّ اللهُ هذا الأمر، حتى تخرج الرايات السود من قعر خراسان، ثم ليغلبن على ما بين حضرموت وأقصى إفريقية، وما بين الهند وأقصى فرغانة، فعليك بهؤلاء الشيعة، واستوصِ بهم خيراً فهم دعاتك وأنصارك، ولتكن دعوتُكَ خراسان ولا تَعْدُها ولا سيما مَرو، واستبطن هذا الحي من اليمن؛ فإن كل مُلكٍ لا يقوم به فمصيرُه إلى انتقاض، وانظر هذا الحي من ربيعة، فألحقهم بهم؛ فإنهم معهم في كل أمر، وانظر هذا الحي من قيس وتميم، فاقصِهم إلا من عصم الله منهم، وذلك قليل، ثم مُرهم أن يرجعوا فليجعلوا اثني عشر نقيباً وبعدهم سبعين نقيباً فإن الله لم يُصلِح أمر بني إسرائيل إلا بهم، وقد فعل ذلك النبي ﷺ، فإذا مضت سنة الحمار، فوجّه رُسلك في خراسان، منهم من يُقتل ومنهم من ينجو، حتى يُظهر الله دعوتكم»، قال محمد بن علي: يا أبا هاشم، وما سنة الحمار؟ قال: «إنه لم تمض مائة سنة من نبوة قط إلا انتقض أمرها، لقول الله عز وجل: ﴿ أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَـٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ﴾، واعلم أن صاحب هذا الأمر من ولدك عبد الله بن الحارثية، ثم عبد الله أخوه»، ولم يكن لمحمد بن علي في ذلك الحين ولد يسمى عبد الله، فولد له من الحارثية ولدان، سمّى كل واحد منهما عبد الله، وكنى الأكبر أبا العباس والأصغر أبا جعفر فوليا جميعاً الخلافة، ثم مات أبو هاشم، وقام محمد بن علي بالأمر بعده، فاختلفت الشيعة إليه، فلما ولد أبو العباس أخرجه إليهم في خرقة وقال لهم: هذا صاحبكم، فجعلوا يلحسون أطرافه».

إننا نشك ـ في الحقيقة ـ في صحة هذا الخبر نظراً إلى ما وقع فيه من أخطاء

تاريخية في تحديد الأكبر والأصغر من الأخوين، وكذلك في تحديد أمهما وقد ولدا من أمَّين مختلفتين، وكذلك تعجباً من تلك المصادفات التي وقعت وفقاً للتكهنات، [إذ لا يعلم الغيب إلا الله ومن يُعلمه من رسله عليهم السلام، وقد انتهوا بوفاة سيد المرسلين ﷺ، والذي يبدو لنا هو أن المتشيعين هم الذين صاغوا هذا الخبر فيما بعد]، ولكنا أوردنا هذه الرواية بتفصيلها لمجرد الدلالة على انتقال فكرة الإمامة من فرع للشيعة - وهي الكيسانية - إلى بني العباس.

وعلى كل، استغل محمد بن علي تقديس الإمامة، فوجّه دعوته إلى الرضى من آل بيت رسول الله ﷺ بدون أن يصرح باسمه، وبعد ذلك رأينا تطوراً في دعوة بني العباس، بحيث أنهم أرادوا أن يستغلوا فكرة الإمامة وتقديسها بدون أن يشتبكوا مع ما أحدثته الشيعة في معنى الإمامة وأوصافها، فرأينا العباسيين أرادوا بالإمامة: تولية الملك والحكم فقط وزعموا أن هذه الإمامة كانت استحقاق بني العباس الذين سلبهم أياه بنو أمية واغتصبوه، وذلك استنباطاً من قوله سبحانه وتعالى ﴿ وَأُولُوا ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ ﴾، فزعموا أن أحق الناس بالإمامة بعد رسول الله ﷺ عمُّه العباس بن عبد المطلب، فجعلوا الإمامة - بمفهومها السياسي - وراثة ورثوها عن النبي ﷺ، ويبدو هذا مما قاله أبو العباس السفاح في خطبته الأولى عند البيعة، حيث قال: «﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ ﴾(١) فأعلمهم جلَّ ثناؤه فضلنا، وأوجب عليهم حقنا ومودتنا، وأجزل مِن الفَيء والغنيمة نصيباً تكرمةً لنا وفضلاً علينا، واللهُ ذو الفضل العظيم، وزعمت السبئية الضالّة أن غيرنا أحقّ بالرياسة والسياسة والخلافة منا، فشاهت وجوههم، بِمَ ولِمَ أيها الناس؟، وبنا هدى الله الناسَ بعد ضلالتهم وبصّرهم بعد جهالتهم وأنقذهم بعد هلكتهم، وأظهر بنا

---

(١) سورة الحشر الآية: ٧.

الحق ودحض بنا الباطل...»[1].

وقال داود بن علي في خطبته بعد السفاح: «الحمد لله شكراً شكراً، شكراً للذي أهلك عدونا وأصار إلينا ميراثنا من نبينا محمد ﷺ...، يا أهل الكوفة إنا والله ما زلنا مظلومين مقهورين على حقنا حتى أتاح اللهُ لنا شيعتنا أهل خراسان، فأحيا بهم حقَّنا وأفلح بهم حجتَنا وأظهر بهم دولتنا... ألا وإنه ما صعد منبركم هذا خليفة بعد رسول الله ﷺ إلا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وأمير المؤمنين عبد الله بن محمد، وأشار بيده إلى أبي العباس، فاعلموا أن هذا الأمر فينا، ليس بخارج حتى نسلمه إلى عيسى بن مريم ﷺ...»[2].

فقد صرح داود بن علي أنهم يزعمون الإمامة [بمفهومها السياسي] ميراثًا ورثوه عن النبي ﷺ، وكذلك يثبُت من رسائل أبي جعفر المنصور التي وجهها إلى محمد بن عبد الله بن الحسن المحض أنّ بني العباس يزعمون الخلافة حقاً وراثياً لهم إذ يقول في رسالته: «... وقد علمتَ أنه لم يبق أحد من بني عبد المطلب بعد رسول الله ﷺ إلا العباس؛ فالسقاية سقايته، والوراثة وراثته، والخلافة في ولده، فلم يبق شرفٌ في الجاهلية والإسلام إلا والعباس وارثه ومورثه»[3].

على كلٍّ، عقيدة الإمامة التي هي مبنية على تقديس الأئمة وعصمتهم؛ باطلةٌ لا صلة لها بالإسلام مطلقاً، إذ أنها تقدح في شخصية الرسول الكريم ﷺ بأنه أخفى أمراً عن الأمة كان يهمُّهم جداً، [وحاش لرسول الله ﷺ أن يخاف في الله لومة لائم أو أن يقصر في أداء أمانته، فقد بلّغ الرسالة وأدّى الأمانة ونصح الأمة وجاهد في الله حق جهاده].

وتحويل هذه الفكرة إلى تولية الملك ثم جعلُها حقاً وراثياً يرثه بنو العباس من

---

(١) اقرأ الخطبة بكاملها في: تاريخ الرسل والملوك: ٧/ ٤٢٥-٤٢٦.

(٢) اقرأ الخطبة بكاملها في: تاريخ الرسل والملوك: ٧/ ٤٢٦-٤٢٨.

(٣) البداية والنهاية: ١٠/ ٨٦.

الرسول العظيم ﷺ، فكرة خاطئة تنافي تعاليم رسول الله ﷺ، ولقد صرح رسول الله ﷺ في حديثه الذي وصل إلينا بسند صحيح فقال: «لا نورَث، ما تركنا صدقة»(١)، وقال: «لا يقتسم ورثتي ديناراً، ما تركت بعدي، نفقة نسائي ومؤونة عاملي، فهو صدقة»(٢)، فبناء على أن الدعوة العباسية كانت مبنية على فكرة خاطئة لا تلائم التعاليم الإسلامية، [أو هي استغلت هذه الفكرة لأغراضها السياسية مع عدم الاعتقاد بها]؛ لا نستطيع أن نقول إن الدولة العباسية كانت دولة دعوية خالصة على نحو ما عرفنا من دولة المصطفى ﷺ ودولة الراشدين ﷺ، [بل كانت بدايتها - منذ أن كانت مجرد دعوة - خداعاً واستغلالاً].

ثانياً: استغلال الفرصة:

وللدولة العباسية ناحية أخرى وهي: انتهاز الفرصة واستغلالها، سواءً وافق ذلك المبادئَ الإسلامية أو عارضَها، فعندما قام محمد بن علي لتنظيم دعوته، كان الحكم الأموي قد وصل إلى منعطف خطير من تاريخه؛ إذ كان ذلك الرجل الصالح - عمر بن عبد العزيز رحمه الله - قد تسلم زمام السلطة الأموية، وكلنا يعلم أن عمر بن عبد العزيز أراد أن ينحو بالدولة الأموية نحواً راشدياً خالصاً، وأن يُصلح ما أفسده الأمويون من القيم الإسلامية في المجتمع الإسلامي، فعادت الدولة دعويةً ثانيةً، ومن أجل ذلك عدّه المؤرخون خليفةً راشداً، فهذا الرجل المجدِّد إذا نال التأييد والثناء من الأمة الإسلامية، فإنه قد واجه المعارضة العنيفة من الأمويين ومن رجال الحكم، ومن ثم أصبح الوضع حرجاً جداً، وكان يحتاج ذلك الخليفة الصالح إلى تأييد شعبي منظم وحماية حارة قوية، كيما تخشى منهما تلك المعارضة الخفية التي بدأت تدسّ الدسائس للحيلولة دون استمرار سياسة

---

(١) رواه مسلم: ١٢/ ٨٢.

(٢) رواه مسلم: ١٢/ ٨١.

ذلك المصلح.

وفي تلك الساعات الحرجة أصبحت الحميمة ملجأ نشاط جديد ومنبع دعوة جديدة، فلو كانت هذه الدعوة إسلامية خالصة كان واجبها الأول والأقدم تأييدُ ذلك الخليفة الصالح تأييداً كاملاً بدون مساومة واشتراط، ونُصرتُه نصرة قوية متماسكة خالصاً لوجه الله، لتكون تلك العودة إلى الأساس الدعوي عودةً جادّةً قويةً مستمرةً؛ إذ أن الإخلاص لله تعالى يوجّه الإنسان إلى أن ينظر إلى ما صُنع لوجه الله تعالى ويصرف النظر عمن قام بتلك الصنعة، وتلك القوة الفتية التي جاءت بمآثر كبيرة في تحقيق أهداف الدعوة العباسية، لو وُجّهت في بداية أمرها إلى تدعيمها لما يمارسه الخليفة الصالح عمر بن عبد العزيز رحمه الله؛ لاستمرت الدعوة الإسلامية تحيط بجوانب الحكم الإسلامي إلى مدة طويلة، ولَنشأ ذلك في وجود الدولة العباسية السويّة، ولكن - مع الأسف الشديد - لم يُدرك القائمون بالدعوة العباسية هذه الحقيقةَ المشرقة، وجعلوا وجهة دعوتهم إنشاء دولة يحكمها بنو العباس لا غيرهم.

واستعرض محمد بن علي استعراضاً جاداً دقيقاً تلك الأوضاع السياسية التي كانت تسود العالم الإسلامي آنذاك، فعندما نظّم على رأس المائة [الهجرية] جمعيةً سِريةً لنشر دعوته بيّن أمام دُعاته عصارة تلك الأوضاع ليسهّل عليهم المُضيّ إلى هدفهم فقال: «أما الكوفة وسَوادها، فهنـاك شيعةُ علي بن أبي طالب، وأما البصرة فعثمانية تدين بالكف وتقول: كن عبدَ الله المقتول ولا تكن عبدَ الله القاتل...، وأما أهل مكة والمدينة فقد غلب عليهما أبو بكر وعمر، ولكن عليكم بخراسان؛ فإن هناك العدد الكثير والجَلد الظاهر، صدوراً سليمةً وقلوباً فارغةً لم تتقاسمها الأهواء ولم تتوزعها النحل ولم تشغلها ديانة ولم يتقدم فيها فساد، وليست لهم اليوم هِمم العرب، ولا فيهم كتحازب الأتباع بالسادات وكتحالف القبائل وعصبية العشائر، ولم يزالوا يُذالون ويُمتهنون ويُظلَمون

ويُكظمون ويُؤملون الدُّوَل، وهم جُند لهم أجسام وأبدان ومناكب وكواهل وهامات ولحًى وشوارب وأصوات هائلة ولغات فخمة تخرج من أفواه منكَرة، وبعد، فكأني أتفاءل إلى المشرق وإلى مطلع سراج الدنيا ومصباح الخلق»(١).

ولا يتسع حجم هذا الكتاب لشرح هذه الوصايا مفصَّلاً، فنريد أن نعلق عليها بإيجاز فنقول: قد رأينا فيما سبق أن الدعوة العباسية لم تبدأ إلا بعد انتقال الإمامة إلى العباسيين من أبي هاشم إمام الشيعة الكيسانية، كما رأينا محمد بن علي بدأ عمله بالتظاهر بالدعوة إلى الرضى من آل بيت النبي ﷺ، فما هو الأمر الذي دعاه إلى أن ينبه دعاته أن يكونوا حذرين في إنجاز مهمتهم من وجود شيعة علي بن أبي طالب بالكوفة وسوادها؟ فيبدو أنه كان هناك أمر خفي وراء الدعوة إلى الرضى من آل بيت النبي ﷺ، وما يودّ القائمون بالدعوة أن ينكشف ذلك الأمر لشيعة علي بن أبي طالب، فيقاومونهم أشد مقاومة يستطيعونها، ألا وهو إقامة دولة تختص بأبناء العباس من بني هاشم.

وما عدا ذلك ما وجدنا في طول هذه الوصايا وعرضها أمراً نعتبره مقوِّماً من مقومات الدعوة الإسلامية، بل وجدنا أمراً يعارضها، فها هو ذا محمد بن علي يقول: «وأما أهل مكة والمدينة، فقد غلب عليهما أبو بكر وعمر»، فما المراد بقوله؟ هل كان هناك رجال بني تيم وبني عَديّ غلبوا على أهل مكة والمدينة فأقاموا دولتهم الخاصة؟ والواقع لم يكن كذلك، فتعيَّن معنى قوله: أن أهل مكة والمدينة قد غلب عليهم ما دعا إليه أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، فلن يرضوا إلا باتباع سيرتهما، وقد اتضحت الحقيقة مشرقة بأنه لم تكن سيرتهما إلا دعويةً خالصةً، فالوصية بالحذر من أتباع الشيخين رضي الله عنهما أمر يثير العجب، فلو كانت الدعوة العباسية دعوةً إسلامية خالصة؛ لاغتنم القائمون بها وجود الأغلبية الدعوية في الحرمين الشريفين، وبدءوا دعوتهم من هناك كي يتم لهم

---

(١) عيون الأخبار: ١/ ٢٠٤-٢٠٥.

النصر والتأييد من أهل مكة والمدينة، ثم تغشى دعوتهم بعد ذلك العالم الإسلامي كلّه.

ولكنهم - مع الأسف الشديد - أعرضوا عن أهل الحرمين، وركزوا توجيه دعوتهم إلى خراسان، وقد رأوا هناك ما تنجح به دعوتهم، فحرض محمد بن علي دعاته أن يستغلوا عواطف أهل خراسان الثائرة ضد الأمويين من أجل جَورهم عليهم، فاستغلوها استغلالاً تاماً، حتى أتى ذلك بحاصل كبير لهم بعد إراقة أنهار من الدماء على وجه الأرض وهو: قيام الدولة العباسية.

وهناك قصة تبيِّن مدى استغلال دعاة الدعوة العباسية الفرصة استغلالاً يُحقق هدفهم المنشود وغايتهم المرجوة على حساب مصالح الدعوة الإسلامية، فقد كانت فتنة العصبية بين المُضرية واليمانية مائجة في خراسان، وكان والي خراسان أسد بن عبد الله القسري يتعصب لليمانية لكونه من أصل يماني، وكان من أقسى ولاة بني أمية على الشيعة فكان لا يرحم أحداً من دعاة الدعوة العباسية وقع في يده، فإما قتله شرّ قتلة أو نفاه من ولايته[1]، فوقعت جماعة من هؤلاء الدعاة في يده في سنة سبع عشرة ومائة وفيهم من نقباء الدعوة: سليمان بن كثير شيخ الدعوة ومالك بن الهيثم وموسى بن كعب ولاهز بن قريظ و(أبو داود) خالد بن إبراهيم وطلحة بن رزيق، فقال لهم أسد القسري عندما قدموا إليه: «يا فَسَقة! ألم يقل الله: ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ۚ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾؟[2]، فقال سليمان بن كثير: أتكلم أم أسكت؟ قال: بل تكلم، قال: «نحن والله كما قال الشاعر:

لو بغيـرِ الماءِ حلْقي شَـرِقٌ   كنتُ كالغَصَّانِ بالماء اعتصارى[3]

---

(١) تاريخ الرسل والملوك: ٧/ ٤٠و٤٣و٥٠و٥١.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٩٥.

(٣) شَرِق: ضيق، غصّ بغير الماء، غص بالطعام والماء: اعترض في حلقه شيء منه فمنعه =

تدري ما قصتنا، صيدت والله العقارب بيدك أيها الأمير! إنا أناس من قومك اليمن، وإن هذه المُضرية إنما رفعوا إليك هذا لأنّا كنا أشد الناس على قتيبة بن مسلم، وإنما طلبوا بثأرهم»، فخلّى أسدٌ سبيلهم[1].

نرى في هذه القصة غاية دهاء شيخ الدعوة العباسية ومكره، كيف انتهز الفرصة واستغلها بتلك العصبية القومية التي قال فيها رسول الله ﷺ: «دعوها فإنها منتنة»[2]، ولا غرو! فقد علمهم ذلك إمامهم إبراهيم بن محمد، فقال في وصيته لأبي مسلم الخراساني: «يا أبا عبد الرحمن، إنك رجلٌ منّا أهل البيت، فاحفظ وصيتي، انظر هذا الحي من اليمن فأكرمهم؛ فإن الله لا يُتم هذا الأمر إلا بهم، وانظر هذا الحي من ربيعة فإنهم معهم، وانظر هذا الحي من مضر فإنهم العدو القريب الدار، فاقتل من شككت في أمره ومن وقع في نفسك منه تهمة»[3].

هكذا أمر إمام هذه الدعوة دُعاته أن يستغلوا الفرصة بتقريب أهل اليمن الذين أصبحوا أعداء بني أمية في تلك الأيام من أجل العصبية القبَلية التي حدثت بين المُضرية واليمانية، فأمرهم بتطييب خواطر أهل اليمن كيما يصبحوا سواعدهم وأيديهم في إنجاز مهمتهم، بينما كان إمام الدعوة وأكثر نقبائها ينتمون إلى مضر، والدعوة الإسلامية تنكر على هذه العصبية المنتنة أشد إنكار فقال رسول الله ﷺ: «مَن قُتل تحت راية عمّية[4] يدعو إلى عصبية أو ينصر

= التنفس فهو غاصٌ وغصّان.

(١) تاريخ الرسل والملوك: ٧/ ١٠٧.

(٢) صحيح البخاري: ٨/ ٦٤٨.

(٣) الإمامة والسياسة: ٢/ ١١٤.

(٤) عمّية: على وزن فعّية، من العَمى: الضلالة، كالقتال في العصبية والأهواء. النهاية، ٣/ ٣٠٤.

عصبية، فقتلةٌ جاهليـةٌ»[1]، وقال: «مَن خرج من الطاعة وفارق الجماعة ثم مات، مات ميتة الجاهلية، ومَن قاتل تحت راية عمّية، يغضب للعصبية ويقاتل للعصبية، فليس من أمتي، ومن خرج من أمتي على أمتي يضرب بَرّها وفاجرَها ولا يتحاشى[2] مِن مؤمنها ولا يفي بذي عهدها، فليس منيّ»[3].

فكيف تسمح هذه الدعوة باستغلال تلك العصبية المنكرة؟ والدعوة التي قامت على خلاف ما تُلقِنُه الدعوة الإسلامية، والتي ضربت ضربة قاسية على مميزة مهمة من مميزات المجتمع الإسلامي الدعوي، الا وهي: الأخوة الإسلامية، كيف تستطيع أن تكون هي، إياها؟ ومن ثم لا نعدو الحق إذا قلنا: إن الدعوة العباسية لم تكن إلى دولةٍ دعويةٍ خالصةٍ.

ثالثاً: تدعيم السطوة:

وكانت الدعوة العباسية تدور حول محور أساسي هو تدعيم سطوة حامليها، سواءً حصل ذلك التدعيم بالانتقام من بني أمية أم بإبادة العلويين أو ما إلى ذلك مِن سفك الدماء.

ولقد رأينا - فيما سبق - أن الدعوةَ العباسيةَ لما بدأت سريةً، كان حاملوها يلتجئون إلى تأويلات مختلفة، ومع ذلك قُتل بعضهم وعُذّب بعضهم عذاباً شديداً[4]، ولمّا آنَ أوانُ إظهارها، رأينا حامليها يضعون السيف على رقاب

---

(١) رواه مسلم: ١٢/ ٢٣٩.

(٢) لا يتحاشى: معناه: لا يكترث بما يفعله فيها ولا يخاف وباله وعقوبته. شرح مسلم للنووي، ١٢/ ٢٤٠،٢٣٩.

(٣) رواه مسلم: ١٢/ ٢٣٩.

(٤) لما قبض أسد بن عبد الله القسري على بعض دعاة بني العباس، أطلق من كان معهم من اليمانية، وأراد من كان من مضر، فدعا موسى بن كعب وألجمه بلجام الحمار وجذب اللجام فحطمت أسنانه، ودق وجهه وأنفه، ثم دعا لاهز بن قريظ وضربه =

المسلمين ويلعبون بدماء المسلمين عندما قويت شوكتهم وقامت دولتهم، ودخلت الدعوة في مرحلتها الجهرية في عهد إبراهيم بن محمد، وقد استخدم أبا مسلم الخراساني لإنجاز هذه المهمة فأوصاه بقتل المضريين في خراسان، بل أصرّ وألحّ على القتل، فيحكي لنا ابن قتيبة الدينوري: «فقال (أي أبو مسلم): أيها الإمام، فإن وقع في أنفسنا مِن رجلٍ وهو على غير ذلك، أحبسه حتى تستبينه؟ قال: لا! السيف، السيف، لا تتقي العدو بطرف، ثم قال للشيعة: من أطاعني فليطع هذا، يعني أبا مسلم، ومن عصاه فقد عصاني، ثم قال له: إن استطعت أن لا تدع بخراسان أرضاً فيها عربي، فافعل، وأيما غلام بلغ خمسة أشبار فاتهمتَه فاقتله».

وليس في هذه الوصايا شيء إلا ما يخالف الدعوة الإسلامية، فضلاً عن أن يلائمها، ويزيد عجب القاريء عندما يرى التابع - أبا مسلم - يستوضح الأمر من المتبوع، كيف يعامل الذي يشك في حاله؟ بأنه إذا حدث ريب فيمن يوثق به ويعتمد على ظاهره فهل يسمح له الإمام أن يحبسه كيما ينظر في أمره ويستبين سرَّه ثم يفعلُ به ما يراه؟، والمتبوع يرفض ذلك مطلقاً ويُصر على علاج واحد عنيف وهو السيف لا غير، وامتثل أبو مسلم أمر إمامه وسفك الدماء بدون تلكؤ وتردد، ويقال: إنه بلغ عدد الذين قتلهم أبو مسلم صبراً إلى نحو ستمائة ألف إنسان[1].

ولُقّب الخليفة العباسي الأول بالسفاح، لكثرة ما سُفكت الدماء في عهده، وقد سُمّي هو نفسه بالسفاح، فقال في خطبته الأولى: «أنا السفاح المبيح والثائر

= ثلاثمائة سوط. تاريخ الرسل والملوك، ٧/ ١٠٨؛ والنجوم الزاهرة، ١/ ٣٤٤-٣٤٥؛ والإمامة والسياسة، ٢/ ١١٤.

(١) تاريخ الرسل والملوك: ٧/ ٤٩٣.

المبير»[1]، وولّى السفاحُ عمَّه صالح بن علي على مصر، فقبض هناك على عدد كبير من الأمويين وقتل كثيراً منهم وأرسل جماعة منهم إلى العراق فقُتلوا بفلسطين[2].

وكذلك ولّى السفاحُ عمَّه داود بن علي على الحجاز، فقتل هناك خلقاً كثيراً من بني أمية وأعوانهم[3]، وكان عبد الله بن علي عم السفاح من أشد الناس على بني أمية، ولقب أيضاً بالسفاح من أجل سفكه دماء بني أمية[4]، استعمله أبو العباس السفاح على الشام، فقتل هناك خلقاً من بني أمية وجندهم لا يدخل تحت حصر[5]، ونكتفي ههنا بذكر قصة يرويها ابن عبد ربه[6]:

«لما نزل عبد الله بن علي نهر أبي فطرس[7]؛ حضر الناسُ بابه للإذن، وحضر اثنان وثمانون رجلاً من بني أمية، فخرج الآذن فقال: يا أهل خراسان قوموا، فقاموا سِماطَين[8] في مجلسه، ثم أذن لبني أمية فأُخذت سيوفهم، ودخلوا عليه، قال أبو محمد العبدي الشاعر: وخرج الحاجب فأدخلني، فسلَّمتُ عليه، فردّ السلامَ ثم قال: أنشدني قولك: «وقف المتيَّمُ في رسوم ديار»، فأنشدته حتى انتهيت إلى قولي:

---

(١) تاريخ الرسل والملوك: ٧/ ٤٢٦.

(٢) النجوم الزاهرة: ١/ ٣٢٣-٣٢٤.

(٣) النجوم الزاهرة: ١/ ٣٢٥.

(٤) الإمامة والسياسة: ٢/ ١٢١.

(٥) النجوم الزاهرة: ١/ ٣١٩.

(٦) العقد الفريد: ٤/ ٤٨٣-٤٨٤.

(٧) نهر أبي فطرس: بضم الفاء وسكون الطاء وضم الراء: وضع قرب الرملة من أرض فلسطين. معجم البلدان، ٥/ ٣١٥.

(٨) سماطين: اي صفين، وسماط القوم: صفُّهم، وكل صف من الرجال سماط. لسان العرب، ٧/ ٣٢٥.

أمّا الدعاةُ إلى الجنان فهاشـم   وبنو أمية من دعاة النـــار
مَن كان يَفخرُ بالمكارم والعُلا   فلها يَتِـمُّ الجدُ غير فخــار

والغمر بن يزيد بن عبد الملك جالس معه على المصلى، وبنو أمية على الكراسي، فألقى إليّ صُرةَ حرير خضراء فيها خمسمائة دينار فقال: «لك عندنا عشرة آلاف درهم وجارية وبرذون وغلام وتخت وثياب» قال: فوفّى - واللهِ - بذلك كله، ثم أنشأ عبدُ الله بن علي يقول:

حَسبتْ أميةُ أن سيرضَى هاشمٌ   عنها ويـذهب زيـدُها وحسينُها
كــلاّ! ورب محمـــدٍ وإلهـــهِ   حتى تباحَ سـهولُها وحزونهـا[1]

ثم أخذ قلنسوته من رأسه فضرب بها الأرض، فأقبل أولئك الجند على بني أمية، فخبطوهم بالسيوف العُمد، وقال الكلبي الذي كان بينهم وكان من أتباعهم: أيها الأمير! إني والله، ما أنا منهم، فقال عبد الله بن علي:

ومُدخل رأسه لم يدعُه أحـدٌ   بين القرينين حتى لزَّه القرن

اضربوا عنقه، ثم أقبل على الغمر فقال: ما أحسَبُ لك في الحياة بعد هؤلاء خيراً، فقال: أجل، قال: يا غلام اضرب عنقه، فأقيم من المصلى فضُرب عنقه، ثم أمر ببساط فطُرِح عليهم ودعا بالطعام فجعل يأكل وأنين بعضهم تحت البساط».

وردت هذه الرواية عن مصادر مختلفة، وباختلافٍ في نسبة قتل بني أمية إلى عبد الله[2] بن علي وإلى أبي العباس[3] السفاح، ولكن القدْر المشترك بين هذه الروايات كلها: أن حادثة قتل بني أمية قد وقعت، وذكر الحافظ ابن كثير[4] رحمه

(١) حزون: جمع حزن، والحزن: ما غلظ من الأرض. لسان العرب: ١٣/ ١١٢.
(٢) عيون الأخبار: ١/ ٢٠٨؛ والإمامة والسياسة: ٢/ ١٢١-١٢٢؛ والنجوم الزاهرة: ٢/ ٧.
(٣) طبقات الشعراء: ٣٩-٤٠؛ والعقد الفريد: ٤/ ٤٨٥-٤٨٧.
(٤) البداية والنهاية: ١٠/ ٤٥.

الله عدداً يصعب الاطمئنان إليه فقال: «ثم تتبع عبد الله بن علي بني أمية من أولاد الخلفاء وغيرهم، فقتل منهم في يوم واحد اثنين وسبعين ألفاً عند نهر بالرملة، وبسط عليهم الأنطاع ومدّ عليهم سماطًا فأكل وهم يختلجون[1] تحته».

إنّ من يقرأ هذا الخبر في تاريخنا؛ هل يشعر أنه يقرأ تاريخ رجال حملوا الدعوة الإسلامية التي تنير للإنسانية الحائرة سبيل الهدى والرشاد؟ وما فعله عبد الله بن علي؛ هل يرضى عنه الإسلام؟ فالذين أوغلوا في الانتقام هذا الإيغال؛ كيف يُرجَى منهم أن يحافظوا على القيم الإسلامية الدعوية كما ينبغي! ولكن الذي يبدو أن بني العباسي - كبني أمية - لم يكونوا ليحرصوا بالدرجة الأولى إلا على تدعيم سطوتهم، فإذا حال دون ذلك حكمٌ من أحكام الدين؛ تجاوزوه متأولين أو غير متأولين، فإن الذين تتحدث الروايات الآنف ذكرها عن قتلهم؛ لم يكونوا كفاراً، وأكثرهم - إن لم نقل: كلهم - لم يكونوا مسئولين عما اجترحه أجدادهم، وإلى جانب ذلك لقد كانوا أقرباء بني العباس وإخوانهم في الدين، بل إن بني العباس قد بطشوا بأعوانهم حين خُيّل إليهم يوماً ما أنهم خطر عليهم.

فها هو ذا السفاح يقتل أبا سلمة الخلاّل، وأبو جعفر المنصور يقتل أبا مسلم الخراساني، والرشيد يقتل جعفر البرمكي، بل يقمع الأسرة البرمكية من أصلها، وغيرُ خافٍ ما كان لهؤلاء الضحايا من آثار في قيام دولة بني العباس وتدعيمها، كما لم يعفُ العباسيون عن أقرب الناس إليهم - وهم العلويون - من القمع حين بدا لهم أنهم خطر عليهم، وقد ذكرنا اضطراب أبي جعفر المنصور في طلب الأخوَين العلويين محمد وإبراهيم ابني عبد الله بن الحسن المحض، حتى برد ما في قلبه بعدما قضى عليهما قضاءً مبرماً.

وقد استعمل بنو العباس من أجل دعم سطوتهم كافةَ الوسائل والسُبُل،

---

(١) يختلجون: أي يرتعدون ويضطربون على وشك الموت. النهاية: ٢/ ٦٠.

وظلوا ساهرين يقظين من أجل همّهم هذا، ولكنهم لم يستخدموا - مع الأسف الشديد - نباهتهم وذكاءهم ووسائلهم اللا محدودة في إرساخ قوائم الدعوة الإسلامية في جميع شؤون الدولة وفي أنفسهم، بل اختاروا الكِسْرَوية والقَيصَرية، وكان منتهى جهد كل خليفة؛ محافظتُه على سطوته وبطشه، بينما كان واجبه المحافظة على قيم المجتمع الإسلامي الدعوية، ومن أجل ذلك اضمحلت الدعوة في عهدهم، وضعفت قبضتها على أوساط الحُكم، وبدأ الخراب يتسرب في داخل المجتمع الإسلامي ويهدد كيانه ويهزّه هزاً عنيفاً، وسوف نرى بعض نماذج هذا الخراب في الصفحات التالية.

هل كانت الحياة الاجتماعية دعوية في الدولة العباسية؟

قد ذكرنا في أول الكتاب أن المجتمع الإسلامي - بجميع جوانبه - من شأنه أن يتمثل الدعوة الإسلامية أمام المجتمعات الإنسانية المختلفة، ومن هنا أصبح واجب الدولة الإسلامية الدعوية أن تحافظ على قِيَم المجتمع الإسلامي محافظةً تامةً حَذِرةً، وألاّ تسمح لأي نوع من الخراب والفساد أن يتسرب في المجتمع، ثم تحمل رسالة الدعوة مستندةً على هذا المجتمع إلى أمم العالم أجمع.

ورأينا بعد ذلك أن خلفاء الدولة العباسية كانوا قد انحرفوا عن الجادة الدعوية انحرافاً كان له خطره، فهل كان طبَعياً أن يبقى المجتمع الإسلامي مستقيماً على جادة الدعوة بعد انحراف زعماء الدولة عنها؟، وهل من المعقول أن يُتصور بقاء المال سالماً مصوناً إذا قصّر الحارس في أداء واجبه؟ مع تنبه اللصوص وحرصهم البالغ على الانقضاض!.

فلا شك أن وضع المجتمع الإسلامي كان حرجاً جداً في تلك الأيام، إذ أنه أصبح ملتقًى لحضارات مختلفة وثقافات متنوعة، والأمم التي اعتنقت الإسلام كانت ذات مزايا مختلفة، ولا بأس لو ذكرنا ههنا شيئاً مما كتبه الجاحظ عن مزايا بعض من تلك الأمم، فقال عن الأتراك: «وللتركي أربعة أعين، عينان في وجهه وعينان في قفاه»[(١)] «والتركي هو الراعي وهو السائس، وهو الرائض وهو النخاس، وهو البيطار وهو الفارس، والتركي الواحد أمة على حدة»[(٢)]، وقال عن أهل الصين: «وأما سكان الصين، فهم أصحاب السَّبك والصياغة، والإفراغ والإذابة، والأصباغ العجيبة، وأصحاب الخَرط والنحت والتصاوير، والنسخ والخط، ورفق الكف في كل شيء يتولونه ويعانونه، وإن اختلف جوهره

---

(١) رسائل الجاحظ: ١/ ٤٥.

(٢) رسائل الجاحظ: ١/ ٤٩.

وتباينت صنعته وتفاوتت ثمنه»[1].

وقال عن أهل الهند: «وأما الهند، فوجدناهم يُقدّمون في النجوم والحساب، ولهم الخط الهندي خاصة، ويُقدّمون في الطب، ولهم أسرار الطب وعلاج فاحش في الأدواء خاصة، ولهم خَرْط التماثيل ونحت الصور بالأصباغ تتخذ في المحاريب وأشباه ذلك، ولهم الشطرنج، ولهم السيوف القلعية»[2]، وقال عن اليونان: «واليونان يعرفون الفلكَ لأن أولئك حكماء وهؤلاء فعَلَة»[3]، وقال عن الزنج: «الزنج، هي أطبع الخلق على الرقص الموقَّع الموزون، والضرب بالطبل على الإيقاع الموزون، من غير تأديب ولا تعليم، وليس في الأرض أحسن حُلوقاً منهم»[4].

وقد جمع الإسلام هذه الأمم تحت راية واحدة وفي إطار دين واحد، فكان طبعياً جداً أن يتأثر المجتمع الإسلامي بآداب وتقاليد هذه الأمم وعاداتها، ومنها ما يوافق تعاليم الإسلام وعقائده أو لا يعارضها على الأقل، ومنها ما يعارضها، ومن المعلوم أن العادات والتقاليد لا تنفكُّ عن الإنسان إلا بعد جهد كبير وتحمّل تعب كثير، ففي مثل هذه الحالة تزداد وتتضخم مسئولية الدولة الإسلامية بصدد المحافظة على القيم الدعوية في المجتمع الإسلامي، ويقاس قيام الدولة بواجبها على مقياس هو أدق من الشعر وجوداً وإحساساً، فانحراف الدولة عن الجادة مقدار شعرة ربما يظهر بصورة انحراف مدهش في المستقبل؛ إذ أن عواقب الانحراف لا بد ظاهرة ولو بعد حين، ومع الأسف الشديد، لم يتنبّه رجال الدولة العباسية إلى دقة مسئوليتهم وخطورتها، واشتغلوا بما زيّنت لهم

(١) رسائل الجاحظ: ١/ ٦٩.

(٢) رسائل الجاحظ: ١/ ٢٢٣.

(٣) رسائل الجاحظ: ١/ ٦٩.

(٤) رسائل الجاحظ: ١/ ١٩٥.

أنفسهم، ودخل الخراب في المجتمع الإسلامي.

ولا نقول: إن المجتمع الإسلامي قد غشيه الخراب والفساد في تلك الأيام، بل نقول: إن الفساد كان قليلاً بالنسبة إلى الصلاح الذي كان يسود المجتمع آنـذاك، ولكن لا يخفى على أهل البصيرة أن البناء والتعمير دائماً يكون صعباً ويستغرق أمداً بعيداً، والخراب يحدث بسهولة وفي مدة قصيرة، وإذا حدث الفساد - ولو قليلاً - يتبعه أنواع من الخراب، وتصير العاقبة مؤلمةً جداً، وفعلا حدث في المجتمع الإسلامي عندما كانت تسيطر عليه الدولة العباسية أنواع من الفساد، نذكر منها ما يلي:

(أ) المدنية المترفة والحياة الباذخة:

إن ضخامة دَخْل الدولة يولّد مدنيةً مترفةً وحياةً باذخةً كما أشار إليه ابن خلدون في المقدمة[1]؛ فكان دخل الدولة العباسية ضخماً جداً، إذ يقال: إن المنصور خلّف في بيت المال أربعة عشر مليون دينار وستمائة ألف مليون درهم[2]، بينما كان عهده عهد تدعيم الدولة الفتية وإحكامها، ولم يبلغ دخل الدولة إلى الحد الذي بلغه في عهد الرشيد والمأمون، حيث كان دخل بيت المال سنوياً في عهد الرشيد نحو سبعين مليونًا ومائة مليون وخمسة وثلاثين ألف دينار[3]، وخلّف الرشيد من الجواهر والأثاث والأمتعة ما قيمته مائة مليون وخمسة وثلاثون ألف دينار، ما عدا الضياع والدور، وكان في بيت المال سبعمائة مليون دينار ونيف[4].

كما كان دخل الدولة في أيام المأمون نحو أربعمائة مليون درهم ما عدا

(١) مقدمة ابن خلدون: ٦٥٠-٦٥١.

(٢) مروج الذهب: ٣/ ٣٢٢.

(٣) الوزراء والكتاب: ٢٨١.

(٤) البداية والنهاية: ١٠/ ٢٢٢.

الأموال والغلات[1]، وهكذا كان دخل الحكومة في أيام المعتصم[2]، ويقال: كان خراج خراسان في أيام الواثق ثمانية وأربعين مليون درهم سنوياً[3]، كما كانت هناك موارد شخصية ضخمة، فيقولون: إن الخيزران زوجة المهدي كان يبلغها من إقطاعاتها نحو مائة وستين مليوناً من الدراهم سنوياً وكان مورد محمد بن سليمان بن علي العباسي والي البصرة من إقطاعاته مائة ألف درهم يومياً[4].

لقد فتح الله سبحانه وتعالى على الدولة العباسية بركاتٍ مِن السماوات والأرض، وكان من اقتضاء توفر الإمكانات للدولة؛ أن تصرفَها في مصالح المجتمع الإسلامي والحفاظ على قيمه، ولكن حدث ما كان يخافه النبي ﷺ على أمته إذ قال عندما جاء أبو عبيدة رضي الله عنه بمال البحرين: «ما الفقرَ أخشى عليكم، ولكن أخشى عليكم أن تُبسط عليكم الدنيا كما بُسطتْ على مَن كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، وتُهلككم كما أهلكتهم»[5].

فتمتع من هذا المعين الغَدق الخلفاء ومَن حَولهم من البيت العباسي، ومن الوزراء والقواد والولاة وكبار رجال الدولة، ولاحت في المجتمع الإسلامي مدنيةٌ مترِفةٌ وحياةٌ باذخةٌ، تحملان في ثنايِاهما عنوان الإسلام دون حقيقته الكاملة، فكانت قصور الخلفاء والولاة والوزراء تشبه جنات تجري من تحتها الأنهار.

وإليكم ما صوَّره الدكتور أحمد شلبي من زخارف هذه القصور الشامخات فقال[6]: «لقد كثرتْ في ذلك العهد القصور الشاهقة التي تموِد

---

(١) تاريخ التمدن الإسلامي: ١/ ٣٠٩.

(٢) تاريخ التمدن الإسلامي: ١/ ٣١٥.

(٣) البداية والنهاية: ١٠/ ٣٠٢.

(٤) مروج الذهب: ٣/ ٣٤٨.

(٥) رواه مسلم في كتاب الزهد: ١٨/ ٩٥.

(٦) التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية: ٣/ ١٤٧-١٤٩.

بالرياش[١] الفاخر، والأثاث الثمين، وتعَجُّ[٢] بالجواري القيان، وتزخَرُ[٣] بالشعر والموسيقى والغنـاء، وقد قرأ القوم آيات القرآن الكريم التي تصف الجنة، فتعجلوا هذه الأوصاف في الدنيا، فهنا قصر الخُلد الذي شُبّه بجنة الخُلد التي وُعِد المتقون، وهناك قصر السلام الذي لُوحِظ في تسميته قوله تعالى: ﴿لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ﴾[٤]، وأغلب قصور هذا العهد تجري من تحتها الأنهار، وتموج بحُورٍ عِينٍ كأمثال اللؤلؤ المكنون، وحول قصر الخُلد كانت الجنات الملتفّة، والحدائق المتّسعة، والأزهار المونِقَة[٥]، مِن وَرد وبهار، وياسمين وجُلنار، وسَوسَن وأقحوان، إلى غير ذلك مما اختلفت ألوانه وعَبِق[٦] أريجه[٧]، وتضوَّعَ[٨] الجو بطِيبه، وفي خلال ذلك تجري القَنوات والغُدران[٩] والجداول، ومن دونها دَجلة تزهو بفُلكها[١٠] وزوارقها[١١]، وقد أقبلَ الأمراءُ والسراة[١٢] يشيدون حول الخُلد قصورهم، ويقتـنون في هذه القصور ما مكنتهم وسائلهم الكثيرة وأموالهم الموفورة وأخليتهم الخِصبة وروح الترف التي كانت تسيطر عليهم، وكانت

---

(١) الملابس الفاخرة.

(٢) تمتلي.

(٣) أي تمتلي.

(٤) سورة الأنعام، الآية: ١٢٧.

(٥) أي الطيبة.

(٦) انتشرت الرائحة.

(٧) الرائحة الطيبة.

(٨) صار معطراً.

(٩) جمع غدير.

(١٠) السفينة.

(١١) جمع زورق: السفينة الصغيرة.

(١٢) جمع سرى.

مجالس اللهو والغناء والموسيقى فيها تضاعِفُ فتنتها، وتزيدها متاعاً إلى متاع، وكان يناوح[1] هذه الضاحية القائمة على الشاطئ الغربي للنهر ضاحيةُ الرصافة وضاحيةُ الشُماسية، وكلتاهما من أحياء السراة والمترفين، وفي الشماسية كانت إقطاعات البرامكة، وفيها بنَوا طائفة من القصور الرفيعة، وكان قصر الخُلد يُشرف على هذه الأحياء الأنيقة القائمة في الشاطئ الشرقي، فكان ذلك مما يزيد جمال منظرٍ وروعةٍ وفتنةٍ».

ويقول الدكتور شوقي ضيف[2]: «وفي الدار حمامات ومجار تحت الأرض وسراديب مُعدّة للسكنى، وتكثر الأساطين في الأفنية، وتكثر الشرُفات، وتلحق بها بعض البساتين وبعض النافورات والبِرَك[3]، وكانت مصاريع الأبواب تصنع من الخَشَب المحلّى بالنقوش، وتتألق النوافذ والزجاج الملون، وتُزخرَف الحيطان بالنقوش المستوحاة من الطير والحيوان والأشجار والأزهار، وقد يُذهّب السقف والأبواب والحيطان، وتُعلّق هنا وهناك ستائر الحرير المزركشة، وقد تُحفر على الحيطان بعض الصور كالعنقاء، أما أرض الدار فكانت تموج بالبُسط الإيرانية والأرمينية، والطنافس ومناضد الأبنوس، والتُحَف الثمينة، وتماثيل العِقْيان[4]، والجامات المذهبة، والأواني المرصعة بالجواهر».

ولا بأس لو ذكرنا ههنا لوناً من الترف والبذخ والإسراف والتبذير واللهو والشرب والغناء، من لسان عضوٍ من أعضاء الأسرة المالكة للدولة العباسية، ها هو ذا عبد الله بن المعتز بن المتوكل بن المعتصم بن هارون الرشيد، يصف إيوان قصر الخليفة المخلوع محمد الأمين، ولهوه وشربه بأسلوب يحمل في ثناياه

(١) يقابل.

(٢) العصر العباسي الأول: ص٤٤-٤٥.

(٣) جمع بركة.

(٤) الذهب الخالص.

المدح والاعتزاز، فقال: «بُني للمخلوع مجلس لم ترَ العرب والعجم مثله، قد صُور فيه كلُّ التصاوير، وذُهِّب سقفُه وحيطانه وأبوابه، وعُلقت على أبوابه سُتور مُعصفرة مُذَهَّبة، وفُرش بمثل ذلك الفُرُش، فلما فرغ من جميع أسبابه وعرف ذلك، اختار له يوماً وتقدم بأن يؤمر الندماء والشعراء بالحضور غَدوةَ ذلك اليوم ليصطبحوا معه فيه، فلم يتخلّف أحد، وكان فيمن حضر أبو نواس، فدخلوا فرأوا أسًّا (بناءً) لم يَرَوْا مثله قط ولم يسمعوا به، من إيوان مشرف فائح فاسح يسافِرُ فيه البصرُ، وجُعل كالبيضةِ بياضاً، ثم ذُهِّب بالإبريز المخالَفِ بينَه باللازورد، ذي أبواب عظام ومصاريع غلاظٍ، تتلألأ فيها مسامير الذهب، قد قُمعت رؤوسها بالجوهر النفيس، وقد فُرش بفُرش كأنها صبغ الدم، منقّش بتصاوير الذهب وتماثيل العقيان، ونُضِّد فيه العنبر الأشهب[1] والكافور المصعّد[2] وعجين المسك، وصنوف الفاكهة والشمامات والتزايين، فدعَوا له وأثنوا عليه، وأخذوا مجالسهم على مراتبهم عنده ومنزلتهم منه، ثم أقبل عليهم فقال: إني أحببتُ أن أفرَغ متعة هذا المجلس معكم، وأصطبح فيه بكم، وقد ترون حُسنه، فلا تُنَغِّصوني ذلك التكلف، ولا تكدروا سروري بالتحفظ، ولكن انبسطوا وتحدَّثوا وتبذلوا، فما العيش إلا في ذلك، فقالوا: يا أمير المؤمنين، بالطائر الميمون[3] والكوكب السَّعدي، والجَدِّ الصاعد والأمر العالي، والظفَرِ والفوز، ووُفِّقتَ يا أمير المؤمنين، وُفِّقتَ، ولم تزل موفقًا، ثم طعموا، فأتي بالشراب كأنه الزعفران، أصفَى من وصال المعشوق، وأطيب ريحاً من نسيم المحبوب، وقام سقاةٌ كالبدور، بكؤوس كالنجوم، فطافوا عليهم، وعملت الستائر بمزاهرها فشربوا معه من صدر نهارهم إلى آخره في مذكرة كقِطَع الرياض،

---

(١) **الشهبة**: بياض يتخلله السواد، **أشهَب**: شديد لون الشهبة.

(٢) **المصعَّد**: ما عولج بالنار حتى يُحوَّل عما هو عليه لونًا وطعمًا.

(٣) المبارك.

ونشيد كالدُرّ المفصّل بالعقيان، وسماعٍ يُحيي النفوسَ ويَزيدُ في الأعمار، فلمّا كان آخِرِ النهار دعا بعشرة آلاف دينار في صوانٍ فأمر فنثرت عليهم، فانتهبوها، والشراب بعد يدور عليهم بالكبير والصغير، من الصرف الممزوج، وليس يُمنع أحدٌ منهم مما يريد، ولا يكره على ما يأباه، وكان جيد الشراب، فصبروا معه إلى أن سَكِرَ فنام، ونام جميع مَن في المجلس....».

بماذا نعلق على هذا الخبر؟ والعقل يأبى أن يصدقه، ويكاد يقف أنصاب القلم من شدة العجب! وهل يليق هذا الخبر بشأن زعيم دولة لم يبعد عهدها بالدولة النبوية والراشدية؟ وهل يقول المسؤول الكبير في الدولة الدعوية: «إنما العيش عيش اللهو والشراب واستماع الأغاني»؟.

أين هذا من ذلك الصدى السرمدي الذي لا يزال يدوِّي في فضاء المدينة:

اللهم لا عيش إلا عيش الآخره فاغفر للأنصـارِ والمهاجـرَه

ولكن يزول العجب إذا نظرنا إلى فيضان المال وتدفقه في مدينة المسلمين وحضارتهم آنذاك؛ فمن لم يتمسك بالعروة الوثقى - وهي مبادئ الدعوة الإسلامية - كان لا بد أن يكتسحه سيلُ المدنية المترفة الجارف.

(بـ) حياة الإسراف والتبذير:

وفعلاً أحدثت هذه المدنية المترَفة داءَ الإسراف في المجتمع الإسلامي وفي مقدمته الخلفاء ووزراؤهم، فقيل: كانت نفقات المأمون يومياً في القصر ستة آلف دينار وذلك في العام الواحد تساوي ٢١٦٠,٠٠٠ دينار[(١)].

ونذكر ههنا نماذج أخرى من إسراف الخلفاء، والناس على دين ملوكهم:

- دخل حمّاد بن عجرد ـ الشاعر الماجن ـ على أبي جعفر المنصور بعد موت أخيه أبي العباس، فأنشده بيتين مدحه فيهما، فأمرَ له بخمسة آلاف درهم.

---

(١) الفخري: ص٢٦٦.

- دخل مروان بن أبي حفصة الشاعر على المهدي، وأنشد أبياتاً مدحه فيها، وبيّن فضل العباسيين على العلويين، فأمر له المهدي بثلاثين ألف عن نفسه، وسبعين ألف عن أبنائه موسَى وهارون والعباس وغيرهم[1].
- انشدَ سَلْمُ الخاسر الشاعرُ قصيدةً أمام المهدي، مدحَه فيها، فأعطاه المهدي ثلاثمائة ألف درهم[2].
- إن مروان بن أبي حفصة الشاعر أنشد الهادي قصيدة، فيها قوله:

تشابهَ يوماً بأسُـه ونـوالُه   فما أحدٌ يدري لأيهما الفضل

فقـال الهادي: أيهما أحب إليك؟ ثلاثون ألفًا معجَّلة، أو مائة ألف تدور في الدواوين؟ قال: يا أمير المؤمنين! أو أحسنُ من ذلك؟ قال: وما هو؟ قال: تكون ثلاثون ألفـاً معجّلة ومائة ألف تدور بالدواوين، فقال الهادي: أو أحسن من ذلك؟ فعجّل الجميع، فأمر له بمائة ألف وثلاثين ألفاً معجلة[3].

- إن الرشيد عرضتْ له جارية فأعجبه جمالها، فساوم سيدَها فيها فقال: يا أمير المؤمنين إني أقسمتُ بكل يمين أن لا أبيعها بأقل من مائة ألف دينار فاشتراها الرشيد بمائة ألف دينار[4].
- وقف رجل من بني أمية للرشيد على الطريق، وبيده كتاب، وفيه أربعة أبيات، اعترف فيها بفضل بني العباس على بني أمية، فاستحسنه الرشيد، وأمر للرجل لكل بيت بألف دينار، وقال: لو زدتَنا، زدناك[5].
- طرب الرشيد يوماً لغناء إبراهيم الموصلي، فقال له: سَل، فقال: يا أمير المؤمنين،

---

(١) العقد الفريد: ١/ ٣١٠-٣١٦.

(٢) الوزراء والكتاب: ص١٧٣.

(٣) البداية والنهاية: ١٠/ ١٥٩.

(٤) البداية والنهاية: ١٠/ ٢٠١.

(٥) مروج الذهب: ٣/ ٣٧٤-٣٧٥.

أسألك شيئاً ليس فيه من مالك شيء، ولا أرزؤك شيئاً سواه، قال: وما هو؟ فذكر له وديعةَ سلم الخاسر الشاعر، وأنه لم يترك وارثاً، فأمر له بها، ويقال: إنه كان خمسين ألف دينار[1].

- مدح الشاعر عبد الله بن أيوب التيمي الأمينَ، فأعطاه مائتي ألف درهم[2].
- كان المأمون معروفاً في البذل والعطاء، يقال: إنه وزع على حاشيته في ساعة واحدة أربعةً وعشرين مليون درهم[3].
- أمر المأمون يوماً لكلٍّ مِن ابنه العباس وأخيه المعتصم وقائد جيشه عبد الله بن طاهر بخمسمائة دينار[4].

وهذه بعض نماذج الإسراف والتبذير في حياة خلفاء بني العباس، فكانوا يسرفون بدون أي مبالاة وتلكؤ، وبدون نظر في الموارد والمصارف، فكأنهم نسوا قول رسول الله ﷺ: «لا يزول قدما عبد حتى يُسأل عن أربع: عن عمره فيما أفناه، وعن علمه فيما فعل به، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه، وعن جسمه فيما أبلاه»[5].

ولم يتخلف عنهم وزراؤهم وحواشيهم، بل نافسوهم في الإسراف، واحتلت أسرة البرامكة الذروة في هذا الموضوع، فقيل: إنهم أعطوا إبراهيم الموصلي المغنيِّ ستمائة ألف درهم وضَيْعةً تساوي مائة وستين ألفاً[6]، ويحكى أن يحيى بن خالد أعطى إسحاق بن إبراهيم الموصلي مائة ألف درهم ليشتري بها داراً،

---

(١) البداية والنهاية: ١٠/ ١٨٨.

(٢) النجوم الزاهرة: ٢/ ١٨٩.

(٣) تاريخ الرسل والملوك: ٨/ ٦٥٣.

(٤) النجوم الزاهرة: ٢/ ٢٠٥.

(٥) رواه الترمذي: ٧/ ١٠١، وقال: حديث حسن صحيح.

(٦) الأغاني: ٥/ ٣٨.

فأعطاه ابنُه جعفر مائة ألف درهم لفرشها، كما أعطاه الفضل بن يحيى مائة ألف درهم لتزيينها، فأعطاه محمد بن يحيى مائة ألف درهم لنفقتها، وهكذا نال إسحاق المغني من أسرة البرامكة في يوم واحد أربعمائة ألف درهم[1].

وقصة تبذير الحسن بن سهل وزير المأمون وصهره، عند زواج ابنته بوران بالمأمون معروفة، وها هو ذا المسعودي يحكيها[2]: «وانحدر المأمون إلى فم الصلح في شعبان سنة تسع ومائتين، وأملك بخديجة ابنة الحسن بن سهل، التي تسمى بوران، ونثر الحسنُ في ذلك الأملاك من الأموال، ما لم ينثره ولم يفعله ملك قط في جاهلية ولا في إسلام، وذلك أنه نثر على الهاشميين والقواد والكتاب والوجوه بنادق مِسكٍ فيها رقاع بأسماء ضياع وأسماء جوار، وصفات دواب، وغير ذلك، فكانت البندقية إذا وقعت في يد الرجل فتحها فقرأ ما فيها، فيجد على قدر إقباله وسعوده فيها، فيمضي إلى الوكيل الذي نُصب لذلك، فيقول له: ضيعةٌ يقال لها فلانة الفلانية، مِن طسوج[3] كذا، من رستاق[4] كذا، وجارية يقال لها: فلانة الفلانية ودابة صفتها كذا. ثم نثر بعد ذلك على سائر الناس الدنانير والدراهم وفوافج المسك، وبيض العنبر، وأنفق على المأمون وقواده وعلى جميع أصحابه ومن كان معه من جنوده أيام مقامه عنده، حتى المكّارين والحمّالين وكل مَن ضمن العسكر من تابع ومتبوع، مرتزق وغيره، فلم يكن أحد من الناس يشتري شيئاً في عسكر المأمون مما يُطعَم ولا مما تعتلفه البهائم».

ويقول ابن الطقطقي[5]: «وقالوا: جملةُ ما أُخرج على دعوة فم الصلح

---

(١) الأغاني: ٥/٣٠٨.

(٢) مروج الذهب: ٤/ ٣٠.

(٣) الطسوج: الناحية. لسان العرب: ٢/ ٣١٧.

(٤) رستاق: والجمع: رساتيق: السواد. لسان العرب: ٢/ ٣٨١.

(٥) الفخري: ص٢٢٢.

خمسون ألف ألف درهم، كان الحسَنُ بن سهل قد فرشَ للمأمون حصيراً منسوجاً من الذهب، ونثرَ عليه ألف لؤلؤة من كبار اللؤلؤ، فلما رآه المأمون قال: قاتلَ الله أبا نواس، كأنه شاهدَ مجلسنا هذا، حيث يقول:

كأن صغرى وكبرى مِن فقاقعها[1] حصباءُ دُرٍّ على أرضٍ مِن ذَهبْ

وعلى كل حال، الإسراف ـ سواءً صدر من الخلفاء أو من رعاياهم ـ لا يلائم مبادئ الدعوة الإسلامية، وقد حذرَ اللهُ سبحانه وتعالى كلَّ فرد من أفراد المجتمع الإسلامي من أن يقع فيه، فقال: ﴿ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ۝ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَـٰطِينِ ﴾[2].

وقد زعزع هذا الإسراف والبذخ كيان المجتمع الإسلامي في ذلك العصر، وضرب ضربةً قاسية على مميزاته، وخصوصاً على مميزة مهمة منها، الا وهي: التوازن الاقتصادي؛ إذ أن الخلفاء وحواشيهم ووزراءهم كانوا يسرفون، وكان يتمتع بإسرافهم المُغنّون والشعراء من غير مسوِّغ شرعي في الغالب، وأما العامة فكانت تعيش حياة الكدح والتعب.

وهنا يتساءل السائل:

هذه العطايا الضخمة التي كان الخلفاء والولاة يغدقونها على المغنّين والشعراء وغيرهم، ماذا كان موردها؟.

والجواب:

كان موردها بيت مال المسلمين[3].

ولم يكن بيت المال إلا أمانة إلهية في يد الخليفة، ليصرفَ منه فيما تقتضيه

(١) فقاقيع: جمع فقاعة: نفاخات تتفقع على الماء والشراب عند المزج بالماء. انظر: لسان العرب: ٨/ ٢٥٦.

(٢) سورة الإسراء الآيتين: ٢٦-٢٧.

(٣) تاريخ الرسل والملوك: ٩/ ١٢٦-١٢٧؛ والبداية والنهاية: ١٠/ ١٥٨و٣٠١.

الدعوة الإسلامية ومصالح المسلمين، أين هؤلاء الخلفاء العباسيون، من أولئك الخلفاء الراشدين الذين كانوا يتقون اللهَ حقَّ تُقاته في أموال المسلمين، فلا يَجبون درهماً إلا من حِلّ، ولا ينفقون إلا في حل!.

يقول أبو عثمان[1] المهدي: «كنتُ مع عتبة[2] بن فرقد، حين افتتح أذربيجان، فصنع سفطَين[3] في خبيص، وألبسَهما الجُلود واللبُودَ، ثم بعث إلى عمر [بن الخطاب رضي الله عنه] مع سحيم مولى عتبة، فلما قدمَ عليه قال: ما الذي جئت به؟ أذهَبٌ أم وَرِقٌ؟ وأمر به فكشف عنه، فذاق الخبيص، فقال: إن هذا لطيب أثِر، أكُلُّ المهاجرين أكل منه شِبَعَهُ؟ قال: لا، إنما هو شيءٌ خصَّك به، فكتب إليه: مِن عبد الله: عمر، أمير المؤمنين إلى عتبة بن فرقد، أما بعد: فليس مِن كَدّك ولا كَدّ أمك ولا كَدّ أبيك، لا نأكل إلا ما يشبَع منه المسلمون في رحالهم»[4].

ونستفيد من هذه الرواية بعضاً من مميزات الدولة الدعوية:

- المساواة بين الأمير والمأمورين في كل حاجات الحياة حتى الأكل والشرب.
- على الأمير تفقد أحوال المأمورين.

---

(١) هو عبد الرحمن بن رمل بن عمرو بن عدي، أسلم في حياة رسول الله ﷺ ولم يره، كان قائمَ الليل وصائمَ النهار، وكان عرِّيف قومه، مات في سنة مائة من الهجرة. تهذيب التهذيب: ٦/ ٢٧٧.

(٢) هو عتبة بن فرقد بن يربوع بن حبيب السلمي، غزا مع رسول الله ﷺ غزوتين، ولاّه عمر الموصل، ونزلَ عتبة بعد فتح أذربيجان الكوفةَ ومات بها. أسد الغابة: ٣/ ٥٦٧-٥٦٨.

(٣) السفط: وعاء كالجوالق أو ما يُعبأ فيه الطيب وما أشبهه من أدوات النساء، والجمع: أسفاط، والخبيص: الحلواء المخبوصة. لسان العرب: ٧/ ٢٠و٣١٥.

(٤) فتوح البلدان: ص٤٠٢-٤٠٣.

● اجتناب الترف والإسراف في التنعم.

هذه نبذة من مميزات خلفاء الدولة الدعوية، والذي انحرف مِمّن جاءوا بعدهم عن مثل هذه المميزات؛ لم يستطع أن يقود دولته على المنهج الدعوي المستقيم، بل كان من الطبيعي أن تنحرفَ دولتُه بمقدار انحرافه عن الجادة، وتميل يميناً وشمالاً مع ميلان زعيمها؛ فالمدنية المترفة التي أحدثت في الدولة العباسية داء الإسراف والتبذير؛ أحدثت معها أمراض اللهو واللعب وشرب الخمور واستماع الأغاني، ونذكر بعضًا منها تحت العنوان التالي:

(ج) حياة اللهو:

كان قد تسرب اللهوُ واللعبُ إلى حياة العامة والخاصة في العصر العباسي الأول، وكانت هناك عدة مظاهر للهو رائجة في الحياة الاجتماعية آنذاك، منها: سباقُ الخيل لهواً وتفاخراً أو قِماراً، فكانت خيول الخلفاء والوزراء تتسابق في الميدان، وإذا سبقَ فرسُ الخليفة غيرَه، ابتهجت أسارير وجهه وكُلف الشاعر إنشادَ الشعر فيه، وإذا سبق فرسَه غيرُه - لا قدَّر الله - لاحت آثار السخط والامتعاض، حتى ارتعدت حواشيه وسعوا في إرضائه وتطييب نفسه[1].

ذكر الكندي قصة في سباق الخيل بمصر تدل على أحط منزلة من القِيم الإنسانية وصل إليها بعض ممثلي المجتمع في تلك الأيام، فجماعة تعتدي على أختها التي كاد فرسها أن يدخل الغاية بضرب وجه فرسها، فيدخل فرس الجماعة المعتدية الغاية وتعتبر الفائزة بعدما قدَّمت إلى الحَكَم مالاً جزيلاً[2].

وكان من مظاهر اللهو: لعبة الشطرنج ولعبة النرد، وكان من ملاهي عامة الناس تجَمُّعُهم عند القرّادين[3] والمشعوذين[4]

---

(١) الوزراء والكتاب: ص٢٠٧-٢٠٨. والعقد الفريد: ١/ ١٦٦-١٧٢.

(٢) الولاة والقضاة: ص٤٠٢.

(٣) القراد: سائس القرود. لسان العرب: ٣/ ٣٥٠.

(٤) الشعوذة: خفة في اليد وأخذٌ كالسحر يُري الشيء بغير ما هو عليه. لسان العرب:=

والحوّائين[1]، يشاهدون محاكاة القردة العجيبة، ويتعجبون على حركات المشعوذين المضحكة، ويدهشون بحيات الحوائين، كما كانوا يتفرجون على الحكّائين الذي يحاكون أصوات الحيوانات المختلفة، ولهجات من ينزل في بغداد من أهل أقطار شاسعة من التجار والصناع وأهل الحرف، كما يحاكون حركات الأعمى ويمثلون عن انفعالاته بغاية الدقة والمهارة، ولا بأس لو ذكرنا ههنا ما صوَّره الجاحظ عمّا قلناه آنفاً، فيقول[2]:

«إنا نجد الحاكيةَ من الناس يحكي ألفاظَ سكان اليمن مع مخارج كلامهم لا يغادر من ذلك شيئاً، وكذلك تكون حكايته للخراساني، والأهوازي، والزنجي، والسندي، والحبشي، وغير ذلك، نعم، حتى نجده كأنه أطبَعُ منهم، فأما إذا حكى الفأفاة، فكأنما قد جُمعت كلُّ أطرافه في كل فأفاء في الأرض في لسان واحد، كما أنك تجده يحكي الأعمَى بصور يُنشئها لوجهه وعينه وأعضائه، لا تكاد تجد من ألف أعمى واحداً يجمع ذلك كله، فكأنه جمع جميع طرف حركات العميان في أعمى واحد، ولقد كان أبو دبوبة الزنجي، مولى آل زياد، يقف بباب الكرخ بحضرة المكّارين فينهق، فلا يبقى حمارٌ مريض ولا هرم حسير[3] ولا متعب بهير[4] إلا نهقَ، وقبل ذلك تسمع نهيق الحمار على الحقيقة، فلا تنبعث لذلك ولا يتحرك منها متحرك، حتى كان أبو دبوبة يحركه وكأنه قد جمع جميع الصور التي تجمع نهيق الحمار فجعلها في نهيق واحد، وكذلك في نباح الكلاب، ولذلك زعمت الأوائل أن الإنسان إنما قيل له: العالم الصغير، سليل العالم

= ٣/ ٤٩٥.

(١) الحواء: الذي يجمع الحيات. لسان العرب: ١٤/ ٢٠٨.

(٢) البيان والتبيين: ٥١.

(٣) الحسير: من الدواب، ما لا منفعة فيه. لسان العرب: ٤/ ١٨٩.

(٤) البهر: انقطاع النفس من الإعياء فهو: بَهور وبَهِير. لسان العرب: ٤/ ٨٢.

الكبير؛ لأنه يصوِّر بيده كلَّ صورة ويحكي بفمه كل حكاية».

وكان مِن مظاهر اللهو للخلفاء شغفهم الشديد بالصيد، فكانوا يخرجون للصيد ومعهم الحشم والخدم والمواكب، وينفق على ذلك مالاً، وذلك ما عدا ما يبذرونه أثناء صيدهم على مَن خدَمهم بإطعام الطعام أو سقاية الماء أو النبيذ أو بغناء جاريته(١).

وقد اختار بعضُهم لهوًا يستحْيي الإنسانُ من ذكره، قيل: إن الأمين لعبَ مرةً بالنرد مع وزيره الفضل بن الربيع، فتراهنا في خاتميهما، فغلب الأمين فأخذ من الفضل خاتمه ثم رده إليه بعدما نحت عليه كلمة يتندَّى بذكرها جبينُ الحياء(٢).

وكان في بلاطهم ندماء مضحكون وظيفتهم أن يأتوا بفكاهات مضحكة، وكان منهم: ابنُ أبي مريم مضحك الرشيد، فكان لا يصبر عنه، قيل: إنه كان مع الرشيد في قصره فأيقظه الرشيد لصلاة الفجر، فقام فتوضأ ثم أدرك الرشيد وهو يقرأ: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، فقال ابن أبي مريم: لا أدري واللهِ!، فضحك الرشيد وقطع الصلاة ثم قال له: ويحكَ اجتنب الصلاةَ والقرآنَ، وقل فيما عدا ذلك، ويحكَى عنه أضحوكة يستحي القلم من كتابتها، ولكن الرشيد كاد أن يهلك منها من شدة الضحك وأمر له بمائة ألف درهم(٣).

والإسلام لا يرضى بمثل هذه الملاهي والمتارف ولا يشجعها، مع أنه لم يمنع المسلمين من اختيار أسباب المتعة والتسلية، ولكن في إطار ما أحله الله تعالى، وإذا دخلت النزهة في حدود ما حرمه الله تعالى أصبحت ممنوعة، وخصوصاً إذا كان اللعب مما منعه الدين، وقد منع النبي ﷺ من اللعب بالنردشير فقال: «من

---

(١) الوزراء والكتاب: ص١٧٣.

(٢) الفخري: ص٤٥-٤٦.

(٣) البداية والنهاية: ١٠/ ٢١٤.

لعبَ بالنردشير فكأنما صبغَ يدَه في لحم خنزير ودمه»[1]، وحَسْبُ المسلم زاجراً عن اللهو واللعب غير المباحَيْنِ قولـه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ﴾[2].

والطامة الكبرى التي أصيبت بها الدولة العباسية هي: شرب الخمر واستماع الأغاني، فمما لا ريب فيه أن الإسلام حرّم الخمر، فقال الله في أمره النهائي بصدد الخمر: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَـٰمُ رِجۡسٌ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَـٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۝ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَـٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَ ٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِى ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾[3].

وقال رسول الله ﷺ: «كلُّ شرابٍ أسكَرَ فهو حرام»[4]، وقال رسول الله ﷺ أيضًا: «أقسمَ ربي عز وجل بعزته: لا يشرب عبدٌ من عبيدي جرعةً من خمر إلا سقيتُه مكانها مِن حميم جهنم معذَّباً ومغفوراً له، ولا يُسقيها صبياً صغيراً إلا سقيتُه مكانها من حميم جهنم معذباً أو مغفوراً له، ولا يدعها عبد من عبيدي من مخافتي إلا سقيتها إياه من حظيرة[5] القدس»[6].

وعلى الرغم مما جاء في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ تسربت أم الخبائث في بعض البيئات من المجتمع الإسلامي آنذاك، وذلك استغلالاً للخلاف اللفظي الذي بين الفقهاء في تعيين معنى الخمر، ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله إشارة إلى ذلك الخلاف: وروى عنه أنه ﷺ رخص بعد هذا في الانتباذ في الأوعية وقال: «كنت نهيتكم عن الانتباذ في الأوعية، فانتبِذوا، ولا تشربوا

---

(١) رواه مسلم: ١٥/ ١٥.

(٢) سورة المؤمنون، الآية: ٣.

(٣) سورة المائدة، الآيتين: ٩٠-٩١.

(٤) رواه مسلم: ١٣/ ١٦٩.

(٥) أراد **بحظيرة القدس**: الجنة. انظر: النهاية: ١/ ٤٠٤.

(٦) رواه الإمام أحمد في مسنده: ٥/ ٢٥٧.

المُسْكِر»، فاختلف الصحابة ومَن بعدهم من العلماء؛ مِنهم من لم يبلغه النسخ أو لم يُثبته، فنهَى عن الانتباذ في الأوعية، ومنهم من اعتقد ثبوئه وأنه ناسخ، فرخّص في الانتباذ في الأوعية، فسمع طائفة من الفقهاء أن بعض الصحابة كانوا يشربون النبيذ، فاعتقدوا أنه المُسكِرَ فترخَّصوا في شرب أنواع من الأشربة التي ليست من العنب والتمر، وترخصوا في المطبوخ من نبيذ التمر والزبيب إذا لم يُسكِر، والصواب ما عليه جماهير المسلمين أن كلُّ مسكر خمر»[1].

فاستغلت الطبائعُ المترَفة الخلاف بين الفقهاء وتأولت في معنى الخمر وحِلّه والنبيذ تأويلات غير صحيحة[2]، ودخل سيل شرب النبيذ - بغضٌ النظر عن كونه مسكراً أو غيرَ مسكر - في بعض الأوساط من المجتمع الإسلامي.

أما الخلفاءُ، فلم نجِدْ خبراً عن شُرب السفّاح ولا عن شرْب المنصور، بل كان المنصور لا يأذَن أن يُشرَبَ الخمرُ على مائدته كما ذكرنا، أما المهدي، فروَى الطبري أنه ما كان يشرب الخمر، ولكن امتناعه من شربه لم يكن احتراماً للشريعة، بل مِن أجل عدم رغبته فيه، وندماؤه كانوا يشربون على مائدته وهو لا يُنكر عليهم[3]، ويبدو مما يذهبُ غيرُ واحدٍ من المؤرخين إلى أن الخلفاء الذين جاءوا بعد المهدي لم يَسْلَم أحدٌ منهم من شرب المسكِر[4]، كما أن الشعراء في ذلك العصر كانوا يقرضون الشعر في الخمريات، ونذكر هنا بعض أبيات أبي نواس، منها ما قاله صبيحةَ اليوم الثاني لمجلس الأمين الذي سبق ذكره:

---

(١) السياسة الشرعية: ص١١٥.

(٢) العقد الفريد: ٦/ من٣٣٤إلى٣٧٣.

(٣) تاريخ الرسل والملوك: ٨/ ١٦٠.

(٤) تاريخ الرسل والملوك: ٨/ ٢٢٢ و ٢٢٧ و ٦٦١ و ٦٦٤ و ٦٦٥، ٩/ ١٢٢ و ١٢٥ و ١٥٢ و١٥٣؛ ومروج الذهب: ٣/ ٣٧٠ و٤٠١ و٤٠٢؛ والبداية والنهاية: ١٠/ ١٨٩ و ٢٤١ و٢٧٧.

نبِّـه نـديمَك قـد نعَـس يـسقيك كأسـا في الغلَـسْ
صِـرفاً كـأن شعاعَهـا في كَـفَّ شاربهـا قـبَسْ
تُـذرُ الفتَـى وكأنمـا بلـسانه منهـا خـرَسْ
يُـدْعَى فيرفـع رأسَـه فـإذا استقلَّ بـه نكَسْ[1]

وكان من واجب المسئولين - وخصوصاً الخلفاء - أن يقيموا الحدود على شاربي الخمر، ويُعزِّروا واصفيه وصفاً يحرّض النفس على شربه، والعياذ بالله، وإن كان بعضُ العمال ينفّذون حدودَ الله على شاربي الخمر، كما قيل إن الخليفة تشدَّد على أبي نواس في شرب الخمر وحبسَه حبساً طويلاً[2]، ولكن رأينا تساهُلَ بعض الخلفاء في إقامة الحدود، وها هو ابن عبد ربه يذكر قصة يلوح فيها مدى تساهل المهدي واحتياله في إقامة حدود الله، قال[3]: «ومنهم - أي ممن شُهِرَ بالشراب - إبراهيم بن هرمة، وكان مُغرَماً بالشراب، وحَدّه عليه جماعة من عمال المدينة، فلما ألَحُّوا عليه وضاق ذرعه بهم، دخل على المهدي بشعره الذي يقول فيه:

له لحظاتٌ عـن حَفـافَي سـريره إذا كـرها فيهـا عقـاب و نائـل
لهم طينةٌ بيـضاءُ مِـن آل هاشـم إذا اسودَّ مِن لؤم الترابِ القبائلُ
إذا أتى شيئاً مضَى كالـذي أتـى وإن قال إني فاعلٌ فهـو فاعـلُ

فأعجبَ المهدي بشعره، وقال له: سَل حاجتَك؟ قال: تأمر لي بكتاب عامل المدينة، أن لا يحدّني على الشراب، فقال: ويلك، كيف نأمر بذلك؟ لو سألتني عزلَ عامل المدينة وتوليَتك مكانه لفعلتُ، قال: يا أمير المؤمنين لو عزلتَ عامل المدينة ووليتني مكانه، أما كنتَ تعزلني أيضاً وتولّي غيري؟ قال: بلَى، قال:

---

(١) طبقات الشعراء: ص٢١٠.

(٢) الكامل في الآداب: ٢/ ١٠٨.

(٣) العقد الفريد: ٦/ ٣٥١.

فكنت أرجع إلى سيرتي الأولى، فقال المهدي لوزرائه: ما تقولون في حاجة ابن هرمة وما عندكم فيها من التلطف؟، قالوا: يا أمير المؤمنين إنه يطلب ما لا سبيل إليه: إسقاط حَدّ من حدود الله!، قال المهدي: إن عندي له حيلة إذا أعيتكم الحيل فيه، اكتبوا إلى عامل المدينة: مَن أتاك بابن هرمة سكران فيضرب ابن هرمة ثمانين ويضرب الذي يأتيك به مائة، فكان ابن هرمة إذا مشى في أزقة المدينة يقول: مَن يشتري مائة بثمانين؟.

ومِن أهم مقتضيات الخمر والشراب: الغناءُ والرقصُ، فتوغَّلا في جوانب المجتمع، وانتشر الغناء انتشاراً عظيماً، بحيث كان المغنّون يحكمون على قلوب العامة والخاصة ومشاعرهم، إلا مَن وفَّقهم اللهُ تعالى، فقيل إنه لو غنَّى مُغَنٍّ على الجسر، التفّ حوله جمعٌ حتى خيف سقوط الجسر من أجل كثرة الزحام(١).

وكانت الخاصة تتمتع باستماع الأغاني من القيان المثقفات بفنون الآداب، وتتلذذ بمنظرهن البهيج ودلالهن المثير، ومن أجل ذلك بدأ النخاسون يعلمون الجواري الأغاني والرقص، ويبيعونهن للخلفاء والأمراء والأثرياء بأثمان غالية، قيل: إن الأمين اشترى جاريةً مغنية بعشرين مليون درهم(٢)، واشترى المأمون جاريةً مغنية بمائة ألف درهم(٣)، كما اشترى صالح بن علي مغنيةً بتسعين ألف درهم، واشترى جعفر بن سليمان بن علي جاريتين مغنيتين بمائتي ألف درهم(٤)، وقيل: إن المهدي اشترى - وهو وليُّ عهد المنصور - جاريةً مغنية بسبعة عشر ألف دينار(٥)، وأخرى بمائة ألف درهم(٦)، كما اشترى الرشيد جارية بمائة ألف

---

(١) الأغاني: ١٨/ ١٢٧.

(٢) الأغاني: ١٥/ ١٣٨.

(٣) الأغاني: ١٨/ ١٨٢.

(٤) الأغاني: ١٥/ ٦٢.

(٥) الأغاني: ١٥/ ٢٧-٢٩.

(٦) الأغاني: ١٠/ ٩٦و١٦٢.

دينار[1].

وذكرنا نموذجاً صغيراً من تلك الأثمان الغالية التي رفعت منزلة الجواري المغنيات في ذلك المجتمع، واللائي كثُرن في قصور بعض الخلفاء ومن اقتدى بهم من ذوي اليسار، وفي خارج هذه القصور والصروح كان قد تكفل بعض الناس " خدمة العامة " بصدد اللهو والغناء، فكان بالكوفة رجل يسمَّى بعبد الملك بن رامين، كان يستقدم الجواري المغنيات من الحجاز، كان رجلاً قصّافاً، عنده دار واسعة، يقصدها أصناف من الناس وفيهم الشعراء والأدباء، ويتفرجون عنده باستماع أغاني القيان وبشرب النبيذ، ومن جهة أخرى حظي المغنون بمكانة كبيرة عند الخلفاء، وكانوا ينالون منهم ومن وزرائهم جوائز ثمينة وعطايا ضخمة، كما كانوا يصرفون بأنفسهم مئات الدراهم على تعبئة الأصوات، وكذلك كانوا يسرقون ألحانَ بعضهم وأصواتهم، ويزعج بعضهم بعضاً بهذه الصدد[2].

هذا لون من ألوان الحياة الاجتماعية في العصر العباسي الأول، لون الغناء والموسيقى، لون اللهو والزهو، اللون الذي زعزع كيان المجتمع الدعوي، وتأثر بذلك جميع مميزات المثالية تأثراً ذا نواح مختلفة، حيث لم يستطع ذلك المجتمع أن يؤثر على المجتمعات المعاصرة الكافرة تأثيراً له قيمة تُذكر في التاريخ، كما كان شأنُ المجتمع الإسلامي في الدولة النبوية والراشدية، كأن المسؤولين كانوا قد غضُّوا أبصارهم على مؤاخذة المشتغلين بهذه الملاهي وكأنهم لم تصل إليهم

---

(١) البداية والنهاية: ١٠/ ٣٠١.

(٢) انظر تفصيل هذه الملاهي في مجلدات كتاب الأغاني وعلى سبيل المثال: ٦/ ٢٩١ وما بعدها، ١٠/ ٤٨ وما بعدها، ١١/ ٢٨٦ وما بعدها، ١٣/ ٣٠٠ وما بعدها، ١٤/ ١٥٤ وما بعدها، ١٥/ ٥٨ وما بعدها.

أحـاديثُ رسول الله ﷺ بهذا الصدد، فمما قالـه ﷺ بصدد الغناء: «ليكونن مِن أمتي أقوام يستحِلُون الحرّ والحرير، والخمر والمعازف»[1]، وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «الغناء يُنبِتُ النفاقَ في القلب»[2]، وقال نافع مولى ابن عمر رضي الله عنهما: سمع ابنُ عمر مزماراً، فوضع إصبعَيه في أذنيه ونأى عن الطريق، وقال لي: يا نافع هل تسمع شيئاً؟ قلت: لا، قال: فرفع إصبعيه من أذنيه وقال: كنتُ مع النبي ﷺ فسمعَ مثل هذا فصنع مثل هذا[3]، وقال رسول الله ﷺ: «لا تبيعوا القينات ولا تشتروهن، ولا تعلموهن، ولا خير في تجارةٍ فيهن، وثمنهن حرام»[4].

ويزداد عجبنا واستغرابُنا عندما نقرأ أخباراً تذكر اشتغال بعض الخلفاء وبعض أعضاء الأسرة الحاكمة بهذه الملاهي، بحيث نال بعض منهم مكانة مرموقة في هذا الباب، فكما قال السيوطي: إن الواثق كان من الذين اخترعوا الأصوات، وكان حاذقاً بضرب العود[5]، وأما إبراهيم بن المهدي، فمعروف أنه صاحب مذهب في الغناء والموسيقى، وكان يُعتبر من أعلم الناس بالنغم والوتر والإيقاعات، وأطبعهم في الغناء وأحسنهم صوتاً، وكانت أخته عُلَيَّة بنت المهدي مغنية كبيرة، وكان الناس يقولون: لم يُرَ في جاهليةٍ ولا في إسلامٍ أخٌ وأختٌ أحسن غناءً من إبراهيم بن المهدي وأخته عُلَيَّة[6].

---

(١) رواه البخاري في كتاب الأشربة: ١٠/ ٥١.

(٢) رواه أبو داود في كتاب الأدب: ٥/ ٢٢٣.

(٣) رواه أبو داود في كتاب الأدب: ٥/ ٢٢٢.

(٤) رواه الترمذي: ٤/ ٥٠٣.

(٥) تاريخ الخلفاء: ص٣٤٣.

(٦) الأغاني: ١٠/ ٦٩و٩٦.

وكذلك لم يزل يصادف المجتمع الإسلامي آنذاك مرضاً خطيراً، ومع الأسف الشديد لم تزل تزداد شدة هذا المرض في العصور المتأخرة، وهو **الجمع بين الفسق والتدين!!** فهؤلاء المغنون الذين كانوا ينالون جوائز ثمينة من الخلفاء والأثرياء وغيرهم، كان لا يظهر من زيهم وحالهم أنهم احترفوا مهنةً يعيبها الإسلام، بل ينهى عنها، فكما قيل: إن المغني إسماعيل بن جامع كان يحفظ القرآن الكريم، وكان يعرف علومَ الفقه والحديث، ولكنه انغمس في الغناء، ومع ذلك كان يلبس لباس الفقهاء، فانخدع القاضي أبو يوسف مرة من لباسه، إذ التقيا على باب الرشيد، فذاكره أبو يوسف في الفقه والحديث، وأعجب بما أجاب فيهما ثم ظهر له أنه مُغنّ فتجنب عنه، وقيل: إنه كان يخرج من منزله مع الفجر يوم الجمعة فيصلّي الصبح ويجلس في المسجد، ثم لا يصلّي الناس الجمعة إلا وهو ختم القرآن، وكان كثيرَ الصلاة وقد أخذ السجودُ جبهتَه، ومن جهة أخرى هو يغني أمام الرشيد، فيخطئ في أقسام الصوت من أجل سكرته من النبيذ، فينبِّهه إبراهيم بن المهدي[١].

وكذلك حكى ابن عبد ربه قصة طويلة لإسحاق بن إبراهيم الموصلي المغني المعروف، بأنه كان يخرج من مجلس المأمون ويبيت عند امرأة أجنبية يشرب معها ويتجاذبان طَرَف الحديث، ثم ينصرف إلى بيته ويصلي صلاة الفجر وينام قليلاً ثم يحضر مجلس المأمون[٢]، فكأنهم اعتقدوا أن العبادة لله، وامتثال أوامر الله واجب حقاً، فيؤدون منها ما استطاعوا مِن جانب، ولا يرون بأسا في أن يشتغلوا بأمور نهى عنها الإسلام من جانبٍ آخر.

ولقَد عبر الشاعر أبو نواس عن هذه النفسية الفاسدة تعبيراً دقيقاً، فقال:

أصلّي الصلاةَ الخمس في حين وقتها ... وأشهـدُ بالتوحيـد لله خـاضعـا

(١) الأغاني: ٦/ ٢٩١-٢٩٧.

(٢) اقرأ القصة بطولها في العقد الفريد: ٦/ ٤٥٦-٤٧٠.

وأُحْسِنُ غُسلِي إن ركبتُ جَنابةً وإن جاءني المسكينُ لم أكُ مانعا
وإنّي وإن حانَتْ الكأسُ دعوةً إلى بيعة الساقي أجبتُ مسارعا
وأشربها صرْفًا على جنب ماعز وجدي كثير الشحم أصبح راضعا
وجوذاب[1] حواري ولوز و سكر وما زال للخمّار ذلك نافعا[2]

وهكذا حدث نفاق عملي - عن شعور أو غير شعور - في المجتمع الإسلامي، ولم يشعر هؤلاء أن الاستمرار على ارتكاب المعاصي يأكل روح ما يؤدونه من العبادات وغيرها في الحقيقة، ولا يترك أخيراً إلا قشرَها فحسب، وقد حدثت هذه المأساة فعلاً في العصور المتأخرة، ونشأ في بعض البيوتات المسلمة جيلٌ [أقام الصلاة واستحل المحرمات]، وهل من مصيبة أجلّ منها؟!!

ولا شك أن هذا المرض خطير جداً، ولم يحدث في العصر العباسي الأول خاصةً، كما أنه لم يكن يخص طبقةَ المغنّين فقط؛ إذ كان قد تسرب في طبقات أخرى من المجتمع، إلا من صانهم الله، بل إنه كان مرضاً مزمناً حدث عند بداية الانحراف عن الجادَّة الدعوية، ولا نعدو الحق لو قلنا: إن الانحراف لم يبدأ إلا من شؤم هذا المرض، واستمرٌ إلى عهدنا، ونعتقد أنه لا يستقيم الأمر إلا إذا شعر كل فرد من المجتمع الإسلامي - أو أغلبيته - بمسئوليته الحقيقية الحرجة وصمَّم على أن يعالجَ نفسَه أولاً، علاجاً جادًّا مستمراً متمسكاً بالكتاب والسنة، ثم لا يزال يفرّ من هذا المرض كفراره من الأسد.

على كل حال، لم نستقص ولم نستوعب ذكر الخمريات والغنائيات وقصص

---

(١) الجوذاب: طعام يصنع بسكّر وأرز ولحم. لسان العرب: ١/ ٢٥٩.
الحواري: الدقيق الأبيض، وهو لباب الدقيق وأجوده وأخلصه. لسان العرب: ٤/ ٢٢٠.

(٢) البداية والنهاية: ١٠/ ٢٣١.

الخلاعة والمجون في العصر العباسي الأول، ولا نرغب فيه؛ فهناك وقائع وحوادث كثيرة عنيت بذكرها كتب الأدب العربي ودواوين الشعر، إذ أن لها صلةً وشيجةً بالحياة الاجتماعية.

كما لم نقصد بما ذكرناه أن ننتقص من قدر الخلفاء والولاة في ذلك العصر، بل نعترف - وهذا واجب - بأنه كانت لهم فضائل كثيرة جداً، والمقارنة بينهم وبين كثير من زعماء الدول الإسلامية الذين جاؤوا بعدهم تثبت لهم الفضل الكبير بالجملة، كما لم نُرد أن نذهب إلى أن ذلك العصر ـ في جملته ـ كان عصر الخلاعة والمجون.

ولا نقرُّ الكثير مما جاء في كتب الأدب التي لا يخلوا الكثير منها من الوضع والكذب والمبالغة، وهل نستطيع أن ننسى كتب التاريخ والحديث وكتب التراجم والأخلاق التي تذكر أخبار العصر العباسي الأول، وفيها ما يذكّرنا بالأيام السالفة الدعوية؟ فمَن قال: إن ذلك العصر كان عصر الخلاعة والمجون، ظلمَ نفسه وظلمَ التاريخَ الإسلامي، وما وصلَ إلينا من الأخبار التي تحكي الخلاعة والمجون، فهي تحكي جانباً من جوانب المجتمع الإسلامي آنذاك، ومن أجل ذلك انتقدنا هذه الناحية التي لا تليق بالمجتمع الإسلامي الدعوي، وما أردنا باستعراضنا هذه الناحية إلا أن ندل على الأسباب التي أبعدت الدولة في هذا العصر عن وظيفتها الدعوية الطبيعية الخالصة.

فأصلُ هذه الأخبار التي تدل على هذه الأسباب، قد حدثت حقًا في تاريخنا الإسلامي، ويستعظم تقصير الخلفاء والحكام في الدولة العباسية في عصرها الأول بهذا الصدد، إذ أنها كانت في خير القرون، ولم يبعد عهدها كثيراً عن الدولة النبوية والراشدية الدعويتين، كما أن الخلفاء كانوا من بني هاشم، من الأسرة النبوية، فكانت مسئوليتهم كبيرة وضخمة بالنسبة إلى مسئولية غيرهم في أن يحافظوا محافظةً تامّة حذرة على تراثهم الحقيقي من محمد بن عبد الله

الهاشمي.

وهم عندما كانوا يسعون للوصول إلى منصة الحكم، كانوا يتذرعون بأنهم يطلبون ذلك لإقامة ديـن الله، فيعتبر تقصيرهم في هذا الباب تقصيراً كبيراً جداً. هذا، وهناك جوانب مشرقة للمجتمع الإسلامي في ذلك العصر، وتدل على عدم تخلي الدولة عن الدعوة تخلياً كلياً، ونذكر بعضاً منها في الصفحات التالية.

الدولة العباسية لم تتخلَّ عن الدعوة تخلياً كلياً

استعرضنا فيما سبق انحراف الدولة العباسية في عصرها الأول عن جادة الدعوة، وذلك أحد جوانب هذه الدولة الإسلامية، ولكن الدولة لم تنفكّ عن الدعوة كليًا، ولم تتخلَّ عنها، فهي وإن كانت قد انحرفت عن الجادة الدعوية الانحرافَ الذي ذكرناه سابقاً ؛ فإنها خدمت الدعوة والدين بإمكانياتها خدمات لا يستهان بقيمتها، ونريد أن نذكر بعض نواحٍ دعوية للدولة العباسية في عصرها الأول، ونلخصها تحت العنوانات التالية:

أ - ملامح مِن تديّن الخلفاء.

ب- تطبيق الشريعة الإسلامية.

ج - الصبغة العامة الإسلامية.

أولاً: ملامح من تديّن الخلفاء:

إن خلفاء الدولة العباسية في عصرها الأول، وإن كان قد تسرب في شخصياتهم نوع من الانحراف عن تلك الخصائص الدقيقة، والمناقب الفذة التي تقتضيها الدولة الدعوية في رؤسائها ورجالها ؛ ولكنهم لم يكونوا خالين من السمات الدعوية كلياً، وقد سجّل التاريخ وقائعَ كثيرة تُحدّث عن غيرتهم الإسلامية وميولهم الدينية؛ فكانوا يتأثرون كثيراً بنصيحة النصحاء ومواعظ العلماء والزهاد، وتارةً يحاولون التكفيرَ عما صدر منهم من الانحرافات.

ونذكر فيما يلي بعضاً من تلك الوقائع:

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله[1]: «وكان المنصور في أول النهار يتصدّى للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والولايات والعزل، والنظر في مصالح العامة، فإذا

(١) البداية والنهاية: ١٠/ ١٢٥.

صلَّى الظهرَ دخل منزله واستراحَ إلى العصر، فإذا صلاّها، جلس لأهل بيته ونظر في مصالحهم الخاصة، فإذا صلى العشاءَ نظر في الكتب والرسائل الواردة من الآفاق، وجلس عنده مَن يسامره إلى ثلث الليل، ثم يقوم إلى أهله فينام في فراشه إلى الثلث الآخِر، فيقوم إلى وضوئه وصلاته حتى ينفجر الصباح، ثم يخرج فيصلي بالناس، ثم يدخل فيجلس في إيوانه، وقد ولّى بعضَ العمال على بلد ؛ فبلغه أنه قد تصدى للصيد وأعد لذلك كلاباً وبزاةً، فكتب إليه: ثكلتك أمك وعشيرتك، ويحك! إنا إنما استكفيناك واستعملناك على أمور المسلمين، ولم نستكفك أمور الوحوش في البراري، فسلّم ما تلِي من عملنا إلى فلان والحق بأهلك مَلوماً مدحوراً».

ويحكي ابن قتيبة الدينوري[1]: «وذكروا أن أبا جعفر المنصور أمير المؤمنين، لما خرج ودخل الطواف بالبيت الحرام، أمر بالناس فنُحُّوا عن البيت، ثم طاف أسبوعه، فوثب إليه عبد الله[2] بن مرزوق وقال: مَن جرَّأك على هذا؟ فلبَّبه بردائه وهزّه، ثم قال له: مَن جعلكَ أحقَّ بهذا البيت من الناس، تحول بينه وبينهم، وتنحِّيهم عنه؟!، فنظر أبو جعفر في وجهه، فعرفه وقال: عبد الله بن مرزوق؟، قال: نعم، فقال: مَن جرَّأك على هذا؟ ومن أقدمَك عليه؟ فقال عبد الله بن مرزوق: وما تصنع بي؟ بيدك ضرّ ونفع؟ واللهِ ما أخاف ضرَّك ولا أرجو نفعك، حتى يكون اللهُ عزّ وجلّ يأذن لك فيه ويلهمك إلى فعله، فقال له أبو جعفر: إنك أحللتَ بنفسك وأهلكتها، فقال عبد الله بن مرزوق: اللهمَّ إن كان بيد أبي جعفر ضرّي فلا تدعْ من الضرّ شيئاً إلا أنزلتَه عليَّ، وإن كان بيده منفعتي، فاقطع عني كل منفعة منه، أنتَ يا رب، بيدك كل شيء، ومليك كل شيء، فأمرَ به أبو جعفر، فحُمِلَ إلى بغداد فسجنَه بها، وكان يسجُنه بالنهار،

(١) الإمامة والسياسة: ٢/ ١٤٧.

(٢) هو أبو محمد عبد الله بن مرزوق، من أعلام الصوفية. صفة الصفوة: ٢/ ٣١٧.

ويبعث إليه بالليل، يبيت عنده ويسامره، يلبث نهاره أجمع بالسجن، ثم يسامره بالليل، ليظهر للناس أنه سجن أول من اعترض عليه؛ لئلا يجترئ الجاهل فيقـول: قد وسِعَ عفو أمير المؤمنين فلاناً، أفلا يسعني؟، فكان دأبه هذا معه زمانا طويلاً، حتى نُسِيَ أمرُه وانقطع خبره، ثم خلَّى سبيله فلحقَ بمكة فلم يزل بها حتى مات أبو جعفر، وولي ابنه المهدي، فلما حج المهدي، فعلَ مثل ذلك، ففعل عبدُ الله بن مرزوق مثل ذلك أيضاً، فأراد قتله، فقيل له: يا أمير المؤمنين إنه قد فعل هذا بأبيك، فكان من صنيعه أن حمله إلى بغداد فسجنه بالنهار وسامره بالليل، وأنت أحق مَن أخذ بهَديه واحتذى على مثاله وورث أكروماته، فحمله المهدي معه، فمات ببغداد، رحمه الله.

وكان المهدي أشد الخلفاء العباسيين على الزنادقة، وعيّن لذلك محتبسين يسمَّوْن بـ "أصحاب الزنادقة"، وكانت وظيفتهم طلب الزنادقة وقتلهم وصلبهم(١)، يقول المسعودي(٢): «وأمعن (أي المهدي) في قتل الملحدين والمداهنين عن الدين لظهورهم في أيامه وإعلانهم باعتقاداتهم في خلافته لِما انتشر مِن كُتب ماني(٣) وابن ديصان(٤) ومرقيون(٥)، مما نقله عبد الله بن المقفع

---

(١) تاريخ الرسل والملوك: ٨/ ١٤٨و١٦٣و١٦٧.

(٢) مروج الذهب: ٤/ ٣١٥.

(٣) هو ماني بن فاتك، الحكيم الذي ظهر في زمان ملك ساسان سابورا أردشير (٢٤١-٢٧٢م)، وقتله الملك بهرام بن هرمز بن سابور (٢٧٣-٢٧٦م)، كان يزعم: أن العالم مصنوع مركب من أصلين قديمين: أحدهما: نور، والآخر ظلمة، وانهما أزليان لم يزالا، ولن يزالا. انظر: الملل والنحل: ١/ ٢٢٤.

(٤) ابن ديصان (١٥٤-٢٢٢م) فيلسوف سرياني من أصل فرتي، يعرف باسمه السرياني برديصان (Bardessne)، درس الفلك والتنجيم، كان من أنصار الثنوية القائلين بمبدأ النور والظلام والخير والشر. المنجد في الأدب والعلوم: ص٢٠٥.

(٥) مرقيون (Marcion) فيلسوف نشر في مصر والشام وفارس تعاليمَ آلَ أمرها إلى =

وغيره من الفارسية والفهلوية إلى العربية، وما صنفه في ذلك ابن أبي العرجاء وحمّاد عجرد، ويحيى بن زياد، ومطيع بن أياس، من تأييد المذاهب المانية والديصانية[1] والمرقيونية[2]، فكثرَ بذلك الزنادقة وظهرت آراؤهم في الناس، وكان المهدي أول من أمر الجَدَليّين من أهل البحث من المتكلمين بتصنيف الكتب على الملحدين ممن ذكرنا من الجاهدين وغيرهم، وأقاموا البراهين على المعاندين، وأزالوا شُبَه الملحدين، فأوضحوا الحقَّ للشاكين، وشرع بناء المسجد الحرام ومسجد النبي ﷺ على ما هما عليه إلى هذه الغاية، وبنى بيت المقدس، وقد كان هدمته الزلازل».

ويحكي الطبري[3] عن وصية المهدي لابنه الهادي، فقال المهدي فيها: «يا بنيَّ إن صار لك هذا الأمر، فتجرّد لهذه العصابة - يعني الزنادقة من أصحاب ماني - فإنها فرقة تدعو الناس إلى ظاهرٍ حسن[4]؛ كاجتناب الفواحش، والزهد في

= مذهب ماني، قال: إن الإنسان مِن خَلق إلَهَين أحدهما صالح والآخر شرير، مات في سنة ١٥٠م. المنجد: ص٤٩٢.

(١) الديصانية: أصحاب ديصان، أثبتوا أصلين: نوراً، وظلاماً، فالنور يفعل الخير قصداً واختياراً، والظلام يفعل الشر طبعاً واضطرارًا. الملل والنحل: ١/ ٢٣٠.

(٢) المرقيونية: أصحاب مرقيون، أثبتوا أصلين قديمين متضادين، أحدهما النور والثاني الظلمة، وأثبتوا أصلاً ثالثاً، هو: المعدل الجامع وهو سبب المزاج، فإن المتنافرين المتضادين لا يمتزجان إلا بجامع، وإن الجامع دون النور في المرتبة وفوق الظلمة، وحصل من الاجتماع والامتزاج هذا العالم. الملل والنحل: ١/ ٢٣٢.

(٣) تاريخ الرسل والملوك: ٨/ ٢٢٠.

(٤) وقد فرض ماني على أصحابه العُشر في الأموال كلها، والصلوات الأربع في اليوم والليلة، والدعاء إلى الحق، وترك الكذب والقتل والسرقة والزنا والبخل والسحر وعبادة الأوثان، وأن يأتي على ذي روح ما يكره أو يؤتى إليه بمثله، واعتقاده في الشرائع والأنبياء، أن أول مَن بعث الله تعالى بالعلم والحكمة: آدم أبو البشر، ثم بعث=

الدنيا والعمل للآخرة، ثم تخرجها إلى تحريم اللحم ومَسّ الماء الطهور وقتل الهوام تحرُّجاً وتحوُّباً، ثم تُخرجها من هذا إلى عبادة اثنين: أحدهما النور، والآخر الظلمة، ثم تبيح بعد هذا نكاحَ الأخوات والبنات والاغتسال بالبول وسرقة الأطفال من الطرق، لتنقذهم من ضلال الظلمة إلى هداية النور، فارفع فيها الخشب، وجرِّد فيها السيف، وتقرَّب بأمرها إلى الله لا شريك له؛ فإني رأيت جدك العباس في المنام قلدني بسيفين وأمرني بقتل أصحاب الاثنين».

وامتثل موسى الهادي أمر أبيه، فشدد في طلب الزنادقة فقتل جماعة منهم، فيهم يزدان بن باذان، كاتب يقطين، وعلى بن يقطين الذي قيل فيه: إنه حجَّ فنظرَ إلى الناس يطوفون حول البيت العتيق، فقال: ما أشبّههم إلا ببقر تدوس في البَيدَر[1]، فاشتهر قوله بلسان الشاعر العلاء بن الحداد:

أيـا أميـنَ الله في خلقـه ... ووارثَ الكعبـةِ والمنبَـرِ
ماذا تـرى في رجـلٍ كافـرٍ ... يـشبّه الكعبـةَ بالبَيـدَر
ويجعلُ الناسَ إذا ما سَعَوْا ... حُمرا تدوس البُرّ والدوسَر[2]

فقتله موسى وصلبه، وقيل: إن موسى قال مرة: لئن عشتُ لأقتلن هذه الفرقة كلها حتى لا أترك منها عينًا تُطرف، وأمر أن يُهَيّأ له ألف جذع، ليصلُب عليها هؤلاء الملحدين الإباحيين، ولكن لم يَفِ عمرُه ومات بعد شهرين من أمره هذا[3]، وسلك الرشيدُ نفسَ مسلك أبيه وأخيه في الزنادقة، فيقول الحافظ ابن

= شيئاً بعده، ثم نوحا بعده ثم إبراهيم بعده عليهم الصلاة والسلام، ثم بعث (بالبُدّة) إلى الهند، و(زَرْدَشت) إلى أرض فارس، والمسيح كلمة الله وروحه إلى أرض الروم والمغرب، وبولس بعد المسيح إليهم، ثم يأتي خاتم النبيين إلى أرض العرب. انظر: الملل والنحل: ١/ ٢٢٨.

(١) البيدر: الموضع الذي يداس فيه الطعام. لسان العرب: ٤/ ٥٠.

(٢) الدوسر: نبات كنبات الزرع وله سنبل وحب دقيق أسمر. لسان العرب: ٤/ ٢٨٥.

(٣) تاريخ الرسل والملوك: ٨/ ٢١٩-٢٢٠.

كثير رحمه الله في حوادث سنة مائة وسبعين: «وفيها تتبَّعَ الرشيد خلقاً من الزنادقة فقتل منهم طائفة كبيرة»(١).

ويقول الطبري في حوادث سنة مائة وسبعين: «أمَّن الرشيد في هذه السنة مَن كان هارباً أو مستخفياً، غيرَ نفرٍ من الزنادقة، منهم: يونس بن فروة ويزيد بن الفيض،»(٢) وبلغ المأمون خبرُ عشرة من الزنادقة، ممَّن يذهب إلى قول ماني، ويقول بالنور والظلمة من أهل البصرة، فأمر بحملهم إليه بعدما سُمُّوا واحداً واحداً، فلمّا وصلوا إلى بغداد وأُدخِلوا على المأمون ؛ جعل يدعوهم بأسمائهم رجلاً رجلاً، فيسأله عن مذهبه؟ فيخبره بالإسلام، فيمتحنه ويدعوه إلى البراءة من ماني، ويُظهر له صورته، ويأمره أن يتفلَ عليها والبراءةَ منها، كما يأمره بذبح طائر وهو الدراج وهو طائر مقدس عند الزنادقة، فأبى كل واحد منهم، فقتلهم(٣).

ويبدو من وصية المهدي لابنه ؛ فطانتَه ووعيه في إدراك خطر الزندقة التي تلبس لباسَ الزهد والورع في بداية أمرها رياءً، ثم تُصُبّ على كيان المجتمع الإسلامي - مآلاً - الخلاعةَ والمجونَ والإباحيةَ والوقاحة، [فتوليّ خلفاء بني العباس محاربةَ الزنادقة انتصاراً للإسلام والتوحيد، وتسخيرهم سلطانهم لذلك أمرٌ يُشكرون عليه، وهذا الجانب دعويّ الطابع؛ لأن محاربة البدع والانحرافات من أجلّ مَهام الداعية بالحسنة أو بالسلطان]، وكان تشدد الخلفاء وعنفهم على هذه الطائفة الكافرة، من أهم مقتضيات الدعوة، ومن أدق شعائر الدولة الدعوية، ويا ليتهم عُنُوا بالشعائر الأخرى، ويا ليتهم قاموا بنفس العنف والحماسة في وجه تلك الانحرافات التي كانت تزعزع كيان المجتمع الإسلامي،

---

(١) البداية والنهاية: ١٠/ ١٦١.

(٢) تاريخ الرسل والملوك: ٨/ ٢٣٤.

(٣) مروج الذهب: ٤/ ٩-١٠.

إذن لاستطاعوا أن يحفظوا على الأمة أصالة شخصيتها كأمة ذات دعوة، ولاستطاعوا أيضاً أن يحفظوا على دولتهم الكثيرَ والكثيرَ مِن مقوماتها الإسلامية الطبيعيّة، وعندئذ كان من الممكن أن تكون تلك الدولة الدعوية المنشودة التي تَرِثُ عن العهد النبوي والعهد الراشديّ أكرمَ ميراثٍ وأفضله، ألا وهو الدين والدعوة إليه.

على كل، ففي سياق عرضنا لحسنات هؤلاء الخلفاء، ننقل ما أورده ابنُ قتيبة الدينوري في الرشيد، قال[1]: «وذكروا أن الرشيدَ كان كثيراً ما يتلثّم، فيحضر مجالسَ العلماء بالعراق وهو لا يُعرف، وكان قد قسّم الأيامَ والليالي على سبع ليال؛ فليلة للوزراء يذاكرهم في أمور الناس ويشاورهم في المهم منها، وليلة للكُتّاب، يحمل عليهم الدواوين ويحاسبهم عما لزم من أموال المسلمين، ويرتب لهم ما ظهر من صلاح أمور المسلمين، وليلةً للقُواد وأمراء الأجناد، يذاكرهم أمر الأمصار ويسألهم عن الأخبار ويوقفهم على ما تبيَّن له من صلاح الكُوَر وسَدّ الثغور، وليلة للعلماء والفقهاء، يذاكرهم العلمَ ويدارسهم الفقه، وكان مِن أعلمهم، وليلةً للقُرّاء والعُباد، يتصفح وجوههم ويتعظ برؤيتهم ويستمع لمواعظهم ويرقق قلبه بكلامهم، وليلةً لنسائه وأهله ولذّاته، يتلذذ بدنياه ويأنس بنسائه، وليلةً يخلو فيها بنفسه لا يعلم أحدٌ قربَ أو بعدَ ما يصنع، ولا يشك أحد أنه يخلو فيها بربه يسأله خلاصَ نفسه وفكاكَ رقّه.

فبينما هو يوماً في مجلس محمد بن السمّاك، وقد قصد لرؤيته يسمع لموعظته، ولا يعلم أحدٌ بمكانه، فسمع بعضَ أهل المجلس يذكر الفضيلَ بن عياض، ويصف فضلَه وعبادته وعلمَه وورعَه، فاشتهى النظر إليه، وتاقت نفسه إلى رؤيته ومحادثته، فتوجّه من العراق إلى الحجاز قاصدًا إليه ومعه عبد الله بن

---

(١) الإمامة والسياسة: ٢/ ١٥٦-١٥٧.

المبارك، فقيه أهل بغداد وعالمهم، وكان الفضيل بن عياض يسكن الغيران[1]، فلما قَرُبا من موضعه، قال عبد الله بن المبارك: يا أمير المؤمنين إنّ الفضيل إن عرفك وعرف مكانك لم يأذن لك عليه، ويفرّ عنك، فقال هارون: تستأذن أنت عليه وتخفي مكاني عنه حتى يأذن بالدخول، فاستأذن عليه ابن المبارك، فقال الفضيل: مَن بالباب؟ قال: ابن المبارك، قال: مرحباً يا أخي وصاحبي، فقال ابن المبارك: ومَن معي يدخل؟ فقال الفضيل: ومَن معك؟ قال: رجل من قريش، فقال: لا إذن؛ لا حاجة لي برؤية أحد من قريش، فقال له ابن المبارك: إنه من العلم والعناية والفقه بمكان، فقال له الفضيل: أوَ ما علمتَ أن إبليس أفقه الناس؟ فقال له ابن المبارك: إنه سيد قريش في زمانه هذا وفوقهم - وإنما عنىَ أنه فوقهم في الدنيا وسيدهم - فقال له الفضيل: فإن كان كما تقول فليدخل، فدخل الرشيد فسلّم عليه ثم جلس بين يديه، فتحدثوا ساعةً فقال له ابن المبارك: أتدري مَن هذا؟ قال لا أدري، فقال له: هذا هارون بن محمد الرشيد، أمير المؤمنين، فنظر إليه الفضيل بن عياض ساعة، ثم قال: هذا الوجه الجميل، يُسأل غداً عن أمة محمد ويؤاخذ بها، لئن كان العفو والغفران يسعك مع ما أنت فيه، إنّ هذا لهو الفضل المبين.

وكان الرشيد من أجمل الناس خَلقاً، وأحسنهم نُطقاً، وأبلغهم لساناً، وأعذبهم كلاماً، وأكثرهم عِلماً وفهماً، ثم جعلَ الفضيلُ بن عياض يعظه ويخوّفه حتى بكى هارون بكاءً شديداً، قال ابن المبارك: ما رأيتُ أحداً يبكي بكاءَ الرشيد يومئذ، ثم أفاقَ مِن بكائه، فجعل الفضيل يذكر مثالبه ومثالبَ أهل بيته ورداءة سيرتهم وخلافهم، ثم لم يدَعْ شيئاً يعيبه به ولا أمراً ينتقصه فيه إلا

---

(١) والصحيح: الغران: بضم أوله وتخفيف ثانيه: واد ضخم بالحجاز بين ساية ومكة، وهي: منازل بني لحيان وفي غربيه الحديبية. معجم البلدان: ١٩٤.

واستقبله به، فقال الرشيد: يا أبا الحسن أما لك ذُنوبٌ تخاف أن تهلك بها إن لم يغفرها الله لك؟ فقال الفضيل: بلَى، فقال الرشيد: فما جعلك بأحق أن ترجو المغفرة مني؟ وأنا على دينٍ يقبلُ اللهُ فيه الحسنات ويعفو عن السيئات، ومع ذلك فإني واللهِ ما كنتُ لأخيِّر بين شيءٍ وبين الله، إلا اخترتُ الله تعالى على ما سواه، الله الشاهدِ على قولي والمطلع على نيتي وضميري وكفَى به شهيداً، وأنا مع هذا، ءَالي من الإصلاح بين الناس والجهاد في سبيل الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مالا تليه أنت، فما جعلك أحق أن ترجو المغفرة مني؟، فسكت الفضيل ساعةً ثم قال: ما ظلمك من حَجّك، ثم قام هارون للخروج، فقال الفضيل: يا أمير المؤمنين إنّي أخشى أن يكون العلمُ قد ضاع قِبَلك كما ضاع عندنا، فقال الرشيد: أجل إنه ما قلتَ.

فلما قدم الرشيدُ العراقَ، كان أول ما ابتدأ فيه النظر: أن كتبَ إلى الأمصار كلها وإلى أمراء الأجناد: «أما بعد: فانظروا مَن التزم الأذان عندكم، فاكتبوه في ألف من العطاء، ومَن جمع القرآن وأقبل على طلب العلم وعمّر مجالس العلم ومقاعد الأدب فاكتبوه في ألفي دينار من العطاء، ومَن جمع القرآن وروى الحديث وتفقه في العلم واستبحر فاكتبوه في أربعة آلاف دينار من العطاء، وليكن ذلك بامتحان الرجال السابقين لهذا الأمر من المعروفين به من علماء عصركم وفضلاء دهركم، فاسمعوا قولهم وأطيعوا أمرهم؛ فإن الله تعالى يقول: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ﴾، وهم أهل العلم.

قال ابن المبارك: فما رأيت عالماً ولا قارئاً للقرآن ولا سابقاً للخيرات ولا حافظاً للمحرّمات، بعد أيام رسول الله ﷺ وأيام الخلفاء والصحابة، أكثر منهم في زمن الرشيد وأيامه، لقد كان الغلام يجمع القرآن وهو ابن ثماني سنين ولقد كان الغلام يستبحر في الفقه والعلم ويروي الحديث ويجمع الدواوين ويناظر المعلمين وهو ابن إحدى عشرة سنة».

ويحكي الحافظ ابن كثير رحمه الله عن الرشيد فيقول[1]: «... وقد استُدعي إليه أبا معاوية الضرير محمد بن حازم ليسمع منه الحديث، قال أبو معاوية: ما ذكرت عنده حديثاً إلا قال: «ﷺ سيدي»، وإذا سمع فيه موعظة بكى حتى يبلّ الثرى، وأكلت عنده يوماً ثم قمت لأغسل يدي، فصبّ عليّ الماء وأنا لا أراه، ثم قال: يا أبا معاوية أتدري مَن يصبّ عليك الماء؟ قلت: لا، قال: يصبّ عليك أمير المؤمنين، قال أبو معاوية: فدعوتُ لـه، فقال: إنما أردتُ تعظيم العلم.

وحدثه أبو معاوية يوماً: عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة: بحديث احتجاج آدم على موسى، فقال عم الرشيد: أين التقيا يا أبا معاوية؟، فغضب الرشيد من ذلك غضباً شديداً، وقال: أتعترض على الحديث؟ عليّ بالنطع والسيف، فأحضر ذلك، فقام الناس إليه يشفعون فيه، فقال الرشيد: هذه زندقة، ثم أمر بسجنه وأقسم أن لا يخُرج حتى يخبرني من ألقى إليه هذا؟، فأقسم عمُّه بالأيمان المغلظة: ما قال هذا له أحد، وإنما كانت هذه الكلمة بادرة مني وأنا أستغفر الله وأتوب إليه. فأطلقه».

ويحكي المسعودي[2]: «فإنه (المأمون) يوماً لَجالسٌ إذ دخلَ عليه علي بن صالح الحاجب فقال: يا أمير المؤمنين رجلٌ واقف في الباب، عليه ثياب غلاظ مشمَّرة ويطلب الدخول للمناظرة...، فقال: ائذَن له، فدخل رجل عليه ثياب قد شمرها ونعله في يده، فوقف على طرف البساط، فقال السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فقال المأمون: وعليك السلام، فقال: أتأذن لي في الدُّنُوّ منك؟ قال: ادنُ، فدنا، ثم قال: أجلس؟، فجلس، ثم قال: أتأذن في كلامك؟، فقال: تكلَّم بما تعلم أن لله فيه رضا، قال: أخبرني عن هذا المجلس الذي أنت قد جلسته، أباجْـتماع المسلمين عليك ورِضاً منك، أم بالمُغالبة لهم والقوة عليهم

(١) البداية والنهاية: ١٠/ ٢١٥.

(٢) مروج الذهب: ٤/ ١٩-٢١.

بسلطانك؟، قال: لم أجلسه باجتماع منهم ولا بمغالبة لهم، إنما كان يتولى أمر المسلمين سلطان قبلي أحمده المسلمون، إما على رضاً، وإما على كُره، فعقد لي ولآخر معي ولايةَ هذا الأمر بعده في أعناق مَن حضره من المسلمين، فأخذ على مَن حضر بيت الله الحرام مِن الحاجِّ البيعة لي ولآخر معي، فأعطوه ذلك إما طائعين وإما كارهين، فمضى الذي عقد له معي على هذه السبيل التي مضى عليها، فلما صار الأمر إليَّ، علمت أني أحتاج إلى اجتماع كلمة المسلمين في مشارق الأرضِ ومغاربها على الرِّضا، ثم نظرتُ، فرأيتُ أني متى تخليتُ عن المسلمين ؛ اضطرب حَبلُ الإسلام ومرجَ عهدُهم، وانتقضت أطرافه، وغلب الهرج والفتنة، ووقع التنازع، فتعطَّلتْ أحكامُ الله سبحانه وتعالى، ولم يحج أحد بيته، ولم يجاهد في سبيله، ولم يكن لهم سلطان يجمعهم ويسوسهم، وانقطعت السبل، ولم يؤخَذ للمظلوم من ظالم، فقمتُ بهذا الأمر حياطةً للمسلمين ومجاهداً لعدوهم وضابطاً لسُبلهم وآخذاً على أيديهم، إلى أن يجتمع المسلمون على رجل تتفق كلمتهم على الرضا به، فأسلّم الأمر إليه وأكون كرجل من المسلمين، وأنت أيها الرجل، رسولي إلى جماعة المسلمين، فمتى اجتمعوا على رجل ورَضوا به ؛ خرجت إليه من هذا الأمر، فقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وقام.

فأمر المأمون عليَّ بن صالح الحاجب بأن ينفذ في طلبه مَن يعرف مقصده، ففعل ذلك ثم رجع وقال: وجّهت يا أمير المؤمنين من اتبع الرجل، فمضى إلى مسجد فيه خمسة عشر رجلاً في هيئته وزيّه، فقالوا له: لقيتَ الرجل؟ فقال: نعم، قالوا: فما قال لك؟ قال: ما قال لي إلا خيراً، ذكر أنه ضبط أمور المسلمين إلى أن تأمنَ سُبلهم، ويقوم بالحج والجهاد في سبيل الله، ويأخذ للمظلوم من الظالم، ولا يعطل الأحكام، فإذا رضي المسلمون برجل سلّم الأمر إليه وخرج إليه منه، قالوا: ما نرى بهذا بأسًا، وافترقوا».

ويحكي المسعودي أيضاً[1]: «وفي سنة ثماني عشرة ومائتين غزا المأمون أرض الروم، وقد كان شرع في بناء الطوانة، مدينة من مدنهم على فم الدرب مما يلي طرسوس، وعمد إلى سائر حصون الروم، ودعاهم إلى الإسلام، وخيّرهم بين الإسلام والجزية والسيف، وذلّل النصرانية، فأجابه خلقٌ من الروم إلى الجزية،... فلما توجّه المأمون غازياً ونزل البديدون ؛ جاءه رسول ملك الروم فقال له: إن الملكَ يخيّرك بين أن يردَّ عليك نفقتك التي أنفقتها في طريقك من بلدك إلى هذا الموضع، وبين أن يخرج كل أسير من المسلمين في بلد الروم بغير فداء ولا درهم ولا دينار، وبين أن يعمّر لك كل بلد للمسلمين مما خرّبت النصرانية ويردّه كما كان، وترجع من غزاتك، فقام المأمون، ودخل خيمته فصلّى ركعتين واستخار اللهَ عز وجل، وخرج، فقال للرسول: قل له: أما قولك: ترد عليّ نفقتي، فإني سمعتُ الله تعالى يقول في كتابه حاكياً عن بلقيس: ﴿ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴾[2]، وأما قولك: إنك تخُرج كل أسير من المسلمين في بلد الروم، فما في يدك إلا أحد الرجلين: إما رجلٌ طلبَ اللهَ عز وجل والدار الآخرة، فقد صار إلى ما أراد، وإما رجل يطلب الدنيا، فلا فكَّ اللهُ أسره، أما قولك: إنك تعمر كل بلد للمسلمين قد خرَّبته الروم، فلو أني قلعت أقصى حجر في بلاد الروم، ما اعتضت بامرأةٍ عثرتْ في حال أسرِها فقالت: «وامحمداه، وامحمداه»، عُدْ إلى صاحبك، فليس بيني وبينه إلا السيف».

فهذه نبذة من الوقائع التي تخص شخصيات بعض الخلفاء من الدولة العباسية في العصر الأول، ويبدو منها أنهم لم يكونوا - كما قلنا سابقًا -

(١) مروج الذهب: ٤/ ٤٢-٤٣.

(٢) سورة النمل، الآيتين: ٣٥-٣٦.

متخلّين [تماماً] عن سمات الدعوة الإسلامية، وأردنا أن ننقل هذه الوقائع بروحها التي أراد مؤرخونا الكبار أن يبرزوها، فنقلناها بأسلوبهم وتعبيرهم، والاقتباس الأخير الذي يبرز ميول المأمون الدعوية، يذكّرنا تلك الروح الدعوية التي كانت سائدة مآثر أسلافنا الحربية والسلمية في العهد الراشدي، والفارق بينهما: أن المجتمع الإسلامي في العهد الراشدي كان دعوياً، وكان قوةً مساعدةً في سير الدعوة الإسلامية إلى الأمام، وأما العهد العباسي الأول، فقد اضمحلت فيه تلك القوة - وهي: كون المجتمع دعوياً خالصاً - التي كان المفروض أن تكون عوناً كبيراً في سير الدعوة التي أراد المأمون أن ينشر نفحاتها في غزوه المذكور، ومع ذلك، فإن هذا الجانب المشرق في حياة خلفاء الدولة العباسية في عصرها الأول يستحق التقدير والثناء.

ثانياً: تطبيق الشريعة الإسلامية:

وهناك جانب آخر مشرق للدولة العباسية في عصرها الأول، في مجال الدعوة وهو: أن الشريعة الإسلامية كانت هي دستور الدولة وقانونها، فلم يسجل التاريخ خبراً عن أي خليفة من خلفاء العصر العباسي الأول، بأنه أنكر هذا المصدر - لا سمح الله - أو ألغى العمل به، أو أعرض عنه ومال إلى مصادر أخرى للتشريع، فكان نظام القضاء قائماً في ذلك العصر، والمظلوم كان يراجع السلطة القضائية كملجأ يأوي إليه ليستردّ به حَقه الذي سُلب، وكان القضاة يفصلون بين الخصوم بأحكام الشريعة الإسلامية، وكانوا يستمدّون ممّا أودعه الله تعالى في شخصياتهم من الذكاء والفطنة وقوة الاجتهاد والاستنباط، كما حكى لنا الكندي[1] عن قاضي مصر إبراهيم بن الجرّاح أنه كان ينظر في أقوال الفقهاء واجتهاداتهم ثم يختار ما يرجّحه هو بعلمه وفهمه.

وكانت الميزة البارزة في هذا المجال: حُرية القُضاة واستقلالهم في الحُكم،

---

(١) الولاة والقضاة في مصر: ص٤٣٢.

ونضرب لذلك مثالاً، قيل: رُفعت إلى سِوار بن عبد الله قاضي البصرة قضيةُ أرضٍ، تخاصمَ فيها تاجرٌ وقائدُ جيش، فكتب أبو جعفر المنصور إلى القاضي أن يحكم في حق القائد، فأجابه القاضي: إن البينة قامت عندي أن تكون الأرض للتاجر، فلستُ أخرجها مِن يده إلا ببينة، فكتب إليه المنصور: واللهِ الذي لا إله إلا هو، لتدفعنّها إلى القائد، فكتبَ إليه سِوار: واللهِ الذي لا إله إلا هو، لا أخرجتها من يَد التاجر إلا بحق، ولما وصلَ هذا الخطاب إلى المنصور، قال: ملأتُها - واللهِ - عَدلاً، وصار قضاتي تردّني إلى الحق[1].

وكان هؤلاء القضاة الأفاضل يفصِلون القضايا في ضوء ما بدا لهم من الحق، وبدون مراعاة أحد الجانبين، وما كانوا يميلون إلى أحد الخصمَين مهما كانت منزلته رفيعةً في المجتمع، كما رأينا في القصة التي ذكرناها آنفاً، حتى حكموا على الخليفة أو الأمير، ولم يكن له بُـدّ من التسليم بحُكم القاضي، ونضرب لذلك مثالين:

كانت بمكة دارٌ لعبدِ الله بن جُدعَان وقفاً لآل أبي ملَيكة، وكان المهدي أخذها لنفسِه، فشكا رجلٌ من آل أبي مليكة اسمه أبو عزارة إلى القاضي محمد بن عبد الرحمن الأوقص، فبعث المهدي حاجبه الربيع بن يونس لينوب عنـه في المحكمة، فلما جلس بين يدَي القاضي، قال: ما جاء بكما؟ فقال أبو عزارة: هذا جاء يخاصمني في دار عبد الله بن جدعان، وهي وقفٌ، فقـال القاضي: نعم، هي وقفٌ كما قلتَ، فقال الربيع: قضيتَ عليّ قبل أن أتكلم؟، قال القاضي: وما تتكلم؟ هل أجلستموني ههنا للعبث؟ واللهِ لو كلفتني أن أعدّ كل حَجر فيها أو ميزاب، لفعلتُ، ولم أزل أعرفها منذ أنا صبي إلى اليوم، ثم أرسلَ المهدي إلى القاضي يسأله: لم قضيت عليّ؟، فقال: أنا أقضي، وأنت تقضي، فإن شئت تركت وإن شئت أخذت، فردُّ المهدي الدارَ على آل أبي مليكة ثم اشتراها

---

(١) تاريخ الخلفاء: ص٢٦٥.

منهم[1].

وروي أن موسى بن عيسى كان أميراً على الكوفة، وقاضيها في تلك الأيام شريك بن عبد الله النخعي، فجاءت امرأة من ولد جرير بن عبد الله تشتكي إليه فقالت: كان لي بستانٌ على شاطيء الفرات ورثته عن آبائي، وفيه نخل، فقسمته بيني وبين إخوتي، وبنيت حائطاً، وجعلت فيه حارساً يحفظ النخل، فاشترى الأمير موسى بن عيسى من إخوتي حقوقهم، وساومني أن أبيع، فأبيت، فلما كانت هذه الليلة، بعث الأمير رجالاً قلعوا الحائط، فأصبحت لا أعرف من مكاني شيئاً، فطلبَ القاضي حضور الأمير إلى مجلس القضاء، فبعث الأميرُ صاحب شرطته إلى القاضي يسأله: لم أعديتها عليَّ؟ وكان صاحب الشرطة يعرف طبيعةَ القاضي، فهيَّأ ما يلزم للمسجون من الفرش وغيرها، ثم ذهب إلى القاضي وأبلغه رسالةَ الأمير، فأمر بحبسه، وبلغ الخبرُ موسى، فبعث حاجبه إليه فحبسه، ثم بعث إلى القاضي جماعةً من أعيان البلد فحُبس الجميع، فذهب موسى ليلاً إلى الحبس فأخرجهم جميعاً.

ولما بلغ الخبر شريكاً، أغلق ديوانَ القضاء، وتوجَّه إلى بغداد، فركب موسى مع حواشيه ولحق القاضي على جسر الكوفة، فجعل يناشده الله، وقال له: أنت الذي حبستَ إخوانك هؤلاء؟ قال القاضي: نعم لأنهم جاءوا عنك في أمر لم يناسب لهم أن يمشوا فيه، ولن أرجع حتى يُرَدّوا جميعاً إلى الحبس وإلا ذهبت إلى بغداد لأستقيل عن منصبي، فردّهم موسى كلهم إلى الحبس ثم حضر مجلس الحكم، فأخرج القاضي أولئك من الحبس وحكم على موسى برد الحائط إلى المرأة الجريرية، ثم قام، فأجلس الأميرَ إلى جنبه وقال: «السلام عليك أيها الأمير»[2].

(١) أخبار القضاة: ١/ ٢٦٥-٢٦٦.

(٢) أخبار القضاة: ٣/ ١٧٠-١٧١.

أما وجدنا في هذا الخبر من نفحاتٍ من الأيام الراشدية الدعوية؟ أوَلا يقرِّر مثل هذه الأخبار أنَّ الحِفاظَ على [مميزات العَدل في المجتمع الإسلامي من أهم أركان الدولة العباسية؟]، فلا شك أن العهد العباسي الأول لم يكن خالياً عن المميزات الدعوية كلياً، فكانت المساواة بين الخصمين في المعاملة معروفة لدى القضاة في تلك الأيام، فكان يَجلس الغني والفقير والأمير والمأمور والخليفة والرعيـة في مجلس واحد أمام القاضي، وتوجد أمثلة [أخرى] تذكّرنا بأيام السلَف.

فيُحكَى أن المهدي تقدَّمَ مع خصم له بالبصرة إلى قاضيها عبيد الله بن الحسن العنبري، فلما رآه القاضي مقبلاً، أطرقَ إلى الأرض حتى جلس مع خصومه مجلس المتحاكمين، فلما فصلت القضية، قام القاضي بين يدي المهدي فقال له المهدي: «والله لو قمتَ حين دخلتُ إليك لعَزلتُك، ولو لم تقم حين فصل الحكم، لعَزلتُك»[1].

ونرى أن سبب بقاء هذا الجَو الدعوي في السلطة القضائية هو تدقيق الخلفاء والولاة في تعيين القضاة وعزلهم، فكانوا يدققون تدقيقاً جادًّا في تعيين القضاة كما كانوا يوصونهم وصايا قيِّمة بصدد حملِ هذه الأمانة العظيمة، ها هو المنصور يُوَلِّي عبيدَ الله بن الحسن العنبري قضاء البصرة ويوصيه وصايا يُظهر فيها فكره ودقة نظره في أمر القضاء، فيقول: «إني قَلّدتك ممّا قلّدني الله طَوقاً فأعلقت في عنقك طرفه، وأبقيت في عنقي ربقته، وإني لم آلُ جهداً إذ ولّيتك لما ظهر لي منك مِن حُسن فعلك، وعلى الله إصلاحُ باطنك، لا أعلم الغيب فلا أخطئ، ولا أدَّعي معرفة ما لم يعلّمني ربي، فاتق اللهَ وأطعني إذا لم أعْدُ بطاعتي مَن فوقي؛ فإني لا أغني عنك من الله شيئاً ولا تغنيه عني، إنك حجابٌ بين الله وبيني، وأمانة مني على رعيتي، قلّدتك أحكامَهم، إن كنتَ أمامهم فلا يعدلنّ

(١) أدب القاضي: ١/٢٤٨.

الحقَّ عندكَ شيء، ولا يكوننّ أحدٌ أكرمَ عليك من نفسك، سلَّطَ اللهُ عليها عزمك قبل تسلُّطِها عليك في حُكمك، قد أبلغتك وما عليَّ إلا الجهد»[1].

ولا شك أن هذه الوصية القيمة تذكّرنا وصايا أئمة الدعوة الراشدين ﷺ، ويا ليت هذه الروح غشيتْ جميعَ جوانب الدولة العباسية في عصرها الأول، ولو كان كذا ؛ لكان تاريخُ هذه الأمة غيرَ ما وجدناه وانتقدناه، ولا ريب أن النقد لا يحطّم قيمةَ تلك الحسنات التي يجب علينا أن نقدِّرها وكانت توجد في الخلفاء العباسيين في عصرهم الأول، وخصوصاً في باب تولية القضاء، فقيل: إن الرشيد أحضرَ رجلاً يوليه منصب القضاء، فقال الرجل: إني لا أحسن القضاء، ولستُ فقيهاً، فقال له الرشيد: فيكَ ثلاث خصال: لك شرفٌ، والشرف يمنع صاحبه من الدناءة، ولكَ حِلْم، وحِلمُك يمنعك من العجلة، ومن لم يُعجِّل قلّ خطؤه، وأنت رجلٌ تشاور في أمرك، ومَن شاورَ كثرَ صوابه، وأما الفقه، فسيُضَم لك مَن تفقّه به. فولاه القضاء، ولم يجد الناس فيه مطعناً[2].

ويكفي لمعرفة دقة نظر الرشيد في أمور الدولة وإخلاصه في تطبيق الشريعة الإسلامية طلبُه مِن قاضي القضاة أبي يوسف رحمَه اللهُ أن يكتب له كتابًا جامعاً يعمل به في جباية الخراج والعُشور والصدقات، وأراد بذلك رفعَ الظلمِ عن رعيَّته، والصلاحَ لأمرهم[3]، فكتب كتاب " الخَراج " الذي يعتبر مصدراً هاما في مجال النظم المالية والاقتصادية من ناحية، وهو مأثرة كبيرة في تاريخ مكانة القضاة، من ناحية أخرى.

ولإبراز قيمة هذا الكتاب القيم نقتبس شيئاً مما كتبه العلاّمة الأستاذ محمد

---

(١) أخبار القضاة: ٢/ ٩١.

(٢) تذكرة ابن حمدون: ص١٠٣.

(٣) كتاب الخراج: ص٣.

الخضري بك في تعريف الكتاب، فقال[1]: «... لم يكن أبو يوسف في رسالته، ذلك الفقيه الجاف الذي - هو في خيال الكثير منّا - يكتب جوابه مبتوراً منقولاً من مسطور سبق به، أو ذلك المفتي الضعيف الذي ينظر إلى غرض المستفتي فيجتهد أن تكون فتواه طبقَ رغبته، بل كان ذلك العالم الناصح الذي سبر حال الأمة فعرف ما يُصلحها، وأدركَ سرَّ الدين الذي أوحَى الله به إلى رسوله ﷺ لإصلاح حال الأمة، فجال في ميدانه جولة الفارس العالم بثنيات الطريق، وأحاط علمًا بتاريخ المسائل التي يُفتي فيها، فبينا نراه واعظاً لا يخاف في الله لومةَ لائم، يصوغ من كلمات النصح أشدها وقعاً وأقواها تأثيراً، يوجّهها إلى إمامه مع رعاية الأدب واللباقة، إذا هو مؤرِّخ يسرد تاريخَ الأمور المالية وغيرها مما يتكلم فيه، وكيف وضعها السلف الصالح وكيف كان غرضهم من ذلك، وبينا أنت تستخرج منه لطائف التاريخ، إذا بك تراه قد سبرَ ما يفعله ولاةُ الخراج والجبايات وحواشيهم من المظالم التي يرهقون بها الرعيةَ ويضرُّون بها العمارة، فينبّه الإمام إلى مخازيهم، ويرفع صوته طالباً إجراءَ العدالةِ فيهم، ويشير على إمامه بما يجب عليه من رعاية تنفيذ الحق، ويبيّن له كيف يفعل في ذلك؛ ليكون ناجياً بين يدي الله سبحانه وتعالى الذي جعله كفيلاً لحقوق الرعية».

ومِن المآثر الدعوية للخلفاء العباسيين في العصر الأول تخصيصُهم دارًا للمظالم يقصدها المتظلّمون[2]، وذكر الماوردي أن أول من جلس للمظالم من الخلفاء العباسيين هو المهدي، ثم الهادي، ثم الرشيد، ثم المأمون[3]، وقيل: إن المهدي كان يجلس في كل وقت لردّ المظالم[4]، وكان إذا جلس للمظالم يقـول:

---

(١) تاريخ الأمم الإسلامية، الدولة العباسية: ص١٣٩.

(٢) تاريخ الرسل والملوك: ٨/ ٢١٦.

(٣) الأحكام السلطانية: ص٧٨.

(٤) الفخري: ص١٧٩.

«أدخِلوا عليّ القضاة، فلو لم يكن ردّي للمظالم إلا للحياء منهم لكفى»[1].

وروى الطبري عن مسوّر بن مساور قال[2]: «ظلمني وكيلٌ للمهدي وغصبني ضيعةً لي، فأتيتُ سلاماً صاحب المظالم، فتظلمتُ منه، وأعطيته رقعةً مكتوبة، فأوصل الرقعة إلى المهدي وعنده عمه العباس بن محمد وابنه علاثة وعافية القاضي، فقال لي: ادنه، فدنوت، فقال: ما تقول؟، قلت: ظلمتَني، قال: فترضى بأحد هذين؟، قلت: نعم، قال القاضي: فَادْنُ مني، فدنوتُ منه حتى التزقت بالفراش، قال: تكلم، قلت: أصلحَ اللهُ القاضي، إنه ظلمني في ضيعتي هذا، فقال القاضي: ما تقولُ يا أمير المؤمنين؟ قال: ضيعتي وفي يـدي، قلت: أصلحَ الله القاضي: سَلْه: صارت الضيعةُ إليه قبل الخلافة أو بعدها؟، فسأله القاضي: ما تقول يا أمير المؤمنين؟، قال: صارت إليّ بعد الخلافة، فقال القاضي: فأطلِقْها له، قال أمير المؤمنين: قد فعلت...، فقال العباس بن محمد: والله يا أمير المؤمنين، لذا المجلس أحبُّ إليَّ من عشرين ألف ألف درهم».

وذكر الماوردي[3]: «أن المأمون كان يجلس للمظالم في يوم الأحد، فنهض ذات يوم من مجلس نظره، فلقيته امرأةٌ في ثيابٍ رثة، فقالت:

يـا خـيرَ منتـصِفٍ يهـدي لـه ... ويـا إمامًا به قـد أشـرقَ البلـدُ
تشكو إليك عميدَ الملك أرملـةٌ ... عَـدا عليها فما تقوَى به أسـدُ
فابتزّ منها ضياعـاً بعـد منعتهـا ... لّما تفـرَّقَ عنهـا الأهـلُ والولَـدُ

فأطرق المأمون يسيراً، ثم رفع رأسه وقال:

مِن دون ما قلتِ عيل الصبرُ والجلَـدُ ... وأقـرحَ القلبَ هـذا الحـزنُ والكمَـدُ

(١) تاريخ الرسل والملوك: ٨/ ١٧٢.

(٢) تاريخ الرسل والملوك: ٨/ ١٧٣،١٧٤.

(٣) الأحكام السلطانية: ص٨٤-٨٥.

هـذا أوانُ صـلاة الظهـر فانـصرفي   وأحضِري الخصمَ في اليوم الذي أعِدُ
المجلسُ السبت إن يقضَ الجلوسُ لنـا   أنـصِفْـكِ مِنـهُ وإلا المجلـسُ الأحَـدُ

فانصرفت، وحضرت يوم الأحد في أول الناس، فقال لها المأمون: مَن خصمك؟، فقالت: القائم على رأسك العباس بن أمير المؤمنين، فقال المأمون لقاضيه يحيى بن أكثم - وقيل لوزيره أحمد بن أبي خالد -: أجلِسْها معه وانظر بينهما، فأجلسَها معه ونظر بينهما بحضرة المأمون، وجعل كلامها يعلو، فزجرها بعض حُجابه، فقال له المأمون: دَعْها فإن الحق أنطقها والباطل أخرسه، وأمر بردّ ضِيَعها عليها».

ذكرْنا نبذةً من تلك الوقائع التي نستطيع أن نبرزها في استعراضنا الجانبَ الدعويّ في الدولة العباسية في عصرها الأول، فهي تدل على أن المسئولين في الدولة كانوا يهتمون بتطبيق الشريعة الإسلامية - على قدر جهدِهم وفكرِهم -، وهذه ناحية مشرقة للدولة العباسية تستحق أن نعتز بها، ويا ليتهم تنبّهوا إلى مسئوليتهم الحساسة نحو ما تقتضيه الشريعة من تنفيذ أوامرها واستيلائها المحكم على جميع نواحي المجتمع الإسلامي، كيما يظل يؤدي واجبه الدعوي نحو المجتمعات المعاصرة.

ثالثاً: الصبغة الدينية العامة:

ذكرنا فيما سبق، أن الدولة العباسية في عصرها الأول كان فيها انحرافٌ عن الجادة الدعوية، وأن الفساد قد تسرب في المجتمع الإسلامي، وربما فَهِم القارئ أن الدولة برُمّتها قد تحولت إلى الفساد...، والحقيقة لم تكن كذلك، ولم نُرِد نحن [أن نُصوّر ذلك]، بل كان السلطان الديني يسود العامة في تلك الأيـام، وكانت الصبغة الدينية لها سيطرةٌ على قلوب الجمهور، فإذا وجدْنا الانحرافات قد دخلتْ في قصور الخلفاء والأمراء والأثرياء وأصحاب الترف والبذخ، ووجدنا ميلَ الناس إلى المغنّين والقيان ؛ وجدْنا في المقابل مُعظمَ الناس ينظرون إلى

العلماء والمحدّثين والفقهاء والزهاد وإلى أصحاب الدين والاستقامة، نظرة الإجلال والتكريم وبعاطفة الثناء والتقدير ويُحلّونهم من أنفسهم مكاناً، فكانوا يتبعونهم في أمور دينهم ودنياهم.

وإذا صوَّر لنا الأصبهاني وأمثاله أن بغداد - عاصمة الدولة العباسية - أصبحت ملجأ للمغنين والقيان واللهاة والمُجّان، وكانت مليئة بالحانات ومحافل الغناء والشراب ؛ صوَّرت لنا كتب الطبقات والتراجم أن بغداد كانت منتجعاً لرواد العلم والدين، وملتقًى لأعلام الفقه والحديث، وملجأ لأصحاب الإيمان واليقين، قصدوها من الآفاق، وألقوا فيها عصا التسيار، وجعلوها مركزاً لنشاطهم الديني والعلمي والفكري.

وذكر الخطيب[1] قصةَ ترحيب العامة بالعالم الرباني عبد الله بن المبارك رحمه الله وحفاوتهم به حفاوة بالغة، وتشهد القصة بسيطرة السلطان الديني على قلوب الجمهور، فقيل: إن الرشيد دخل الرقة، وكانت أم ولد له تطلب من شرفة القصر الخشبي، فإذا هي تشاهد جموع الناس وأصوات الضَّجيج والغوغاء، وترتفع الغبرة وتتقطع النعال، فسألت عن السبب، فقيل لها: إن ابن المبارك يأتي اليوم إلى الرقة فخرج الناس لاستقباله والترحيب به، فقالت: «هذا والله المُلك، لا ملك هارون الذي لا يجمع الناس إلا بشُرط وأعوان».

وكذلك نجد في تلك الأيام وقائع تذكّرنا أيام أسلافنا الصالحين، فها هو ذا محمد بن عمرو الواقدي يذكر قصته العجيبة، قال: كان لي صديقان أحدهما هاشمي، وكنا كنفس واحدة، وأصابني ضيق شديد وحضر العيد، فقالت زوجتي: أما نحن في أنفسنا فنصبر على البؤس والشدة، ولكن نشفق على الصبيان، فهم يرون صبيان الجيران قد لبسوا لباسهم الفاخر يوم العيد وهم في ثيابهم الأخلاق، فلو دبرتَ مالاً نصرفه في كسوتهم، قال: فكتبتُ إلى صديقي

---

(١) تاريخ بغداد: ١٠/ ١٥٦-١٥٧.

الهاشمي أسأله مساعدتي بما حضر عنده، فأرسل إليَّ كيساً مختوماً ذكر أن فيه ألف درهم، وما لبثت أن جاءت إليَّ رقعة صديقي الآخر يسألني ما سألته الهاشميَّ، فأرسلتُ إليه ذلك الكيس بحاله وخرجت إلى المسجد وقضيت الليلة هناك مستحياً من زوجتي.

ولما دخلتُ عليها وأخبرتُها القصة ؛ استحسنتْ ما صدر مني، وإذا أنا بصديقي الهاشمي ومعه ذلك الكيس بحاله، وهو يستفسر مني عنه، فأخبرته الخبر، فقال: عندما جاء إليَّ طلبك، ما كنتُ أملك إلا هذا الكيس، فبعثتُ به إليك، ثم كتبتُ إلى صديقنا أسأله المساعدة، فبعث إليَّ بكيسي هذا، قال: الواقديّ: ثم قسمنا ذلك الألفَ ثلاثًا بعدما أخرجنا للمرأة مائة درهم، ووصل الخبر إلى المأمون، فدعاني، فذكرت له القصة، فأمر لنا بسبعة آلاف دينار، لكل واحد منا ألفا دينار وللمرأة ألف دينار[1].

ولم تحدث هذه الحياة الدينية التي يسود فيها الإيمان والتقوى والإيثار والمحبة والمؤاساة والمناصرة، إلا بفضل جهد العلماء الربانيين والفقهاء والمحدّثين والزهاد والمتنسكين، وقد خصّصنا مقالاً في أمر هؤلاء الذين هم كانوا على الحقيقة قوام الدعوة في هذا العصر، علماً بأن الزهد والتنسك ينبغي أن يكونا موزونَين بميزان الكتاب والسنة، وإذا لم يوزَنا بهما - لا قدَّر الله - ؛ أصابهما الانحراف، وصارا نوعاً من الزهد الذي لا يقبله الإسلام، ولكن نريد أن نستعرض قبل ذلك بعض المشكلات المهمة للدعوة في العصر العباسي الأول، وبعض أساليبها في تلك الأيام، فنتكلم فيها فيما يأتي.

---

(١) مروج الذهب: ٤/ ٣٣-٣٤.

المشكلات التي واجهتها الدعوة
في العصـر العباسـي الأول

استعرضنا فيما سبقَ جانبَي الدولة العباسية في عصرها الأول: جانبها الدعوي، وجانبها الانحرافي عن الدعوة، ونريد أن ننظر - فيما يلي - في المشكلات التي واجهتها الدعوة أثناءَ سيرِها في هذا العصر، ونكتفي باستعراض بعض النواحي المهمة من هذه المشكلات.

فالمشكلة الكبرى التي واجهتها الدعوة الإسلامية في ذلك العصر، هي **انحراف الدولة عن جادتها الدعوية**، فهذا الانحراف - وإن لم يكن تاماً - ؛ فهو الذي أحدث مشكلات أخرى في طريق الدعوة، إذ أن مَثل المجتمع الإسلامي الدعوي مَثل منارة مضيئة الجوانب قائمة في وسط المحيط في الظلام الحالك، وتصدمها أمواج طاغية متواصلة، وتهبُّ من حولها عواصف عنيفة، ومثال الدولة مثالُ محافظِ تلك المنارة.

فعلى المحافظ أن يظل متيقظاً بوعيه الكامل وبمؤهلاته المتنوعة، نظراً إلى دقة موقع المنارة وخطورته؛ إذ كلَّما حدث خرابٌ في داخلها أو خارجها أو أساسها من أجل تلك الصدمات المتوالية أو العواصف العاتية ؛ وجب على المحافظ إصلاحُ ذلك الخراب على الفور، بدون أي كسل أو تهاون[1]، فإن زالت لَبِنة

---

(١) قرأنا في أيام الطفولة قصة عنوانها: " عاقبة التوانى"، حيث كان رجلان يشتغلان في صنع سفينة، فوجد أحدُهما قطعةَ خشب فيها دودة صغيرة، فأراد أن يرميها لكن منعه زميله قائلاً: " إنها خشبة صغيرة لا تضر ببناء السفينة، وفي رميها خسارة علينا "، فامتنع الرجل، وأدخلت الخشبة في السفينة وتم بناؤها وصارت تغدو وتروح في البحار، أما تلك الدودة الصغيرة فولدت - بعد مدة - ديدانًا كثيرة بدأت تأكل الخشب المتجاورة من داخلها، فأصبحت جوفاء، وصادف السفينة مرة طوفان بحري فانخرمت وغرقت =

وضع فوراً مكانها لبنةً أخرى، وإن حدثت ثُلمة رمّمها فوراً بمهارته الفنية، وإذا ترك الخراب بدون إصلاح، والثلمة بدون ترميم، فهل يتصور العقل السليم أن الخراب لا يتعدّى؟ وأن الثلمة لا تتوسع؟، بينما لم تتوقف صدمات الأمواج ولم تهدأ هزات العواصف؟، وهل تبقى المنارة قائمة على قواعدها - في مثل هذه الحالة - إلى مدة طويلة؟.

وما جاء الإسلامُ إلا لتبقَى دعوته إلى يوم القيامة، وقد حدثَ الخرابُ فعلاً، ونودّ أن نشير ههنا - على سبيل المثال - إلى جانبٍ مشرقٍ دعوي للدولة العباسية في عصرها الأول، ألا وهو تطبيق الشريعة الإسلامية على النحو الذي كان، وكان نظام القضاء مظهَراً من مظاهره، فتأثر هذا النظام بشؤم تلك الانحرافات التي أشرنا إليها فيما سبق، فسبّبت - ولو بطريق غير مباشر - تسرُّبَ الفساد في هذه الناحية المشرقة للدولة العباسية.

فذكر الكندي[1] قصةً تدل على دخول الرشوة في نظام القضاء، قيل: إن قاضي مصر إبراهيم بن الجرّاح كان له ابنٌ يقال له إسحاق، فأخذ من رجلٍ اسمه معاوية الأسواني ألف دينار على أن يحمل أباه إبراهيم القاضي تولية معاوية المذكور علىَ مسائل الشهود، ولو أنّ أمرَ إسحاق افتضح ونال جزاء جريمته فسجن، ولكن - كما نرى - لم يتسرب هذا المرض في هذا النظام المثالي إلا من أجل شؤم تلك الانحرافات.

وكذلك تأثرت بها الشهادة التي لها مكانة احترام وتقدير في نظام القضاء، وقد أكّد اللهُ سبحانه وتعالى بعدم كتمانها فقال: ﴿ وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ﴾[2]، فجعلها بعض الناس في تلك الأيام صناعةً

= بما فيها من الأنفس والأموال، وفي هذه القصة عبرة لأولي الأبصار.

(١) الولاة والقضاة بمصر: ص٤٢٨.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٨٣.

يرتزقون منها. وإليكم ما ذكره ابن خلّكـان ضمن ترجمة الإمام أبي يوسف رحمه الله قـال[1]: «إن الرشيد قال لأبي يوسف: بلغني أنك تقول: إن هؤلاء الذين يشهدون عندك وتُقبل أقوالهم، مُتصنِّعة؟، قال: نعم يا أمير المؤمنين، قال: وكيف ذاك؟، قال: لأن مَن صحّ سِتره وخلصت أمانته لم يعرفنا ولم نعرفه، ومَن ظهر أمره وانكشف خبرُه لم يأتنا ولم نقبله، وبقيت هذه الطبقة وهم هؤلاء المتصنعة الذين أظهروا الستر وأبطنوا غيره. فتبسم الرشيد وقال: صدقتَ».

فمن شؤم تلك الانحرافات التي لم تكترث الدولة بإصلاحها، أن بدأ الخراب يتسرب في النواحي التي كانت صالحة وسليمة، ولا ينبغي أن نتعجب من ذلك؛ فإن سريان الفساد إذا تُرك بدون إصلاح ؛ فهذا أمر طبيعي، أدّى إلى الدمار. وإلى هذه الحقيقة يشير شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في كلامه عن عصره: «وهذه الأمور[2] مما تعظُم بها المحنة على المؤمنين؛ فإنهم يحتاجون إلى شيئين: إلى دفع الفتنة التي ابتُلي بها نظراؤهم من فتنة الدين والدنيا عن نفوسهم، مع قيام المقتضى لهـا، فإن معهم نفوساً وشياطين كما مع غيرهم، فمع وجود ذلك من نظرائهم يقوى المقتضي عندهم، كما هو الواقع، فيقوى الداعي الذي في نفس الإنسان وشيطانه، وما يحصل من الداعي بفعل الغير والنظير، فكم ممن لم يُرِدْ خيراً ولا شراً حتى رأى غيره - لا سيما إن كان نظيره - يفعله ؛ ففعله، فإن

---

(١) وفيات الأعيان: ٢/ ٤٠٥.

(٢) ذكر شيخ الإسلام رحمه الله قبل ذلك ثلاثة أقسام من الناس:

الأول: المتبعون شهواتهم وأهواءَهم، والثاني: الصالحون المخلصون لله، والثالث: المتوسطون تارة يميلون إلى الأهواء وتارة إلى الصلاح، وقال: كثر هذا القسم الثالث في آخر خلافة عثمان وعليّ - رضي الله عنهما - فنشأت الفتن. الحسبة في الإسلام: ص٨٢-٨٣.

الناس كأسراب[1] القطا، مجبولون على تشبه بعضهم ببعض».

فالمشكلة الكبرى التي واجهتها الدعوة الإسلامية في العصر العباسي الأول هي: انحراف الدولة عن الجادة الدعوية، وعدم اعتنائها بإصلاح المفاسد التي بدأت تأكل ما جاورَها من الأشياء السليمة، وطبعاً جرّت هذه المشكلة مآسي عديدة على العالم الإسلامي في العصور التي تلت العصرَ العباسي الأول، ولم تستطع الدول التي جاءت بعدَها - باستثناء بعض منها - أن تتغلب على تلك المشكلات الدعوية التي سببتْ لها هذه المشكلة الرئيسية، وانتهز أعداؤنا هذه الفرصة الذهبية وفعلوا ما فعلوا بنا، وقد تألم به - ولم يزل يتألم - رجال الدعوة الإسلامية المخلصون في كل زمان ومكان.

ولا بأس لو ذكرنا بهذه المناسبة ما كتبه الداعية الشيخ محمد الغزالي رحمه الله في كتابه الذي صدر باسم: «دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين»، فيقول[2]: «الاستعمار العالمي اكتسحَ بتفوقه المدني والعسكري كل شبر من أرض الإسلام، وحاول أن يغيِّرَ معالَمها جملةً وتفصيلاً لمصلحته الخاصة، ولكنه كان قد دخل عالَماً إسلامياً استشرى فيه الفساد العام في كل مرافق الحياة، ولهذا الوضع الحاضر سوابقُ في التاريخ الإسلامي، فدولةُ الخلافة العباسية لم يُسقطها التتار، ولكن أسقطها خلفاء كانت قصورهم مترعة بالمآثم والملذات الحرام، والأندلس لم يُسقِطها الفرنجة، ولكن أسقطها المترفون الناعمون وملوك الطوائف... بل نحن الذين فرطنا في ديننا وأسأنا إليه بالإهمال والتأويل الفاسد والتطبيق الغبي».

---

(١) أسراب: جمع سِرْب بكسر الأول وسكون الثاني: القطيع من النساء والطير والظباء والبقر والحمر والشاة. لسان العرب: ١/ ٤٦٣.

القطا: طائر معروف ثقيل في مشيه، يصوّت: " قطا قطا ". لسان العرب: ١٥/ ١٨٩.

(٢) انظر: مجلة (الأمة) الصادرة من الدوحة (قطر): ص٦٦، العدد الأول، السنة الثانية: محرم ١٤٠٢هـ.

والمشكلة الثانية التي واجهتها الدعوة الإسلامية هي: وجود مذاهب مختلفة، فكرية وكلامية، نشأ بعضها من دسّ أعداء الإسلام: كالسبئية[1] والشيعة[2]، ونشأ بعضها من أجل الاعوجاج الفكري كالخوارج[3]، كما حدث بعضها من جرّاء الاحتكاك بالأمم الأخرى وترجمة ثقافتها وعلومها ترجمةً لم تُنظَّم كما كان من الواجب أن تنظم؛ كالمعتزلة[4]

---

(١) السبئية القائلون بألوهية عليّ بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه وبدأ بهذا القول عبد الله بن سبأ اليهودي وأتباعه، فأحرق عليّ رضي الله عنه قوماً منهم، ونفى ابنَ سبأ إلى ساباط المدائن. الفرق بين الفرق: ص٢١و٢٣٣-٢٣٦.

(٢) الشيعة: الذين شايعوا عليا رضي الله تعالى عنه على الخصوص وقالوا بإمامته وخلافته نصا ووصيةً، إما جليًا وإما خفيًا، واعتقدوا أن الإمامة لا تخرج من أولاده، وإن خرجت فبظلمٍ يكون من غيره، أو بتقيةٍ من عنده، وقالوا: ليست الإمامة قضية مصلحية، بل قضية أصولية، وهي ركن الدين، ولا يجوز للرسل عليهم السلام إغفاله وإهماله، ولا تفويضه إلى العامة وإرساله، وللشيعة فِرَق عديدة. والعقائد التي تجمع فرق الشيعة: هي القول بوجوب التعيين والتنصيص، وثبوت عصمة الأنبياء والأئمة وجوباً عن الصغائر والكبائر، والقول بالتولي والتبرئ قولاً وفعلاً وعقداً إلاّ في حال التقيّة، ويخالفهم بعض الزيدية فقط. الملل والنحل: ١/ ١٣١، وما بعدها.

(٣) الخوارج: كل من خرج على الإمام الحق الذي اتفقت الجماعة عليه يسمى خارجياً، سواء كان الخروج في أيام الصحابة على الأئمة الراشدين، أو كان بعدهم على التابعين بإحسان، وللخوارج فرق عديدة، والعقائد التي تجمعها هي: التبرئ من عثمان وعليّ، ويقدمون ذلك على كل طاعة، ولا يصححون المناكحات إلا على ذلك، ويكفِّرون أصحاب الكبائر، ويرون الخروج على الإمام إذا خالف السنة حقًا واجباً. الملل والنحل: ١/ ١٠٥ وما بعدها.

(٤) المعتزلة: القائلون في القدر وفي المنزلة بين المنزلتين، بدأ بهذا القول واصلُ بن عطاء وعمرو بن عبيد، كانا يجلسان في مجلس الإمام الحسن البصري رحمه الله، [ثم اعتزلا مجلسه] إلى ساريةٍ من سواري مسجد البصرة، فقيل لهما ولأتباعهما: (معتزلةٌ) [لهذا]=

والمرجئة[1] والجهمية[2] وغيرها، وجعلت هذه الفرق تحاول التدخل في حياة عامة المسلمين، كما أصبحت توجد عقبات في طريق الدعوة، وقد اقتضت - هي بجدٍّ ذاتها - أن يشتغل الدعاة بمقاومتها والرد عليها، وقد تضاعفت قوةُ اثنين منها خلال العصر العباسي الأول، وهما: الشيعة، والمعتزلة.

وقد قلنا فيما سبق: إن فكرةَ الدعوة العباسية هي تطور فكرة الإمامة عند الشيعة، والخلفاء العباسيون استغلوا هذه الفكرة - قبل إقامة دولتهم - لتدعيم سطوتهم وإشاعة قداستهم فقط، أما الأفكار الباطلة للشيعة فلم تحتل مكانةً عندهم، ولم نجدهم يروّجون لها كمذهب شرعي للدولة، غير المأمون، فإننا وجدناه يعلن تفضيل علي ﷺ على الخلفاء الثلاثة الراشدين، بل هو يدين بأن علياً رضي الله تعالى عنه أفضل خلق الله بعد النبي ﷺ، ويناظر العلماء والفقهاء في هذه المسألة، ويقيم على زعمه الباطل دلائل مستنداً إلى الآيات القرآنية

= ولاعتزالهم قول الأمة في دعواها أن الفاسق من أمة الإسلام لا مؤمن ولا كافر، وللمعتزلة ثنتان وعشرون فرقة، كل فرقة منها تكفِّر سائرَها. الفرق بين الفرق: ص٢٠-٢١و٢٤ ؛ والملل والنحل: ١/ ٤٩ وما بعدها.

(١) المرجئة: القائلون بتأخير العمل عن النية والعقد، فيؤخرون حكم أصحاب الكبيرة إلى يوم القيامة، فلا يقضى عليه بحكم ما في الدنيا، عن كونه من أهل الجنة أو من أهل النار، كما يقولون: لا تضرُّ مع الإيمان معصية، ولا تنفع مع الكفر طاعة، وللمرجئة فرق عديدة. الملل والنحل: ١/ ١٢٥ وما بعدها.

(٢) الجهمية: أصحاب جهم بن صفوان، ظهرت بدعته بترمذ، ينفون الصفات الأزلية لله سبحانه وتعالى، ويثبتون له علوماً حادثة، فيقولون لا يجوز أن يعلم الشيء قبل خلقه؛ لأنه لو علم ثم خلق، أفبقي علمُه على ما كان أم لم يبقَ؟؟ فإن بقي فهو جهل، فإن العلم بأن سيوجد غير العلم بأن قد وجد، وإن لم يبق فقد تغير والمتغير مخلوق ليس بقديم، وما عدا ذلك هفوات فلسفية. الملل والنحل: ١/ ٧٩-٨١.

والأحاديث النبوية[1]، كما أنه أعلن براءة الذمة من كل من ذكر معاوية ﷺ بخير أو فضّله على أحد من أصحاب رسول الله ﷺ[2].

وكذلك احتلت المعتزلة مكانةً مرموقةً في بلاط المأمون، وقبل ذلك لم ينجحوا في أن يستمدوا القوة من السلطة الحاكمة لنشر ضلالهم، بل وجدنا الرشيد قد قتل القائل بخلق القرآن تقرباً إلى الله، وعاقب مَن يُبغِض الشيخين[3].

ولكن المعتزلة بلغت ذروة مجدها وسيطرتها في عهد المأمون والمعتصم والواثق؛ إذ أن أمثال ثمامة[4] بن أشرس وبشر[5] بن غياث المريسي وأحمد بن أبي داود من زعماء المعتزلة نالوا شرفاً وكرامة في بلاط المأمون[6]، وكان أحمد بن أبي داود من أقوى شخصيات المعتزلة التي تأثر بها الخلفاء، المأمون المعتصم والواثق، حتى أن المأمون أوصَى أخاه المعتصم أن لا يزال يستشير أحمد ابن أبي داود في مهمات أموره[7]، فأصبحَ مِمَّن غلبَ على المعتصم رأياً

---

(١) اقرأ القصة بتمامها في العقد الفريد: ٥/ ٩٧-١٠٠.

(٢) مروج الذهب: ٤/ ٤٠-٤١.

(٣) البداية والنهاية: ١٠/ ٢١، ٥٠.

(٤) هو أبو معن ثمامة بن أشرس النميري البصري، كان ممن سعى في قتل المحدّث أحمد بن نصر الخزاعي، قال الذهبي فيه: هو من كبار المعتزلة ومن رؤوس الضلالة، وكان له اتصال بالرشيد والمأمون، مات سنة ثلاث عشرة ومائتين. ميزان الاعتدال: ١/ ٣٧٢ ؛ ولسان الميزان: ٢/ ٨٣-٨٤.

(٥) هو أبو عبد الرحمن بن بشر بن غياث بن أبي كريمة عبد الرحمن المريسي المعدوي بالولاء، قال الذهبي فيه: مبتدع ضال، تفقه على أبي يوسف فبرع ثم جر القول بخلق القرآن، كان أبوه يهودياً قصّاباً صباغاً، مات سنة ثماني عشرة ومائتين. ميزان الاعتدال: ١/ ٣٢٢،٣٢٣ ؛ والبداية والنهاية: ١٠/ ٢٨١.

(٦) تاريخ بغداد: ٤/ ١٤٢ ؛ ومروج الذهب: ٤/ ٨ ؛ والبداية والنهاية: ١٠/ ٢١٨.

(٧) البداية والنهاية: ١٠/ ٢٨٠.

وفكراً[1] وحاز على منصب قاضي القضاة في عهد المعتصم مكان القاضي يحيى بن أكثم في عهد المأمون، وبقي في منصبه إلى نهاية عهد الواثق[2]، وبنفوذ هؤلاء الزعماء المعتزلة في أوساط الحكم ؛ قويت سيطرتهم، وبذلوا جهدهم ليكون الاعتزال هو التعبير الوحيد عن عقيدة الإسلام والمذهب السائد في الدولة بحيث لا يزاحمه مذهب آخر.

ومسألة خلق القرآن التي أبرزتها المعتزلة كفارق بين الكفر والإيمان في أيام المأمون وغيره ؛ هي أقوى الأدلة على نفوذ المعتزلة في أوساط الحكم، وكان من واجب الدولة العباسية أن تقاوم هذه المذاهب المحدَثة بكل قوة وشدة وأن تستأصلها من جذورها، وأن تُصِرَّ إصراراً جادًّا وشديداً على أفراد المجتمع الإسلامي أن يرفضوا كل فكر محدَث لا صلة له بالمنبعَين الأصليين للإسلام، ألا وهما: كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، إذ أن التمسّك بهما والعَضّ عليهما بالنواجذ هو الذي يضمن سلامة الوحدة العقدية التي هي دعامة رئيسة من دعائم المجتمع الإسلامي الدعوي، وهي التي تبعث الروح والحيوية في دعائم أخرى للمجتمع.

كما أن حدوث أي نوع من التفكك - لا قدَّر الله - في هذه الدعامة ؛ يزعزع دعائم المجتمع الأخرى، ومحافظة هذه الدعامة الرئيسة لا تحصل إلا إذا كانت حياةُ المسؤولين الكبار في الدولة طبقَ الكتاب والسنة، وإذا كانت فيهم غَيرةٌ شديدة للحفاظ على القيم الإسلامية الدعوية، ونباهة فائقة[3] يدركون بها أبعاد الخطر المحدِّق بالقيم الدعوية للمجتمع الإسلامي، وقد وجدنا نوعاً من

---

(١) مروج الذهب: ٤/ ٤٧.

(٢) البداية والنهاية: ١٠/ ٣١٩.

(٣) ونريد أن نلفت نظر القارىء إلى قصة صبيغ العراقي، وبصيرة الفاروق رضي الله عنه فيه، وقد ذكرناها سلفاً.

الضعف من هذه الناحية في خلفاء بني العباس، فقد رأينا أبا جعفر المنصور يوقّر عمرو بن عبيد، شيخ المعتزلة ومفتيها، ويكرِمُه إكراماً بالغاً من أجل استغنائه عن طلب المال من الحكّام[1]، لا شكٌ أن هذا الوصف يستحق التقدير، كما أن عقائدَ ذلك الرجل الفاسدة كانت تستحق التعزير، وبما أن الدولة الدعوية حريصة على الحفاظ على الوحدة العقدية ؛ كان المفروض للمنصور أن يرجّح كفة التعزير.

وكذلك إذا وجدنا المهدي شديداً في أمر الزنادقة ؛ وجدناه متساهلاً في أمر المبتدعة ووَضّاعي الحديث، فيدخل عليه رجلٌ ويضع حديثاً فيه ذِكر سماح السباق بين الحمام، وذلك لأن المهدي كان مولَعاً بلعب الحمام، فيعطيه عشرة آلاف درهم، مع علمه أنه كذّاب وَضّاع الحديث، وهكذا وجد ذلك المبتدع الوضّاع الجائزة بدل التعزير والتأديب[2]، وأما المأمون والمعتصم والواثق، فقد اكتسحهم سيل مسألة خلق القرآن.

ولقد جرّت هذه الناحية الضعيفة في خلفاء بني العباس على المجتمع الإسلامي مأساةَ تفكك الوحدة العقدية، وأثمرت الفرق الباطلة ثمارَها، وباضت وأفرخت، وهكذا حدثت عقبات في طريق الدعوة، فأصبحت تستعمل مؤهلات بعض أصحاب السلطة في نشر ضلال هذه الفرق الباطلة، كما أن مواهب العلماء الربّانيين بدأت تُصرَف في مقاومة ما جاءت به هذه الفرق وخصوصاً ما جاءت به المعتزلة أيام المأمون وبعدَها من الأفكار الفاسدة، وذهب بعضٌ[3] من العلماء ضحيةَ هذه المحنة.

---

(١) مروج الذهب: ٣/ ٣١٣-٣١٤ ؛ والبداية والنهاية: ١٠/ ١٢٤.

(٢) البداية والنهاية: ١٠/ ١٥٣.

(٣) هو العالم الرباني أحمد بن نصر بن مالك بن الهيثم الخزاعي، رحمه الله، قتله الواثق لرفضه عقيدة خلق القرآن. اقرأ قصته في البداية والنهاية: ١٠/ ٣٠٣-٣٠٦.

وباحتكاك هذه المذاهب[١] الباطلة بمبادىء الدين الحنيف وبأصول أهل السنة والجماعة ؛ استغلت الفرصة جماعةُ الزنادقة، وبدءوا ينشرون إلحادهم وخلاعتهم ومجونـَهم في بعض بيئات المجتمع الإسلامي آنذاك، ولو لم تحدث هذه العقبات، وبذل الخلفاءُ في حماية الدعوة ما بذلوا من نشاطهم في ترويج أفكار المعتزلة ؛ لعادت الدولةُ إلى منهجها الدعَوِيّ عَوْداً يُذكر ويُشكر.

المشكلة الثالثة، التي واجهتها الدعوة في العصر العباسي الأول هي: عدم تبنّي الدولة إياها في الخارج - وإن حمتها في الداخل على نحو ما -، ويعود سببها إلى نواحي الضعف التي حدثت في الكيان الإسلامي آنذاك، إذ أن توجيه الدعوة إلى الخارج ينبني - غالباً - على كون الكيان الإسلامي كياناً دعوياً خالصاً، وبذلك تستطيع الدولة أن توجّه دعوتها إلى الخارج وتدعو الأممَ المجاورة إلى الخير الذي تستفيد منه.

إن الدولة العباسية في عصرها الأول اشتغلت في بداية أمرها بتدعيم سطوتها وتوجيه قوتها إلى إخماد الثورات الداخلية، وبعدما استقرّ أمرها نجد الصوائف والشواتي نحو الروم والهجمات عليها، ويقود تلك الصوائف والشواتي - في غالب الأحيان - بعض القوّاد، وقد يقودها الخلفاء، كما قاد المهدي بنفسه الجيش في سنة ثلاث وستين ومائة، ثم قاد الرشيد بنفسه قبل أن يلي الخلافة وبعدهَا[٢]، وتوقفَ هذا الجهاد من سنة إحدى وتسعين ومائة إلى سنة خمس

---

(١) مما يدل على كثرة الفرق في العصر العباسي الأول، أن رجلاً من خراسان كان نصرانياً فأسلم ثم ارتدّ، فأمرَ المأمونُ به، فحُمل إلى بغداد، فسأله: " ما الذي أوحشك من الإسلام؟ " فقال المرتد: " أوحشني ما رأيتُ من كثرة الاختلاف في دينكم "، فجعل المأمون يجلو له حقيقة اختلاف هذه الأمة وأنه ليس على النحو الذي فهم... حتى عاود الإسلام وخرّ المأمون ساجداً. بغداد في تاريخ الخلافة العباسية: ص٣٢-٣٣.

(٢) تاريخ الرسل والملوك: ٨/ ١٤٤-٣١٠.

عشرة ومائتين، حوالي خمس وعشرين سنة[1]، ثم بدأ المأمون الجهاد في سنة خمس عشرة ومائتين[2]، كما غزا المعتصم الروم وفتح العَمّورية في سنة ثلاث وعشرين ومائتين[3].

وهذه الصوائف والشواتي كانت تهدف إلى حماية الحدود والثغور، وإلى تأديب المعتدين من الروم، أكثر ممّا تهدف إلى الفتح ونشر الدعوة الإسلامية، ومِن ثمَّ لم نجد في ذِكر هذه الصوائف والشواتي ما يوضّح لنا اهتمامها بتبليغ الدعوة ونشرها بحيث توجَّه أولاً دعوةُ الإسلام إلى الذين خرج المسلمون لغزوهم ثم يتمّ تخييرهم بين دفع الجزية ومقاومة سيوف المسلمين، كما كانت هذه مميزة الدعوة الإسلامية في العهد النبوي والراشدي [وبعض أيام الدولة الأموية].

فما وجدنا في ذكر هذه الصوائف غيرَ ذكرِ مجيء خلق كثير من الأسارى في داخل الدولة، إلا في الغزوة التي قام بها المأمون في سنة سبع عشرة ومائتين وكتب إلى ملك الروم يدعوه إلى الإسلام[4]، وإلى سائر حصون الروم يدعوهم إلى الإسلام ويخيّرهم بين الإسلام والجزية والسيف[5]، ومن جهة أخرى، لم نَرَ في أعقاب هذه الصوائف والشواتي أن عدداً كبيراً من غير المسلمين دخلوا في الإسلام بعد الهدنة التي قامت بين الدولتين.

ودخول غير المسلمين في الإسلام من أهم مقتضيات الهدنة القائمة بين الدولة الإسلامية ودول غير المسلمين، كما حدث ذلك بعد صلح الحُديبية في العهد

---

(١) البداية والنهاية: ١٠/ ٢٠٦.

(٢) تاريخ الرسل والملوك: ٨/ ٦٢٣-٦٢٥.

(٣) تاريخ الرسل والملوك: ٩/ ٥٥ وما بعدها.

(٤) البداية والنهاية: ١٠/ ٢٧١-٢٧٢.

(٥) مروج الذهب: ٤/ ٤٢.

النبوي، وبعد استيلاء المسلمين - عنوةً أو صلحاً - على بلاد الشام ومصر وفارس في العهد الراشدي، ونرى أن سببَ ذلك ضعف تلك الفعالية الدعوية التي كانت موفورةً في الدولة الإسلامية في العهد النبوي والراشدي.

ويبدو أن الجهاد - وإن كان قائماً في العصر العباسي الأول - ولكن روحه الدعوية أصبحت ضئيلةً جـداً، ومن أجل ذلك لم يأتِ بالنتائج التي كانت تقتضيها الدعوة الإسلامية، وهذا الأمر - في الحقيقة - أصبح مشكلةً كبيرةً في طريـق الدعوة.

[هكذا نكون قد] ذكرنا فيما سبق مشكلات رئيسة ثلاثة واجهتها الدعوة الإسلامية في العصر العباسي الأول، وكفانا هذا عن ذكر المشكلات المتنوعة التي تتفرع عن هذه الثلاثة الرئيسة، والدعوة الإسلامية - رغم كثرة المشكلات والعقبات في طريقها - في العصر العباسي الأول، كانت تعمل عملها في الأمة الإسلامية بأساليب مختلفة [ودرجات متفاوتة في التأثير]، نذكر بعضاً منها في الصفحات الآتية.

بعض أساليب الدعوة في العصر العباسي الأول

إن الدعوة هي وظيفة الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، وانتقلت هذه الوظيفة العظيمة إلى أمة محمد ﷺ إكراماً لها من الله تعالى، حيث قال سبحانه: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[1].

فإنْ حملتها دولةٌ من دول المسلمين ؛ فقد أدّت واجبها الجوهري، ولم تَمُنّ على الدعوة شيئاً، بل هي كسبت بذلك لنفسها خيراً، وإن قصّرت أي دولة إسلامية في حمل لواء الدعوة ؛ فهي مسؤولة عن تقصيرها مسؤوليةَ مَن تخلّى عن أداء مهمته الأصلية، وتبقى الدعوة ماضيةً في سبيلها حسب ظروفها المواتيـة.

فالدولة العباسية في عصرها الأول، وإن قصّرت في أداء واجبها نحو الدعوة الإسلامية، فالدعوة كانت جاريةً بأساليبها المختلفة [غير الرسمية]، ونذكر منها ما يلي:

(أ) مجالس المحدّثين:

نال حديثُ رسول الله ﷺ في العصر العباسي الأول رواجاً عاماً وتقديراً بالغاً من الجمهور، وقيّض الله سبحانه وتعالى لخدمة علم الحديث أفواجاً من العلماء كانوا يمتازون بعُلوّ هِمّـتهم وطموحهم، وبشدة نشاطهم وقوة احتمالهم وصبرهم وحِدّة ذاكرتهم وقوة حفظهم، وأصبح العالم الإسلامي آنذاك مجالاً فسيحاً لتجوّل طلبة علم الحديث من الشرق إلى الغرب ومن الشمال إلى الجنوب. وما أسعدَ هذه الرحلات العلمية المباركة وما أبهجها! إذ أنها لم تكن مجرّد رحلات علمية، بل كانت تفوح منها روائح زكية للدعوة الإسلامية في أرجاء العالم الإسلامي.

---

(١) سورة يوسف، الآية: ١٠٨.

ووُرود طالبٍ مِن طلبة الحديث أو عالمٍ مِن علمائه في بلد من بلدان العالم الإسلامي يصبح سبباً لارتواء القلوب النابضة وأصحاب المشاعر الدقيقة في حقل الدعوة الإسلامية. ومن أجل ذلك لم تُزَل مجالس علم الحديث زاخرةً بأفواج من المستمعين للحديث والمصغين إليه، وكان الناس يتهافتون على سماع الحديث وحضور دروسه تهافت الفراش على النور، وإذا جاء محدِّثٌ جليلٌ في البلد ؛ يتنافس الناس لأخذ الحديث عنه، ويحضرون في حلقة درسه في عددٍ يستغربه العقل، فممّا حكاه الذهبي في تذكرة الحفاظ(١) أنّ مجلس يزيد(٢) بن هارون ببغداد كان يحضره سبعون ألفاً، وقُدِّر المستمعون في مجلس سليمان(٣) بن حرب فكانوا أربعين ألفاً، بُني له شبهُ منبر بجنب قصر المأمون فصعده، وحضر المأمون والأمراء فأرسل للمأمون ستر شفاف وبقي يكتب ما يُملي(٤)، وكذلك كان مجلس عاصم(٥) بن عليّ المحدث، كان عدد الحاضرين في مجلسه يقدّر بأكثر

---

(١) ١/ ٣١٨.

(٢) هو الحافظ يزيد بن هارون بن زاذى، ولد سنة ثماني عشرة ومائة، ومات في سنة ست ومائتين، قال ابن المديني: ما رأيت أحفظ من يزيد بن هارون، وقال عاصم بن علي: كان يزيد يقوم الليل ويصلي بوضوء العتمة، وقال علي بن شعيب: سمعت يزيد يقول: أحفظ أربعة وعشرين ألف حديث بالإسناد ولا فخر، وقال العجلي: يزيد ثقة، ثبتٌ، متعبد. تذكرة الحفاظ: ١/ ٣١٧-٣٢٠.

(٣) هو أبو يوسف سليمان بن حرب الواشحي، قاضي مكة، ثقة، حافظ للحديث، سمع عنه البخاري وأبو داود وأحمد بن حنبل، مات سنة أربع وعشرين ومائتين. تذكرة الحفاظ: ١/ ٣٩٣.

(٤) تذكرة الحفاظ: ١/ ٣٩٣.

(٥) هو عاصم بن علي بن عاصم بن صهيب، الحافظ الإمام الثقة، روى عنه البخاري وأحمد بن حنبل وخلق كثير، كان ممن ذبّ عن السنة في محنة خلق القرآن، توفي في رجب سنة إحدى وعشرين ومائتين. تذكرة الحفاظ: ١/ ٣٩٧.

من مائة ألف إنسان.

وروي أنه وجّه المعتصم مَن يقدّر عدد الحاضرين في مجلس الإمام عاصم بن عليّ، وكان يجلس على سطح وتنتشر الخلق، قال الراوي: حتى سمعته يوماً يقول: «حدثنا الليث بن سعد، وهم يستعيدونه، فأعاد أربع عشرة مرة والناس لا يسمعون، وكان هارون - الذي يستملي عليه - يركب نخلة معوجة يستملي عليها، فقدّر المجلس بعشرين ومائة ألف شخص[1].

وأغربُ من العدد ذلك الوقار والسكينة والهدوء الذي كان يغشى هذه المجالس، فكان الناس منصتين هادئين كأنّ على رءوسهم الطير، وذلك لتقدير الجمهور مِن صميم فؤادهم منزلة حديث رسول الله ﷺ وتبجيلهم أصحاب هذا العلم العظيم.

وفي جانبٍ آخر نجد زيادة الاهتمام والعناية بالسنة النبوية من الخلفاء ومن رجالات الدولة أيضاً في العصر العباسي الأول، فقد ذكر السيوطي رحمه الله أنّ المنصور كان أعلمَ الناس بالحديث والأنساب، منشهوراً بطلبه[2]، وسُئل المنصور مرةً - وهو صاحب العِزّ والجاه والسلطان -: هل بقي من لذّات الدنيا شيء لم تنلْه؟، قال: نعم بقيت خصلة هي: أن أقعد في مصطبة[3] وحولي أصحاب الحديث، فغدا عليه الندماء والوزراء بالمحابر والدفاتر، يريدون أن يهيئوا له هذه الخصلة، فقال لهم: لستُم بهم، إنما هُم الدَّنِسة ثيابهم، المشقَّقة أرجلهم، الطويلة شعورهم، بُرد الآفاق، ونقلة الحديث[4].

وقد ذكرنا فيما مضى اهتمام الرشيد بسماع الحديث من أبي معاوية الضرير

---

(١) تذكرة الحفاظ: ١/ ٣٩٧

(٢) تاريخ الخلفاء: ص٢٧٠.

(٣) مكان ممهد قليل الارتفاع عن الأرض، يجُلس عليه.

(٤) تاريخ الخلفاء: ص٢٦٦-٢٦٧.

وغضبه الشديد على عَمّه الذي طعن في الحديث[1]، وكان الرشيد يأنس إلى رجال الحديث ويُحبّهم ويستمع إليهم، فقيل: إنه أول ملِك رحَل في طلب علم الحديث، فإنه رحَل بولدَيه الأمين والمأمون لسماع الموطأ على الإمام مالك بن أنس رحمه الله[2]، وروى عنه الإمام الشافعي وأبو يوسف[3] رحمهما الله.

على كلٍ، إن هذا الإقبال العظيم على مجالس علم الحديث في العصر العباسي الأول، أثبتَ بكل صراحةٍ ووضوحٍ أن الجمهور رفضوا أفكار الفِرق الباطلة، ولم يقبلوا أيَّ تأويل أو تحريف لكتاب الله مهما كان ذلك التأويل يتجاوب والعقل البشري غير المهتدي بهدي الكتاب والسنة التي هي بيانُ رسولِ الله ﷺ كتابَ ربه.

ومن المعلوم أن جهابذة علماء السنة قد صانوها، وكانوا يدققونها بقوة ذاكرتهم النادرة واستحضارهم العلمي المدهش، كما كانوا يُصَفّونها بغِربال الجَرح والتعديل ومصطلحاتهم العلمية، وهكذا كانت الدعوة الإسلامية تشق طريقها بهذا الأسلوب الجذاب البديع في أوساط المسلمين.

(ب) مجالس الفقهاء:

إن الدعوة الإسلامية تُعنى بجَسّ نبضات العصر وتطوُّرِه، وبمعالجة ما يثيره ويجدِّده مرور الأيام والليالي من المسائل والحوادث، فإذا كانت الدعوة تخدم المجتمعَ الإسلامي بتوفير البيان الأصيل لكتاب الله تعالى وتصفية المنبع الثاني للشريعة الإسلامية - ألا وهي السنة المطهرة - ؛ فهي تهتمّ من جهة أخرى بمعالجة ما كان يواجهه المجتمع الإسلامي في ذلك العصر من المسائل الحديثة والوقائع المستجدّة بسبب اتساع رقعة الدولة الإسلامية وانشعاب الحياة الاجتماعية

---

(١) البداية والنهاية: ١٠/ ١٢٥.

(٢) تاريخ الخلفاء: ص٢٩٤.

(٣) شذرات الذهب: ١/ ٣٣٦.

واحتكاك الحضارات المختلفة والثقافات المتنوعة وتعقّد نظام التجارة والإدارة.

فقيّض الله سبحانه وتعالى لهذه المهمة الجليلة رجالاً عباقرة، يتّصفون بالتفقه والكفاءة والإخلاص والأمانة، وهم: فقهاء الأمة الإسلامية، قد وهبهم الله تعالى قوةً عقليةً نادرةً لإدراك الحقائق واستنباط المسائل واستخراج الأحكام، فبدءوا يحلّلون ما يطرأ على المجتمع الإسلامي من المسائل والحوادث بكفاءتهم النادرة التي أشرنا إليها واطلاعهم الواسع على مقتضيات المجتمع العصري الذي كان المسلمون يعيشون فيه.

فكان مجتمع العراق ومجتمع ما وراء النهر، يَنعَمان بفقه الإمام العظيم أبي حنيفة رحمه الله؛ إذ حاز صاحبه القاضي أبو يوسف رحمه الله منصِب قاضي القضاة في عهد الرشيد، كما كان مجتمع الحجاز يُنعَم بفقه الإمام مالك بن أنس رحمه الله، وكانت حلقات درسه قائمةً في مهد الإسلام الأول، ألا وهو المسجد النبوي الشريف، وانتشر فقهه في مصر وشمال إفريقية والأندلس بفضل جهود تلاميذه النوابغ أمثال: عبد الرحمن[(١)] بن قاسم العتقي، وعبد الله[(٢)] بن وهب وأشهب[(٣)] بن عبد العزيز،

---

(١) هو عبد الرحمن بن القاسم بن خالد بن جنادة العتقي المصري، فقيه جمع بين الزهد والعلم، مولده ووفاته بمصر، ولد في سنة اثنتين وثلاثين ومائة، ومات في سنة إحدى وتسعين ومائة، له " المدوَّنة " ستة عشر جزءا، وهي من أجلّ كتب المالكية. الأعلام: ٩٧/٤.

(٢) هو عبد الله بن وهب بن مسلم الفهري بالولاء، فقيهٌ جمع بين الفقه والحديث والعبادة، كان حافظاً ثقةً مجتهدا، عُرض عليه القضاء فخبأ نفسه ولزم منزله، ولد بمصر في سنة خمس وعشرين ومائة، ومات فيها سنة سبع وتسعين ومائة. الأعلام: ٤/ ٢٨٩.

(٣) هو أشهب بن عبد العزيز بن داود القيسي العامري، فقيه الديار المصرية في عصره، قال الشافعي: ما أخرجت مصرُ أفقهَ مِن أشهب، لولا طيشٌ فيه، وُلِدَ في سنة خمس وأربعين ومائة، ومات بمصر في سنة أربع ومائتين. الأعلام: ١/ ٣٣٥.

وعبد الله[1] بن عبد الحكم، ويحيى[2] بن يحيى الليثي.

كما كانت الديار المصرية تتمتع بفيوض الفقيهين العظيمين الإمام ليث بن سعد والإمام محمد بن إدريس الشافعي، وكانت الشام تستنير من فقه الإمام الأوزاعي وسفيان الثوري، كما كانت بغداد تستفيد من فقه الإمام أحمد بن حنبل، رحمهم الله تعالى رحمةً واسعة.

وهكذا هيأت الدعوة الإسلامية بواسطة هؤلاء الفقهاء العباقرة جوًّا تُسهِم من خلاله في المحافظة - ما أمكن - على حياة الأمة الإسلامية في اجتماعها ومعاملاتها واقتصادها، كي لا تضيع ذاتيتُها في خِضَمِّ العصر العباسي الأول الذي سبقَ الكلامُ عن بعض الانحرافات التي ظهرت فيه.

(ج) حلقات الزهاد والنساك:

انبثقت في محيط الدعوة الإسلامية في العصر العباسي الأول جهةٌ ثالثةٌ لمقاومة تيارات الفساد الطاغية، وحازت على هذه الجبهة جماعة الزهاد والنُسّـاك، وهم الذين جعلوا نُصب أعينهم تزكية النفوس وتهذيبها وتحليتَها بالفضائل الشرعية وتخليتَها عن الرذائل النفسية والخُلُقية والتخلّقَ بالأخلاق النبوية واتباع سنة الرسول الكريم ﷺ اتباعاً كاملاً في مظاهر حياتهم، وإحياء لوعاته ﷺ القلبية

---

(١) هو عبد الله بن الحكم بن أعين بن ليث بن رافع من جلة أصحاب مالك، له مصنفات في الفقه وغيره منها: " سيرة عمر بن عبد العزيز"، و" القضاة في البنيان " و " المناسك " و " الأموال "، ولد بالإسكندرية سنة خمسين ومائة، ومات في القاهرة سنة أربع عشرة ومائة. الأعلام: ٤/ ٢٢٩.

(٢) هو يحيى بن أبي عيسى كثير بن رسلاس الليثي بالولاء، عالم الأندلس في عصره، بربري الأصل، سمع الموطأ من مالك، وأخذ عن علماء مكة ومصر، وعاد إلى الأندلس فنشر فيها مذهب مالك، كان لا يولّى قاضٍ في الأندلس إلا باختياره، وُلد بطنجة سنة ١٥٢، وتوفي بقرطبة سنة ٢٣٤. الأعلام: ٩/ ٢٢٣.

وكيفياته الإيمانية في باطنهم، ليصلوا بذلك إلى درجة (الإحسان) الذي عبّر عنه الرسول العظيم ﷺ في حديث جبريل: بـ «أن تعبد اللهَ كأنّكَ تَراهُ، فإن لم تكن تَراهُ فإنه يَراكَ».

وجعل هؤلاء الزهاد مَقصد حياتهم - على اختلاف مذاهبهم من إصابة الحق والبُعد عنه - أن ينفخوا في الأمة روحاً جديدةً من الإيمان والتقوى والتزكية والإحسان، ويجدّدوا صلةَ القلوب بالله والأجسامِ بالأرواح والمجتمعِ بالأخلاق، وأن يوجِدوا في العامة قوةَ مقاومةِ الشهوات وفتنةِ المال والولد وزينةِ الحياة الدنيـا، وفي الخاصة قوةَ مقاومة جوائزِ الملوك وعقوباتهم ووعدِهم ووعيدهم، والجرأة على الجهر بكلمة حَق عند سلطان جائر، والاحتساب على الملوك والأمراء والاستهانة بالمظاهر والزخارف والقناعة بالقليل مما تيسّر.

ولم يكونوا مجرّدين عن العلوم والآداب، بل كان لبعضهم باعٌ طويلٌ في العلوم الإسلامية والآداب المعاصرة، وبذلك استطاعوا أن يتركوا أثراً في توجيه العامة إلى سواء السبيل من ناحية، وفي توجيه بعض الملوك - أحيانا - إلى ما فيه صلاح دينهم ودنياهم من ناحية أخرى، وكان لبعضٍ منهم مواقف مجيدةٌ أمام الخلفاء العباسيين أدّوا فيها حَق النصيحة وحذّروهم من سَخط الله وغضبه ووجّهوهم إلى اجتناب الجَور والمعاصي.

وها نحن نرى أبا جعفر المنصور يطوف بالبيت العتيق ليلاً، وإذا هو يسمع صوتاً يعلو ويشكو إلى ربه عَزّ وجلّ: «اللهم إني أشكو إليك ظهور البَغي والفساد في الأرض وما يحول بين الحق وأهله من الطمَع..»، فيجزَع المنصور ويطلُب الرجلَ، فيجده أحد الزهاد، فيشرح ذلك العابد أمام المنصور جميع جوانب ظلمه وجَوره وغفلته وتساهله، وجَور أمرائه وولاته، ويحذّره سطوةَ الله وينصحه أن يعتبر مما نزل بأعدائه بني أمية، ويبدو من نصائحه أن الرجل لم يكن زاهداً جافاً أو ناسكاً متقشفاً، بل تستوعب لباقته مواضع الضعف والفساد في

الإدارات الحكومية، وله فهمٌ دقيقٌ واطلاعٌ واسعٌ على شئون الدولة[1].

كما نرى صالح[2] المري يأتي إلى المهدي وينصحه بالكلمات التالية: «يا أمير المؤمنين! احمل لله ما أكلّمك به اليوم؛ فإن أولى الناس بالله أحمَلُهم لغِلظة النصيحة فيه، وجديرٌ بمَن له قرابةٌ برسول الله ﷺ أن يرث أخلاقَه ويأتمّ بهَديه، وقد ورّثك الله مِن فَهم العلم وإنارة الحُجة ميراثاً قطع به عُذرَك، فمهما ادعيتَ مِن حُجةٍ أو ركبت من شُبهةٍ ؛ لم يصحّ لك برهانٌ من الله، وحَلّ بك من سخط الله بقدر ما تجاهلته من العلم أو قدَّمتَ عليه من شبهة الباطل، واعلم أن رسول الله ﷺ خصمُ مَن خالفه في أمته ويبتز أحكامها، ومن كان محمدٌ خصمه كان الله خصمه، فأعِدَّ لمخاصمة الله ومخاصمة رسول الله حجَجاً تضمن لك النجاة، أو استسلم للهلكة، واعلم أن أبطأ الصرعى نهضةً صريع يدّعيه إلى الله قربة، وإنّ أثبتَ الناس قدماً يوم القيامة آخَذُهم بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ، فمثلكَ لا يكابر بتجريد المعصية، ولكن تُمثّل له الإساءة إحساناً، ويشهَد له عليها خونةُ العلماء، وبهذه الحبالة تُصيِّدت الدنيا نظراءَكَ، فأحسِن الحَمْل، فقد أحسنتُ إليك الأداء» فبكى المهدي[3].

ونجد في العصر العباسي الأول أساليب أخرى للدعوة الإسلامية غير هذه الأساليب الثلاثة الرئيسية التي ذكرناها آنفاً، ومنها:

---

(١) اقرأ القصة بتمامها في العقد الفريد: ٣/ ١٥٩-١٦١.

(٢) هو أبو بشر صالح بن بشير بن وادع بن أُبَيّ بن أبي الأقعس القاري، المعروف بالمري، من أهـل البصرة، سمع الحسن وابن سيرين وبكر بن عبد الله المزني وغيرهم، كان عبداً صالحاً زاهداً ناسكاً شديد الخوف كثير البكاء، كان قصاصاً، قصصه مليئةٌ بالعبرة والموعظة، مات سنة ست وسبعين ومائـة. تاريخ بغداد: ٩/ ٣٠٥-٣١٠.

(٣) تاريخ بغداد: ٩/ ٣٠٦.

(د) حركة إصلاحية متطوعة:

فسَد حال بغداد في سنة إحدى ومائتين، وكان المأمون آنذاك بخراسان، وضعفت سلطته على بغداد من أجل بُعده وأخذه البيعة لعلي الرضي بولاية العهـد، فثار العباسيون في بغداد وبايعوا إبراهيم بن المهدي، وتهيأت الفرصة للفُساق والمشاغبين في بغداد وما حولها من القرى فبدءوا ينهبون أموال الناس ويتعرضون لأعراضهم، فينهبون الغِلمان والنساء، فقام رجلان من العامة متطوعين لإصلاح هذا الفساد المؤلم، أحدهما رجل يقال له: خالد الدريوش، والثاني رجل من أهل خراسان يقال له: سهل بن سلامة أبو حاتم الأنصاري، واجتمع حولهما جمعٌ من أهل بغداد وما جاورها لدفع تلك المصيبة التي حدثت من نشاط الفساق والمشاغبين، وهكذا تكوّنت جماعتان للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تطوعاً يرأس إحداهما خالد الدريوش والأخرى سهل بن سلامة الأنصاري، فجعلوا يأمرون الناس بالمعروف وينهَونهم عن المنكر، كما يستعملون في بعض الأحيان القوة ضدّ أولئك الفساق والمشاغبين.

أما خالد الدريوش، فبقي على هدفه الوحيد وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولكن سهل بن سلامة الأنصاري جاوز حدّه، فبدأ يتعرض لأصحاب السلطة ويدعو الناس إلى التمسك بالكتاب والسنة ويحرّضهم على قتال من خالفهم كائناً مَن كان من أصحاب السلطة، وكان قد جمع الأسلحة في مقره، فتنبه أصحاب السلطة لأمره، وقبض عليهما إبراهيم بن المهدي في سنة اثنتين ومائتين وسجنهما(١).

وهكذا وإن قامت حركة إصلاحية متطوعة في العصر العباسي الأول، ولكنها [باءت بالفشل أخيراً لسبب واحد هو مزاحمة أحد القائمين عليها أهل

---

(١) تاريخ الرسل والملوك: ٨/ ٥٥١-٥٥٤و٥٦٢-٥٦٤ ؛ والكامل في التاريخ:٦/ ٣٢٤-٣٢٦و٣٤٥-٣٤٦.

السلطة، ولو استمرت بعيدة عن مزاحمة أهل المناصب مع توجيههم بالحكمة والموعظة الحسنة بدلاً من استعمال العنف، لكان كُتب لها النجاح كما كتب لحركات مخلصة قبلها، ولكنّ غباوة الأنصاري تسبّبت في حرمان الناس خير هذه الحركة الإصلاحية].

(هـ) شعر الدعوة الإسلامية.

إن للشعر أثـراً عميقاً في إثارة العواطف والمشاعر، وإنه ربما كان أحدّ من السيف قطعاً وأشـدّ من السحر تأثيراً، ومن الشعر ما أحـدث الأحداث الكبيرة. وهل نستطيع أن ننسى أثر شعر سَديف بن ميمون[1]، خـادم السفاح تحريضه إياه على قتل عدد كبير من أمراء بني أمية في مجلس واحد؟، فلنتساءل: هـل خدم الشعر الدعوة الإسلامية في العصر العباسي الأول؟، والجواب: إن الشعـر لم يخدم الدعوة الإسلامية في ذلك العصر، كما خدمها في العهد النبوي والراشدي، إذ أن المديـح والهجـاء والغـزل والخمريات مثّلت موضوعات الشعر الأساسية بصورة عـامة – قبل الإسلام وبعده [عند العرب] –، ولم تظهر الدعوة كموضوع أساسي للشعر إلا في العهد النبوي ثـم الراشدي.

وبعدما دخـل الانحراف في بعض نواحي الحياة الاجتماعية الإسلامية ؛ دخل – طبيعياً – في الشعر والشعراء، لأن الشعراء أسرع تأثراً بالنسبة إلى غيرهـم، وذلك لحِدة المزاج الشعري الذي لا يخلو من التطرف والمبالغة، ولذا ضُرب المثل: «أعذب الشعر أكذبه»، ويبدو أن الإسلام من أجل ذلك لم يستحسن الشعر الـذي لا يحمل معنىً من معاني الدعوة، ويشير إلى ذلك قولـه تعالى: ﴿ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ

---

(١) العقد الفريد:٤/ ٤٨٥-٤٨٧ ؛ وطبقات الشعراء: ص٣٩-٤٠.

بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾[1].

فلم نجد شاعراً[2] من كبار الشعراء في العهد الأموي والعباسي الأول، اختار الدعوة كموضوعٍ أساسي لشعره[3].

ومن أعلام الشعراء الذين ذاع صيتهم في العصر العباسي الأول، بشار[4] بن بُرْد، وحماد[5] عَجرد، وأبو نواس[6]، وأبو العتاهية[7]،

---

(١) سورة الشعراء، الآيات: ٢٢٤-٢٢٧.

(٢) أردنا بالشاعر - هنا - مَن عُرف كشاعر في المجتمع وغلبت صفته الشعرية على أوصافه الأخرى، فلا يدخل فيه أمثال عبد الله بن المبارك، والشافعي وغيرهما، فهؤلاء يقرضون الشعر شعراً دعوياً، ولم يكونوا معروفين في الناس كشعراء، بل كعلماء وفقهاء.

(٣) إن التوسع في هذا الموضوع ربما يبعدنا عن جوهر الموضوع، فاكتفينا - من أجل ذلك - بهذه الإشارة الدالة.

(٤) هو أبو معاذ بشار بن بُرد العقيلي بالولاء، أفحل شعراء عصره، وُلد أعمى، رُمي بالزندقة، قتله المهدي سنة سبع وستين ومائة. طبقات الشعراء: ص٢١ وما بعدها ؛ وتاريخ بغداد، ٢٧/ ١١٢ وما بعدها.

(٥) هو حماد بن عمر بن يوسف بن كليب الكوفي، شاعر ماجن ظريف زنديق، كان بينه وبين بشار بن برد مهاجاة كثيرة، مات سنة خمس أو ثمان وخمسين أو إحدى وستين. البداية والنهاية: ١٠/ ١١٤ ؛ والأغاني: ١٤/ ٣٢١ وما بعدها).

(٦) **أبو نواس:** هو الحسن بن هانئ بن صباح البصري الحكمي بالولاء، شاعر معروف من أجود شعراء عصره، كان ماجناً ثم تاب وحسنت توبته، مات سنة ثمان وتسعين ومائة. طبقات الشعراء: ص١٩٢ وما بعدها ؛ وتاريخ بغداد: ٧/ ٤٣٦ وما بعدها.

(٧) **أبو العتاهية:** هو أبو إسحاق إسماعيل بن القاسم بن سويد العنزي بالولاء، بائع جِرار، كان شاعراً مكثراً سريع الخاطر، رُمي بالزندقة مع كثرة شعره في الزهد والموعظة، كان يلعب بالشعر ويأخذ كيف يشاء، مات في سنة إحدى عشرة ومائتين. طبقات الشعراء: ص٢٢٧ وما بعدها ؛ وتاريخ بغداد: ٨/ ٢٤٨ وما بعدها.

وأبو تمام[1]، والبحتري[2] وغيرهم، لم نجد أحداً منهم يختار الدعوة الإسلامية موضوعاً أساسياً لشعره[3]، وإن وُجد في شعر بعضهم قصائد أو أبيات ذات صلةٍ بمعنى من معاني الدعوة الإسلامية.

ظهر في أيامنا هذه كتاب عنوانه (شعر الدعوة الإسلامية في العصر العباسي الأول)، نشرته كلية اللغة العربية بجامعة الملك سعود بالرياض، جمع الباحث الفاضل فيه بغاية الدقة والجهد أبياتاً أنشدت في ذلك العصر في معنى من معاني الدعوة الإسلامية، ويبلغ عدد الأبيات نحو ألف وخمسمائة وزيادة، ولو قسّمنا تلك الأبيات على عدد أيام قرن واحد ؛ لكانت النتيجة أن يصيب كل يوم من أيام المسلمين في هذا القرن نحو ٠٤١% من البيت، وإذا حذفنا الأبيات التي أنشدت ضمن مديح الخلفاء والأمراء والتعازي والمراثي ؛ لم يبق إلا شعر يسير في الدعوة، وإذا حذفنا مما بقي من الأبيات، الأبياتَ التي قرضها رجال لم يكونوا من جماعة الشعراء أمثال عبد الله بن المبارك والإمام الشافعي رحمهما الله ؛ خفّت كِفة شعر الدعوة غاية الخفة، وإذا أردنا أن نجمع ما قُرض في ذلك العصر

---

(١) أبو تمّام: هو حبيب بن أوس بن الحارث الطائي، من أشعر الناس في زمانه، شامي الأصل، كان شاعر المعتصم، مات سنة إحدى وثلاثين ومائتين بالموصل. طبقات الشعراء: ص٣٨٢ ؛ وتاريخ بغداد: ٨/ ٢٤٨ وما بعدها.

(٢) البحتري: هو أبو عبادة وليد بن عبيد بن يحيى الطائي البحتري، من كبار شعراء العربية، وكان شعره يمتاز بجودة اللفظ وحسن النغم، وُلد سنة ست ومائتين ومات سنة أربع وثمانين ومائتين. طبقات الشعراء: ص٣٩٣ وما بعدها ؛ وتاريخ بغداد: ٨/ ٢٤٨ وما بعدها.

(٣) نريد بذلك أن الدعوة لم تتملك مشاعره ووجدانه وهي مميزة الشاعر الدعوي الذي لا يقرض شعراً إلا ورائحة الدعوة تفوح من جوانبه، كما كان حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة وغيرهما رضي الله عنهم في العهد النبوي والراشدي، وكما كان الشاعر الدعوي محمد إقبال رحمه الله في عصرنا هذا.

من أشعار الغزل الفاحش أو شعر المجون والخلاعة أو شعر المديح والهجاء ؛ لتراكمت الأكوام.

ولا شك أن الشعر له صلة عميقة بأوضاع المجتمع، ومن أجل ذلك حَكم مَن حَكم بكون المجتمع الإسلامي في العصر العباسي الأول مجتمع خلاعةٍ ومجون[1]، ولكنه أخطأ وبالغ وأسرفَ في المبالغة؛ إذ أن الشعر جزءٌ صغيرٌ من المجتمع، لا المجتمع كله، ولا يطلق على الكل حُكم جزءٍ من أجزائه.

وإن هذه الناحية من نواحي أدب ذلك العصر، لو حَملت روحاً دعويةً ؛ لغيّرت مجرى التاريخ إلى حدٍ ما؛ لأن الشعراء كانت لهم مكانة في الجمهور، وإذا نزل الشاعر من كبار الشعراء في بلد من بلدان العالم الإسلامي آنذاك ؛ كان الناس يُقبلون عليه ويسمعون منه ويكتبون شعره ويعرضون عليه الأشعار[2].

على كلٍ، فإن الشعر خدم الدعوة الإسلامية في العصر العباسي الأول ولو على مستوى ضعيف، وكان المفروض أن يكون مستواه أرفع مما كان وأسمى، ولنا أن نعتبر الشعر أيضاً أسلوباً من أساليب الدعوة في ذلك العصر، ولنورد نماذج صغيرة من الأبيات التي تحمل في ثناياها الدعوة إلى الله:

قال محمود الوراق[3]:

كُـن مع الله يكُـن لَـكَ ... واتَّـقِ اللهَ لَعَـلَّـكَ
لا تكـن إلا مُعـدًّا ... للمنايـا فكـأنَّـكَ
إنَّ للمـوت لـسَـهْـمًا ... واقعـاً دونَـكَ أو بِـكَ

(١) اقرأ لذلك مقالات الدكتور طه حسين في المجلد الثاني من كتابه " حديث الأربعاء ".

(٢) أخبار أبي تمّام: ص٥٩و٦٦.

(٣) هو محمود بن الحسن الوراق، شاعر مكثر، أكثر شعره في الزهد والأدب والأمثال والحكم، وكان نخّاساً، توفي في حدود المائتين والثلاثين. طبقات الشعراء: ص٣٦٦-٣٦٧.

نحـن نجـري في أقانيـــ ـــن سكـــون و نُحـــرُّكْ
فعـــلَى اللهِ تـوكُـــلْ وبـتـــقواه تـمـسُّـكْ[1]

وقال وهو يحرض المخاطب على تكفير ما فات وإعداد ما بقي:

بكيتُ لقرب الأجَـلْ وبُعْــدِ فــواتِ الأمَــلْ
ووافــدِ شيــبٍ طَـرا بعقــبِ شبــابٍ رحَــلْ
شباب كـأن لم يكُـنْ وشيـــبٌ كـان لم يَـزَلْ
طــواك بـشير البقــا وحــلّ بـشيرُ الأجــلْ
طـــوى صـــاحبٌ كذاكَ اختلافُ الـدولْ[2]

وشعر أبي العتاهية:

لعَمــر أبـي! لــو أنـني أتفكّـــر رضيت بما يُقضَى علىَّ و يُقْــدَرْ
توكّلْ على الرحمن في كـل حاجـةٍ أردتَ فـــإنَّ اللهَ يقــضي ويقْـــدِرْ
متى ما يُردْ ذو العـرشِ أمـرًا بعَبـدٍ يـصيرُ، ومـا للعبـد مـــا يتخيَّـــرْ
وقـد يَهلكُ الإنسانُ مِن وجهِ أمـنِ وينجو بإذن اللهِ مِن حيث يحـذر[3]

ولأبي العتاهية أيضاً:

يــا أيهـــا المـرء المـضيِّع دينَـــه إحرازُ دينكَ خيرٌ من شيء تـصطنعْ
واللهُ أرحـمُ بـالفتى مـــن نفسه فاعمَـلْ، فمـا كُلِّــفتَ مـا لم تـستطِعْ
فامهد لنفسكَ صالحًا تُجـزَى بـهِ وانظــر لنفســك أيَّ أمــرٍ تُتّبِــع[4]

وله أيضاً:

أيها المُبصِرُ الـصحيحُ الـسميُـع أنت باللهو والهـوَى مخـدوعُ
كيف يعمَى عن السبيـلِ بـصيرُ عجبـاً ذا أو يستصِمّ سميــعُ

---

(١) البيان والتبيين: ص٤٨٥.
(٢) البيان والتبيين: ص٤٨٤.
(٣) ديوان أبي العتاهية: ص١٧٧.
(٤) ديوان أبي العتاهية: ص٢٥٣.

ما لنا لا نستطيع أن نجمع المـا ... لَ وردَّ الممـات لا نـستطيعُ
حُبّب الأكـلُ والـشربُ إلينــا ... وبنــاءُ القـصـور والتجميـعُ
وصنوفُ اللذاتِ من كل لـونٍ ... والفنا مُقبِـلٌ إلينـا سـريعُ[1]

وله أيضاً:

وإذا تناسبتِ الرجالُ فمـا أرَى ... نَسبًا يُقـاس بصالح الأعمـال
وإذا بحثتَ عن التَقِي وجدتَـه ... رجلاً يُـصدِق قـوله بفعـال
وإذا اتقـى اللهَ امـرؤٌ وأطاعَــهُ ... فهــداه بـين مكـارمٍ ومعـال
للمتقيــن هنــاك نُـزْل كرامــةٍ ... علتِ الوجوهُ بنُـضرةٍ وجمـال
وســوابق غُـرّ محجلـةٍ، جـرت ... خُمْصَ البطونِ خفيفةَ الأثقال
مِن كلّ أشعثَ كان أغبرَ نـاحلا ... خَلْـقِ الـرداءِ مُرقَّـعَ الـسربال
نــزلوا بـأكرم سيــدٍ فأظلَّهــم ... في دار مُلكِ جلالةٍ و ظـلال[2]

ومن شعر العالم الرباني عبد الله بن المبارك رحمه الله هذه الأبيات التي قرضها وهو في معركة الجهاد بطرسوس سنة سبع وسبعين ومائة، ثم بعثها إلى الزاهد الناسك الفضيل بن عياض رحمه الله يخاطبه ويصوِّر أمامه صورةً حية لساحة القتال[3]:

يـا عابـدَ الحـرمَين لـو أبـصَرتَنا ... لعلمـتَ أنـك في العبـادة تلعـبُ
مَن كان يَخضِب[4] جيدَه[5] بدموعِـه ... فنُحورُنـــا بـدِمائنــا تَتَخـضَّـبُ
أو كـــان يُتعِــبُ خيلَــه في باطــلٍ ... فخيولنـا يـومَ الـصبيحةِ[1] تُتعَـبُ

---

(١) ديوان أبي العتاهية: ص٢٥٧.

(٢) ديون أبي العتاهية: ص٣٢٥.

(٣) النجوم الزاهرة: ٢/ ١٠٣-١٠٤.

(٤) يخضب: أي يبلّه بالدموع، هذا من باب الاستعارة. النهاية: ٢/ ٣٩.

(٥) جيد: العُنق، الجمع: أجياد وجيود. لسان العرب: ٣/ ١٣٩.

ريـح العـبير لكـم، و نحـن عبيرُنــا رَهْجُ[2] السنابك[3] والغبارُ الأطيـبُ
ولقــد أتـانــا مِـن مقــال نبيّــنا قــولٌ صـحيحٌ صـادقٌ لا يكـذبُ
لا يـسـتوي غُبــارُ خيــلِ الله في أنـفِ امـرىءٍ ودُخــانُ نــار تلهَــبُ
هــذا كتــابُ الله ينطــق بيننــا ليــس الـشهيـدُ بميّــتٍ لا يكـذبُ

إن الروح الدعوية التي تتجلى في أبيات ابن المبارك، لو تناولتها قرائح أولئك الشعراء الكبار الذين اعتُبر شعرهم نماذج رائعة لجودة اللفظ وحسن المعاني وسحر التأثير، وبه نالوا مكانة مرموقة في أوساط الأدب والبيئات الحاكمة في ذلك العصر ؛ لضجّت جوانب المجتمع الإسلامي آنـذاك بهتافات الدعوة الإسلامية.

(و) أساليب أخرى للدعوة

نجد في العصر العباسي الأول بعض أساليب أخرى متفرقة للدعوة الإسلامية منها ما وجّهه الإمام أبو يوسف القاضي إلى الرشيد عندما طلب منه الأخيرُ وضعَ كتابٍ جامع في جباية الخراج والعشور والصدقات، وأراد بذلك رفعَ المظالم عن رعيته والصلاح لأمرهم، فانتهز أبو يوسف هذه الفرصة وأوصى الرشيد بكلمات تحمل في ثناياها روح الدعوة الإسلامية فقال:

«يا أمير المؤمنين إن الله - وله الحمد - قد قلّدك أمراً عظيماً ثوابه أعظم الثواب وعقابه أشد العقاب.. فلا تُضَيِّعَنَّ ما قلّدك من أمر هذه الأمة والرعية؛ فإن القوة في العمل بإذن الله، لا تؤخر عملَ اليوم إلى غد، فإنك إذا فعلتَ ذلك أضعتَ، إن الأجلَ دون الأمل، فبادر الأجلَ بالعمل؛ فإنه لا عمل بعد الأجل، إن الرعاة مؤدّون إلى ربهم ما يؤدّي الراعي إلى ربه، فأقم الحقَّ فيما ولاّك اللهُ

---

(١) يوم الصبيحة: أي يوم الصباح وهو يوم الغارة. لسان العرب: ٢/ ٥٠٥.

(٢) الرهج: الغبار. النهاية: ٢/ ٢٨١.

(٣) السنابك: جمع سنبك: طرف الحافر وجانباه من قدم. لسان العرب: ١٠/ ٤٤٤.

وقلّدك، ولو ساعة من نهار، فإن أسعد الرعاة عند الله يوم القيامة راعٍ سُعِدت به رعيتُه، ولا تَزُغ فتزيغ رعيتُك، وإياك والأمر بالهوى والأخذ بالغضب، وإذا نظرت إلى أمرَينِ أحدهما للآخرة والآخر للدنيا، فاختر أمر الآخرة على أمر الدنيا؛ فإن الآخرة تبقى والدنيا تفنَى، وكن من خشية الله على حذَر، واجعل الناس عندك في أمر الله سواءً؛ القريب والبعيد، ولا تخَفْ في الله لومة لائم، واحذر فإن الحذر بالقلب وليس باللسان...، واعلم أنه لن تزول غداً قَدَما عبدٍ بين يدي الله تبارك وتعالى إلا من بعد المسألة، فقد قال ﷺ: «لا تزول قَدَما عبدٍ يوم القيامة حتى يُسأل عن أربع: عن علمه ما عملَ فيه، وعن عمره فيمَ أفناه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيمَ أنفقه، وعن جسده فيمَ أبلاه»، فأعدِد يا أمير المؤمنين للمسألة جوابها، فإنّ ما علمتَ فأثبتَّ فهو عليك غداً يُقرأ، فاذكر كشفَ قناعك فيما بينك وبين الله في مجمَع الأشهاد، وإني أوصيك يا أمير المؤمنين بحفظ ما استحفظكَ اللهُ، ورعايـةِ ما استرعاك اللهُ، وأن لا تنظر في ذلك إلا إليه وله...»[1].

ومن تلك الأساليب الدعوية: عقدُ مجالس المناظرة بين علماء المسلمين وأساقفة النصارى، فقيل: إن البطريق النسطوري طيماثاوس كان يُعقَد له هذه المجالس بحضرة الخليفة موسى الهادي وهارون الرشيد، فيتناظر فيها علماء المسلمين والنصارى، وكل فريق يبذل جهده في تأييد عقيدته[2]، ولا شك أن هذه الظاهرة تدل على تسامح المسلمين الجدير بالإكبار.

ومنها: كتابة الرسالة الدعوية، فقيل: إن ابن عمٍّ للمأمون وهو عبد الله بن إسماعيل الهاشمي وجّه رسالةً دعويةً إلى صديقه النصراني المسيح ابن إسحاق

---

(١) كتاب الخراج: ص٣-٥.

(٢) توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام (الترجمة العربية): ص١٠٣-١٠٤.

الكندي الذي كان يحتل منزلةً كريمةً في بلاط المأمون، فالرسالة طويلة[1] تحتوي على مشاعر الود والنصيحة من ناحية، وتنير للمرسل إليه دلائل وشواهد قاطعةً على بطلان عقائد النصارى وطقوسِهم الدينية، وعلى حقانية الإسلام وقطعية عقائده من نحو آخر[2]، وكان المأمون نفسه يرغّب في توجيه دعوة الإسلام إلى غير المسلمين ويتحمس لذلك، فوجّه الدعوة إلى غير المسلمين الذين كانوا يقطنون أقاصي البلاد، مثل بلاد فرغانة وما وراء النهر[3].

وقد كان علماء المسلمين يتحلون بالتسامح ورحابة الصدر في دعوتهم الآخرين إلى الإسلام، ولقد رأينا آنفاً كيف سُمح للبطريق النسطوري طيماثاوس أن يناظر علماء المسلمين في العقائد بمحضر الهادي والرشيد، ونقرأ الآن ما نُقل من أنّ زعيم المانوية يزدان بُخت زار بغداد في أيام المأمون وعقد مجلساً ناظر فيه علماء المسلمين ومتكلميهم في عقائدهم وأسلوب دعوتهم، فأفحمه العلماء وقطعوا عليه الحجة، وحاول المأمون آنذاك أن يُقنعه باعتناق الإسلام، ولكنه أبى وقال: نصيحتك يا أمير المؤمنين مسموعة، وقولك مقبول، ولكنك ممن لا يُجبرُ الناس على ترك مذاهبهم، فلم يصرَّ المأمون على قوله، بل عين ليزدان بُخت حفظةً تحفظه من الطائفة المتطرفة من المسلمين[4].

وإذا تصفحنا كتب التاريخ والتراجم وكتب الأخلاق والآداب ؛ وجدنا أمثلة غير قليلة؛ مثل هذه الأساليب المتنوعة للدعوة الإسلامية في العصر العباسي الأول، وقد اكتفينا بذكر بعض النماذج منها، إذ أن هذه الأساليب ليس لها تأثير جذري في مجال الدعوة الإسلامية، كما أننا لا ننكر فضل هذه الجهود المتنوعة في

---

(١) اقرأ نص رسالة الهاشمي إلى الكندي في الدعوة إلى الإسلام: ص٤٧٠-٤٧٦.

(٢) الدعوة إلى الإسلام: ص١٠٤.

(٣) فتوح البلدان: ص٥٢٧-٥٢٩.

(٤) الدعوة إلى الإسلام: ص١٠٥.

سبيل الدعوة وقيمتها، أما الأساليب الثلاثة التي قدّمنا ذكرَها، وهي: أسلوب المحدّثين والفقهاء والزهاد، فلها دورٌ أساسيٌ في نشر الدعوة الإسلامية واستثمارها، ومن أجل ذلك أردنا أن نتوسع قليلاً في هذا الباب، ونستعرض ثمرات الدعوة في تراجم بعض أجِلَّةِ المحدّثين والفقهاء والزهاد، وسنبحث عنها في الصفحات التالية.

نماذج رجال الدعوة في العصر العباسي الأول

ظهر مما ذكرنا فيما سبق أن الدعوة الإسلامية التي وصلت إلى الدولة العباسية في عصرها الأول كانت أمانةً غاليةً في عنقها، مورثةً من العهد النبوي والراشدي، وكان من واجبها أن تحافظ عليها ولو على حساب أغلى ما تملكها من الثروة، كما كان من واجبها إصلاح ما حدث من الانحرافات في الفترة التي تخللت بينها وبين العهد الراشدي، ولكنها - مع الأسف - قصّرت في أداء واجبها ممّا زاد الطين بلّةً.

أما الدعوة الإسلامية، فهي على الرغم من المشكلات المتنوعة في سبيلها، لم تزل تشق طريقها، وإنها - وإن ضعُف سيرها من أجل تقصير الدولة في مساندتها وتبنّيها - كانت تتغلب على المشكلات بفضل ما أودعه الله تعالى فيها ذاتها من الحيوية والنشاط والجاذبيةِ والصفاء، وصلاحية الاستيلاء على المشاعر الصادقة والجوارح السليمة، وبفضل جهود أولئك الرجال النوابغ الذين لم يزل يقيّضهم الله تعالى لخدمة كتابه وسنة رسوله ﷺ، ولتصفية ما يطرأ على تعاليمهما من غبار الفساد والانحراف، فظلّوا منقطعين في كل عصر ومصر إلى الدعوة إلى الله، وعاكفين على التعليم والتعلّم، منهمكين في نشر العلوم الدينية والحكمة الإلهية، منصرفين إلى تزكية النفوس وتحليتها بحُلَى الإخلاص والإحسان.

فهؤلاء - في الحقيقة - حاملو راية الدعوة الإسلامية، وهذه هي السلسلة الذهبية التي امتدت إلى عصرنا الحاضر، ولا تزال تمتد - إن شاء الله تعالى - إلى يوم القيامة، وأصلها ملتصق بأهداب النبوة المحمدية، صلى الله على صاحبها وسلم، ولم ينقطع قَط امتدادها في أي زمان ومكان[1]، وذلك مصداق حديث

---

(١) قولنا هذا لا يعارض ما أشرنا إليه من ضعف بعض النواحي الدعوية في العصر =

رسول الله ﷺ: «لا تزال طائفةٌ من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرّهم مَن خذلهم حتى يأتي أمرُ الله وهم كذلك»[1]، فهذه الطائفة هي رجال الدعوة.

ونريد أن نترجم لبعض هؤلاء الأئمة العظام الذين ظلوا عاكفين على أداء مهمّتهم الدعوية، لا يصرفهم عنها صارف ولا يَشغَلُهم عنها شاغل:

أولاً: دعاة من المحدّثين

نترجم في هذه الصفحات لبعض أعلام المحدّثين، وليس القصد به حَصْر خدمة الدعوة الإسلامية في شخصيات المترجَم لهم فحسب، إذ أن هناك عدداً يُعد بالآلاف من المحدّثين خدموا هذا الفن الشريف خدمةً لا يستهان بقيمتها، كما أن لهم نصيباً وافراً في نشر الدعوة الإسلامية، إنما أردنا بذلك تقديم نموذج صغير لأئمة الدعوة الذين سقوا هذه الشجرة الطيبة بعرقهم ودموعهم ودمائهم، وللقارىء أن يقيس على هؤلاء الجهابذة إخوانهم الذين ساهموا معهم في ساحة الدعوة الإسلامية، وهم عددٌ كبيرٌ من المحدّثين والفقهاء والزهاد.

وقد اكتفينا من الكلام في حياة المترجَم لهم بما له صلة موضوعية وشيجة بالدعوة، وهناك أعلام لهم باعٌ طويل في علوم شتى فلا يستطيع القارىء أن يرجِّح فيهم كفة الحديث أو كفة الفقه؛ لبراعتهم في كلا العِلمَين براعةً تامةً،

= العباسي الأول، إذ أن مفهوم الحديث هو أن الفساد يعم، ويستثنى منه هذه الطائفة، والطائفة قد يزداد عدد أفرادها وتساندها الدولة - كما كان في العهد الراشدي والعهود التي تمثلت به - فتصبح ظاهرة على الفساد، وقد ينقص أفرادها وتنصرف الدولة عن مساندتها، فتصبح ظاهرة من حيث عقائدها ونشاطها، وإن لم تكن كذلك من حيث تأثيرها ونفوذها في الجمهور، وقد أشار إلى ذلك حديثه ﷺ: «بدأ الإسلام غريبا وسيعود كما بدأ غريبا، فطوبى للغرباء»، رواه مسلم: ٢/ ١٧٦، ولا يسبب عجزَ هذه الطائفة شيءٌ كقصور الدولة عن أداء مهمتها الدعوية، وبذلك تبدو أهمية الدولة متمسكة بأهداب الدعوة وعاضّة عليها بالنواجذ.

(١) رواه الشيخان واللفظ لمسلم: ١٣/ ٦٥.

أمثال الإمام الأوزاعي، وسفيان الثوري، والليث بن سعد رحمهم الله، فرجّحتُ فيهم كفة الحديث نظراً إلى أن فقههم لم يُدوّن[1] كما دُوّن فقه الأئمة الأربعة.

١ - الإمام الأوزاعيّ

تعريف به:

هو شيخ الإسلام الإمام أبو عمرو عبد الرحمن بن عمرو بن محمد الأوزاعيّ نسبةً إلى الأوزاع وهو بطن من حِمْيَر، وُلد الإمام ببَعلَبك سنة ثمان وثمانين في قرية اسمها: كَرك، مات أبوه وهو صغير فتربى يتيماً في حِجر أمه، ثم نقلته أمه إلى بيروت، تلقى علم الحديث من علماء عصره منهم: عطاء بن أبي رباح والقاسم بن مخيرة وشداد بن أبي عمار ويحيى بن كثير ومحمد بن شهاب الزهريّ وغيرهم، وأخذ عنه العلوم خلقٌ كثيرٌ منهم: الإمام مالك وشُعبة وابن المبارك والوليد بن مسلم ويحيى القطّان وغيرهم[2].

علمه وفضله:

كان الأوزاعيّ إماماً في الفقه والحديث، أدرك كثيراً من التابعين فروى عنهم، قال مالك: كان الأوزاعيّ إماماً يُقتَدى به، وقال سفيان بن عُيينة: كان الأوزاعيّ إمام أهل زمانه، قيل: إنه حَج مرة فرأى الناس منظراً عجيباً، رأوا سفيان الثوريّ رحمه الله آخذاً بزمام جَمَله، والإمام مالك بن أنس رحمه الله يسوق به،

---

(١) اطلعنا أخيراً على كتاب باسم (فقه الإمام الأوزاعي)، جمع فيه المؤلف عبد الله محمد الجبوري فقه الإمام الجليل المذكور وقدمه لنيل شهادة (الدكتوراه) ونشرته وزارة الأوقاف العراقية، والجهد جهد مشكور جدا.

(٢) تذكرة الحفاظ: ١/١٧٨-١٨٠ ؛ والبداية والنهاية: ١٠/ ١١٥ ؛ وتهذيب التهذيب: ٦/ ٢٣٩.

والثوري ينادي: أفسحوا للشيخ، حتى أجلساه عند الكعبة وجلسا بين يديه يأخذان عنه الحديث[1].

قال إسماعيل بن عِياش: سمعت الناس يقولون سنة أربعين ومائة: الأوزاعيّ اليوم عالم الأمة[2]، ورُوي أنه تذاكر الإمامان مالك والأوزاعيّ مرة بالمدينة من الظهر حتى صلّيا العصر، ومن العصر حتى صلّيا المغرب، فكان مالك يستفيد من الأوزاعيّ في المغازي، وكان الأوزاعي يستفيد من مالك في الفقه، وقد قيل: إن الأوزاعيّ رحمه الله أفتى في سبعين ألف مسألة باصطلاح المحدّثين: (حدّثنا وأخبرنا)[3]، وكان بارعاً في الكتابة، كانت كتبه تردُ على أبي جعفر المنصور فيتعجب من فصاحتها وحلاوة عباراتها، وقال يوماً لكبير كُتابه: ينبغي أن نستفيد من كلام الأوزاعيّ، نكاتب له إلى الآفاق إلى مَن لا يعرف كلامه، فقال: واللهِ يا أمير المؤمنين ؛ لا يقدِر أحدٌ من أهل الأرض على مثل كلامه ولا على شيء منه[4] وقال الذهبيّ: إن الأوزاعيّ كان يصلح للخلافة، ونقل قول أبي إسحاق الفزاريّ بأنه قال: لو خُيّرتُ لهذه الأمة ؛ لاخترتُ لها الأوزاعي[5].

في ميدان الدعوة:

كان الأوزاعيّ رحمه الله مع لباقته الفائقة ومواهبه العلمية زاهداً وَرِعاً تقيًّا، قَوّام الليل صوّام النهار، وكان يقول: مَن أطال القيام في صلاة الليل هوّن الله عليه طول القيام يوم القيامة، واستنبطه من قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ

---

(١) البداية والنهاية: ١٠/١١٦.

(٢) تذكرة الحفاظ: ١/ ١٧٩.

(٣) البداية والنهاية، ١٠/١١٦ ؛ وتهذيب التهذيب: ٦/ ٢٤٠.

(٤) البداية والنهاية: ١٠/١١٦-١١٧.

(٥) تذكرة الحفاظ: ١/ ١٨٠.

﴿وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً ۝ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلاً ﴾[1].

وقال الوليد بن مسلم: ما رأيت أحداً أشدّ اجتهاداً من الأوزاعيّ في العبادة، وقيل: إنه حَج فما نام على الراحلة بل ظل يصلي طول الطريق، فإذا غلبه النوم استند إلى القتب، وقيل: إنّ امرأة دخلت على زوج الأوزاعيّ فرأت الحصير الذي يصلي عليه الأوزاعيّ مبلولاً، فقالت: هل الصبيّ بـال ههنا؟، فقالت: «هذا أثر دموع الشيخ من بُكائه في سجوده، وهكذا يصبح كل يوم[2]»، ولا ريب أنه من صفات الداعية المخلص أن يكون موصول القلب بربّه خاشعاً له متبتلاً إليه، وبذلك يحصل له ذلك الأثر المطلوب في خُطبه ومواعظه وفي حاله ومقاله، لأنّ ما يخرج من غَور القلب يستقر في صميم الفؤاد.

وقالوا: ما رُئي الأوزاعيّ ضاحكاً مقهقهاً قط، وكان يعظ الناس فلا يبقى أحد في مجلسه إلا بكى بعينيه أو بقلبه، وما رآه أحد يبكي في مجلسه قط، وكان إذا خلا بكى حتى يُرحم[3]» وكان من أقواله: «خمسةٌ كان عليها الصحابة والتابعون: لزوم الجماعة، واتباع السنة، وعمارة المساجد، والتلاوة، والجهاد»[4]، ولا بأس لو ذكرنا ههنا موعظةً من مواعظ الأوزاعيّ أمام الجمهور، فقال:

«أيها الناس! تقوّوا بهذه النعم التي أصبحتم فيها على الهربِ من نار الله الموقدة التي تَطَّلع على الأفئدة، فإنكم في دارِ الثواءُ فيها قليل، وأنتم عما قليل عنها راحلون، خلائف بعد القرون الماضية الذين استقبلوا من الدنيا آنِقَها وزهرتها، فهم كانوا أطولَ منكم أعماراً وأمدَّ منكم أجساماً وأعظمَ أحلاماً وأكثرَ أموالاً وأولاداً، فخدَّدوا الجبال، وجابوا الصخر بالواد، وتنَقَّلوا في البلاد

---

(١) سورة الإنسان، الآيتين: ٢٦-٢٧.

(٢) البداية والنهاية: ١٠/ ١١٧.

(٣) البداية والنهاية: ١٠/ ١١٦.

(٤) تذكرة الحفاظ: ١/ ١٨٠.

مؤيَّدين ببطشٍ شديدٍ وأجسادٍ كالعماد، فما لبثت الأيام والليالي أن طوَت آثارَهم وأُخرِبت منازلُهم وديارُهم وأُنسي ذكرهم، فهل تُحس منهم من أحد أو تسمع له ركزاً!، كانوا بِلَهوِ الأمل آمنين، وعن ميقات يوم موتهم غافلين، فآبوا إياب قوم نادمين، ثم إنكم قد علمتم الذي نزل بساحتهم بَياتاً من عقوبة الله، فأصبح كثير منهم من ديارهم جاثمين، وأصبح الباقون المتخلّفون يُبْصرون في نعمة الله وينظرون في آثار نقمتِه وزوال نعمتِه عمن تقدمَهُم من الهالكين، ينظرون - والله - في مساكنَ خاليةٍ وخاويةٍ، قد كانت بالعِزِ محفوفةً بالنعمِ معروفةً، والقلوبُ إليها مصروفةٌ، والأعين نحوَها ناظرةٌ، فأصبحت آيةً للذين يخافون العذاب الأليم، وعبرة لمن يخشى، وأصبحتم بعدَهم في أجلٍ منقوص ودُنيا منقوصة في زمان قد ولّى عفوُه وذهب رخاؤُه وخَيرُه وصُفُوُّه، فلم يبق إلا جُمة[1] شر وصَبابة[2] كدَر وأهاويل عِبَر وعُقوبات غُبر، وإرسال فتن وتتابع زلازل ورذالة خلف بهم، ظهر الفساد في البر والبحر، يُضيّقون الديار ويُغلون الأسعار بما يرتكبونه من العار والشنار[3]، فلا تكونوا أشباهاً لمن خدعه الأمل وغدرَه طول الأجل ولعبت به الأمانيّ، نسأل الله أن يجعلنا وإياكم ممن إذا دُعِي بدَر وإذا نُهِي انتهى، وعقَل مثواه فمهَّد لنفسه»[4].

وإذا رأينا الإمام الأوزاعيّ يبكي في خلوته ويخشع لله في جميع أحواله ويُجهش بالبكاء في سجوده ليلاً، فإننا نراه قائماً كالجبل أمام جبار كبير وعيناه

---

(١) الجمة (بالضم)، والجم (بالفتح): معظم الشيء أو الكثير منه، والجمع: جمام. لسان العرب: ١٢/ ١٠٥.

(٢) **الصبابة والصبة** (بالضم): بقية الماء أو اللبن وغيرهما تبقى في الإناء والسقاء. لسان العرب: ١/ ٥١٦.

(٣) **الشنار**: أقبح العيب والعار. لسان العرب: ٤/ ٤٣٠.

(٤) ابن كثير، البداية والنهاية، ١٠/ ١١٩.

تلمعان بنور الصدق والأمانة وقلبه مغمور بالهدوء والطمأنينة، فرُوي أنه دعاه عبد الله بن عليّ عم أبي العباس السفاح وسأله عما أهرق من دماء بني أمية؟ فذكر [الإمامُ] اللهَ في قلبه وأجابه بغاية الصراحة فقال: دماؤهم عليك حرام، فغضب عبدُ الله واحمرّت عيناه فقال: ويحك! ولِمَ؟، فأجاب وهو مطمئن البـال: قال رسول الله ﷺ: «لا يَحِلّ دَم امرئٍ مسلم إلا بإحدى ثلاث: ثيب زان، ونفس بنفسٍ، وتارك لدينه»، ثم استدل عبدُ الله استدلالاً تافهاً لوراثتهم الخلافة بأنهم نالوها لوصية رسول الله ﷺ علياً ﵁ بها، فأجاب الإمام بكلمتين قال: «لو أوصى إليه ؛ لما حَكّم الحَكمَين»[1]، فأفحم عبد الله وتمعّر وجهه من شدة الغضب، فأمر وأخرج الإمام من مجلسه، ثم تبعه فارس وظن الإمام أنه جاء موعد لقاء ربه فقام وبدأ يصلي، وإذا الفارس يقدِّم إليه صرةَ دنانير وقد بعثها عبد الله بن علي إليه، يقول الأوزاعيّ: «ففرّقتُها قبل أن أدخل بيتي»[2].

---

(١) قصد بالحكمَين: أبا موسى الأشعريّ وعمرو بن العاص، وذلك عندما أراد معاوية أن يصطلح مع عليّ بعد غلبة عليّ في صِفّين سنة سبع وثلاثين، فأجابه عليّ إلى الصلح واختار أبا موسى الأشعري، واختار معاوية عمرو بن العاص ليحكما في قتال المسلمين بكتاب الله وسُنة نبيه ﷺ، فلو كان عليّ رضي الله عنه يملك وصيةً من رسول الله ﷺ بالخلافة أو الوصاية ؛ لما رضي بالحكمَين، ولأصرّ على القتال دون الحق المنصوص عليه، وهذا ردٌّ مفحمٌ من الأوزاعيّ رحمه الله على كلّ مَن يزعم الوصية لعليّ رضي الله عنه. د. محمد عامر مظاهري.

(٢) انظر: الذهبيّ، تذكرة الحفاظ: ١/ ١٨١، [قلت: هذه حال العلماء الربانيين المخلصين لدين الله الأوفياء بالله ورسوله، يبكون في خلوتهم، ولا يفسدون على الناس صلواتهم بالتباكي عند قراءة القرآن في المساجد أمام الناس مع الحرص على تحسين الصوت فقط على حساب الأحكام، العلماء الربانيون هم الذين يلتزمون الجماعة مع إبداء النصح والجهر بالحق أمام كائن من كان، وليس أولئك الذين يُفتون حسب هوى الحكام ويبحثون عن أدلة من القرآن والسنة لتأييد تشريعاتهم وتبرير تصرفاتهم، ولا يهمهم =

ويدخل يوماً على المنصور وينصحه بالكلمات التالية وقد طلب منه النصيحة: «يا أمير المؤمنين، انظر ما تقول، فإن مكحولاً حدّثني عن عطية بن بُسر أن رسولَ الله ﷺ قال: مَن بلَغته عن الله نصيحةٌ في دينه ؛ فهي رحمة من الله سيقت إليه، فإن قَبِلها مِن الله بشكر، وإلا فهي حُجة من الله عليه ليزداد إثمًا ويزداد اللهُ عليه غضباً، وإن بلغه شيءٌ من الحق فرَضِي ؛ فله الرضا، وإن سخطَ فله السخط، ومن كرهه فقد كره اللهَ عز وجل لأن الله هو الحق المبين، يا أمير المؤمنين: إنك تحملتَ أمانةَ هذه الأمة، وقد عُرِضت على السماوات والأرض فأَبَين أن يحملنها وأشفقن منها، وقد جاء عن جَدك عبد الله بن عباس في تفسير قول الله عز وجل: ﴿ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ﴾(١) قال: الصغيرة: التبسم، والكبيرة: الضحك، فما ظنك بالقول والعمل!، فأعيذك بالله يا أمير المؤمنين أن ترى أن قرابتك من رسول الله ﷺ تنفعك مع المخالفة لأمره، فقد قال ﷺ: يا صفيةُ عمة محمد، يا فاطمة بنت محمد، استوهِبا أنفسكما من الله، لا أغني عنكما من الله شيئاً. وكذلك جَدّك العباس، سأل إمارةً من النبي ﷺ فقال: أي عَم، نفسٌ تُحييها خيرٌ لك من إمارة لا تُحصيها، نظراً لعمه وشفقةً عليه من أن يَلِي فيحيدَ عن سنته جناحَ بعوضة فلا يستطيع له نفعاً ولا عنه دفعاً، وقال ﷺ: ما من راعٍ يبيت غاشًا لرعيته إلا حرّم الله عليه رائحة الجنة، وحقيقٌ على

= مصالح المسلمين، ولا ينتابهم خوف من الله، يحرّمون الحلال ويحللون المحرمات طالما يرضي ذلك أهل المناصب، وإذا رجع أولئك إلى صوابهم تخرج الأدلة من جعب هؤلاء إلى درجة الإيجاب أو الاستحسان، فكيف تصلح حال أمة فيها أمثال هؤلاء وغاب عنها أمثال الأوزاعي! هذا يفرق دنانير أتته بسبب الجهر بالحق، وهؤلاء يجمعون دراهم تأتيهم مقابل الإدلاء بالباطل أو السكوت عن الحق، فبئس ما يشترون] د. محمد عامر مظاهري.

(١) سورة الكهف: آية ٤٩.

الوالي أن يكون لرعيته ناظراً، ولما استطاع من عوراتهم ساتراً، وبالحق فيهم قائماً، فلا يتخوف مُحسنُهم منه رهقاً[1]، ولا مسيئهم عدواناً، فقد كانت بيد رسول الله ﷺ جريدة يستاك بها ويُروّع[2] المنافقين عنه، فأتاه جبريل فقال: «يا محمد ما هذه الجريدة التي معك؟ لا تملأ قلوبهم رعباً». فما ظنك بمنَ سَفك دماءَهم وقَطع أستارَهم ونَهب أموالهم؟ يا أمير المؤمنين إن المغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر دعا إلى القصاص من نفسه [إذ] يخدش أعرابياً خدشةً لم يتعمدها فقال جبريل: يا محمد إن الله لم يبعثك جباراً تكسر قرون أمتك.

واعلم يا أمير المؤمنين أن كل ما في يدك لا يعدل شُربةً من شراب الجنة ولا ثمرةً من ثمارها، ولو أن ثوباً من ثياب أهل النار عُلّق بين السماء والأرض لأهلكَ الناسَ رائحتُه، فكيف بمن تَقَمَّصَه؟ ولو أن ذَنوباً[3] من صديد أهل النار صُبّ على ماء الدنيا لأحمَّه[4]، فكيف بمن تجرَّعه؟ ولو أن حلقةً من سلاسل جهنم وُضعت على جبلٍ لأذابته، فكيف بمن يُسلَك فيها ويُرَدُّ فضلُها على عاتقه؟[5].

وهكذا ظل يخدم المسلمين هذا البطل الجليل في ميدان الدعوة من علمه وفضله وزهده وتقواه، وينصح ولاة المسلمين بغاية الإخلاص [والفطنة]، وبقي مرابطاً في سبيل الله ببيروت ومات مرابطاً في سنة سبع وخمسين ومائة ١٥٧هـ، وعمره إذ ذاك تسع وستون سنة[6]، رحمه الله تعالى رحمةً واسعةً.

---

(١) الرهق: التهمة. لسان العرب: ١٠/ ١٢٩.

(٢) يروع: يخوف. الروع: الفزع. لسان العرب: ٨/ ١٣٥.

(٣) الذنوب: الدلو العظيمة. النهاية: ٢/ ١٧١.

(٤) أحمه: أي أسخنه، يقال: أحموا لنا الماء أي أسخنوه. لسان العرب: ١٢/ ١٥٣.

(٥) العقد الفريد: ٣/ ١٦٢-١٦٣.

(٦) البداية والنهاية: ١٠/ ١٢٠ ؛ وتهذيب التهذيب: ٦/ ٢٣٨.

٢- الإمام سفيان الثوريّ

تعريف به:

هو أمير المؤمنين في الحديث، شيخ الإسلام وسيد الحُفّاظ أبو عبد الله سفيان بن سعيد بن مسروق الثوريّ نسبةً إلى ثور مُضَر، وُلد بالكوفة سنة سبع وتسعين (٩٧هـ) في زمن سليمان بن عبد الملك، سمع من أبيه ومن علماء منهم: أبو إسحاق السبيعي وأبو إسحاق الشيباني والأعمش وإسماعيل بن أبي خالد وعمرو بن دينار وأبو الزناد وغيرهم، وروى عنه خلق كثير لا يحصون منهم: معمر بن راشد ومالك بن أنس والأوزاعيّ وابن جريج وشعبة وسفيان بن عيينة وفضيل بن عياض وأبو إسحاق الفزاريّ وغيرهم[١].

علمه وفضله:

قال الخطيب البغداديّ: كان إماماً من أئمة المسلمين وعلَماً من أعلام الدين، مُجمَعاً على إمامته بحيث يُستغنى عن تزكيته مع الإتقان والحفظ والمعرفة والضبط والورع والزهد[٢]، وقال النسائي: هو أجلّ من أن يقال فيه ثقة، وهو أحد الأئمة الذين أرجو أن يكون اللهُ ممن جعله للمتقين إماماً[٣]، وقال شعبة وأبو عاصم وسفيان بن عيينة ويحيى بن معين وغير واحد: هو أمير المؤمنين في الحديث[٤]، قال

---

(١) تاريخ بغداد: ٩/ ١٥٢ ؛ وتذكرة الحفاظ: ١/ ٢٠٣ ؛ وتهذيب التهذيب: ٤/ ١١١-١١٣.

(٢) تهذيب التهذيب: ٤/ ١١١-١١٣.

(٣) تهذيب التهذيب: ٤/ ١١٤.

(٤) البداية والنهاية: ١٠/ ١٣٤.

الأشجعي[1]: دخلتُ مع سفيان الثوري على هشام بن عروة، فجعل سفيان يسأل وهشام يحدّثُهُ، فلما فرغ قال: أعيدُها عليك؟، قال: نعم، فأعادها عليه، ثم خرج سفيان وأذن لأصحاب الحديث، قال الأشجعيّ: وتخلّفتُ معهم، فجعلوا إذا سألوه أرادوا الإملاء، فيقول: احفظوا كما حفظ صاحبكم فيقولون: لا نقدر نحفظ كما حفظ صاحبنا[2].

وهذا يدل على قوة ذاكرته النادرة، فيقول عن نفسه: ما استودعت قلبي شيئاً قط فخانني حتى أني لأمُرّ بالحائك يتغنّى فأسدّ أذني مخافة أن أحفظ ما يقول[3]، قال عبد الله بن خبيق: حدثني أبي قال: كنت أنا والفزاريّ وابن المبارك وشيخ معنا، فقال الفزاريّ لابن المبارك: يا أبا عبد الرحمن أرأيتَ قَطُّ مثل سفيان الثوريّ؟، قال: لا، قال ابن المبارك: فأنت يا أبا إسحاق رأيتَ مثله قَطُّ؟، قال: لا، فقال الشيخ الذي كان معنا: ما رأى سفيانُ قَطُّ مثله، فكيف نحن نرى مثله؟[4].

وقال مالك بن أنس: كانت العراق تجيش علينا بالدراهم والثياب، ثم صارت تجيش علينا بالعلم منذ جاء سفيان[5]، وروي أنه جاء رجل إلى أبي حنيفة رحمه الله فقال: ألا ترى ما روى سفيان؟ فقال أبو حنيفة: أتأمرني أن

---

(١) هو الحافظ الثبت أبو عبد الرحمن عبد الله بن عبد الرحمن الكوفيّ، سمع إسماعيل بن أبي خالد وهشام بن عروة وغيرهما ثم لزم سفيان الثوري مرة، قال ابن معين: صالح ثقة، كان عنده تصانيف سفيان، ولما مات سفيان جلس الأشجعيّ موضعه، مات في أول سنة ١٨٢. تذكرة الحفاظ: ١/ ٣١١-٣١٢.

(٢) تاريخ بغداد: ٩/ ١٦٣.

(٣) البداية والنهاية: ١٠/ ١٣٤.

(٤) تاريخ بغداد: ٦/ ١٥٥.

(٥) تهذيب التهذيب: ٤/ ١١٥.

أقول إن سفيان يكذب في الحديث؟ لو كان سفيان في عهد إبراهيم (يريد إبراهيم النخَعيّ) لاحتاج الناس إليه[1]، وقال ابن المبارك: لا أعلم على الأرض أعلم من سفيان الثوريّ.

في ميدان الدعوة:

إذا ساد سفيان الثوري الجمهورَ بعلمه وتقواه من جهة، فإنه كان ينتقد الخلفاء والولاة على انحرافاتهم عن الجادة الدعوية من جهة أخرى بدون أي مبالاة بلومة لائم من علماء البلاط أو بعقوبة الخلفاء والولاة وسخطهم، وكان يتجنّب الحضور في مجالسهم، ويروي يوسف بن أسباط قصةً تدل على مدى تقواه وخشيته لله تعالى فقال: قال لي سفيان الثوري - وقد صلينا العشاء الآخرة -: ناولني المطهرة، فناولته فأخذها بيمينه ووضع يساره على خده، ونمتُ فاستيقظتُ وقد طلع الفجر، فنظرت فإذا المطهرة بيمينه كما هي فقلت: هذا الفجر قد طلع، فقال: لم أزل منذ ناولتني المطهرة أتفكر في الآخرة حتى الساعة.

وقال عبد الرحمن بن مهديّ: ما عاشرتُ في الناس رجُلاً أرقّ من سفيان الثوري، وكنت أرمقه في الليلة بعد الليلة، ينهض مذعوراً ينادي: النار النار، شغلني ذكر النار عن النوم والشهوات، وقال أبو أسامة: اشتكى الثوريّ فذهبت بمائه في قارورة فأريته طبيباً فنظر إليه فقال: بول من هذا؟ ينبغي أن يكون بول راهب، هذا رجل قد فتّت الحزن كبده، ما لهذا دواء[2]، هذا الحزن وهذا الخوف الذي نجده في الإمام سفيان الثوريّ رحمه الله تعالى كان من أجل تفكره الدعوي، وكان المفروض أن يحمله الخلفاء والحكام وتتغلب عليهم خشية الله وخوف الحساب، وبدون ذلك لا يستطيعون أن يبقوا على الجادة الدعوية ويسودوا الناس في ظلها، وكان الراشدون ﷺ يملكون هذا اللونَ من الإنابة إلى الله

(١) تاريخ بغداد: ٩/ ١٦٩.

(٢) تاريخ بغداد: ٩/ ١٥٧-١٥٨.

وخشيته، فتركوا أسوة مثالية للحكم الإسلامي الدعوي.

وقال الإمام الأوزاعيّ - ولعله قد عرف أحوال الثوريّ هذا -: لو قيل لي اختر لهذه الأمة ؛ ما اخترت إلا سفيان الثوريّ[1]، والإمام الثوريّ لم يبال - في أي مرحلة من مراحل حياته - بهذه المناصب وأهلها، وكان ينصحهم ويرشدهم إلى الطريق المستقيم، فرُوي أنه دخل سفيان مرة على المهديّ فسلّم عليه فسأل عن أحواله، فقال: حجّ عمر بن الخطاب فأنفق في حجّه ستة عشر ديناراً، وأنت حججت فأنفقت في حجتك بيوت الأموال؟، فقال المهديّ: أي شيء تريد؟ أكون مثلك؟، قال: فوق ما أنا فيه ودون ما أنت فيه، فقال وزيره أبو عبيد الله: يا أبا عبد الله قد كانت كتبك تأتينا فننفذها، قال: من هذا؟، قال: أبو عبيد الله وزيري، قال: احذره فإنه كذّاب، أنا كتبتُ إليك؟، ثم قام فقال له المهدي: أين أبا عبد الله؟ قال: أعود، وكان ترك نعله حين قام، فعاد فأخذها ثم راح، فانتظره المهديّ فلم يعد، فقال: وعدَنا أن يعود فلم يعد، قيل له: إنه قد عاد لأخذِ نعله، فغضب فقال: آمن الناس إلا سفيان الثوري ويونس بن فروة الزنديق، وقرنه بزنديق إهانةً له، فخرج سفيان إلى البصرة ولم يزل بها حتى مات[2].

وأصبح منزعجاً جداً في آخر أيام عمره مما يراه فيما حوله من الانحرافات، وعندما كان بالبصرة كان يقول كثيراً: «ليتني قد مِتُّ، ليتني استرحت، ليتني في قبري»، فقيل له: يا أبا عبد الله ما كثرةُ تمنيك الموت ولقد آتاك الله القرآن والعلم؟، فقال: وما يدريني لعلي أدخل في بدعة، لعلي أدخل فيما لا يحل لي، لعلي أدخل في فتنة، أكون قد مت فسبقت هذا.

ويا ليت لم تصدر هذه الكلمات التي تُثبِّط العزائم من هذا الداعية المخلص

---

(١) تاريخ بغداد: ٩/ ١٦٢.

(٢) تاريخ بغداد: ٩/ ١٦٠.

العظيم، والعالم الرباني الكبير، وكنا نتمنّى منه كلمات تدل على الرجاء والطموح وعلى تشجيع مقاومة الانحرافات - ولو في أسوأ حال - بتحمس ونشاط وعزيمة، ولكن... تدل كلمات الإمام الثوريّ رحمه الله على مدى غور تلك الانحرافات التي أصبحت تتمكّن في المجتمع الإسلامي آنذاك، وعلى مدى انتشارها في البيئة بحيث كان يخافها ذلك الإمام الجليل على نفسه، فما ظنك بتلك الانحرافات وأفراد المجتمع الذين لا يملكون نفوساً مزكية مثل نفس سفيان وأمثاله؟، وما أعظم تقصير الدولة - إذا قصّرت - في مثل هذه الحالة!.

وتوفي الثوريّ رحمه الله تعالى بالبصرة سنة إحدى وستين ومائة ١٦١هـ، وهو ابن ست وستين سنة، ودفن ليلاً[١]، رحمه الله رحمةً واسعةً.

٣- الإمام الليث بن سعد

تعريف به:

هو شيخ الديار المصرية أبو الحارث الليث بن سعد بن عبد الرحمن الفهميّ بالولاء، فقيه أهل مصر، أصله فارسي من أهل أصبهان، وُلد في شعبان سنة أربع وتسعين بقرية اسمها قرقشند، وهي: قرية من أسفل أرض مصر على نحو أربعة فراسخ من الفسطاط[٢]، سمع الحديث من علماء مصر والحجاز، وروى عن عطاء بن أبي رباح ونافع مولى ابن عمر وابن أبي مليكة وابن شهاب الزهري وهشام بن عروة وغيرهم من خلق كثيـر، وحدّث عنـه محمد عجلان - وهو شيخه - وابن المبارك وعبد الله بن وهب ويحيى بن بكير وخلق كثير[٣].

---

(١) تاريخ بغداد: ٩/ ١٧١.

(٢) تاريخ بغداد: ١٣/ ٣و٦.

(٣) تاريخ بغداد: ١٣/ ٣ ؛ وتذكرة الحفاظ: ١/ ٢٢٤ ؛ وتهذيب التهذيب: ٨/ ٤٦٠.

علمه وفضله:

قال ابن سعد[١]: كان قد استقل بالفتوى في زمانه بمصر، وكان ثَـريًّا من الرجال، نبيلاً، سميناً، له ضيافة، وقال يحيى بن بكير: ما رأيتُ أحداً أكملَ من الليث بن سعد، كان فقيه البلدان، عربي اللسان، يُحْسن القرآن والنحو، ويحفظ الشعر والحديث، حَسَن المذاكرة[٢]، وقال أبو داود: سمعت أحمد يقول: ليس لهم - يعني أهل مصر - أصحّ حديثاً من الليث[٣]، وقال عبد الله بن وهب: لولا مالك والليث لضلّ الناس، وكان محمد بن إدريس الشافعي يقول: هو - يعني الليث - أفقه من مالك، إلا أن أصحابه لم يقوموا به[٤].

وقال الليث لابنه شعيب: لما ودّعتُ أبا جعفر المنصور ببيت المقدس قال: أعجبني ما رأيتُ من شدة عقلك، والحمد لله الذي جعل في رعيتي مثلك. قال شعيب: وكان أبي يقول: لا تجهر بهذا ما دمتُ حيًا، وروي أنه لما قدم الليث العراق قال المهديّ لوزيره يعقوب: الزم هذا الشيخ، فإنه ثبتَ عندي أنه لم يبق أحدٌ أعلم بما حمل منه[٥]، وقال ابن أبي مريم[٦]: ما رأيت أحداً من خلق الله أفضل من ليـث، وما كانت خصلةٌ يُتقرب بهـا إلى الله إلا كانت تلك الخصلة في

---

(١) الطبقات الكبرى: ٧/ ٥١٧.

(٢) تاريخ بغداد: ١٣/ ٦ ؛ وتذكرة الحفاظ: ١/ ٢٢٦.

(٣) تهذيب التهذيب: ٨/ ٤٦١.

(٤) تاريخ بغداد: ١٣/ ٧ ؛ تذكرة الحفاظ: ١/ ٢٢٤-٢٢٥ ؛ وتهذيب التهذيب: ٨/ ٤٦٣.

(٥) تاريخ بغداد: ١٣/ ١٠.

(٦) هو المحدث الرباني أبو بكر بن عبد الله بن أبي مريم الغساني الحمصي، شيخ أهل مصر، حدّث عن خالد بن معدان وراشد بن سعد ومكحول وغيرهم، وروى عنه إسماعيل بن عياش وبقية، وابن المبارك وغيرهم، كان من العباد المجتهدين، توفي سنة ست وخمسين ومائة ١٥٦هـ. سير أعلام النبلاء: ٧/ ٦٤-٦٥.

الليث[1].

في ميدان الدعوة:

لمترجَمنا هذا شأن يختلف عن أحوال الإمامَين اللذَين سبقت ترجمتهما، وهما الإمام الأوزاعيّ والإمام الثوريّ، فقد رأينا الأوزاعيّ يبتعد عن الخلفاء والحُكام ولا يشترك معهم في شؤون الدولة، ولكن رأيناه ينصح الولاة والخلفاء ويشير عليهم بالخير، كما رأينا في الثوري نفورًا من ولاة أمور المسلمين، ونرى في شخصية الليث بن سعد التجاوبَ مع الخلفاء والحُكام مع الحفاظ على دينه وصيانةِ مكانته العلمية وكرامته الشخصية، فرُوي أنه طلب منه المنصور أن يتولى نيابة الملك عنه بمصر فلم يقبل، ولكن الله سبحانه وتعالى أعطاه شرفاً ومنزلةً يتأثر بها حاكم مصر وقاضيها، فكان إذا لم يستحسن شيئاً من القاضي أو الحاكم كتب إلى الخليفة، فعزله الخليفة[2].

ولعل السبب في ذلك أنه كان في غِنى عن هذه المناصب العالية، إذ كان من أجلّ أثرياء البلاد، وكان دخله السنوي ثمانين ألف دينار[3]، وكان يعيش عيشة الأغنياء، قيل: إنه خرج يوماً فقوّم بعض الناس ثيابه ودابته وخاتمه بثمانية عشر ألف درهم إلى عشرين ألف درهم[4]، وكان له في الإسكندرية ثلاثة سُفُن؛ سفينة فيها مطبخه، وسفينة فيها عياله، وسفينة فيها ضيوفه[5].

ولكن الفارق الكبير بين هذا العالم الثري وغيره من الأغنياء، أن أولئك الناس دفعهم غناهم إلى حياة البذخ والترف فانغمسوا في اللهو والغناء والمزامير

---

(١) تهذيب التهذيب: ٨/ ٤٦٥.

(٢) تاريخ بغداد: ١٣/ ٩ ؛ وتذكرة الحفاظ: ١/ ٢٢٤.

(٣) تاريخ بغداد: ١٣/ ١١ ؛ وتذكرة الحفاظ: ١/ ٢٢٥.

(٤) تذكرة الحفاظ: ١/ ٢٢٦.

(٥) حلية الأولياء: ٧/ ٣١٩.

والشراب والمعازف، إلا ما شاء الله منهم، وهذا العالم الغني مع دخله الكبير لم تجب عليه زكاة درهم قط، بل ظل مَديناً في نهاية السنة في بعض الأحيان[1]، وهل كان ينفق جميع دخله على نفسه وأهله؟، فلو كان ذلك ؛ لدخل في حياة البذخ والترف، ولكنه كان سخياً كريماً ينفق ماله في سبيل الله وفي سبيل العلم، فقيل: إنه كان يجلس كل يوم لحوائج الناس ولا يردّ أحداً سأله، سواء كانت حاجته صغيرة أم كبيرة، وكان يطعم الناس في الشتاء الهرايس[2]، بعسل النحل وسمن البقر، وفي الصيف سويق اللوز بالسكر[3].

وقال عبد الله بن صالح: صحِبتُ الليث عشرين سنة، لا يتغدى ولا يتعشى إلا مع الناس[4]، وجاءت امرأة تسأله العسل فقالت: يا أبا الحارث إن ابناً لي عليلٌ واشتهى عسلاً، فقال: يا غلام أعطها مرطاً من عسل، والمرط: عشرون ومائة رطل[5]، وهكذا كان الداعية المخلص ينفق ماله في خدمة عامة الناس.

ومن جهة أخرى، كان هذا الإمام يقدّر أهل العلم من معاصريه وظل يخدمهم بماله، فكان بينه وبين إمام دار الهجرة مالك بن أنس صلةٌ وديةٌ قوية ويبعث إليه مائة دينار سنوياً، وكتب إليه مالك مرةً أنه صار مَديناً، فبعث إليه خمسمائة دينار[6]، وكتب إليه مالك مرةً أخرى: «إني أريد أن أدخل ابنتي على زوجها، فابعث لي بشيء من عصفر، فبعث إليه بثلاثين حِملاً من عصفر،

---

(١) تاريخ بغداد: ١٣/ ١١ ؛ وتذكرة الحفاظ: ١/ ٢٢٥ ؛ وتهذيب التهذيب: ٨/ ٤٦٤.

(٢) الهرايس: جمع هريسة: طعام يصنع من البر المدقوق. لسان العرب: ٦/ ٢٤٧.

(٣) تاريخ بغداد: ١٣/ ٩.

(٤) تهذيب التهذيب: ٨/ ٤٦٤.

(٥) تاريخ بغداد: ١٣/ ٨.

(٦) تاريخ بغداد: ١٣/ ٧ ؛ وتذكرة الحفاظ: ١/ ٢٢٦.

فصبغ منه لابنته وباع منه وبقي عنده فضلة[1]، وقيل إنه احترق بيت أبي لهيعة قاضي مصر فاحترقت كتبه فساعده الليث بألف دينار[2]، كما روي أنه جاء إليه منصور بن عمار الواعظ، فخدمه بألف دينار وجاريةٍ قيمتها ثلاثمائة دينار[3].

وهكذا قدّم الإمام الليث بن سعد مثالاً رائعاً دعوياً للتكافل الاجتماعي الذي هو دعامة من دعائم المجتمع الإسلامي (الدعوي)، وبه يقام الوزن بالقسط، وتستقيم الناحية الاقتصادية التي تعتبر عاملاً مؤثراً في بناء أخلاق الأمة وفسادها، وصرّح الإمام بلسان الحال لأغنياء عصره وكل عصر: أن المجتمع الإسلامي ليس مجتمعاً يحارب الملكية الفردية أو يفرض القيود على دخل الفرد، كما أنه مجتمع لا مَساغ فيه لغنيٍّ مِن الأغنياء أن يعيش في رغد العيش وجارُه جائع وهو يعلم به، بل يعلن بكل صراحة في الأغنياء أن في أموالهم حقاً معلوماً للفقراء والمساكين، وعليهم أن يهتموا بأداء حقوقهم، وإلاّ اختل توازنهم الاجتماعي.

ومن جهة أخرى قدّم الإمام نموذجاً حياً مثالياً للدعاة، بأن يهتموا بما تكسب لهم أيديهم من طريق التجارة أو الزراعة أو الصناعة أو الحِرف، وأن [لا يتهافتوا] على الرواتب أو المكافآت التي يستلمونها من الجهة المختصة بها، فهذا يعطي الدعوة قوةً معنويةً مؤثرةً، فيزيدهم عِزاً ووقاراً في الجمهور والأوساط الحكومية، فيكون صوتهم مسموعاً واقتراحاتهم مقبولةً.

ولم يكن الليث بن سعد رحمه الله جواداً كريماً فحسب، بل كان ألمعياً كبيراً خدم الدعوة الإسلامية بعلمه الغزير، فكتب وأفتى وحدّث وأصلح، قال

(١) تاريخ بغداد: ١٣/ ٧-٨ ؛ وتهذيب التهذيب: ٨/ ٤٦٤.

(٢) تاريخ بغداد: ١٣/ ٨.

(٣) تاريخ بغداد: ١٣/ ٨، وذكر أبو نعيم قصة طويلة بهذا الصدد، انظر: حلية الأولياء: ٧/ ٣٢٠-٣٢٣.

الذهبي: مناقب الليث عديدة، وهو إمامٌ حُجةٌ كثير التصانيف[1]، وقال شعيب بن الليث: قيل لليث: إنا نسمع منك الحديث ليس في كتبك؟ فقال: أوَ كل ما في صدري في كتبي؟ لو كتبت ما في صدري ما وسعه هذا المركب[2]، وقال أشهب بن عبد العزيز: كان الليث له كل يوم أربعة مجالس يجلس فيها: أمّا أولها فيجلس لنيابة السلطان في نوائبه وحوائجه، وكان يأتي إليه السلطان، فإذا أنكر من القاضي أمراً أو من السلطان ؛ كتب إلى أمير المؤمنين فيأتيه العزل، ويجلس لأصحاب الحديث، وكان يقول: نـَجِّحوا أصحاب الحوانيت؛ فإن قلوبهم معلقة بأسواقهم، ويجلس للمسائل فيأتي إليه الناس فيسألونه، ويجلس لحوائج الناس، لا يسأله أحد من الناس فيردّه، كبرت حاجته أو صغرت[3].

وقال عثمان بن صالح: كان أهل مصر ينتقصون عثمان ﷺ حتى نشأ فيهم الليث بن سعد، فحدّثهم بفضائله، فكفّوا عن ذلك، وكان أهل حمص ينتقصون علياً حتى نشأ فيهم إسماعيل[4] بن عياش فحدثهم بفضائله، فكفّوا عن ذلك[5].

وهكذا ظل هذا الداعية الكبير يخدم الدعوة الإسلامية بأساليبه الخاصة، وتوفي إلى رحمة الله ليلة الجمعة ليلة النصف من شعبان سنة خمس وسبعين

---

(١) تذكرة الحفاظ: ١/ ٢٢٦.

(٢) تهذيب التهذيب: ٨/ ٤٦٣.

(٣) تاريخ بغداد: ١٣/ ٩.

(٤) هو محدّث الشام أبو عتبة بن إسماعيل بن عيّاش بن سليم الحمصي العِنسي بالولاء، وُلد سنة ثمان ومائة، روى عن شراحبيل بن مسلم الخولاني ومحمد بن زياد وعبد الله بن دينار وغيرهـم من الشاميين، وروى عنه: ابن إسحاق وسفيان الثوري والأعمش وابن المبارك وخلق كثير، قال فيه الذهبي: كان من بحور العلم، صادق اللهجة، صاحب سنة واتباع، توفي سنة إحدى وثمانين ومائة. سير أعلام النبلاء: ٨/ ٢٧٧-٢٩١.

(٥) تاريخ بغداد: ١٣/ ٧ ؛ وتهذيب التهذيب: ٨/ ٤٦٤.

ومائة، وكان عمره إذ ذاك إحدى وثمانين سنة[1]، رحمه الله رحمةً واسعةً.

٤- العالم الربانيّ عبد الله بن المبارك (١١٨ - ١٨١هـ)

تعريف به:

هو أعلم أهل المشرق، أبو عبد الرحمن عبد الله بن المبارك بن واضح المروزيّ، مولى بني حنظلة، كانت أمه خوارزمية وأبوه تركياً عبداً لرجل من تجّار همذان من بني حنظلة، وُلد عبد الله بن المبارك بمَرْو عاصمة خراسان سنة ثماني عشرة ومائة ١١٨هـ، سمع الحديث عن هشام بن عروة وإسماعيل بن أبي خالد وسليمان الأعمش ومعمر بن راشد ومالك بن أنس وسفيان الثوري وشعبة والأوزاعيّ والليث بن سعد وغيرهم، وحدّث عنه سفيان بن عيينة وأبو إسحاق الفزاري، ويحيى بن سعيد القطان، ويحيى بن معين، وأبو بكر بن أبي شيبة، وغيرهم خلقٌ كثير[2].

علمه وفضله:

قال الخطيب[3]: «كان من الربانيين في العلم، الموصوفين بالحفظ، ومن المذكورين بالزهد»، وبدأ الذهبي ترجمته بقوله: «الإمام العلاّمة، شيخ الإسلام، فخر المجاهدين، قدوة الزاهدين»[4]، ولا شك أن ابن المبارك جمع هذه الصفات في شخصيته، بل أكثر منها، كان صاحب رحلات علمية مثيرة، وله تصانيف كثيرة، فكأن شخصيته مشكاةٌ، فيها مصابيح متلألئة، ذات ألوان مختلفة، تجد فيها

---

(١) تاريخ بغداد: ١٣/ ١٤ ؛ وتذكرة الحفاظ: ١/ ٢٢٦.

(٢) تاريخ بغداد: ١٠/ ١٥٢-١٥٤ ؛ وتذكرة الحفاظ: ١/ ٢٧٥ ؛ وتهذيب التهذيب: ٥/ ٣٨٤.

(٣) تاريخ بغداد: ١٠/ ١٥٢.

(٤) تاريخ بغداد: ١/ ٢٧٤.

كلُّ نفس اللونَ الذي ترتاح إليه.

قيل: إنه اجتمع مرةً أصحابُ ابن المبارك فقالوا: تعالوا نعُدُّ خصال ابن المبارك من أبواب الخير! فقالوا: جمع العلم والفقه والأدب والنحو واللغة والشعر والفصاحة والزهد والورع والإنصات وقيام الليل والعبادة والحج والغزو والفروسية والشجاعة والشدة في بدنه، وترك الكلام فيما لا يعنيه وقِلّة الخلاف على أصحابه[1]، وقال فضالة النسوي: كنت أجالس أصحاب الحديث بالكوفة وكانوا إذا تشاجروا في حديث قالوا: مروا بنا إلى الطيب حتى نسأله، يعنون عبدَ الله بن المبارك[2].

وروي أنه جاء رجل إلى سفيان الثوري سأله عن مسألة فقال له: مِن أين أنت؟ فقال: من أهل المشرق، قال: أوليس عندكم أعلمُ أهل المشرق؟ قال: ومَن هو يا أبا عبد الله؟ قال: عبد الله بن المبارك، قال: وهو أعلم أهل المشرق؟ قال: نعم! وأهل المغرب![3] قال الذهبي[4]: «والله إني لأحبّه في الله وأرجو الخير بحُبّه لما منحه الله من التقوى والعبادة والإخلاص والجهاد وسعة العلم والإتقان والمواساة والفتوة والصفات الحميدة».

قال أبو إسحاق الفرازي: ابن المبارك إمام المسلمين. وقال ابن عيينة: نظرت في أمر الصحابة وأمر ابن المبارك فما رأيت لهم عليه فضلاً إلا لصُحبتهم النبي ﷺ وغزوهم معه[5]. وقال ابن سعد[6]: طلبَ العلم فروى رواية كثيرة وصنّف

---

(١) تذكرة الحفاظ: ١/ ٢٧٦ ؛ وتهذيب التهذيب: ٥/ ٣٨٥.

(٢) تاريخ بغداد: ١٠/ ١٥٦.

(٣) تاريخ بغداد: ١٠/ ١٦٢.

(٤) تذكرة الحفاظ: ١/ ٢٧٥.

(٥) تاريخ بغداد: ١٠/ ٢٧٦ ؛ وتذكرة الحفاظ: ١/ ٢٧٦ ؛ وتهذيب التهذيب: ٥/ ٣٨٥.

(٦) الطبقات الكبرى: ٧/ ٣٧٢.

كتباً كثيرة في أبواب العلم وصنوفه، حملها عنه قوم وكتبها الناس عنهم، وقال الشعرَ في الزهد والحثّ على الجهاد.

وقال الخطيب[1]: إن عمار بن الحسن كان يمدح ابن المبارك ببيتَين:

إذا سار عبدُ الله مِن مَرْو ليلةً ... فقد سار منها نَيرُها و جمالُها

إذا ذُكر الأحبارُ في كل بلدةٍ ... فهُم الجُمّ فيها وأنتَ هِلالُها

وقال صخر - أحد زملاء ابن المبارك في صباه -: كنا غلماناً في الكُتّاب فمررتُ أنا وابن المبارك ورجل يخطب، فخطب خطبةً طويلةً، فلما فرغ قال لي ابن المبارك: قد حفظتها، فسمعه رجل من القوم فقال: هاتها، فأعاد عليهم ابن المبارك الخطبة بتمامها[2].

في ميدان الدعوة

لقد ثبت بما ذكرنا من أقوال الأئمة والمحدّثين أن شخصية عبد الله بن المبارك كانت جامعةً خصائلَ محمودة متنوعة، وخليقة بأن تجعله عَلماً من أعلام الدعوة في عصره وبعد عصره، فكأننا رأينا عبقرياً يتجوّل في ميدان الدعوة، يبرز تارةً بصورة تاجرٍ كبيرٍ يملك رأسَ مال قدره نحو أربعمائة ألف درهم[3]، يدور ويتّجر به في البلدان، ويربح نحو مائة ألف درهم سنوياً، وهل كان ينفقها كلها على نفسه؟، لا، بل كان ينفق كلها في أهل العبادة والزهد والعلم، وتارةً ينفق عليهم من رأس ماله[4]، وسأله الفضيل بن عياض مرة: أنت تأمرنا بالزهد والتقلّل والبلغة، ونراك تأتي بالبضائع من بلاد خراسان إلى البلد الحرام، وكيف ذا؟،

---

(١) الطبقات الكبرى: ١٠/ ١٦٤.

(٢) تاريخ بغداد: ١٠/ ١٦٥-١٦٦.

(٣) يعتبر هذا المبلغ شيئاً عظيماً في ذلك العصر نظراً إلى قلة المال المتداول في أيدي الناس، بالقياس إلى ازدياد تداوله في أيدي الناس في عصرنا، عصر الصناعة والبترول.

(٤) تاريخ بغداد: ١٠/ ١٥٨ ؛ والبداية والنهاية: ١٠/ ١٧٧.

فأجابه ابن المبارك قائلاً: يا أبا عليّ إنما أفعل هذا لأصونَ به وجهي وأُكرِم به عِرضي وأستعين به على طاعة ربي، لا أرى للهِ حقًّا إلا سارعتُ إليه حتى أقوم به[1].

ولقد أشار ابن المبارك رحمه الله في إجابته هذه إلى أن يختار الداعية الإسلامي مكسباً يمنحه الحرية الكاملة في أداء مهمته، فلا يخاف أيَّ نوع من الضغط والخنق في مباشرة عمله من العوامل الخارجية، كما ينبغي له أن يُسرع إلى كل خير يوصِّله إلى الله ويقرِّبه منه، [وكأن] ابن المبارك رحمه الله اقترح بإجابته هذه على دعاة كل عصر وجيل أن يعملوا - ما وسعَهم العمل - على تكوين موارد ومكاسب تكفيهم وتصون ماءَ وجوههم، ويجتنبوا الوظائف ورواتبها ما استطاعوا؛ فإن الرواتب تأكل الشخصية مع الأيام كما تأكل المبرد الخشب، إلا أن يعان صاحبها على إدامة ترميمها والعناية بها.

وقيل: عاب بعض الناس على عبد الله بن المبارك أنه ينفق ماله على غير أهل بلده، فأجابهم إجابةً ينبغي أن تكتب بماء الذهب فقال: «إني أعرف مكانَ قوم لهم فضلٌ وصِدقٌ، طلبوا الحديث فأحسنوا الطلب للحديث، لحاجة الناس إليهم احتاجوا، فإن تركناهم ضاع عليهم، وإن أعنّاهم بثُّوا العلم لأمة محمد ﷺ، ولا أعلم بعد النبوة أفضل من بَث العلم»[2].

ولم يكن إنفاق ابن المبارك منحصراً على طلبة العلم والعلماء فحسب، بل كان ينال معروفه كل محتاج إليه، وكأنه يحتال حِيَلاً للإنفاق في سبيل الله، فروي أنه خرج مرةً للحج ومعه رفقته وأصحابه، وعندما كانوا يمرون ببلدةٍ ؛ مات طائرٌ كان معهم، فأمر برميه على مزبلة كانت هناك، ثم سار أصحابه وتخلّف هو لسبب ما، فلما مرّ بتلك المزبلة إذ هو بجارية خرجت من دار قريبة منها فأخذت

---

(١) تاريخ بغداد: ١٠/ ١٦٠.

(٢) تاريخ بغداد: ١٠/ ١٦٠.

ذلك الطائر الميت المرمي ثم أسرعت به إلى الدار، فذهب ابن المبارك إليها وسألها عن أحوالها فقالت: أنا وأخي ههنا وليس لنا شيء إلا هذا الإزار، وليس لنا قوت إلا ما يلقى على هذه المزبلة، وقد حلّت لنا الميتة اضطراراً منذ أيام، وكان أبونا له مالٌ فأُخِذ ماله ظلماً وقُتل، فأمر ابن المبارك بردّ أحماله، ثم قال لوكيله: كم معك من النفقة؟ قال: ألف دينار، فقال: عدّ منها عشرين ديناراً تكفينا إلى مَرو، وأعطها الباقي، فهذا أفضل من حَجِّنا هذا العام، ثم رجع(١).

وقدّم ابن المبارك رحمه الله بفعله هذا - وبمآثره الأخرى بهذا الصدد - نموذجاً رائعاً للتكافل الاجتماعي، وأبرز لأغنياء المجتمع الإسلامي أسوةً دعويةً لو اتبعوها لأصبح المجتمع مجتمعاً فاضلاً يعيش فيه الفقراء والمساكين في رغد العيش، ولا يمسّهم البؤس والشقاء، ويعيش فيه الأغنياء تغشاهم الطمأنينة القلبيـة، وهكذا تنتشر نفحات هذا المجتمع الفاضل إلى ما جاوره من المجتمعات الأخرى فتندفع عجلة الدعوة إلى الأمام، وإذا كثر من أمثال ابن المبارك في أغنياء المجتمع الإسلامي، أفلا يكون ذلك المجتمع مجتمعاً دعوياً مثالياً؟ ثم أفلا تنفتح قلوب الناس للدعاة وتقبل عليهم أيّما إقبال(٢)؟، وفي الحقيقة هؤلاء العلماء الأعلام وهذه الشخصية الدعوية قد تداركت في حقل الدعوة في العصر

---

(١) البداية والنهاية: ١٠/ ١٧٨.

(٢) وفي هذا الصدد أرى من المناسب ذكر مأثرة من مآثر الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله تقدم قدوة واقعية لغيره من الدعاة في العصر الحاضر، فقد روى الشيخ عطية بن سالم رحمه الله عنه أنه عندما كان نائبا لرئيس الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة كان لا يبخل على طلبة العلم من بلاد المسلمين المختلفة في طلب وإعانة، حتى أنه أحيانا يضطر إلى الاقتراض من أمين صندوق الجامعة إلى درجة لا يبقى من راتبه في الشهر التالي إلا يسير اليسير، ولم أسمع بهذا عن غير الشيخ، ولا غرو، فقد كان الشيخ رجلاً دعوياً حقاً ولم يكن ينهى عن خُلق ويأتي بمثله، ولم يكن في فقهه وفتاواه متزمتاً متشدداً. د. محمد عامر مظاهري.

العباسي الأول كثيراً من النقص الذي سببته أوضاع الخلفاء ومَن إليهم.

ويبدو أن ابن المبارك رحمه الله كان داعيةً قد اجتمعت له مقومات الداعية على نحو يثير الإعجاب، إنه لم يكن غنياً من الأغنياء يجود بماله في سبيل الله فحسب، بل كان في مقدمة مَن يجودون بأرواحهم وأنفسهم في سبيل الله، فإذا رأيناه تاجراً صدوقاً أميناً يتَّجر بماله وينفقه في سبيل الله بغاية جُود وسخاء ؛ رأيناه أيضاً يخرج غازياً في سبيل الله، وأبياته التي وجّهها إلى الفضيل بن عياض - وذكرناها فيما سبق - تدل على حِدة عواطفه وصدق مقاله وقوة إيمانه في هذا المجال، ونكتفي ههنا بذكر قصة بهذا الصدد:

روى الخطيب[1]: كان عبد الله بن المبارك كثير الاختلاف إلى طرسوس، وكان ينزل الرقَّةَ في خان، وكان شابٌّ يختلف إليه ويقوم بحوائجه ويسمع منه الحديث، قال: فقدمَ عبد الله الرقةَ مرةً فلم يَرَ ذلك الشاب، وكان مستعجلاً، فخرج في النفير، فلما قفل من غزوته ورجع الرقةَ سأل عن الشاب، فقالوا: إنه محبوس لدَينٍ ركبه، فقال عبد الله: كم بلغ دَينه؟ فقالوا: عشرة آلاف درهم، فلم يزل يستقصي حتى دُلَّ على صاحب المال، فدعاه ليلاً ودفع إليه عشرة آلاف درهم وحلّفه أن لا يُخبر عن ذلك أحداً ما دام عبدُ الله حياً، ثم قال له: إذا أصبحتَ فأخرج الشابَّ من الحبس، وأدلِجْ عبدَ الله، فأُخرج الفتى من الحبس وقيل له: عبد الله ابن المبارك كان ههنا وكان يذكرك وقد خرج، فخرج الفتى في أثره فلحقه على مرحلتين أو ثلاث من الرقة، فلما رآه عبد الله قال: يا فتى أين كنت؟ لم أرَك في الخان، قال: نعم يا أبا عبد الرحمن كنتُ محبوساً بدَين، قال: كيف كان سبب خلاصك؟ قال: جاء رجل فقضى عني دَيني ولم أعلم به حتى أُخرجتُ من الحبس، فقال له عبد الله: يا فتى احمَد الله على ما وفق لك من قضاء دَينك، وقيل: إنه لم يعلم هذا الخبر أحدٌ إلا بعد موت عبد الله.

---

(١) تاريخ بغداد: ١٠/١٥٩.

وهل هناك مثال أحسن من هذا في إخفاء ما يفعله المسلم ابتغاءَ وجه الله؟ أليس هذا تفسيراً حياً لحديث رسول الله ﷺ: «ورجلٌ تصدّق بصدقةٍ فأخفاها حتى لا تعلم يمينُه ما تنفق شمالُه»[1]، وما أروع ما تمثله هذا الداعية العظيم من سمات الدعوة الإسلامية، فصاد - كما يقال - ثلاثة عصافير بطلقة واحدة: ثلاث صفات هامة يحتاج إليها أفراد المجتمع الإسلامي الدعوي:

* خرج غازياً في سبيل الله.
* وأنفق ماله في سبيل الله.
* وأخفى إنفاقه فلم يعلم به أحدٌ إلا بعد موته.

وقد أخرج ابن حجر[2] رحمه الله خبراً يظهر منه أن ابن المبارك كان يذهب مذهب الدقة والاحتياط البالغ في ورعه، فرُوي أنه استعار قَلَماً من رجل بالشام، ونسِيَ أن يردّه إلى صاحبه، فذهب إلى خراسان، ولما تذكّر رجع على عقبَيه إلى الشام فردّ القلم إلى صاحبه ثم خرج إلى خراسان، وهذا الضرب من الورع الذي ينمّ عن محاسبة النفس حساباً دقيقاً أمرٌ يجدر بالدعاة أن يأخذوا أنفسهم به.

وإن الله سبحانه وتعالى أنعم عليه نتيجة تقواه والتزامه إياه بكرامات[3] [منها أنه على الرغم من كونه] رحالةً كبيراً في باب العلم وفي التجارة والحج والغزو في سبيل الله ؛ صنّف كُتباً كثيرةً في أبواب العلم[4]، وكانت كتُبه التي حدّث بها عشرين ألفاً أو واحداً وعشرين ألفاً[5]، وبعد عمر طويل قضاه ابن المبارك رحمه

---

(١) متفق عليه، واللفظ لمسلم: ٧/ ١٢٣-١٢٤.

(٢) تهذيب التهذيب: ٥/ ٣٨٧.

(٣) تاريخ بغداد: ١٠/ ١٦٧ ؛ وصفة الصفوة: ٤/ ١٤٤ ؛ تهذيب التهذيب: ٥/ ٣٨٧.

(٤) الطبقات الكبرى: ٧/ ٣٧٢.

(٥) تاريخ بغداد: ١٠/ ١٦٤.

الله في خدمة الإسلام والدعوة إليه بأساليب مختلفة - نظريةً وعمليةً - لحقت روحه ببارئها في العاشر من رمضان سنة إحدى وثمانين ومائة، وكان منصرفًا من غزوةٍ غزاها في سبيل الله[1]، ولئن توارى عن الناس شخصُ ابن المبارك وأُودِع الثرى، فإن سيرته كداعيةٍ عظيمٍ ما تزال مَعالِمَ هادية على طريـق الدعوة، رحمه الله رحمةً واسعةً.

٥- الإمام البخاري (١٩٤ - ٢٥٦هـ)

تعريف به :

هو الإمام الحافظ أبو عبد الله محمد بن أبي الحسن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن الأحنف بردزبه الجعفي ّبالولاء، صاحب الجامع الصحيح والتاريخ الكبير، وُلد ببُخارى يوم الجمعة بعد صلاة الظهر الثالث عشر من شوال سنة أربع وتسعين ومائة ١٩٤هـ، كان جدّه بردزبه مجوسياً ومات على المجوسية، وابنه المغيرة أسلم على يدي يمان الجعفي البخاري، حاكم بخارى، فنُسب إليه[2].

نشأ يتيماً، وأوّلُ سماعه للحديث سنة خمس ومائتين ٢٠٥هـ، وحفظ تصانيف عبد الله بن المبارك في صباه، ورحل في طلب العلم إلى سائر بلدان المحدّثين، سمع أولاً مرويات بلده ثم خرج منها وذهب إلى بَلْخ وسمع محدِّثيها، ثم رحل إلى أماكن أخرى: مَرْو ونيسابور وبغداد والبصرة والكوفة والشام وعسقلان وحمص ودمشق ومكة والمدينة، وسمع في هذه البلاد عن مكي بن إبراهيم البلخي وأبي عاصم الشيباني وأبي بكر الحميدي ومحمد بن كثير العبدي وعلي بن المديني ويحيى بن معين وأحمد بن حنبل وغيرهم من المحدثين

---

(١) الطبقات الكبرى: ٧/ ٣٧٢ ؛ وتذكرة الحفاظ: ١/ ٢٧٩.

(٢) تاريخ بغداد: ٢/ ٦ ؛ ووفيات الأعيان: ٤/ ١٩٠.

يتجاوز عددهم الألف، وسمع عنه الترمذي ومسلم والنسائي وابن خزيمة وغيرهم خلق كثير[١].

علمه وفضله:

قال الذهبي[٢]: كان - أي البخاري - رأساً في الذكاء، ورأساً في العلم، ورأساً في الورع والعبادة، وقال ابن خزيمة: ما تحت أديم السماء أعلم بالحديث من البخاري[٣]، وقال محمد بن بشار البندار: حُفّاظ الدنيا أربعة: أبو زرعة بالري، ومسلم بن الحجاج بنيسابور، وعبد الله بن عبد الرحمن الدارمي بسمرقند، ومحمد بن إسماعيل البخاري ببخارى[٤].

وقال الدارمي: قد رأيت العلماء بالحرمَين والحجاز والشام والعراقَين، فما رأيت فيهم أجمع من أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري[٥]، وقيل إنه كتبَ أهلُ بغداد إلى الإمام البخاري البيت التالي:

المسلمون بخيرٍ ما بقيتَ لهم   وليسَ بعدَك خيرٌ حين تُفتَقدُ[٦]

وقال يحيى بن جعفر: لو قدِرتُ أن أزيد في عمر محمد بن إسماعيل البخاري بموتي لفعلت؛ فإن موتي يكون موت رجلٍ واحدٍ، وموت محمد بن إسماعيل ذهاب العلم[٧].

---

(١) تذكرة الحفاظ: ٢/ ٥٥٥ ؛ والبداية والنهاية: ١١/ ٢٥ ؛ وتهذيب التهذيب: ٩/ ٤٧-٤٨.

(٢) تذكرة الحفاظ: ٢/ ٥٥٥.

(٣) تذكرة الحفاظ: ٢/ ٥٥٦.

(٤) تاريخ بغداد: ٢/ ١٦.

(٥) تاريخ بغداد: ٢/ ٢٨.

(٦) تاريخ بغداد: ٢/ ٢٢ ؛ والبداية والنهاية: ١١/ ٢٦ ؛ وتهذيب التهذيب: ٩/ ٥١.

(٧) تاريخ بغداد: ٢/ ٢٤.

ويحكي حاشد بن إسماعيل - أحد زملاء البخاري - قصةً تدل على قوة حفظه الفائقة فقال: كان أبو عبد الله محمد بن إسماعيل يختلف معنا إلى مشائخ البصرة وهو غلام، فلا يكتب، ومضى على ذلك أيام، وكنا نقول له: إنك تختلف معنا ولا تكتب فما معناك فيما تصنع؟، فقال لنا بعد ستة عشر يوماً: إنكما قد أكثرتما عليّ فاعرضا عليّ ما كتبتما، فأخرجنا ما عندنا، فزاد على خمسة عشر ألف حديث فقرأها كلها عن ظهر قلب حتى جعلنا نُحكِّم كتبنا على حفظه، ثم قال: أترون أني اختلف هدراً وأضيّع أياماً؟، فعرفنا أنه لا يتقدمه أحد[1].

وهناك اعترافات أخرى بعلم الإمام البخاري وفضله من العلماء والمحدِّثين قد اهتمّت بذكرها كُتب التذكرة والتراجم، وتدل على أن البخاري رحمه الله كان إمام أهل الحديث في زمانه، وكـان يفوق أقرانـه بعلمه وورعه وتقواه وقوة ذاكرتـه النادرة.

في ميدان الدعوة

رحلات الإمام البخاري العلمية كلها تعتبر جهوداً عظيمةً في سبيل الدعوة الإسلامية، وأكبر خدماته في هذا الميدان تصنيفه الخالدُ ذكرُه «الجامع الصحيح» فجمع في كتابه الأحاديث الصحيحة التي تنطبق على شروطه روايةً ودرايةً، وخرّج أكثر من ثمانية آلاف حديث من ستمائة ألف حديث، وصنّف هذا الكتاب في مدةٍ استغرقت ست عشرة سنة، وكان قد التزم أن يغتسل ويصلي ركعتين قبل كتابة كل حديث في الكتاب[2].

وتقبَّل الله تعالى حُسن نيته وصدق مقاصده، فنال إقبالاً عظيماً في أوساط

---

(١) تاريخ بغداد: ٢/ ١٥ ؛ وتذكرة الحفاظ: ٢/ ٥٥٦.

(٢) تاريخ بغداد: ٢/ ٩ ؛ ووفيات الأعيان: ٤/ ١٩٠ ؛ وتدريب الراوي: ١/ ١٠٣.

المسلمين وأجمع العلماء على قبوله وصِحة ما فيه[1]، وهكذا أعطى هذا الإمام الجليل الأمة الإسلامية مجموعةً مصدّقةً منقّحةً للأحاديث يراجعها علماء الأمة وعامتها عند الحاجة بغاية الاعتماد والثقة والطمأنينة، وجرت على ألسن الخلائق بأنّ «أصحّ الكتب بعد كتاب الله: الجامع الصحيح للبخاري»[2].

ولا بأس لو ذكرنا بهذه المناسبة أبياتاً ذكرها الحافظ ابن كثير رحمه الله في شأن صحيح البخاري، نظمها أحد العارفين بفضل الجامع الصحيح:

صحيح البخاري لو أنصفوهُ ... لما خُطَّ إلا بماء الذهبْ
هو الفرق بين الهدى و العَمَى ... هو السَّدّ بين الفتى والعطَب
أسانيدُ مثلُ نجوم السماء ... أمام مُتون لها كالشهُب
بها قامَ ميزانُ دين الرسولِ ... ودانَ به العَجْم بعد العَرَب
حجابٌ من النار لا شك فيه ... يميّز بين الرضا و الغضب
فيا عالماً أجمع العالَمو ... نَ على فضل رُتبته في الرتب
سبقتَ الأئمة فيما جمعتَ ... وفُزتَ على زعمهم بالقصَب
نفيتَ الضعيفَ من الناقليـ ... ـن ومَن كان متهماً بالكذب
وأبرزتَ في حُسن ترتيبه ... وتبويبه عجباً بالعجب
فأعطاك مولاك ما تشتهيه ... وأجزلَ حظك فيما وهب[3]

والمأثرة الأخرى لهذا الإمام الجليل في ميدان الدعوة الإسلامية: هو تصنيفه العظيم، «التاريخ الكبير» كتاب كبير في فن أسماء الرجال، ويحكي البخاري نفسه قصة تصنيفه هذا الكتاب فيقول: «فلما طعنت في ثماني عشرة، جعلت أصنف قضايا الصحابة والتابعين وأقاويلهم، وذلك أيام عبيد الله بن موسى،

---

(١) البداية والنهاية: ١١/ ٢٤.

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي: ١/ ١٤.

(٣) البداية والنهاية: ١١/ ٢٧-٢٨.

وصنفتُ «كتاب التاريخ» إذ ذاك عند قبر الرسول ﷺ في الليالي المقمرة،... وقلّ اسم في التاريخ إلاّ وله قصةٌ عندي إلاّ أني كرهتُ تطويل الكتاب»[1].

ويكفي لمعرفة دقة نظر الإمام البخاري رحمه الله في أسماء الرجال وبراعته الفائقة في هذا الفن الجليل، ذِكر تلك الحكاية المعروفة التي صادفها هذا الإمامُ النبيل وأظهر فيها براعته النادرة في هذا الفن، يقول الخطيب في تاريخ بغداد[2]: «إنه روَى هذه القصة غيرُ واحد من المشائخ وهي: أن أهل الحديث ببغداد لما سمعوا بمجيء الإمام البخاري إليها اجتمعوا وأرادوا أن يختبروا تبحّر الإمام في رجال الحديث، فاختاروا مائة حديث وقلَبوا متونها وأسانيدها بحيث نسبوا إسنادَ هذا المتن إلى متن آخر، ومتنَ هذا الإسناد إلى إسنادٍ آخر، وهكذا رتّبوا عشر مجموعات للأحاديث في كل مجموعة عشرة أحاديث مقلوبة المتن والإسناد، وكلّفوا عشرة رجال لإلقاء هذه المجموعات على الإمام البخاري.

فلما جاء البخاري إلى بغداد اجتمعَ حوله جمعٌ كبير من علماء الحديث وغيرُهم كما جرت العادة في تلك الأيام، وحضر المجلسَ أولئك الرهط أيضاً، فلما اطمأنّ المجلس قام رجلٌ من أولئك العشرة فسأل الإمامَ عن حديثٍ من تلك الأحاديث، فقال البخاري: لا أعرفه، فسأله عن الثاني، فقال: لا أعرفه، حتى انتهى من العشرة التي كانت عنده، ثم قام الآخر، وأجابه الإمام بما أجاب به الأول، واستمرّوا في إلقاء الأحاديث واستمرّ الإمام في إجابته «لا أعرفه»، وفي هذه الفترة من الزمن تفطن الذين أرادوا الامتحان أنّ هناك ضيغماً في العرين، ولكن العامة دهشت بإجابة الإمام، ولما أفرغوا ما في جُعبتهم جميعاً، التفت الإمام إلى الأول منهم فقال له: أما حديثك الأول فهو كذا، وحديثك الثاني فهو كذا والثالث والرابع...، فأتم العشرة بحيث ردّ كل متن إلى إسناده

---

(١) تاريخ بغداد: ٢/ ٧.

(٢) انظر: ٢/ ٢١ ؛ ووفيات الأعيان: ٤/ ١٨٩.

وكل إسناد إلى متنه، وفعل بالآخرين مثل ذلك، فردّ المتون إلى الأسانيد والأسانيد إلى المتون، فاعترف علماء بغداد ومَن بلغهم هذا الخبر بتبحّر علمه وفضله.

وذكر الحافظ ابن كثير[1] رحمه الله أيضاً قصةً تناهي هذه القصة بأن الإمام البخاري رحمه الله زار سمرقند واجتمع بأربعمائة من علماء الحديث هناك، فخلطوا أسانيد الأحاديث بحيث أدخلوا إسناد الشام في إسناد العراق، وكذلك عكسه، كما خلطوا الرجال في الأسانيد، ثم قرءوها على البخاري، فردّ كل حديث إلى إسناده وقوّم تلك الأحاديث والأسانيد كلها، ولم يستطيعوا أن يأخذوا عليه سقطةً في إسنادٍ ولا متن.

وتدل هذه الوقائع على قوة ذاكرة الإمام العجيبة الموهوبة من الله وعلى دقة نظره وعُلوّ كعبه في هذا الفن الجليل، كما تبرز لنا صورةً مشرقةً لخَدَمات هؤلاء العلماء المخلصين والمحدّثين البارعين للدعوة الإسلامية، فلو لم يتحمل هؤلاء الأئمة العظام هذه المشقة وهذا التعب في خدمة هذا الفن الشريف، ولو لم يميزوا الكَذِبَ من الصدق، والخبيثَ من الطيب، والفاسدَ من الصحيح ؛ لأصبحت أحاديث رسول الله ﷺ عُرضةً لمكائد الدجاجلة ودسائسهم الذين جعلوا يضعون الأحاديث وينشرونها في الناس، ولضلّت الدعوة الإسلامية طريقها في ظلام حالك، وكان للإمام البخاري رحمه الله قسطٌ كبيرٌ في هذه الخَدَمات الدعوية الجليلة، وقد اعترف به كبار رجال العلم في عصره، فقال الإمام أبو عيسى الترمذي: «لم أرَ بالعراق ولا في خراسان في معنى العِلل والتاريخ ومعرفة الأسانيد أعلم من البخاري»[2].

وما نال البخاري هذا المنصب الجليل إلاّ بعد ما تحمّل المشقة والتعب في هذا

---

(١) البداية والنهاية: ١١/ ٢٥.

(٢) البداية والنهاية: ١١/ ٢٦.

السبيل، فيقول زميل من زملائه وهو عمر بن حفص الأشقر: «كنا مع محمد بن إسماعيل البخاري بالبصرة نكتب الحديث، ففقدناه أياماً، فطلبناه، فوجدناه في بيت وهو عريان، وقد نفد ما عنده ولم يبق معه شيء، فاجتمعنا وجمعنا له الدراهم حتى اشترينا له ثوباً وكسوناه»، فهذا لونٌ من التعب المادي الذي تحمله البخاري، وهناك لون من التعب المعنوي، فكان يسهر في الليالي وتارة ينام ويستيقظ مرات وكرات في الليلة، يسجل ما يخطر بباله من الملاحظات القيمة، فقال محمد بن أبي حاتم الوراق: إنه رأى البخاري يستيقظ في ليلة واحدة من خمس عشرة مرة إلى عشرين مرة، فيقوم وينير المصباح ويسجل ملاحظته على الأحاديث ثم يضطجع.

وفي جانب آخر، ترك البخاري رحمه الله معالم الزهد والتقوى في سيره على طريق الدعوة، فحاز ذروة الجد في الورع بحيث لم يغتَب إنساناً طول حياته فقال: «إني لأرجو أن ألقى اللهَ ولا يحاسبني أن اغتبت أحداً»[1]، وهذا مستوى للورع والتقوى بالغ الرفعة، وله ألوان أخرى وأخبار مثيرة من الزهد والتقوى، وقد استغنينا عن ذكرها بعد ما ذكرنا محافظته على لسانه من الغِيبة؛ إذ ليست هناك أي رياضةٍ روحيةٍ أصعب من اجتناب الغِيبة، وإن الرجل الدعوي [في أشدّ] الحاجة إلى صون لسانه عن الغيبة، إذ هي مَجْلَبةٌ للأحقاد وسببٌ لإيقاع النفرة بين القلوب، والداعية مؤلِّفٌ لا مُنفِّر ومُقرِّبٌ بين الناس لا مُباعِد.

وهكذا بقي هذا الإمام الجليل يخدم العلوم الإسلامية، وخصوصاً علم الحديث، وينشر نفحاته الدعوية في أنحاء العالم الإسلامي آنذاك، حتى جاء موعد لقاء ربه، وكان نازلاً عند بعض أقاربه، في بلدة يقال لها «خرتنك»، على بُعد فرسخين من سمرقند، فتوفي إلى رحمة الله، ليلة عيد الفطر، عند صلاة العشاء، سنة ست وخمسين ومائتين ٢٥٦هـ، صابراً على المنافحة عن دينه ومبادئه، وكان

---

(١) تاريخ بغداد: ٢/ ١٣ ؛ والبداية والنهاية: ١١/ ٦.

عمره إذ ذاك اثنتين وستين سنة، وصُليَ عليه يوم العيد بعد صلاة الظهر[1]، رحمه الله رحمةً واسعةً.

٦- الإمام مسلم (٢٠٤ - ٢٦١هـ)

تعريف به:

هو الإمام الحافظ، أبو الحسين مُسلِم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري، صاحب «الصحيح»، وُلد سنة أربع ومائتين ٢٠٤هـ، ورحل في طلب العلم إلى العراق والحجاز والشام ومصر، وسمع الحديث عن يحيى بن يحيى التميمي النيسابوري وقتيبة بن سعيد وإسحاق بن راهويه وأحمد بن حنبل وخلق كثير، وروى عنه الإمام الترمذي حديثاً واحداً، وإبراهيم بن أبي طالب وابن خزيمة وغيرهم[2].

علمه وفضله:

كان الإمام مسلم رحمه الله علَماً من أعلام أئمة الحديث وحفاظه[3]، ولقّبه الذهبي بحُجة الإسلام[4]، وقال شيخه محمد بن عبد الوهاب الفراء: «كان مسلم من علماء الناس وأوعية العلم، ما علمته إلا خيراً»، وقال سلمة بن قاسم: ثقة جليل القدر من الأئمة[5]، وقال أبو قريش الحافظ: حُفاظ الدنيا أربعة، فذكر

---

(١) تاريخ بغداد: ٢/ ٣٤ ؛ ووفيات الأعيان: ٤/ ١٩٠ ؛ وتذكرة الحفاظ: ٢/ ٥٥٦ ؛ والبداية والنهاية: ١١/ ٢٧ ؛ وتهذيب التهذيب: ٩/ ٤٨.

(٢) تاريخ بغداد: ١٣/ ١٠٠ ؛ وتذكرة الحفاظ: ٢/ ٥٨٨ ؛ والبداية والنهاية: ١١/ ٣٣-٣٤ ؛ وتهذيب التهذيب: ١٠/ ١٢٦-١٢٧.

(٣) تاريخ بغداد: ١٣/ ١٠٠.

(٤) تذكرة الحفاظ: ٢/ ٥٨٨.

(٥) تهذيب التهذيب: ١٠/ ١٢٦-١٢٧.

منهم مُسلماً[1]، وقال إسحاق بن منصور لمسلم: لن نعدم الخير ما أبقاك الله للمسلمين[2].

في ميدان الدعوة:

لكل من هؤلاء الأئمة الأعلام ميزةٌ خاصةٌ في ميدان الدعوة الإسلامية، ولا شك أن عكوف الإمام مسلم على خدمة علم الحديث وملازمته شيوخ هذا الفن الجليل وتصانيفه العديدة[3] ؛ خدمةٌ جليلةٌ في حقل الدعوة الإسلامية، وأبرز ما أنجزه هذا الأمام الجليل من مهمته في سبيل الدعوة هو: تصنيفه الكبير «المسند الصحيح»[4] جمع فيه الإمام مسلم اثني عشر ألف وثلاثمائة حديث مسموعة، واستغرق تأليف هذا الكتاب الجليل خمس عشرة سنة[5].

وقد اتفق العلماء على أن أصح الكتب بعد كتاب الله تعالى: الصحيحان للإمام البخاري ومسلم، وتلقَّتْهُما الأمة بالقبول[6]، ورجّح بعض العلماء صحيح مسلم على صحيح البخاري، فقال حسين بن عليّ النيسابوري شيخ الحاكم أبي عبد الله النيسابوري: ما تحت أديم السماء أصحّ من كتاب مسلم بن الحجاج في الحديث[7]، ولكل من الكتابَين ميزة تخص به، فمن مميزات صحيح مسلم:

جمع الطرق، وجَودة السياق، والمحافظة على أداء الألفاظ كما هي من غير

---

(١) تذكرة الحفاظ: ٢/ ٥٨٩.

(٢) البداية والنهاية: ١١/ ٣٣.

(٣) تذكرة الحفاظ: ٢/ ٥٩٠.

(٤) تاريخ بغداد: ١٣/ ١٠٠.

(٥) تذكرة الحفاظ: ٢/ ٥٨٩ ؛ وتدريب الراوي: ١/ ١٠٤.

(٦) شرح صحيح مسلم للنووي: ١/ ١٤.

(٧) تاريخ بغداد: ١٣/ ١٠١.

تقطيع ولا رواية بالمعنى[1]، ويمتاز صحيح البخاري في قوة الأسانيد وصحّتها[2]، فمن استحسن مميزة صحيح مسلم فضّله على صحيح البخاري، وكذلك عكسه، وما تلقّته الأمة بالتواتر هو فضل صحيح البخاري على صحيح مسلم.

قال الخطيب: «إنما قفا مسلمُ طريقَ البخاري ونظر في علمه وحذا حذوه، ولما ورد البخاري نيسابور في آخر أمره لازمَه مسلمُ وأدام الاختلافَ إليه». وقال أحمد بن حمدون القصار: سمعت مسلم بن الحجاج، وجاء إلى محمد بن إسماعيل البخاري، فقبّـل بين عينيه وقال: دعني حتى أقبل رجليك يا أستاذ الأستاذين وسيد المحدّثين وطبيب الحديث في علله»[3].

على كلٍ، صحيح البخاري وصحيح مسلم كل منهما مأثرة جليلة في ميدان الدعوة الإسلامية، أنجزهما إمامان جليلان في العصر العباسي الأول، وقد خدما بصنيعهما الدعوة خدمةً لا تكاد تفضلها خدمة.

وتوفي الإمام مسلم رحمه الله عشية يوم الأحد الخامس والعشرين من رجب سنة إحدى وستين ومائتين ٢٦١هـ، ودُفن بنَصر آباد بنيسابور يوم الاثنين، وكان عمره إذ ذاك سبعًا وخمسين سنة[4]، رحمه الله تعالى رحمةً واسعةً.

---

(١) تهذيب التهذيب: ١/ ١٢٧.

(٢) البداية والنهاية: ١١/ ٣٣.

(٣) تاريخ بغداد: ١٣/ ١٠٢.

(٤) تاريخ بغداد: ١٣/ ١٠٤ ؛ وتذكرة الحفاظ: ٢/ ٥٩٠ ؛ والبداية والنهاية: ١١/ ٣٤ ؛ وتهذيب التهذيب: ١٠/ ١٢٧.

ثانياً: دعاة من الفقهاء

١- الإمام أبو حنيفة (٨٠ – ١٥٠ هـ)

نشأته:

هو فقيه العصر، أبو حنيفة النعمان بن الثابت بن النعمان بن المرزبان، من أبناء فارس الأحرار[١]، وُلد بالكوفة سنة ثمانين في عهد عبد الملك بن مروان[٢]، وهو تابعيّ، أدرك عهد الصحابة رضي الله تعالى عنهم ورأى الصحابي الجليل أنسَ بن مالك خادم رسول الله ﷺ[٣].

لم يجد الإمام رحمه الله في بداية عمره مَن يرشده لطلب العلم، فظل مشتغلاً بالتجارة حتى رآه الإمام عامر الشعبي مرةً ولمس فيه الذكاء والفطنة فحثّه على الاشتغال بالعلم، يقول الإمام أبو حنيفة: «مررتُ يوماً على الشعبي وهو جالس فدعاني وقال: إلى مَن تختلف؟، فقلت: أختلف إلى فلان، فقال: لم أعنِ إلى السوق، عنيتُ الاختلاف إلى العلماء، فقلت: أنا قليل الاختلاف إليهم، قال: لا تفعل، وعليك بالنظر في العلم ومجالسة العلماء، فإني أرى فيك يقظةً وحركةً، فوقع في قلبي من قوله، فتركتُ الاختلاف إلى السوق وأخذت في العلم، فنفعني الله تعالى بقوله».

وهكذا قيضه الله تعالى لخذمة دينه، فمال أولاً إلى الكلام والجدليات، فكان يناظر فرقَ الخوارج والفرق الباطلة الأخرى، ثم هداه الله تعالى إلى الفقه[٤]،

---

(١) أخبار أبي حنيفة: ص٢ ؛ وتاريخ بغداد: ١٣/ ٣٢٤.

(٢) مناقب أبي حنيفة: ص٧ ؛ وعقود الجمان: ص٤٢.

(٣) أخبار أبي حنيفة: ص٤ ؛ وتاريخ بغداد: ١٣/ ٣٢٤ ؛ و وفيات الأعيان: ٥/ ٤٠٦ ؛ وتذكرة الحفاظ: ١/ ١٦٨.

(٤) عقود الجمان: ص١٦٠-١٦١.

وهو يَحكي عن نفسه فيقول: «لَمَّا أردتُ طلب العلم جعلتُ أتخيّر وأتشاور فقلت: أحفظ القرآن، فأكون في موضع يأتيني الخلقُ لقراءته وأعلّم الناس القرآن، فقلت: أحداث يحفظونه كما أحفظه، ثم شاورت فقيل لي: النحو، فقلت: إذا بلغتُ فيه الغاية ؛ جلستُ مع صبيّ أؤدّبه لبعض الملوك، ثم شاورت فقيل لي: الغريب والشعر، فقلت: إذا بلغتُ فيه الغاية ؛ صِرت أمدح وأذُمّ وأتصدق به، فقلت: الكلام، ثم قلت: إذا بلغتُ فيه الغاية قالوا: زنديق، ثم قلت: الحديث، فقلت: إذا بلغتُ فيه الغاية أردتُ أن أدارى في الصبيان، وإن اجتمع عليّ جماعة أو قصدوني فأخرجتُ طرائف ما جمعتُ قالوا: كذّاب، فصار شيناً عليّ إلى يوم القيامة، قلت: الفقه، فطلبتُ فيه عيباً فلم أجد فيه، قلت: أول ما آخذ فيه أصير جليساً للعلماء والأشياخ، وإن جرَت مسألة في القرابة أو الجيران أو فريضة سألوني عنها فإن كانت عندي معرفة وإلاّ قالوا: يجب أن تسأل الذين تجالسهم، فأسأل عنها ويتوقعون جوابي عنها فآتيهم بنبلٍ وعِلمٍ ووقارٍ، فمَن أراد أن يطلب به دنياً بلغ أمراً حسناً جسيماً وصار إلى رفعة، ومَن أراد العبادة والخير لم يستطع أحدٌ أن يقول: تعمّد بلا علم ولا عقل، وقيل: عَلِم وعَمِل بعلمه»[1].

فاشتغل أبو حنيفة بالفقه، وجلس في مجلس حماد بن أبي سليمان، فقيه الكوفة، وتفقّه وبرع وفاق أقرانه، وكان يحلّ المسائل الفقهية المعقدة، بما وهبه الله تعالى من الذكاء والفطنة والتفقه والنباهة.

علمه وفضله:

للإمام أبي حنيفة مناقب كثيرة، اعترف بعلمه وفضله أقرانه ومعاصروه وأصحابه، ونذكر ههنا نبذةً من تلك الأقوال، قال تلميذه الكبير الإمام

---

(١) أخبار أبي حنيفة: ص٥-٦.

أبو يوسف[1]: «ما صحبتُ أحداً من الناس فيقدر أن يقول: إنه رأى أكمل عقلاً ولا أتمّ مُروءةً من أبي حنيفة»، وقال يزيد بن هارون: «أدركتُ الناس، فما رأيت أحداً أعقل ولا أفضل ولا أورع من أبي حنيفة»، وقال عاصم بن علي المحدّث: «لو وُزن عقل أبي حنيفة بنصف عقل أهل الأرض لرجحَ بهم[2]»، وقال القاضي ابن شبرمة: «عجزتِ النساءُ أن تلِد مثل النعمان»، وقال عبد الله بن المبارك: «ما رأيتُ أحداً أتقى لله من سفيان الثوري، ولا رأيتُ أحداً أعقل من أبي حنيفة[3]».

وقال ابن المبارك أيضاً: «لقيتُ ألفاً من العلماء، فما رأيت أحداً يفي بعقل هؤلاء الثلاثة، قيل: مَن هم؟، قال: ابن عون الورِع الزاهد العالم، وأبو حنيفة، وسفيان الثوري، قيل له: أ أبو حنيفة مِن هؤلاء؟، قال: أفٌ، أفٍ، أفٍ لك! لولا أني لقيتُ أبا حنيفة لكنتُ من الفلاّسين الذين يبيعون الفلوس ببغداد، ولولا أني لقيت أبا حنيفة لكنتُ من المبتدعة»[4].

وقال ابن المبارك أيضاً: كنت عند مالك بن أنس فدخل عليه رجلٌ فأكرمَه غاية الإكرام، ولما خرج من عنده قال: أتدرون مَن هذا؟، قالوا: لا، قال ابن المبارك: وكنت قد عرفته أنا، فقال مالك: «هذا أبو حنيفة العراقي، لو قال:

---

(١) هو صاحب (كتاب الخراج) المعروف، قاضي القضاة الإمام المجتهد العلامة المحدث أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم بن حبيب بن حبيش الأنصاري الكوفي، من أنبل تلامذة أبي حنيفة ومروّج فقهه في الأمصار، لزم أبا حنيفة وتفقّه عليه حوالي سبع عشرة سنة، وقال الذهبي فيه: " بلغ أبو يوسف من رئاسة العلم ما لا مزيد عليه "، كان قاضي القضاة في عهد الرشيد، سبق بعض أخباره فيما مضى من الكتاب، توفي في سنة اثنتين وثمانين ومائة وعمره تسع وستون سنة. سير أعلام النبلاء: ٨/ ٤٧٠-٤٧٣.

(٢) أخبار أبي حنيفة: ص٢٩-٣٠.

(٣) الانتقاء: ص١٣١ - ١٣٣.

(٤) أخبار أبي حنيفة: ص١٣٦.

«هذه الاسطوانة من ذهب» لخرجت كما قال، لقد وُفق له الفقه حتى ما عليه فيه كبير مؤونة[1]».

ذُكر أبو حنيفة بين يدي داود[2] الطائي فقال: «ذلك نَجم يَهتدِي به الساري، وعِلم تقبله قلوب المؤمنين، فكل علم ليس من علمه فهو بلاء على حامله، معه - واللهِ - علمٌ بالحلال والحرام والنجاة من عذاب الجبار، مع وَرع مستكن وخدمة دائمة[3]»، وقال الإمام الشافعي: «مَن أراد أن يتبحّر في الفقه فهو عَيالٌ على أبي حنيفة، كان أبو حنيفة ممّن وُفق له الفقه[4]»، وقال يحيى بن معين: «الفقهاء أربعة: أبو حنيفة، وسفيان، ومالك، والأوزاعيّ»[5].

دخل القاضي أبو يوسف على هارون الرشيد فسأله الرشيدُ أن يصف أخلاق أبي حنيفة، فقال: «إن الله تعالى يقول: ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ وهو عند لسان كل قائل، كان علمي بأبي حنيفة أنه كان شديد الذبِّ عن محارم الله أن تؤتى، شديد الورع أن ينطق في دين الله بما لا يعلم، يُحب أن يُطاع الله ولا يُعصى، مُجانباً لأهل الدنيا في زمانهم، لا يتنافس في عِزّها، طويل الصَّمت، دائم الفكر، على عمل واسع، لم يكن مهذاراً ولا ثرثاراً، إن سُئل عن مسألة كان عنده فيها علم، نطق به وأجاب فيها بما وسع، وإن كان غير ذلك قاس على الحق واتبعه صائناً نفسه ودينه، بَذولاً للعلم والمال، مستغنياً بنفسه

---

(١) أخبار أبي حنيفة: ص٧٤.

(٢) هو أبو سليمان داود بن نصير الطائي الكوفي من تلامذة أبي حنيفة، كان فقيهًا، قال فيه يحيى بن معين: ثقة، وقال محارب بن دثار: لو كان داود في الأمم الماضية لقصَّ الله علينا من خبره، مات سنة ستين أو خمس وستين ومائة. تهذيب التهذيب: ٣/ ٢٠٣.

(٣) أخبار أبي حنيفة: ص٧٦.

(٤) الانتقاء: ص١٣٦ ؛ وتاريخ بغداد: ١٣/ ٣٤٦.

(٥) أخبار أبي حنيفة: ص٨٠.

عن جميع الناس، لا يميل إلى طمع، بعيداً عن الغِيبة، لا يذكر أحداً إلا بخير[1]».

لا شك أن الإمام رحمه الله كان يحمل علماً وفضلاً يتحدث بهما الركبان في أنحاء العالم الإسلامي آنذاك، ومن الطبيعي جداً أن الإنسان إذا وصل إلى ذروة الشرف والمجد بعلمه وفضله أصبح محسوداً للناس، فأصبح الإمام كذلك، وأشاع عنه حاسِدوه ما هو بريءٌ منه من المعائب، فاغتابوه وأساءوا الظن به، إلاّ مَن أنقذه الله تعالى فاطلع على محاسنه ورجع عما يظنه به من السوء، فذكر عبد الله بن المبارك أن الإمام الأوزاعيّ رحمه الله كان ممّن لا يعرف فضل أبي حنيفة، فالتقى مرةً بابن المبارك ببيروت فسأله: " مَن هذا المبتدع الذي خرج بالكوفة يكنّى أبا حنيفة؟، فلم يردَّ عليه ابن المبارك شيئاً، وجاء إلى مستقره وأخرج من كتب أبي حنيفة مسائل ثم ذهب بتلك الأوراق إلى الإمام الأوزاعيّ، فقرأها الأوزاعيّ واستحسنها وسأل: لِمَن هذه المسائل؟، قال ابن المبارك: لشيخ لقيته بالعراق، فقال: «هذا نبيل من المشائخ، اذهب إليه واستكثر منه»، فقال ابن المبارك: هذا هو أبو حنيفة الذي نهيتَ عنه، قال: «حرام عليّ أن أنهاك عمّن تتعلم عنه مثل هذا، فالزمْه واستكثر؛ فإن هذا يُحسِن أن يتكلم في العلم»[2].

في هذه القصة درسٌ وعبرة، إنها قصة تدل على إخلاص الإمام الأوزاعيّ رحمه الله ونصحه للمسلمين من جهة، وهي تُبرز حكمة ابن المبارك، رحمه الله، وحنكته في ميدان الدعوة من جهة أخرى، كما أنها تُزيل الستار عن مكانة أبي حنيفة، رحمه الله، في مجال العلم والدعوة، فصرح الإمام الأوزاعيّ بما كان يجول في خاطره عن أبي حنيفة من أجل تأثره بأقاويل الحُساد تأثراً يدل على نصحه وتفكُره بشئون المسلمين، فزعم أن ما بلغه عن أبي حنيفة بدعة يجب أن يحال دونها، فسأل ابنَ المبارك عنها للتأكيد، واختار ابن المبارك غاية الحكمة في الدفاع

---

(١) أخبار أبي حنيفة: ص٣١.

(٢) أخبار أبي حنيفة: ص٧٨ ؛ وتاريخ بغداد: ١٣/ ٣٣٨.

عن أبي حنيفة؛ إذ أنه عرف أن الأوزاعيّ قد بلغه شيء كثير عن أبي حنيفة، فلو أراد أن يقنعه بالكلام لم يقتنع، وكان عنده شيء مما ينجزه أبو حنيفة من مهمته في سبيل خدمة الدين، فقدّمه إلى الأوزاعيّ، ولم يكن الأوزاعيّ ينتقد أبا حنيفة بُغضاً وحقداً، بل نُصحاً للمسلمين، فلما تبيّن أمامه الحق ؛ اعترف بفضل أبي حنيفة ورجع عمّا كان يظنه، هكذا كان أسلافنا رحمهم الله، كان حربهم وسلمهم لله وفي الله، وفي القصة درسٌ وعبرة للمسلمين عامّةً وخاصّة.

ورُوي أن عبد الله بن المبارك كان جالساً يوماً يحدّث الناس فقال: «حدَّثني النعمان بن ثابت»، فقال بعضهم: مَن يعني أبو عبد الرحمن؟، فقال: أعني أبا حنيفة مُخّ العلم. فأمسكَ بعضهم عن الكتابة، فسكت ابن المبارك هُنَيهةً، ثم قال: أيها الناس ما أسوأ أدبكم، وما أجهلكم بالأئمة، وما أقل معرفتكم بالعلم وأهله، ليس أحدٌ أحقّ أن يُقتدَى به من أبي حنيفة؛ لأنه كان إماماً تقياً نقياً وَرِعاً عالماً فقيهاً، كشف العلم كشفاً لم يكتشفه أحد ببصَرٍ وفهم وفطنةٍ وتُقًى، ثم حلف أن لا يحدِّثهم شهراً[1].

في ميدان الدعوة :

خدم الدعوةَ الإسلامية هذا الفقيهُ الجليل بجوانب حياته المتنوعة، وترك آثاراً يُقتفَى بها في كل مجال وفي كل زمان، فقد بذلَ علمَه في سبيل الدعوة الإسلامية واجتهدَ في المسائل الفقهية اجتهاداً يؤخَذ به ويؤثر، وأفاد المجتمعَ الإسلامي بعلمه الغزير وفهمِه الدقيق وحلقتِه الفقهية في المسجد [التي] لو عبرنا عنها باصطلاح أيامنا لقلنا: إنها كانت «مَجمعاً علمياً كبيراً» يضمّ أعضاء عباقرة من أمثال أبي يوسف القاضي، ومحمد بن الحسن الشيباني[2]،

(١) الصالحي: عقود الجمان: ص١٨٩.

(٢) هو أبو عبد الله محمد بن الحسن بن فرقد الشيباني بالولاء، الفقيه الحنفي المعروف، من كبار تلامذة أبي حنيفة، حضر مجلسه سنتين ثم تفقه على صاحبه أبي يوسف، وهو =

وزفر[1] بن الهذيل العنبري، وداود بن نصير الطائي وغيرهم، و كانت له الصدارة في المجلس، فيَطرح فيه مسألةً جديدةً، واجهت المجتمع فينظرون فيها في ضوء كتاب الله وما وصل إليهم صحيحاً من سنة رسول الله ﷺ، وما وهبهم الله تعالى من مواهب الاجتهـاد، فيغوصون في أعماق المسائل الدقيقة ويطلعون وفي أيديهم لآليء ثمينة، وها هو أبو حنيفة رحمه الله يصرّح بالمباديء التي يلتزمها مَجمعه العلمي في بحث المسائل الفقهية، فيقول:

«إني آخُذ بكتاب الله إذا وجدته، فما لم أجدْه فيه أخذتُ بسنة رسول الله والآثار الصحاح عنه التي فشت في أيدي الثقات عن الثقات، فإذا لم أجد في كتاب الله ولا في سنة رسول الله، أخذت بقول أصحابه مَن شئتُ وأدع قول مَن شئت، ثم لا أخرج عن قولهم إلى قول غيرهـم، فإذا انتهى الأمر إلى إبراهيم والشعبي والحسن وابن سيرين وسعيد بن المسيب - وعدّد رجالاً قد اجتهدوا - فلي أن أجتهد كما اجتهدوا»[2].

قال زهير بن معاوية: كنت عند الإمام أبي حنيفة، والأبيض بن الأغر يقايسه يديرونها بينهم، فصاح رجل من ناحية المسجد ظننتُه من أهل المدينة: ما هذه المقايسات؟ دعوها؛ فإن أول مَن قاس إبليس، فأقبل إليه الإمام أبو حنيفة

= الذي دوّن فقه أبي حنيفة في كتابه (الجامع الكبيـر)، وُلد سنة خمس وثلاثين ومائة، وتوفي في قرية من قرى الري اسمها رنبويه سنة تسع وتسعين ومائة. وفيات الأعيان: ٤/ ١٨٤-١٨٥.

(١) هو أبو الهذيل زفر بن الهذيل بن قيس بن سلم العنبري، وُلد سنة عشر ومائة، وحدّث عن الأعمش وإسماعيل بن أبي خالد وأبي حنيفة وغيرهم، قال الذهبي فيه: الفقيه المجتهد الرباني العلامة، من بحور الفقه وأذكياء الوقت، تفقه بأبي حنيفة وهو من أكبر تلامذته، كان ممن جمع بين العلم والعمل، كان يدري الحديث ويتقنه. توفي، رحمه الله، سنة ثمان وخمسين ومائة. سير أعلام النبلاء: ٨/ ٣٥-٣٧.

(٢) أخبار أبي حنيفة: ص١٠ ؛ والانتقاء: ص١٤٣.

فقـال: يا هذا وضعتَ الكلام في غير موضعه، إبليس ردّ على الله تعالى أمـره، قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ﴾(١) وقال تبارك وتعالى: ﴿ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾(٢)، فاستكبر وردّ على الله تعالى أمره، وكل مَن ردّ على الله تعالى أمره فهو كافر، وهذا القياس الذي نحن فيه نطلب فيه اتباع أمر الله تعالى لأنّا نردّه إلى أصل أمر الله تعالى في كتابه أو إلى سنةٍ سنّها رسول الله ﷺ أو إلى قولِ الأئمة مِن أصحابه أو التابعين، فاتبعناهم أيضاً في ردّنا إلى كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ والإجماع أمَر الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ .....﴾ إلى قوله ﴿ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ﴾(٣) فنحن ندور حول الاتباع، فنعمل بأول أمر الله تعالى، وإبليس - حين قاس - خالف أمرَ الله تعالى وردّه، فكيف يستويان؟، قال الرجل: غلِطتُ يا أبا حنيفة وتُبتُ، فنوّر الله تعالى قلبَك كما نوّرتَ قلبي(٤).

---

(١) سورة الكهف: الآية: ٥٠.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٦١.

(٣) سورة النساء، الآية: ٥٩.

(٤) عقود الجمان: ص١٧٦-١٧٧. [وبيان أبي حنيفة هذا يدلّ على أنه إمام الأئمة في الفقه وأصوله، فهو يتناول فيه أمر الأدلة الأصلية كلها مرتباً إياها من الأقوى إلى الذي يليه، ولهذا صرّح بعض العلماء أنّ أول مَن جمع متفرقات علم أصول الفقه في كتاب هو الإمام أبو يوسف صاحب أبي حنيفة، ولا شك أنه لم يجمع ذلك إلاّ من خلال صحبته أبا حنيفة وتتلمذه عليه في مجمعه العلمي، فليس إذن واضع علم أصول الفقه الإمام الشافعي – كما اشتهر بين العامة – بل إن واضع هذا العلم الجليل هو أبو حنيفة وتلامذته الأخيار، والشافعي هو ثاني مَن ألّف في هذا العلم بعد أبي يوسف رحمهم الله. علم أصول الفقه لعبد الوهاب خلاف، ص١٧]. د. محمد عامر مظاهري.

وهذه القصة تدل دلالةً واضحةً على ما كان يدور في مجلس الإمام أبي حنيفة من مناقشات علمية وفقهية، كما تدل على كون تلك المناقشات مبنية على الأسس السليمة المرضية عند الله تعالى بفضله ومَنّه، ومن جهة أخرى تبرز القصة جانباً دعوياً من جوانب أخلاق الإمام أبي حنيفة رحمه الله، فإنه لم يَـثُر على المعترض ولم يزجُره، بل تناول إقناعه بالبيان والرفق حتى ظهرت له الحقيقة جليةً واستنار بها عقله وقلبه، ولو زجره أو انتهرَه لضيع فائدةً كبيرةً في دينه، وبهذا ونحوه نال أبو حنيفة رحمه الله حظه من الدعوة الإسلامية، وهذه ميزة مثالية من مميزات أساليب الدعوة كان يتحلى بها أسلافنا، رحمهم الله تعالى.

وكان الإمام يرى دولتي بني أمية وبني العباس منحرفتَين عن الجادة الدعوية؛ فلم يرضَ بأن يؤيّد الدولة باشتراكه في شئونها الداخلية أو الخارجية، وتحمَّل العقوبات التي آذاه بها أصحابُ السلطة بالصبر والصمود حتى توفي رحمه الله في هذا السبيل، ونسرد ههنا خبرَين يظهر منهما تفكير أبي حنيفة بهذا الصدد:

رُوي أن يزيد بن عمر بن هبيرة والي العراق لمروان بن محمد آخر ملوك بني أمية أراد أن يولّي أبا حنيفة أمرَ خاتمه، فلا ينفذ كتاب إلا من تحت يد أبي حنيفة، ولا يخرج من بيت المال شيء إلا من تحت يد أبي حنيفة، فأبى أبو حنيفة ذلك، فقال له جماعة من الفقهاء فيهم ابن أبي ليلى، وابن شبرمة، وداود بن أبي هند وغيرهم: «لا تُهلك نفسك؛ فإنّا إخوانك وكلّنا كارهٌ لهذا الأمر لم نختره ولم نجد بُدًّا من ذلك»، فأبى وقال: «لو أرادني أن أعدّ له أبواب المسجد لم أفعل، فكيف وهو يريد أن يكتب بضرب عنق رجل مسلم، وأختم أنا على ذلك الكتاب؟ فواللهِ لا أدخل في هذا أبداً».

فحبسه صاحبُ الشرطة أسبوعين، لم يضربه، وحلف ابن أبي هبيرة، إن لم يقبل أبو حنيفة هـذا المنصِب ليضربنه بالسياط على رأسه، فقـال أبو حنيفة: «ضربة لي في الدنيا أسهل عليّ من مقامع الحديد في الآخرة، واللهِ لا فعلتُ ولو

قتلني»، فنُقل قوله إلى ابن هبيرة، فقال: «بلغ من قدره أن يعارض يميني بيمينه؟»، فدعاه وكلمه وحلف له إن لم يلِ ليضربن رأسه حتى يموت، فقال له أبو حنيفة: «هي موتةٌ واحدةٌ»، فأمر ابن هبيرة فضُرب على رأسه عشرين سوطاً، فقال أبو حنيفة: «اذكر مقامَك بين يدي الله، فإنه أذلّ من مقامي بين يديك، ولا تهددني، فإني أقول: لا إله إلا الله، واللهُ سائلك عنّي حيث لا يقبل اللهُ منك جواباً إلا بالحق»، فأشار ابن هبيرة إلى الجلاد أن يمسك، وأرسل أبا حنيفة إلى السجن، فبات هناك، فأصبح وقد انتفخ رأسُه ووجهه من الضرب، ثم أطلقه ابن هبيرة، فخرج إلى مكة وأقام هناك إلى أن سقطت الدولة الأموية، ورجع إلى الكوفة بعد أن قامت الدولة العباسية(١).

وقال الربيع بن يونس - حاجب أبو جعفر المنصور -: جمع المنصور مالكاً وابنَ أبي ذئب(٢) وأبا حنيفة، فقال لهم: كيف ترون هذا الأمر الذي أعطاني الله من أمر الأمة، هل أنا لذلك أهلٌ؟، فسكت القوم، فتوجّه إلى ابن أبي ذئب وقال له: ما تقول في الذي قلّدني الله من أمر هذه الأمة، أمة محمد ﷺ؟، فقال: إن مُلكَ الدنيا يؤتيه اللهُ مَن يشاء، وملكَ الآخرة يؤتيه الله مَن طلبه مِن الله ووفّقه

---

(١) أخبار أبي حنيفة: ص٥٧-٥٨ ؛ والانتقاء: ص١٧١ ؛ وتاريخ بغداد: ١٣/ ٣٣٦ ؛ ومناقب أبي حنيفة: ص١٧ ؛ وعقود الجمان: ص٣١١-٣١٢.

(٢) هو الإمام الثبت العابد شيخ الوقت أبو الحارث محمد بن عبد الرحمن بن المغيرة بن الحارث بن أبي ذئب القرشي العامري، الفقيه المدني، وُلد سنة ثمانين، وكان من أورع الناس وأفضلهم، كان يصوم يومًا ويفطر يومًا، كان خشن العيش، كان من أكثر رجال العلم صرامة وقولاً بالحق، قيل: إن المهدي حج فدخل مسجد النبي ﷺ فلم يبق إلا مَن قام إلا ابن أبي ذئب، فقيل له: قم فهذا أمير المؤمنين، قال: إنما يقوم الناس لرب العالمين، فقال المهدي: دَعُوه، دَعُوه؛ فإنه قد قامت كل شعرة من رأسي، توفي سنة خمسين ومائة. تذكرة الحفاظ: ١/ ١٩١-١٩٢.

له، وإن التوفيق إذا أطعتَ الله قرُبَ منك، وإن عصيت اللهَ بَعُد، وإن الخلافة تكون بإجماع أهل التقوى عليها والعونِ لمن وليَها، وأنت وأعوانكَ كنتم خارجين من التوفيق عالين على الخلق، فإن سألتَ اللهَ السلامةَ وتقرَّبتَ إليه بالأعمال الزاكية كان ذلك في نجاتك، وإلاّ فأنت المطلوب.

قال الربيع: فكنت أنا ومالك بن أنس نجمع ثيابنا خوفاً أن يُرَشّش علينا من دمه، ثم توجّه المنصور إلى أبي حنيفة فقال له: ما تقول؟ قال: «المسترشد لدينه يكون بعيد الغضب، إذا أنت نصَحتَ لنفسك؛ علمتَ أنك لم تُرِدِ اللهَ باجتماعنا، وإنما أردت أن تُعلِم العامةُ أنّا نقول فيك ما تهواه مخافةَ سيفِك وحبسِك، ولقد وَلِيْتَ الخلافة وما اجتمع عليك نفسان من أهل التقوى، والخلافة تكون عن إجماع المؤمنين ومشورتهم...».

قال الربيع: ثم توجه إلى مالك فقال له: ما تقول؟، قال: لو لم يركَ اللهُ أهلاً لذلك، ما قدّر لك مُلكَ أمرِ الأمة، وأزال عنهم مَن بَعْد من نبيهم وقرَّب هذا الأمر إلى أهل بيته، أعانك الله على ما ولاّك، وألهمكَ الشكرَ على ما خوّلك، وأعانك على ما استرعاك، فأمرَهم فانصرفوا.

قال الربيع: ثم قال لي المنصور: خذ معك ثلاث بِدَرٍ، واتبعِ القومَ، فإن أخذها مالك كلُّها فادفعها إليه، وإن أخذ ابن أبي ذئب أو أبو حنيفة شيئاً فجئني برأسيهما، قال: فأتيت ابن أبي ذئب فقلت له، فقال: ما أرضَى هذا المال له فكيف آخذه لنفسي؟ وقال أبو حنيفة: ما أنفعَ له إن كان يعطي مَن يَرحمْ أن يرحمَ نفسَه من أن يظلِم، والله لو ضُرب عنقي على أن أمسّ منها درهماً ما مسستُه، قال: وأتيتُ مالكاً، فأخذها كلها، فأتيت المنصورَ فأعلمته، فقال: «بهذه الصيانة حقنوا دماءهم»[1].

اجتهد الإمام مالك، رحمه الله، اجتهاداً، فاختار الرخصة، ورجّح الإمام أبو

---

(١) أخبار أبي حنيفة: ص٥٩-٦٠.

حنيفة ومعه العالم الرباني ابن أبي ذئب، رحمهما الله، العزيمة وجاهدا الجهاد الأكبر فنطقا بكلمة حق عند سلطان جائر، وتركا للدعاة إلى الله أسوة حسنة بأن لا ينسوا أبدًا هدفهم الوحيد؛ ألا وهو تحويل شئون الأمة كلها إلى الجادة الدعوية المستقيمة.

وترك هذا الإمام بسلوكه الشخصي نماذج رائعةً للدعاة إلى الله، فكان وَرِعاً، تقياً، أميناً، زاهداً، وداعياً إلى الله بما وهبه الله من الذكاء والفطنة وسرعة الخاطر، وله أخبار كثيرة بهذا الصدد ذكرها المترجمون[1] له، وهو بهذه الأخبار يكون علَماً من أعلام الدعوة في العصر العباسي الأول، ونذكر ههنا بعضاً منها:

كان أبو حنيفة بائع خَزّ، وكان مِثالاً حياً للتاجر الصدوق الأمين الذي تناله بشرى الحديث الشريف «التاجر الصدوق الأمين مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين»[2]، فيُروى أن حفص بن عبد الرحمن كان شريكاً لأبي حنيفة فبعثَ إليه بضاعةً وأخبره أن في ثوب كذا عيباً، فإذا بعته فبيِّن ذلك العيب، فباع حفص البضاعةَ ونسي أن يبيّن العيب للمشتري، والمشتري كان رجلاً غريباً لا يعرفه حفص، فأمر أبو حنيفة أن يتصدق بثمن المتاع كله[3]، وكان هذا نموذجاً من وَرع أبي حنيفة، ولعله كان يكفيه أن يتصدق بما يقابل ذلك العيب من ثمن البضاعة، ولكنه لم يرضَ أن يختلط بماله مقدارُ خردلةٍ من حرامٍ أو شبهةٍ، وهكذا قدّم مثالاً رائعاً يجب أن يقتدي به الدعاة الذين يُفترض فيهم أن يكونوا أمثلةً حيةً لما يدعون إليه الناس.

---

(١) أخبار أبي حنيفة: ص٢٩ وما بعدها ؛ والانتقاء: ص١٥٢ وما بعدها ؛ وتاريخ بغداد: ١٣/ ٣٥٠ وما بعدها ؛ ووفيات الأعيان: ٥/ ٤١٢ ؛ ومناقب أبي حنيفة: ص٩ وما بعدها ؛ وعقود الجمان: ص٢١١ وما بعدها.

(٢) رواه الدارمي: ٢/ ٢٤٧.

(٣) أخبار أبي حنيفة: ص١و٣٤.

ورُوي أنه وقعت إلى الكوفة أغنام من الغارة واختلطت بغنم الكوفة، فسأل أبو حنيفة: كم تعيش الغنم؟ قيل له: سبع سنين، فترك أكلَ لحم الغنم سبع سنين، وقال يزيد بن هارون المحدّث: رأيته يوماً جالساً في الشمس عند باب إنسانٍ، فقلت له: يا أبا حنيفة لو تحولتَ إلى الظل، فقال: لي على صاحب هذه الدار دراهم ولا أحب أن أجلس في ظل فناء داره، وفي رواية أخرى: أنه قال بعد ذلك: ما أراه واجباً على الناس، ولكن العالِمَ يحتاج أن يأخذه لنفسه من علمه بأكثر مما يدعو الخلقَ إليه[1].

ويُروى أنه جاءت امرأة إلى أبي حنيفة بثوب خزّ وطلبت أن يبيعه لها، فسألها: بكَم أبيعه؟، قالت: بمائة، فقال لها: هو خير عن مائة، فزادت مائة أخرى، فقال: هو خير، فزادت حتى وصلت إلى أربعمائة، فقال هو خيرٌ منه، فقالت: أتهزأ بي؟، قال: هاتي رجلاً يشتريه، فجاءت برجل فساومَه فاشتراه الرجل بخمسمائة درهم[2].

وهكذا قدّم الإمام الأعظم أسوةً حسنةً لأداء الأمانة، وتلك سمة من سمات شخصيته الدعوية، وما أقلّ مَن يقف موقف أبي حنيفة من التجار الذين ينتهزون مثل هذه الفرصة ويستغلّون جهلَ البائع بالأسعار الرائجة في السوق ويشترون ما لديه بأبخس الأثمان الممكنة، ولكن أبا حنيفة رحمه الله تعمّق في القضية وأبرز دقائق الأمانة، بأن الخبير مؤتمَن مثل المستشار، وعليه أن ينصح لمن لا خبرة عنده، وخلافُ الأمانة أن ينتهز الخبير فرصةَ عدم خبرة العامي، وإن لم يربح أبو حنيفة مادياً في هذه الصفقة، ولكنه ربح ربحاً معنوياً عظيماً من عدة وجوه: فأدى الأمانة وأفاد المرأة عديمة الخبرة بربحٍ مضاعف وألّف قلبها وقلب

---

(١) عقود الجمان: ص٢٤٤.

(٢) أخبار أبي حنيفة: ص٣٩.

مَن شاهد هذه الصفقة الممتازة، وبذلك اكتسبَ كسباً كبيراً في ميدان الدعوة، بحيث ارتفعت مكانته في نظرهم، فيُسمع قوله ويُطاع أمره.

وأخيراً نذكر خبراً يدل على ورَع أبي حنيفة وزهده من ناحية، وعلى ميوله واتجاهاته في الحُكم الإسلامي الدعوي من ناحية أخرى، قال تلميذه أبو يوسف رحمه الله: «اجتمعنا عند أبي حنيفة في يوم مطير في نفر من أصحابه منهم: داود الطائي، والقاسم بن مَعن(١)، وعافية(٢) بن يزيد، وحفص(٣) بن غياث، ووكيع(٤)

---

(١) هو حفيد الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، الإمام العلامة قاضي الكوفة أبو عبد الله القاسم بن معن بن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود الهذلي، الفقيه المحدِّث، خرّج له أبو داود والنسائي، قال أحمد بن حنبل: كان لا يأخذ على القضاء رزقاً، توفي سنة خمس وسبعين ومائة. تذكرة الحفاظ: ١/ ٢٣٩.

(٢) هو عافية بن يزيد بن قيس الأودي الكوفي، قاضي الجانب الشرقي من بغداد، كان من العلماء العاملين، روى عن هشام بن عروة، والأعمش، ومجاهد، وغيرهم، استقال من القضاء بسببِ أنه أهدى له الخصم رطباً فردّه وزجره، فلما حاكم خصمه من الغد قال: عافيةٌ؛ لم يستويا في قلبي، ثم حكاها للخليفة وقال: هذا حالي وما قبلتُ، فكيف لو قبلت؟ فأعفاه الخليفة، مات سنة نيف وستين ومائة. سير أعلام النبلاء: ٧/ ٣٩٩.

(٣) هو أبو عمر حفص بن غياث بن طلق بن معاوية النخعي الكوفي، قاضي الكوفة وبغداد، روى عن جده (طلق بن معاوية)، وعن إسماعيل بن أبي خالد، وأبي مالك الأشجعي، وغيرهم، وروى عنه الإمام أحمد، وإسحاق، وابن معين، وغيرهم، قال العجلي: ثقة، مأمون، فقيه، ولد سنة سبع عشرة ومائة، ومات سنة ست وتسعين ومائة. تهذيب التهذيب: ٢/ ٤١٥-٤١٨.

(٤) هو الحافظ أبو سفيان وكيع بن الجراح بن مليح الرؤاسي، روى عن أبيه وإسماعيل بن خالد وهشام بن عروة والأعمش وغيرهم، وروى عنه أبناؤه سفيان ومليح وعبد الرحمن بن مهدي وأحمد بن حنبل وغيرهم، قال عبد الله بن أحمد بن أبيه: ما رأيت أوعى للعلم من وكيع ولا أحفظ منه، كان يصوم الدهر ويختم كل ليلة، ولد سنة ثمان وعشرين ومائة ومات في سنة ست وتسعين ومائة. تهذيب التهذيب: ١/ ١٢٣-١٣٠.

ابن الجراح، ومالك[1] بن مغول، وزفر، فأقبل بوجهه وقال: «أنتم مسارّ قلبي وجَلاء حزني، وأسرجتُ لكم الفقه وألجمته، وقد تركتُ الناس يطئون أعقابكم ويلتمسون ألفاظكم، ما منكم واحد إلا وهو يصلح للقضاء، فسألتكم بالله وبقدر ما وهب الله لكم من جلالة العلم، لما صُنتموه عن ذُلّ الاستئجار، وإن بُلِيَ أحد منكم بالقضاء فعلمَ من نفسه خرابةً سترها اللهُ عن العباد ؛ لم يجُزْ قضاؤه ولم يطِب له رزقه، فإن دفعته ضرورةٌ إلى الدخول فيه فلا يحتجبنَّ عن الناس، وليُصَلّ الخمسَ في مسجده وينادِي عن كل صلاة: " مَن له حاجة؟ "، فإذا صلّى العشاءَ نادى ثلاث أصوات: " مَن له حاجة؟ "، ثم دخل إلى منزله، فإن مرضَ مرضاً لا يستطيع الجلوس معه ؛ أسقط من رزقه بقدر مرضه، وأيّما إمام غَلّ فيئاً، أو جار في حُكم بطلت إمامته ولم يجُز حُكمه»[2].

فهذه وصية قيِّمة لأبي حنيفة وجّهها إلى تلامذته الأعزاء، وهي تحمل في ثناياها مثالاً من المُثُل التي ينبغي أن يحاكيها الدعاة وأن يلتزموها ويعرفوا حق المعرفة أن الانحراف عنها يُبعدهم عن أهداف حياتهم الدعَوية الأصيلة.

توفي هذا الإمام الجليل في سنة خمسين ومائة، وعمره إذ ذاك سبعون سنة، وكان أبو جعفر المنصور يجد في نفسه على أبي حنيفة لحمايته إبراهيم بن عبد الله العلوي الذي خرج على المنصور بالبصرة، فأصرّ على أبي حنيفة أن يلي القضاءَ، لكنه أبى، فحبسه خمسة عشر يوماً، كلَّ يوم يُضرب عشرةَ أسواط ويُطاف به في الأسواق ثم يُعاد إلى السجن، ثم تُرك في السجن فبقي خمسة أيام

(١) هو الإمام الثقة المحدّث أبو عبد الله مالك بن مغول بن عاصم البجلي الكوفي، حدّث عن الشعبي وعطاء بن أبي رباح وعبد الله بن بريدة وغيرهم، وروى عنه شعبة والثوري وأبو إسحاق السبيعي وغيرهم خلق كثير، توفي سنة تسع وخمسين ومائة. سير أعلام النبلاء: ٧/ ١٧٤-١٧٦.

(٢) مناقب أبي حنيفة: ص١٧.

وتوفي، وقيل: إن المنصور سقاه السُّم فاسودّ جسمه وخرجت نفسه وهو ساجد بين يدي ربّه ومات شهيداً في سبيل الله[1]، رحمه الله تعالى رحمةً واسعةً.

٢- الإمام مالك بن أنس (٩٣ - ١٧٩هـ)

نشأته:

هو إمام دار الهجرة، الحافظ الفقيه شيخ الإسلام أبو عبد الله مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر بن عمرو بن الحارث بن عثمان بن خثيل بن عمرو بن الحارث، الأصبحي، المدني، ولد سنة ثلاث وتسعين بالمدينة المنورة، وحدّث عن غير واحد من التابعين، عن نافع مولى ابن عمر وابن شهاب الزهري وعامر بن عبد الله بن الزبير، وابن المنكدر، وعبد الله بن دينار، وغيرهم خلق كثير، وحدّث عنه خلق كثير لا يُحصى عددهم، منهم الإمام أبو حنيفة، والشافعي، وعبد الله بن المبارك، ويحيى القطان، والأوزاعي، وعبد الرحمن بن مهدي، وسفيان الثوري، وابن عيينة، وغيرهم[2].

علمه وفضله:

كان الإمام مالك حذراً جداً في أخذ العلم، فلم يأخذ إلا ممن اعتمد على علمه وفهمه وفقهه ودينه وتقواه، فكان يقول: «لا يؤخذ العلم من أربعة، ويؤخذ ممن سواهم، لا يؤخذ من سفيه، ولا يؤخذ مِن صاحب هَوى يدعو إلى بدعة، ولا من كذّاب يكذب في أحاديث الناس وإن كان لا يُتَّهم على حديث رسول الله ﷺ، ولا من شيخٍ له فضلٌ وصلاحٌ وعبادة إذا كان لا يعرف ما يحمل

---

(١) أخبار أبي حنيفة: ص٨٧و٨٨ ؛ ومناقب أبي حنيفة: ص٣٠ ؛ وعقود الجمان: ص٣٥٧-٣٥٩.

(٢) الانتقاء: ص١٠و١٣ ؛ وتذكرة الحفاظ: ١/ ٢٧ ؛ وتهذيب التهذيب: ١٠/ ٥-٦.

ويحدّث به».

ومع تدقيقه هذا كان جيد الحفظ والإتقان، فيُروَى أنه جاء الإمام محمد بن شهاب الزهري إلى المدينة، فازدحم على بابه طلاب العلم وفيهم مالك بن أنس، فحدّث أربعين حديثاً وزيادةً، ولما حضروا إليه في اليوم الثاني قال لهم: انظروا فيما كتبتم أمس لأعيدَ عليكم بعضَ ما حدثتكم إذا رأيتم ذلك، فقيل له: ههنا مَن يحدّث أمامك جميعَ ما حدّثته بالأمس، قال: مَن هو؟، قيل: مالك بن أنس، فتقدّم مالك وحدّث أربعين حديثاً بتمامها، فتعجّب الزهري[1].

وقد اعترف بعلم الإمام مالك وفضله جماعة من العلماء المعاصرين له ومن تلامذته، نذكر ههنا نبذةً من أقوالهم، قال سفيان بن عيينة: إنه - يعني مالكاً - لا يبلّغ من الحديث إلا صحيحاً، ولا يحدّث إلا عن ثقات الناس، وما أرى المدينة إلا ستخرِب بعد موت مالك بن أنس، وقال الإمام الشافعي: إذا جاءك الحديث عن مالك، فشُدَّ به يدك، وقال: إذا ذُكر العلماء فمالك النجم، وما احدٌ أمنّ عليَّ من مالك بن أنس. وسئل الإمام أحمد بن حنبل عن سفيان الثوري ومالك إذا اختلفا في الرواية، فقال: مالك أكبر في قلبي، قيل: فمالك والأوزاعي إذا اختلفا؟ فقال: مالك أحبُّ إليّ، وإن كان الأوزاعي من الأئمة، قيل: فمالك وإبراهيم النخعي؟، فقال: ضعه مع أهل زمانه.

وقال عبد الله بن وهب: لولا أني أدركت مالكاً والليث بن سعد لضللتُ[2]، وقال الذهبي[3]: وقد اتفق لمالك مناقب ما علمتها اجتمعت لغيره، أحدها: طول العمر وعلوّ الرواية، ثانيتها: الذهن الثاقب والفهم وسعة العلم، وثالثتها: اتفاق الأئمة على أنه حُجة صحيح الرواية، ورابعتها: تجمعهم على دينه وعدالته

---

(١) الانتقاء: ص١٨.

(٢) الانتقاء: ص٢١-٣٠.

(٣) تذكرة الحفاظ: ١/ ٢١٢.

واتباعه السنن، وخامستها: تقدمه في الفقه والفتوى وصحة قواعده.

في ميدان الدعوة:

خدم هذا الإمام الجليل الدعوة الإسلامية بشتى نواحي علمه وزهده وتقواه، فكان مرجعاً كبيراً للخلائق، وبدأ يخدم المجتمع الإسلامي بفتاواه المستنبطة من الكتاب والسنة، في نفس الوقت الذي كان يفتي فيه بالمدينة كبار فقهائها أمثال يحيى بن سعيد الأنصاري، وربيعة بن عبد الرحمن المعروف بربيعة الرأي، ونافع مولى ابن عمر[1]، ويقول مالك عن نفسه: «ما أفتيتُ حتى شهدَ لي سبعون أني أهلٌ لذلك»[2].

وكان لمالك رحمه الله حلقةٌ وسيعة في رحاب المسجد النبوي الشريف، يقصدُها طُلاّب العلم من أنحاء العالم الإسلامي آنذاك، يستفيدون من مناهل علمه العذبة ثم يرجعون إلى بلادهم دعاةً إلى الله ينشرون ما ارتشفوه من هذا المنبع الصافي من الحديث والفقه ومن الزهد والتقوى، كما كان مجلسُ الإمام مجلسَ علمٍ ووقارٍ، كان يهتم اهتماماً خاصًّا عند خروجه للتدريس، فكان يلبسُ لباساً فاخراً من الثياب العدنية، ويتطيّب ويسرِّح لحيته ويكتحل ويطلب مراوح فيُعطِي كلَّ إنسان مروحةً ثم يبدأ درسه[3].

وفي هذه الحلقة العلمية ألّف كتابه المعروف (الموطّأ) الذي يعتبر مرجعاً عاماً من مراجع طلاب علم الحديث وهواة الفقه في الدعوة، وقال عنه الإمام الشافعي: «ما في الأرض كتاب في العلم أكثر صواباً من موطأ مالك»[4]، ومن هذه الحلقة العلمية كان يردّ مالكٌ رحمه الله على أهل الأهواء والبدع من المعطّلة

(١) الانتقاء: ص٢٧.

(٢) تذكرة الحفاظ: ١/ ٢٠٨.

(٣) تذكرة الحفاظ: ١/ ٢١٠ ؛ والبداية والنهاية: ١٠/ ١٧٤.

(٤) تذكرة الحفاظ: ١/ ٢٠٨.

والمشبِّهة وأهل الإرجاء والاعتزال والقدر[1].

ولا شك أن في ذلك خدمةً بالغةً للدعوة في مَهبّ هذه الأعاصير، وبذلك أصبحت هذه الحلقة العلمية مجمعاً علمياً كبيراً يضمّ أعضاء نوابغ، فيهم عبد الله بن وهب، وعبد الرحمن بن قاسم العتقي، وأشهب بن عبد العزيز، وعبد الله بن عبد الحكم، ويحيى الليثي وغيرهم، فيدققون فيه لأخذ الحديث ويحققون على المسائل الفقهية تحقيقاً علمياً، وينظرون فيما يثيره أهل الهوى وأصحاب الزيغ الفكري من مقالات كلامية تشوِّش أفكار الجمهور، فيجاب عنها إجابةً مفحمةً مقنعةً في ضوء الكتاب والسنة، وهكذا كانت هذه الحلقة العلمية تؤدي واجبها الدعوي نحو المجتمع الإسلامي.

وللإمام مالك، رحمه الله، مواقفُ لا بأس بها مع خلفاء العصر العباسي الأول، وقد أدرك عصرَ المنصور والمهدي وهارون؛ فكان يعاملهم محتفظاً بعلمه ووقاره، فلم يعارضهم جهراً، ولم يُذِلَّ أمامهم وجهَه، كان يقبل ما يقدمون إليه من مال وهدايا ولم يمدَّ إليهم أبداً يده، فيُروى أنه لما قدم المهدي المدينة بعث إلى مالك بألفين أو ثلاثة آلاف دينار فقبله، ثم جاء إليه حاجب المهدي الربيع بن يونس يحثه على أن يذهب إلى بغداد مع أمير المؤمنين، فقال له مالك: قال رسول الله ﷺ: «والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون»، يعني بذلك أنه لن يرضى بترك السكن بالمدينة [من أجل مالٍ أو متاعٍ]، ثم قال: والمال عندي على حاله[2]، يعني: لو دفعتموني المال راغباً في انتقالي إلى بغداد فأخطأتم، فالمال على حاله خذوه متى شئتم، وفي الموقف عِزة وكرامة ينبغي ألاّ تغيبا عن قلوب الدعاة.

وحضر هارون الرشيد بيتَ مالك، ومعه أبناؤه، فطلب من مالك أن يقرأ على أبنائه فأجاب: ما قرأت على أحد منذ زمان وإنما يُقرأ عليَّ، فقال هارون:

---

(١) الانتقاء: ص٣٢-٣٧.

(٢) الانتقاء: ص٤٢ ؛ وتذكرة الحفاظ: ١/ ٢١٠.

أخرجِ الناس من عندك حتى أقرأ أنا عليك، فقال: إذا مُنع العامُّ لبعض الخاصِ لم ينتفع الخاص[1].

هـذه ناحية من جوانب حياة الإمام رحمه الله مع خلفاء العصر العباسي الأول، بحيث يحضرون إليه ويحضر إليهم، ويقدِّمون إليه المال فيقبله، ولكن لم يستطيعوا بذلك أن يهيمنوا عليه ويتصرفوا به كما يشاءون، ومالك رحمه الله، يعلّمنا بذلك أصلاً من أصول صلة الدعاة بالحُكـام، ومفاد هذا الأصل: أن الداعية يجب ألاّ يقع في قبضة الحاكم، يتصرف به كيف يشاء، ولكن لا بـأس عليه إذا هو لم يعتـزله ابتغاءَ نفعٍ يرجوه لدين الله، والموقف على كل حـال دقيق وخطير.

وهناك جانبٌ أخرى لسلوك الإمام مع هؤلاء الخلفاء؛ إنه لم يرضَ أن يداهن في أمور الدين أو يكتم العلم بأمرٍ من هؤلاء الخلفاء وولاتهم، يُروى أن أبا جعفر المنصور منع مالكاً أن يروي الحديث «ليس على المستكرَه طلاق»، فإنه كان يرى أبعاد ما ينتجه هذا الحديث سياسياً، إذ يفضي إلى أنه «ليس على المستكره بيعة»، ولكن الإمام لم يمتنع فحدّث به على رءوس الأشهاد، فضربه والي المدينة - ربما كان ضربه بإشارة المنصور - بالسياط حتى انخلعت كتفه فكان إذا قام من مجلسه حمل يده اليمنى أو اليسرى بالأخرى، فتحمَّلَ هذه العقوبة والإيذاء بغاية الصبر والصمود، ولم يرضَ أن يكتم عِلمه من أجل غرض سياسي تافه، أو حتى من أجل ضررٍ يناله في نفسه أو في جسده.

وهناك مأثرةٌ كبرى لهذا الإمام الجليل في حقل الدعوة الإسلامية، ويجب أن تُكتب بماء الذهب: يُروى أنه لما حجَّ المنصورُ طلبَ مالكاً رحمه الله وحادثه في أمور شتى، ثم قال له: «عزمتُ أن آمر بكتبك هذه التي قد وضعتَ - يعني الموطأ - فتُنسخُ نُسخاً ثم أبعث إلى كل مصر من أمصار المسلمين منها نسخةً،

---

(١) تذكرة الحفاظ: ١/ ٢١٢.

وآمرهم أن يعملوا بما فيها ولا يتعمَّدوا إلى غيرها ويتركوا ما سوى ذلك من هذا العلم المحدَث؛ فإني رأيت أصل العلم رواية أهل المدينة وعلمهم»، فقال مالك: «يا أمير المؤمنين لا تفعل هذا؛ فإن الناس قد سبقت إليهم أقاويل، وسمعوا أحاديث وروَوا روايات، وأخذ كلٌّ قومٍ بما سبق إليهم وعملوا به ودانوا به من اختلاف أصحاب رسول الله ﷺ وغيرهم، وإنَّ ردَّهم عمَّا اعتقدوه شديد؛ فدعِ الناسَ وما هم عليه وما اختار أهلُ كل بلدٍ لأنفسهم»، فقال المنصور: «لعَمري لو طاوعتَني على ذلك لأمرتُ به»[1].

ويدل هذا الخبر على غاية إخلاص هذا الإمام الجليل ونُصحه للأمة الإسلامية، فلو كان انتهازياً - لا قدر الله - ؛ لانتهز هذه الفرصة الذهبية وأقبل على عرضٍ وليٍّ أمور المسلمين بغاية الاستعجال وسلّط على الأمة آراءه وأفكاره بقوة السلطة، كما فعلته المعتزلة أيام المأمون والمعتصم والواثق، ولكن الإمام رحمه الله كان يحمل روحاً دعويةً خالصةً، وكان يدرك إدراكاً دقيقاً ما سوف تجرّه هذه الخطوة من الكوارث والمآسي على مستقبل الدعوة الإسلامية، فلم يرضَ بها، وصان الأمة عن التفرقة والانشقاق والوصايا العلمية والفكرية عليها.

وكان أمام الإمام الجليل بصدد علاقته بأصحاب السلطة واحدة من ثلاث:

الأولى: أن يُلقي بنفسه في أيديهم ويصبحَ عالماً من علماء البلاط، فيأمر بما أمر به رجال البلاط، وينهى عما ينهون عنه، ويصير لُعبةً في أيديهم، ولم يخطر ببال الإمام أن يختار هذا الموقف في حين من الأحيان.

والثانية: موقف عزيمة، فيصرِّح أمام الخلفاء والولاة بجميع معائبهم بكل صراحة ويوضّح عليهم جَورهم وطغيانهم وانحرافاتهم عن الجادة الدعوية، فيكتسب بذلك غضبهم وحِقدهم.

---

(١) الانتقاء: ص٤١-٤٤.

والثالثة: موقف رخصة؛ بأن يلائم مع ولاة أمور المسلمين مع الحفاظ على دينه وعِرضه، فاجتهد واختار هذا الموقف، ولكن يبدو أنه انزعج منه في آخر حياته، فرُوي أنه كان يشهد الصلوات والجنائز ويعود المرضى ويقضي الحقوق ويجلس في المسجد ثم ترك الجلوس فيه، فكان يصلي وينصرف، ثم ترك شهود الجنائز، فيأتي إلى أصحابه فيعزّيهم فقط، ثم ترك ذلك كله... فقيل له: ما يمنعك؟، قال: «مخافةَ أن أرى منكَراً فأحتاج أن أغيّره»[1]، وكأنه، رحمه الله، قد رأى من تفاقم المنكرات ما شعر إزاءه بالعجز عن التغيير، ومن هنا يسهل تقدير تلك الانحرافات التي بدأت تدخل في المجتمع الإسلامي نتيجة أسباب عديدة منها: غفلة الدولة ورجالها عن أداء مهمتهم الدعوية في تلك الأيام، فها هو هذا الإمام الجليل الذي قرّر أن لا يختار موقف المصادمة الصريحة مع ولاة أمور المسلمين، بل يسايرهم في حدود الحفاظ على دينه وعرضه ؛ لم يستطع البقاء على موقفه، كما لم يستطع تغيير موقفه، فاختار حياة العُزلة حتى لحق بربّه.

وتوفي إلى رحمة الله تعالى هذا الإمام الجليل في سنة تسع وسبعين ومائة ١٧٩هـ، في عهد هارون الرشيد وعمره إذ ذاك خمس أو ست وثمانون سنة، ودفن بالبقيع[2]، وترك فوجاً من تلامذته دوّنوا فقهه وروّجوه في الأندلس وشمال إفريقية، رحمه الله رحمةً واسعةً.

---

(١) تذكرة الحفاظ: ١/ ٢١٠و٢١٢.

(٢) الانتقاء: ص٤٥ ؛ وتذكرة الحفاظ: ١/ ٢١٢-٢١٣ ؛ والبداية والنهاية: ١٠/ ١٧٣-١٧٥.

٣- الإمام الشافعيّ (١٥٠ - ٢٠٤هـ)

نشأته:

هو الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب بن عبيد بن عبد يزيد بن هاشم بن عبد المطلب بن عبد مناف بن قصي بن كلاب القرشي المُطّلبي، يلتقي نسبه في عبد مناف مع النسب الشريف للرسول الكريم ﷺ، وُلد في سنة خمسين ومائة ١٥٠هـ بغزة، في نفس العام الذي توفي فيه الإمام أبو حنيفة رحمه الله، مات أبوه وهو صغير فحملته أمه إلى مكة المكرمة وهو ابن سنتين وذلك للحفاظ على نسبه.

فترعرع بمكة وقرأ القرآن الكريم وهو ابن سبع سنين، وحفظ موطأ الإمام مالك بن أنس رحمه الله وهو ابن عشر سنين، وأخذ العلم أولاً عن مسلم[(١)] بن خالد الزنجي، ثم سافر إلى المدينة المنورة ولازمَ الإمامَ مالكاً وقرأ عليه كتابه الموطأ، كما سمع الحديث عن ابن[(٢)] الماجشون، وإسماعيل[(٣)] بن جعفر، وسفيان بن عيينة، وغيرهم خلق كثير، روى عنه الإمام أحمد بن حنبل، وعبد

---

(١) هو الإمام الفقيه مسلم بن خالد بن مسلم بن سعيد القرشي المخزومي بالولاء، تابعي من كبار الفقهاء، كان إمام أهل مكة، أصله من الشام، لقب " بالزنجي " لحمرته أو على الضد لبياضه، توفي سنة ثمانين ومائة وله ثمانون سنة. تذكرة الحفاظ: ١/ ٢٥٥.

(٢) هو الإمام العلم الفقيه أبو عبد الله بن عبد العزيز بن عبد الله بن أبي سلمة التيمي بالولاء، كان من العلماء الربانيين، من فقهاء المدينة، توفي سنة أربع وستين ومائة. تذكرة الحفاظ: ١/ ٢٢٢.

(٣) هو الإمام العالم أبو إسحاق إسماعيل بن جعفر بن أبي كثير الأنصاري الزرقي بالولاء، قرأ القرآن على نافع مولى ابن عمر، وهو من أهل المدينة، قدم بغداد ولم يزل بها حتى توفى سنة ثمانين ومائة. تذكرة الحفاظ: ١/ ٢٥٠ ؛ وتهذيب التهذيب: ١/ ٢٨٧.

الله[1] بن الزبير الحميدي، ويوسف[2] بن يحيى البويطي، وأبو ثور[3]، وخلق كثير[4].

علمه وفضله:

كان الإمام الشافعي رحمه الله صاحبَ علمٍ غزير وفضلٍ كبير، وقد بدا نُبْله في صباه إذ قال له شيخه مسلم بن خالد الزنجي: «أفتِ يا أبا عبد الله، قد آن لك أن تفتي،»، وكان عمره إذ ذاك خمس عشرة سنة، كما كان شيخه سفيان بن عيينة رحمه الله، إذا جاءه شيء عن التفسير والفُتيا التفت إلى الشافعي وقال: «سلوا هذا»[5].

بدأ الشافعي رحلته العلمية عندما كانت مدرستان للفقه في ذروة حيويتهما ونشاطهما؛ كانت مدرسة الإمام أبي حنيفة رحمه الله تمثل فقه أهل العراق، وكان تلميذ أبي حنيفة الإمام محمد بن حسن الشيباني ينوب عن أبي حنيفة في تلك الأيام، فرحل الشافعي إلى مالك ولازمه وأخذ عنه العلم، كما أخذ عن الإمام

---

(١) هو الحافظ الفقيه الإمام أبو بكر عبد الله بن الزبير القرشي الحميدي من أهل مكة، يعتبر من كبار أصحاب الشافعي، كان من كبار أئمة الدين، حدّث عنه البخاري وغيره، توفي بمكة سنة تسع عشرة ومائتين. تذكرة الحفاظ: ٢/ ٤١٣-٤١٤.

(٢) هو العالم الفقيه أبو يعقوب يوسف بن يحيى البويطي، من كبار أصحاب الشافعي بمصر، كان فقيهاً عالماً، أُخرج أيام محنة خلق القرآن وحُمل إلى بغداد وحُبس هناك، فلم يعترف بتلك العقيدة الباطلة، وتوفي في السجن. الانتقاء: ص١٠٠-١١٠.

(٣) هو أبو ثور إبراهيم بن خالد الكلبي، ممن أخذ عن الشافعي ببغداد وجالسه، له كتابٌ ذكر فيه اختلافَ مالك والشافعي، كان يذهب مذهبَ أهل العراق ولكن أكثر ميلاً إلى الشافعي، توفي ببغداد سنة أربعين ومائتين. الانتقاء: ص١٠٧.

(٤) الانتقاء: ص٦٦-٦٩ ؛ والبداية والنهاية: ١٠/ ٢٥١-٢٥٢ ؛ وتهذيب التهذيب: ٩/ ٢٥-٢٧.

(٥) الانتقاء: ص٧٠-٧١.

محمد بن الحسن الشيباني، فكان الشافعي يقول: «حملت عن محمد بن الحسن حمل بختي»، أو قال: «وقر بَعير، ليس عليه إلا سماعي منه»[1].

وهكذا استفاد من المدرستين، كما استفاد مما أودعه الله تعالى في شخصيته من الفطنة والذكاء وصلاحية الاجتهاد وقوة الاستنباط، فأسّس مدرسةً جديدةً للفقه، [أقرب إلى مدرسة مالك وإن لم تكن مستغنيةً عن استعمال الرأي والقياس]، وقد روى غيرُ واحد عن الإمام الشافعي قوله: «إذا صحّ عندكم الحديث عن رسول الله ﷺ، فقولوا به ودعوا قولي؛ فإني أقول به وإن لم تسمعوا مني»[2].

وأقام الإمام الشافعي في قبيلة هذيل حوالي عشر سنين أو عشرين سنة، فتعلّم لغات العرب وفصاحتها وبَرع في اللغة والشعر وأيام العرب وأنسابها[2]، وروى ابن عبد البر[3] أن ابن هشام صاحب المغازي كان يقول: «إن الشافعي حُجةٌ في اللغة»، ولقد اعترف بعلمه وفضله كثيرٌ مِن معاصريه وتلامذته، نذكر ههنا نبذة من أقوالهم:

قال سفيان بن عيينة: «هذا - يعني الشافعي - أفضل فتيان أهل زمانه»[4]، وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل: قلت لأبي: يا أبتِ أيُّ رجل كان الشافعي، فإني أسمعك تُكثِرُ الدعاءَ له؟، فقال: يا بُنيّ كان الشافعي كالشمس للدنيا وكالعافية للناس، فانظر هل لهذين من عِوض أو خَلَف؟[5]، وقال إسحاق بن راهويه: الشافعي إمام، ما أحدٌ تكلم بالرأي إلا والشافعي أكثرهم اتباعاً وأقلهم

---

(١) الانتقاء: ص٦٨-٦٩.

(٢) البداية والنهاية: ١٠/ ٢٥٣.

(٣) الانتقاء: ص٩٣.

(٤) الانتقاء: ص٧٠.

(٥) الانتقاء: ص٧٤-٧٥.

خطأ[1]، وقال أحمد بن حنبل: ما رأيتُ أحداً أفقهَ في كتاب الله من هذا الفتى القرشي؛ يعني محمد بن إدريس الشافعي[2].

في ميدان الدعوة:

خدم هذا الإمام الجليل الدعوة الإسلامية من نواحي علمه المتنوعة، ولكن لم يتيسّر له أن يبقى مقيماً في بلدٍ من بلدان العالم الإسلامي آنذاك، فقضى معظم عمره في الرحلات، كان والياً على نجران في سنة أربع وثمانين ومائة، وكان عمره إذ ذاك أربعاً وثلاثين سنة، فتعصّب عليه بعض أهل تلك المنطقة فوَشَوا به إلى هارون الرشيد أنه يحمي العلويين، فجيء به إلى بغداد وهو في القيود، فشفع فيه الإمام محمد بن الحسن الشيباني، وتبيّن للرشيد براءة الشافعي مما اتُّهم به، فأطلقه وأكرمه وأعطاه خمسة آلاف دينار[3].

ورُوي أن هارون طلب من الشافعي أن يَعِظه، كما كان من عادته، فنصحه الشافعي بكلمات تالية: «يا ذا الرجل، إنه مَن أطال عِنَان الأمن في الغرَّة ؛ طوى عذار[4] الحذر في المُهلة، ومَن لم يعوّل على طرف النجاة ؛ كان بمنزلة قلة الاكتراث في الله مقيتاً، وصار في أمنه المحذور مثل نسيج العنكبوت، لا يأمن عليها نفسه، ولا يُضيء له ما أظلم عليه من نسبه، أما لو اعتبرتَ بما سلف واستقبلتَ الحسن المؤتنف، فنظرت ليومك وقدّمت لغدك، وقصّرت أملك وصوّرت بين عينيك اقتراب أجلك، واستقصرت مدة الدنيا، لم تغترّ بالمهلة، لما امتدت إليك يدُ الندامة ولا ابتدرتك الحسرات غداً يوم القيامة، ولكن ضرب عليه الهوى رُواق الحيرة فتركك، وإذا بدت لك يدُ موعظة لم تكد تراها ﴿ وَمَن

---

(١) تذكرة الحفاظ: ١/ ٣٦٢.

(٢) مناقب الشافعي: ٢/ ٢٥٦.

(٣) الانتقاء: ص٩٧.

(٤) العذار كالعنان. لسان العرب: ٦/ ٢٢٤.

﴿لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾». قيل: إن هارون بكى بعد ما سمع هذه الكلمات بكاءً شديداً حتى ابتلّ بدموعه منديل كان بين يديه، وعلا شهيقه وانتحابه[1].

ونزل الشافعي عند الإمام محمد بن الحسن الشيباني وتلقى عنه فقه العراق، ثم رجع إلى مكة، ثم عاد إلى العراق سنة خمس وتسعين ومائة، فاستفاد منه الإمام أحمد بن حنبل وغيره من العلماء، ثم رجع إلى مكة، ثم جاء إلى بغداد سنة ثمان وتسعين ومائة، وكانت بغداد في تلك الأيام تحترق بنار الحرب بين الأخوين محمد الأمين وعبد الله المأمون، وقُتل الأمينُ في هذه السنة، فلم يُـقِم بها، وخرج إلى مصر سنة تسع وتسعين ومائة، وأقام هناك إلى سنة أربع ومائتين إلى حين وفاته[2].

وفي رحلاته العديدة فيما بين العراق والحجاز استفادَ الإمام الشافعي رحمه الله وأفاد، وصنّف كتابه " الرسالة " في هذه الفترة، ويعتبر هذا الكتاب مصدراً هاماً من مصادر أصول الفقه، ولما انتقل الشافعي إلى مصر، انكشفت أمامه آفاقٌ جديدةٌ، ورأى فيها ما لم يَرَه من قبل في الحجاز والعراق؛ إذ أن مصر كانت ملتقى القارتين الكبيرتين آسيا وإفريقية، فواجه الإمام الشافعي هناك مقتضيات جديدة متنوعة للمجتمع الإسلامي الدعوي، ومن أجل ذلك وجدناه يعيد نظره في آرائه الفقهية فيغيّر رأيه السابق، ويفتي بما بدا له الرأي الجديد في ضوء تجاربه ومعلوماته الجديدة، فله قولٌ قديمٌ وقولٌ جديدٌ، وهكذا قضى الإمام الشافعي في مصر حوالي خمس سنين من سنة تسع وتسعين ومائة إلى سنة أربع ومائتين يخدم الدعوة الإسلامية بعلمه الغزير وأفكاره الراسخة[3].

---

(١) مناقب الشافعي: ١/ ١٣٤-١٣٥.

(٢) الانتقاء: ص٩٧ ؛ والبداية والنهاية: ١٠/ ٢٥٢ ؛ ومناقب الشافعي: ١/ ٢٢٠.

(٣) ومن أسباب اختلاف آراء الشافعي فيما بين مصر وما قبل مصر أنه غلّب مبدأ الأخذ=

وإليكم ما يحكيه تلميذ الشافعي المصري الربيع بن سليمان المرادي، كيف كان الإمام يتحمل التعب في سبيل العلم وخدمته، قال: «رأيت الشافعي بنصبين قبل أن يدخل مصر، فلم أرَه آكلاً بنهارٍ، ولا نائماً بليل، وكانت له جاريةٌ سوداء تخدمه، وكان يعمل الباب من العلم ثم يقول: يا جارية قومي إلى القداح، فتقوم فتُسرِج له، فيكتب ما يحتاج أن يكتبه ويرسِمُه في موضعه ثم يطفيء السراج ويستلقي على ظهره، فيعمل البابَ من العلم ثم يقـول: يا جارية قومي إلى القداح، فتقوم فتسرِج له فيكتب الباب من العلم ويرسمه في موضعه ثم يطفئ السراج، فكان على هذا منه، فقلت: يا أبا عبد الله لو تركتَ السراج يَـقد؛ فإن هذه الجارية منك في جهد، قال: إن السراج يشغل قلبي»[1].

ومن جهة أخرى، كان الشافعي رحمه الله يردّ على أصحاب علم الكلام ردًّا قاطعاً، ويستدل من الآيات القرآنية استدلالاً مفحماً على بطلان قولهم وعقائدهم، فمثلاً: استدلّ في رؤية الباري تعالى من الآية الكريمة: ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾[2]، فقال: أعلمنا بذلك أن هناك قوماً غير محجوبين ينظرون إليه لا يُضامون في رؤيته، وهم المؤمنون، كما جـاء عن النبي ﷺ أنه

= بالعُرف دليلاً شرعياً على الأحكام (والعُرف: دليل شرعي على الأحكام من الأدلة الشرعية الفرعية)، فنراه يغير الأحكام من أجل اختلاف الأعراف؛ لأن مصر لم تكن في تلاحمها مع الأعراف مثل الحجاز والشام والعراق، وذلك بحكم انفصالها الجغرافي عن هذه الأقطار. د. محمد عامر مظاهري.

(١) مناقب الشافعي: ١/ ٢٣٧-٢٣٨. قلتُ: واشكّ في صحة هذا الخبر؛ لأنّ من عادة العلماء في ذلك العصر المبارَك؛ القيامَ بأنفسهم للإسراج ولإطفائه، ولا أظن أنّ عالماً مثل الشافعي يُزعج جاريته طوال الليل بسبب يسير هو أن السراج يشغل قلبه!!. د. محمد عامر مظاهري.

(٢) سورة المطففين، الآية: ١٥.

قال: «ترون اللهَ عَزّ وجلّ يوم القيامة، كما ترون الشمس لا تضامون في رؤيتها»[1].

واستدل بقوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ ﴾[2] الآية، على كون الإيمان مشتملاً على القول والعمل والاعتقاد بالقلب بأن الله سبحانه سمّى صلاةَ المسلمين إلى بيت المقدس في قوله هذا " إيماناً "، والصلاة قولٌ وعملٌ واعتقادٌ.

وشعره معروف في الإيمان بالقدر: قال:

وما شئتَ كان وإن لم أشأ ... وما شئتُ إن لم تشأ لم يكُنْ
خلقتَ العبادَ على ما عَلِمْتَ ... ففي العلم يجري الفتى والمُسِنْ
على ذا مننتَ وهذا خذلتَ ... وهذا أعنتَ وذا لم تُعِن
فمنهم شقيٌّ ومنهم سعيدٌ ... ومنهم قبيحٌ و منهم حَسَنْ

وكان الإمام الشافعي رحمه الله يقول في أصحاب علم الكلام: «حُكمي في أصحاب الكلام: أن يُضربوا بالجريد، ويُحملوا على الإبل، ويُطاف بهم في العشائر والقبائل، يقال: هذا جزاء مَن تركَ الكتابَ والسنة، وأخذ في علم الكلام»[3].

ما أعدل! وما أحكم! ما قرّره الشافعي من التعزير لأصحاب علم الكلام، هذا كان مما ينبغي للدولة الدعوية أن تفعله، فلو قرّرت الدولة الأموية أو العباسية تعزيرات لِمَن خرج في العقائد عن إطار الكتاب والسنة، وخاصةً في المشتبهات ؛ كانت قد أدّت واجبها - على نحوٍ ما - ضمن حراستها قِيَم المجتمع

---

(١) الانتقاء: ص٧٩. قلتُ: وهناك آيةٌ أكثر صراحةً في تأييد مذهب القائلين برؤية المؤمنين لله سبحانه وتعالى يوم القيامة، وهي قوله تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [سورة القيامة، الآيتان: ٢٢-٢٣]. د. محمد عامر مظاهري.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٤٣.

(٣) الانتقاء: ص٨٠-٨١.

الإسلامي الدعوية، ولكن كلتا الدولتين قد أسرفت في الاشتغال بتدعيم السطوة والهيمنة النوعية على مسيرة الدولة، مما صرفهما إلى حَدّ ملحوظٍ عن واجبهما الجوهري، وهو الواجب الدعوي، فنتج من ذلك ما نتج من انحرافات عقدية تركت أثرها في كيان الدولة [بل وعلى مسيرة التاريخ الإسلامي].

كما جادل الإمام أصحابَ النزعة العقلية مجادلةً حسنةً، وإذا نظرنا في كتابه المعروف (الأم) ؛ وجدناه يحتوي على أسلوب جَدلي، ولعله اختار هذا الأسلوب ليستأنس به أصحاب علم الكلام الأسلوب الجدلي تماماً، وليقاوم به ما أثاره علم الكلام على نفس أسلوبه؛ إذ أن الحديد لا يفلّه إلا الحديد، وهكذا أقام الإمامُ الجليل على أصحاب علم الكلام الحُجة بتفوق الكتاب والسنة وقال:

قد عُوِّج الناس حتى أحدثوا بِدَعاً ... في الدين بالرأي لم تُبعث بها الرسلُ
حتى استخَفَّ بحَقِّ الله أكثرُهم ... وفي الذي حُمِلوا من حقه شغلُ

وهذا عملٌ دعويٌّ كبيرٌ كانت تقتضيه أوضاع ذلك العصر، وقام به هذا الإمام الكبير في حقل الدعوة الإسلامية، فلم يزل حاملاً راية الدعوة بعلمٍ وبصيرةٍ وهُدىً، حتى توفي في آخر رجب، سنة أربع ومائتين ٢٠٤هـ وعمره إذ ذاك أربع وخمسون سنة[١]، رحمه الله رحمةً واسعةً.

---

(١) تذكرة الحفاظ: ١/ ٣٦٣ ؛ والبداية والنهاية: ١٠/ ٢٥٤.

٤- الإمام أحمد بن حنبل (١٦٤ - ٢٤١هـ)

نشأته:

هو شيخ الإسلام في عصره، الحافظ الحجة، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الهُذلي الشيباني المروزي البغدادي، وُلد سنة أربع وستين ومائة ببغداد، توفي أبوه محمد شاباً، وكان جندياً في الجيش وكان من أصحاب الدعوة العباسية، فترعرع أحمد في حضانة أمه، حفظ القرآن الكريم في صباه، وكان في حداثة سنه يختلف إلى مجلس الإمام أبي يوسف القاضي، ثم ترك ذلك وأقبل على سماع الحديث.

فكان أول سماعه للحديث في سنة تسع وسبعين ومائة وعمره إذ ذاك ست عشرة سنة، فتلقّى الحديثَ عن هشيم بن يسير في بغداد، وبعدما توفي هشيم في سنة ثلاث وثمانين ومائة، بدأ رحلاته العلمية الممتعة، فخرج إلى الكوفة ودخل البصرة خمس مراث، وإلى الحجاز كذلك، والتقَى هناك بالإمام الشافعي فأخذ منه فقه الحديث، وسافر إلى اليمن وأخذ عن عبد الرزاق بن همام، وهكذا تكونت عند الإمام أحمد بن حنبل ثروةٌ علميةٌ كبيرةٌ، وروى عنه الإمام البخاري ومسلم وأبو داود وغيرهم[١].

علمه وفضله:

بلغ الإمام أحمد بن حنبل مبلغَ الإمامة في الحديث، حتى كان الإمام الشافعي يقول له: «يا أبا عبد الله إذا صحّ عندكم الحديث فأعلِمني به أذهب إليه؛ حجازياً كان أو شامياً أو عراقياً أو يمنياً[٢]»، واعترف بعلمه وفضله كثير من

(١) مناقب الإمام أحمد بن حنبل: ص٤٦ وما بعدها ؛ وتذكرة الحفاظ: ٢/ ٤٣١ ؛ والبداية والنهاية: ١٠/ ٣٢٦ ؛ وتهذيب التهذيب: ١/ ٧٢-٧٣.

(٢) البداية والنهاية: ١٠/ ٣٢٧.

العلماء، ننقل ههنا نبذةً من أقوالهم:

قال عبد الله بن أحمد: سمعت أبا زرعة يقول: «كان أبوك يحفظ ألف ألف حديث، ذاكرتُه فأخذتُ عليه الأبواب[1]»، وقال إبراهيم الحريري: رأيت أحمد كأنّ الله قد جمع له علم الأوّلين والآخرين[2]، وقال يحيى القطان: ما قدِمَ عليّ مثلُ أحمد، وقال فيه: حَبر من أحبار هذه الأمة، وقال عبد الرزاق: ما رأيت أفقه منه ولا أورع[3]، وقال الشافعي: خرجتُ من العراق فما تركتُ رجلاً أفضل ولا أعلم ولا أورع ولا أتقى من أحمد بن حنبل، وقال قتيبة: مات سفيان ومات الورع، ومات الشافعي وماتت السُّنن، ويموت أحمد بن حنبل وتظهر البِدَع.

في ميدان الدعوة:

حياة هذا الإمام الجليل مليئة بالجهود في سبيل الدعوة إلى الله، بدأ خدمته للدعوة بجلوسه لتدريس الحديث الشريف وجلوسه للفُتيا في المجتمع الإسلامي، وكانت حلقة درسه مملوءة بطلاب العلم، فرُوي أنّ عدد الذين كانوا يستمعون درسه نحو خمسة آلاف أو أكثر، والذين كانوا يكتبون عنه كانوا نحو خمسمائة إنسان[4]، وهكذا ظل هذا الإمام ينشر نفحاتِ الدعوة في العالم الإسلامي آنذاك.

وحدثت في عصر هذا الإمام الكبير فتنةُ خلق القرآن، التي هزّت المجتمع الإسلامي آنذاك، وأصبحت عقبةً كبيرةً في سَير الدعوة الإسلامية، أثارتها المعتزلة لغلبة النزعة العقلية على أفكارهم، فرَأوا: أن الله هو القديم المطلق، فكلُّ ما عداه محدَث ومخلوق، وقد زيّنت لهم عقولهم هذه الفكرة الخاطئة، ولا صلة لها بالعقيدة الإسلامية، ولم يُؤثَـر عن النبي ﷺ ولا عن أصحابه شيء يؤيد

---

(١) مناقب الإمام أحمد: ص٨٥.

(٢) تذكرة الحفاظ: ٢/ ٤٣١.

(٣) تهذيب التهذيب: ١/ ٧٣.

(٤) مناقب الإمام أحمد: ص٢٧١.

هذه الفكرة الزائغة، ولكنهم عضُّوا عليها بالنواجذ، وأرادوا تعميمها في المجتمع الإسلامي، فدخلوا في أوساط الحكم وغلبوا على عقلية الخليفة العباسي المأمون، فدعا إلى مسألة خلق القرآن كعقيدةٍ رسميةٍ فارقةٍ بين الإيمان والكفر، وأجبر كثيراً من العلماء والفقهاء والقضاة والمحدّثين على أن يعتنقوا هذه العقيدة الفاسدة، فأجابه كثيرٌ منهم خوفاً على أنفسهم، وصوناً لأعراضهم، ولم يُدرك كنه ما تُضمِره هذه العقيدة الزائغة من النتائج الهدامة للدعوة الإسلامية إلاّ قليلٌ من العلماء، فلم يعترفوا بها على رءوس الأشهاد وكان في مقدمتهم الإمام أحمد بن حنبل، رحمه الله تعالى.

كان الإمام يعرف حقَّ المعرفة أن العقيدة الإسلامية ليس لها مصدر غير كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وهي ثابتة كالجبال الراسيات فلا تتغير ولن تتغير بتقلّب الأوضاع وتغير الزمان والمكان، كما أنه ليس هناك أدنى مجال لإدخال ما لا يوجد في الكتاب والسنة في العقيدة الإسلامية ولا إخراج ما أثبته لها الكتاب والسنة، وكان الإمام يعرف أنّ معنى الاعتراف بهذه العقيدة الفاسدة التي أحدثتها المعتزلة، اعترافٌ بعدم تقديس كتاب الله تعالى، فيجرّ إلى الاستهانة به، وربما يؤدي الإنسان إلى أن يعتقد بأن القرآن ما عبّر عنه الرسول ﷺ بألفاظه مما أوحى الله إليه من المعاني، وهكذا تضرب هذه العقيدة الفاسدة ضربةً تكاد تزيل أصل الدعوة الإسلامية.

فقام هذا الإمام الجليل، رحمه الله، أمام هذه المحنة المتعبة كصخرة عظيمة لا تستطيع أن تحركها السيولُ مهما كانت جارفةً، ولا الزلازل مهما كانت عنيفةً، فضُرب ضرباً شديداً كاد يقضي على حياته، وعُذّب وذُلّ وأهين وخُلعت يداه في عهد المعتصم، وظل محبوساً في عهد الواثق، ولم يزل يردّد صوته الهادىء: «أعطوني شيئاً من كتاب الله أو سنة رسوله ﷺ».

وهكذا رفع هذا الإمام الجليل مِشعل التمسك بالكتاب والسنة في ظلام

حالك طرأ على فترة من العصر العباسي الأول، ولم يظهر منه أي نوع من الضعف والوهن في مقاومة هذا التيار الجارف من تياراتٍ هدامةٍ لمباديء الدين، وظل ثابتاً على موقفه بكل شجاعة وبسالة وبكل صبر وصمود حتى جاء عهد المتوكل فأفرج عنه(١).

ومن ناحية أخرى قدّم الإمام الكبير أسوةً حسنةً في سبيل الدعوة الإسلامية بزهده وورعه، فكان زاهداً قائماً لا يلتفت إلى الدنيا ومفاتنها، فقضى عمره ولم يأخذ جائزةً من الجوائز السلطانية، رُوي أنه ما كان يصلي خلف عمه إسحاق بن حنبل وأبنائه، وذلك لأنهم أخذوا جوائز السلطان، ورُوي: أن الشافعي قال للرشيد مرةً: إن اليمن تحتاج إلى قاضٍ، فقال له: اختر مَن شئتَ، فقال الشافعي لأحمد بن حنبل - وكان يتردّد إليه -: ألا تقبل قضاءَ اليمن ؟، فقال: إنما أختلف إليك لأجل العلم المزهِدِ في الدنيا، فتأمرني أن أَلِيَ القضاء!، ولولا العلم لما أكلّمك بعد اليوم، فاستحيى الشافعي منه.

وقيل: إنه وشى إلى الخليفة المتوكل رجلٌ من المبتدعة أن الإمام أحمد بن حنبل يأخذ بيعة الناس سراً لعلَويٍ اختفى في بيته، فأمر الخليفة نائبه بالتفتيش، ففُتّش بيت الإمام ليلاً فلم يجدوا شيئاً، فظهر على الخليفة كَذِب ذلك المبتدع، ثم بعث إلى الإمام عشرة آلاف درهم فلم يقبلها، فقيل له: إن لم تقبلها، يُسيء الخليفة بك ظنه فيما وُشيَ به عنك، فالمصلحةُ لكَ في قبولها، فقبلها كارهاً وفرّقها فوراً على المحتاجين من أهل الحديث، حتى تصدق بالكيس الذي كانت الجائزة فيه، ولم يعطِ أهله منها شيئاً، بينما كانوا في غاية الفقر في تلك الأيام.

ورُوي أن الإمام ذهبَ إلى المتوكل على طلبه إياه، وبقي في معسكره ثمانية أيام، وكان الخليفة يبعث إليه كل يوم مائدةً فيها ألوان الأطعمة تساوي مائة وعشرين درهماً، فلم يأكل منها شيئاً، وظل صائماً رغم كونه مريضاً، ولم يفطر

---

(١) البداية والنهاية: ١٠/ ٣٣٣-٣٣٥.

إلا بقليل من السويق، وذلك بعد ما أصرّ عليه ابنه عبد الله[1].

ولو لم يكن هذا التدقيق في الزهد وهذا الإباء والترفع في هذا الإمام الجليل ؛ لما استطاعَ أن يقاوم ذلك التيارَ الجارف من المادية التي بدأت تأكل أصولَ المجتمع الإسلامي، ولقد شهد التاريخ أن كل مَن قام لإصلاح المجتمع الإسلامي ولتجديد ما حدث من الخراب في المميزات الدعوية ؛ استند إلى أمورٍ في مقدمتها الزهد والتعفف؛ لأنه يكسب بهما الإنسان قوة المقاومة والاعتداد بالشخصية وقوة الاستهانة بالمُغريات، وقوة التغلب على شهوات النفس، فاستفاد هذا الإمام الجليل بالزهد قوةً روحيةً جديدةً وصلةً عميقةً بالله والإنابة إليه، فبقَي كالطود الشامخ أمام تيارات الانحراف التي تجرف كثيراً من الرجال وتطويهم بين أمواجها طياً.

توفى هذا الإمام الجليل في سنة إحدى وأربعين ومائتين (٢٤١هـ)، يُروى: أنه اجتمع جَمٌّ غفيرٌ من الناس حول منزله عندما سمعوا نبأ وفاته، واشترك حوالي مائة شخص من بني هاشم من الأسرة المالكة في غسله، يقبّلون ما بين عينَيه ويدعون له، وقيل: إنه لم يجتمع في الجاهلية ولا في الإسلام جمعٌ مِثلَ ما اجتمعوا على جنازة الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله، وأمرَ الأمير محمد بن عبد الله بن طاهر أن يُحصِيَ عددَ الذين صلّوا على الإمام أحمد، فوجدوهم نحو مليون وسبعمائة ألف مُصلّ، ما عدا مَن كانوا في السفن على دجلة، ويروَى: أنه أسلم عشرون ألفاً من اليهود والنصارى والمجوس يومَ مات هذا الإمام، وذلك بعد ما شاهدوا الإقبالَ العظيم من الناس على جنازته[2].

وكان هذا أدنى ما أظهره الله تعالى مما قبله من هذا الإمام الجليل في سبيل الدعوة الإسلامية، وأما ما ادّخره اللهُ تعالى - إن شاء - لآخرته ؛ فلا تعدله الدنيا وما فيها، رحمه الله رحمةً واسعةً.

---

(١) البداية والنهاية: ١٠/ ٣٣٨.

(٢) البداية والنهاية: ١٠/ ٣٤٢.

ثالثاً: دعاةٌ من الزُّهّاد

١- إبراهيم بن أدهم (ت ١٦٢ هـ)

هو أبو إسحاق إبراهيم بن أدهم بن منصور بن يزيد بن عامر بن إسحاق التميمي بالولاء، أصله من بلْخ، ثم سكن الشام، كان من مشاهير العُبّـاد والزُّهّاد، قيل: إنه كان ابن مَلك من ملوك خراسان وكان مولعاً بالصيد، فخرج مرةً في أثر ثعلب إذ سمع هاتفاً يقول: «ما لهذا خُلقتَ، ولا بهذا أُمرتَ»، فتأثر به وآثر أن يختار حياة الفقر، حياة الكدر والتعب، فترك كل ما كان عنده من زينة وتفاخر، وخرج إلى العراق ثم إلى الشام يعمل في البساتين ويحصد الحصاد[١].

دخل مكة وصحب سفيان الثوري والفضيل بن عياض، وكانت له صلةٌ بالإمام الأوزاعي، رحمهم الله تعالى، قال الثوري: كان إبراهيم بن أدهم يشبه إبراهيم الخليل عليه السلام، كان رجلاً فاضلاً، له سرائر وما رأيته يُظهر تسبيحاً ولا شيئاً، ولا أكل مع أحد إلا كان آخِرَ مَن يرفع يديه[٢]، قال عبد الرحمن بن مهدي: قلت لابن المبارك: إبراهيم بن أدهم ممّن سمع ؟، قال: قد سمع من الناس وله فضل في نفسه صاحب سرائر، وما رأيته يُظهر تسبيحاً ولا شيئاً من الخير، ولا أكل مع قوم قط إلا كان آخر مَن يرفع يده[٣].

وقال إبراهيم عن نفسه: أقمتُ بالشام أربعاً وعشرين سنة، لم أقم بها لجهاد ولا رباط، إنما نزلتها لأشبع من خبزٍ حلال، وكان يقول: «أطِبْ مطعَمك، ولا

---

(١) حيلة الأولياء: ٧/ ٣٦٨ ؛ وسير أعلام النبلاء: ٧/ ٣٨٨-٣٨٩.

(٢) البداية والنهاية: ١٠/ ١٣٦.

(٣) سير أعلام النبلاء: ٧/ ٣٨٩-٣٩٠.

عليك أن لا تقوم الليلَ ولا تصومَ النهارَ»[1].

قدّم هذا الزاهد الكبير بعلمه أسوةً يُقتدى بها في طلب كسب الحلال، وأشار بقوله المذكور آنفاً إلى أهمية أكل الحلال؛ إذ أن له تأثيراً بالغاً في إحياء القلوب وإماتتها، فإذا اغتذى الإنسان بشيء من الحرام بدأ موتُ القلب حتى تم موته بتوالي أكل الحرام، فلا تفيده صلواته ولا صيامه ولا زكاته ولا حجّه، وقد أشار النبي ﷺ إلى ذلك بقوله: «الرجل يُطيل السفر أشعثَ أغبر يمدّ يدَيه إلى السماء: يا رب يا رب، ومطعمُه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغُذّي بالحرام، فأنّى يُستجاب لذلك!!!»[2].

وكان إبراهيم بن أدهم يقول: «الزهد ثلاثة: واجب، ومستحَبٌّ، وزهدُ سلامةٍ، فأما الواجبُ: فالزهدُ في الحرام، والزهد عن الشهوات الحلال مستحبّ، والزهد عن الشبهات سلامة»[3] وله أخبار كثيرة[4] تدل على زهده وورعه من جهة، وإلى إصلاح النفس وتزكيتها من جهة أخرى.

رُوي أنه جاء إليه رجل وقدّم إليه جُبةً وقال: أرجو أن تقبلها مني، قال: أقبلها إذا كنتَ غنياً، فقال: أنا غني، فقال: كم عندك من المال ؟، قال: ألفان، قال: هل تحبّ أن تكون أربعة آلاف ؟، قال: نعم، قال: فأنت فقير، لا أقبلها منك[5]، وهكذا أشار هذا العابد الرباني إلى حقيقة قوله ﷺ: «ليس الغِنَى عن كثرة العرَض ولكن الغنَى غنى النفس»[6]، كما أراد إصلاحَ النفس وتزكيتها من

---

(١) البداية والنهاية: ١٠/ ١٣٦.

(٢) رواه مسلم: ٧/ ١٠٠.

(٣) البداية والنهاية: ١٠/ ١٣٨.

(٤) اقرأ ترجمته في حلية الأولياء: ٧/ ٣٦٧-٣٩٥.

(٥) البداية والنهاية: ١٠/ ١٣٨.

(٦) متفق عليه، اللفظ للبخاري: الصحيح: ١١/ ٢٧١.

رذيلةٍ تُلهيها عن ذِكر ربِّها وهي: مرض التكاثر الذي جاء ذكره في قوله تعالى: ﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴾[1] وبيّنه رسولُ الله ﷺ بقوله: «لو كان لابن آدم واديان مِن مالٍ لابتغى وادياً ثالثاً، ولا يملأ جوفَ ابنِ آدم إلاّ الترابُ، ويتوب الله على مَن تاب»[2].

ولم يحدث هذا الفساد في المجتمع الإسلامي إلاّ بعدما فُتحت الدنيا على المسلمين، وأقبلَ كثير منهم عليها بغير المعيار الإسلامي، فغلبت المادة على النفوس، ودخل مرض التكاثر في أفراد المجتمع، ولا يمكن معالجة هذا المرض الخطير إلا بالاهتمام بتزكية النفوس، فخدم هؤلاء الزُّهّاد والعُبّاد هذه الناحية المهمة من الدعوة الإسلامية خدماتٍ لا يُستهان بقيمتها، وأصبحوا بأنفسهم أمثلةً رائعةً لما يدعون الناسَ إليه، فرُوي أنه جاء رجلٌ إلى إبراهيم بن أدهم وأخبره أن أباه مات وترك مالاً عند القاضي، وقال: قد جئتُ إليك بعشرة آلاف درهم وبغلةٍ وفرسٍ لنفقتك إلى بلْخ، فأطرقَ إبراهيم طويلاً ثم رفع رأسه وقال: إن كنتَ صادقاً، فالدراهم والفَرس والبغلة لك، ولا تُخبر به أحداً، ثم ذهب إلى بلْخ وأخذ المال من القاضي، وأنفق جميعه في سبيل الله[3].

ورُوي أنه أكل يوماً على حافة نهر الأردن كسيرات مبلولة بالماء وضعها أمامه أحد من أصحابه يقال له أبو يوسف الغسولي، فأكل منها ثم قام فشرب من النهر، ثم جاء واستلقى على قفاه، وقال: يا أبا يوسف لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه من السرور والنعيم إذن لجالدونا على ما نحن فيه بأسيافهم أيامَ الحياة على ما نحن فيه من لذة العيش وقلة التعب»[4].

---

(١) سورة التكاثر، الآيتان: ١-٢.

(٢) متفق عليه، واللفظ لمسلم: ٧/ ١٣٩.

(٣) البداية والنهاية: ١٠/ ١٣٨.

(٤) حلية الأولياء: ٧/ ٣٧٠-٣٧١.

ولم يكن هذا العابد الرباني زاهداً جافاً ترك لذائذ الدنيا وعكف على خشونة العيش، بل كان زاهداً متزناً في الزهد، وإنما اختار حياة الخشونة لمعالجة المرض الذي بدأ يكتسح قيم المجتمع الإسلامي الدَّعَوي معالجةً عمليةً شديدةً، ليخفّف بها أثر ذلك المرض الساري بالمجتمع؛ ألا وهو: حُب الدنيا وكراهة الموت، وهناك أخبارٌ تدل على كونه متزناً، مقتصداً في الزهد، رُوي أن الإمام الأوزاعي أضاف مرةً إبراهيمَ بن أدهم، فأكل القليلَ من الطعام، فقال له الأوزاعي: لِمَ أكلتَ القليلَ؟، قال: إنك هيأتَ القليل، ثم أضاف إبراهيمُ الأوزاعيَّ وأعدّ له طعاماً كثيراً، فقال له الأوزاعي: أما تخاف أن يكون سرفاً ؟ فقال: لا، إن السرفَ ما كان في معصية الله، فأما ما أنفقه الرجل على إخوانه، فهو مِن الدين[1].

ورُوي أنه كان يعمل عملَ الأجير ويذهب إلى السوق ومعه ما نال من أجرة ذلك العمل، فيشتري به البيض والزبد والمأكولات الطيبة، فيأتي بها ويُطعِمَها أصحابَه وهو صائم، فإذا أفطرَ أكلَ من رديء الطعام وحرمَ نفسه من المطعم الطيب، وهكذا أبرز أنه زاهدٌ مقتصد لا يحرّم الطيبات، وإنما اختار لنفسه الحياة الخشنة من أجل متطلبات الدعوة - كما تراءت له - في تلك الأيام.

وكان متيقظاً حكيماً يعرفُ معالجةَ الموضع بما يناسبه من التدبير، وهذه مميزة مهمة يحتاج إليها الدعاة في كل مجالات الدعوة، فروي أنه كسب مرةً عشرين ديناراً، فذهب إلى حجّام ليحلق رأسه ورءوس أصحابه، فازدرى بهم الحلاق عندما رآهم فقراء واشتغل عنهم بغيرهم، وبعدما طال جلوسهم عنده توجّه إليهم وقال: ماذا تريدون ؟، قال إبراهيم: أريد أن تحلق رأسي وتحجمني، ففعل، فأعطاه إبراهيم عشرين ديناراً وقال له: أردتُ أن لا تحقر بعد هذا فقيراً

---

(١) البداية والنهاية: ١٠/١٣٨-١٣٩.

أبداً[1].

وكان يردّد أبياتاً تدل على كون متاع الدنيا متاعَ الغرور، وتحضّ السامع على النشاط في العمل لآخرته كما تحضّه على الخوض والتفكير فيما يُفسد قِيَم المجتمع الإسلامي الدعوية، ومنها الأبيات التالية:

رأيت الذنوب تميت القلوب ... ويورثها الذّلّ إدمانُها
وتركُ الذنوب حياةُ القلوب ... وخيرٌ لنفسِك عصيانُها
وما أفسَدَ الدينَ إلاّ ملوكٌ ... وأحبارُ سُوءٍ و رُهبانها
وباعوا النفوسَ فلم يربحوا ... ولم يغلُ بالبيع أثمانُها
لقد رتَع القوم في جيفةٍ ... يَبينُ لِذي اللبِّ أنتانُها

وكان من أقواله: «كل سلطان لا يكون عادلاً فهو واللصُّ بمنزلةٍ واحدةٍ، وكل عالِم لا يكون ورِعا فهو والذئب بمنزلةٍ واحدةٍ، وكلُّ مَن قدّم سوى الله فهو والكلبُ بمنزلةٍ واحدةٍ»[2].

توفي هذا الزاهد العظيم في جزيرةٍ من جزائر البحر الأبيض المتوسط مرابطاً في سبيل الله، يُروى أنه أصيب بمرض الإسهال فذهب إلى الخلاء في الليلة التي مات فيها نحو عشرين مرةً، وكان يجدّد وضوءه في كل مرةٍ، فلما كانت عشية الموت، قال: أوتِروا إليّ قوسي، فقبض عليه ومات وكأنه يصوّب رميته إلى أعداء الدعوة الإسلامية، وذلك في سنة اثنتين وستين ومائة (١٦٢ هـ)[3]، رحمه الله رحمةً واسعةً.

---

(١) البداية والنهاية: ١٠/ ١٣٨-١٣٩.

(٢) البداية والنهاية: ١٠/ ١٤١-١٤٢.

(٣) البداية والنهاية: ١٠/ ١٤٢.

٢- ابن السمّاك

هو الزاهد القدوة، سيد الوَعّاظ في عصره أبو العباس محمد بن صبيح بن السمّاك العجلي بالولاء، السمّاك: نسبةً إلى بيع السمك وصيده، كان زاهداً عابداً حسن الكلام وصاحب مواعظ، روى عن هشام بن عروة، والأعمش ويزيد بن أبي زياد، وغيرهم، وروى عنه يحيى بن يحيى، وأحمد بن حنبل، ويحيى بن أيوب العابد، وآخرون، كان صدوقاً ثقة[(١)].

خدم الدعوة الإسلامية عن طريق المواعظ الحسنة، كان يحضر آلافٌ مِن المسلمين في مجلس وعظه ويتأثرون بحسن كلامه وصدق مقاله وخلاص نيته لله سبحانه وتعالى، وكان الخليفة هارون الرشيد مّمن يحضر تلك المجالس[(٢)]، ولم يكن غرضه من هذه المجالس للوعظ إلا ابتغاء وجه الله تعالى والدعوة إليه، فقال عند وفاته: «اللهم إنك تعلم أني لم أجلس مجلساً للناس إلا لأحبّبك إلى خلقِك، وأحَبّب خلقَك إليك»[(٣)].

ولقد نهج هذا الواعظ الزاهد منهجاً معتدلاً في أداء مهمته الدعوية، فلم يخطُ خطوةً تبرُز بها شخصيته كرجال يطوفون أوساط السلطة، كما أنه لم يسلك مسلك الابتعاد التام عن رجال الدولة، فكان يحضر بلاط الرشيد على طلبه.

رُوي أن هارون الرشيد قد حلف أنه من أهل الجنة، فاستفتى العلماءَ، فلم يفته أحد بأنه من أهلها، فقيل له عن ابن السماك، فاستحضره وسأله، فقال له: «هل قدرَ أميرُ المؤمنين على معصيةٍ فتركها خوفاً مِن الله تعالى ؟، فقال: نعم، كانت جاريةٌ أنا هويتها وأنا إذ ذاك شاب، ثم إني ظفرتُ بها مرةً وعزمتُ على ارتكاب الفاحشة معها، ثم إني فكرتُ في النار وهولها وإن الزنا من الكبائر ؛

---

(١) وفيات الأعيان: ٤/ ٣٠٢ ؛ وسير أعلام النبلاء: ٨/ ٢٩٢.

(٢) الإمامة والسياسة: ٢/ ١٥٦.

(٣) تاريخ بغداد: ٥/ ٣٧٣.

فاشفقت من ذلك وكففت عن الجارية مخافة من الله تعالى، فقال له ابن السماك: أبشر يا أمير المؤمنين فإنك من أهل الجنة، فقال هارون: ومن أين لك هذا ؟، فقال: من قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ فسرّ هارون بذلك[1].

وليس معنى ذلك أن ابن السماك أوّلَ الآية الكريمة تأويلاً ليكتسب به رضا الخليفة، بل هي نكتةٌ فقهيةٌ تُستنبَط من الآية الكريمة، ولم ينتبه إليها غيره، وقد نقل ابن العماد[2] قول فقيه: «بأن استدلال ابن السماك صحيح؛ لأن الظاهر أن كل مسلم يدخلها، وإنما الإشكال لو قال: يدخلها دون مجازاة، وغاية ما فيه الشك ؛ الحنث لا يقع به، والله أعلم»، [وفي سؤال ابن السماك عن معصيةٍ تركها الخليفة مخافةً لله على الرغم من قدرته عليها ؛ توجيه له إلى الإكثار من مثيلاتها].

ولم تكن زيارة ابن السماك بلاطَ الخليفة خاليةً عن روح الدعوة وجوهرها، بل كان لا يدّخر جهده من انتهاز الفرصة لتبليغ ما يجب عليه إبلاغه إلى رجال الحكم، فرُوي أنه طلبه الرشيد مرةً في آخر شهر شعبان، فانتهز ابن السماك هذه الفرصة السعيدة لينصح هارون، فقيل إنه سأله يحيى بن خالد: أتدري لِمَ بعث إليك أمير المؤمنين ؟، قال: لا أدري، قال يحيى بن خالد: بعث لما بلغه عنك من حُسن دعائك للخاصة والعامة، فقال له ابن السماك: «أما ما بلغ أمير المؤمنين عني من ذلك فبسِتر الله الذي ستره عليَّ، ولولا سِتره، لم يبق لنا ثناءٌ ولا التقاءٌ على المودة، فالستر هو الذي أجلسني بين يديك يا أمير المؤمنين، إني والله، ما رأيت وجهاً أحسن من وجهك فلا تحرق وجهك بالنار»، فبكى هارون بكاءً شديداً، ثم دعا بماءٍ فاستسقى، فأُتِي بقِدْح فيه ماء، فقال ابن السماك: «أكلّمك

---

(١) وفيات الأعيان: ٤/ ٣٠٢.

(٢) شذرات الذهب: ١/ ٣٠٤.

بكلمة قبل أن تشرب هذا الماء ؟»، قال: قل ما أحببتَ، قال: «يا أمير المؤمنين لو مُنِعتَ هذه الشربة إلا بالدنيا وما فيها، أكنت تفتديها بالدنيا وما فيها حتى تصل إليك ؟»، قال: نعم، قال: «فاشرب ريّاً، باركَ الله فيك»، فلما فرغ من شربه قال له: «يا أمير المؤمنين! أرأيت لو مُنِعتَ إخراجَ هذه الشربة منك إلا بالدنيا وما فيها، أكنت تفتدي ذلك بالدنيا وما فيها ؟»، قال: نعم، قال: «يا أمير المؤمنين! فما تصنع بشيء شربةُ ماءٍ خيرٌ منه ؟»، فبكى هارون واشتدّ بكاؤه، فقال يحيى بن خالد: يا ابن السماك قد آذيت أمير المؤمنين، فقال له: وأنت يا يحيى! فلا يغرّنّك رفاهية العيش ولينه[١].

ولقد رأينا في هذا الواعظ الجليل ذلك الاعتدال الذي رأيناه في المحدّث الفقيه الإمام الليث بن سعد رحمه الله، إلا أن ذلك الإمام كان ثرياً ينفق دخله الكبير في سبيل الله، وهذا الزاهد الواعظ كان خاوي الوفاض لا يملك ذهباً ولا فضةً ولكن كان غنيّ القلب، كان يوجّه أصحابَ الثروة إلى الإنفاق في سبيل الله، وبهذا يؤدي نصيبه من الجهد لإبقاء المجتمع الإسلامي على مميزته المهمة ألا وهي: التوازن الاقتصادي.

روي أنه جاء إليه رجل وقال له: أعزّك الله، إني أتيتك في حاجة، فقال: والله ما عندنا صفرٌ ولا بيضٌ، قال: واللهِ ما جئنا في شيء من هذين الجوهرين، قال: وفيمَ ذاك ؟، قال: سألني هذا الرجل أن أكلمك في أن تكلّم بعض إخوانك في صَداق أهله، فأخذ ابن السماك رقعةً وكتب فيها: «أطال الله بقاك يا أبا العباس، إن الدهر قد كلح فجرح، وجمح فطمح، وأفسد ما أصلح، فإن لم تُعِن عليه فُضِح، ودفعها إلى الرجل فقال: أوصِلها إلى الفضل بن يحيى، قال: فأوصلَها، فدعا الفضل صاحبَ بيت ماله، فقال: ما في بيت مالنا ؟ قال: ألف ومائتا دينار وثلاثون ألف درهم، قال: احملها إلى أبي العباس، وأعلمه أنّا في ضيق، فلما أتى

---

(١) تاريخ بغداد: ٥/ ٣٧٢.

بالمال، قال: ادفعوه إلى الرجل، قيل له: إنما يكفي هذا الرجل ألف أو ألفان، قال ما جاء بسببه فهو له[1].

وهذه الثقة التي نالها ابن السماك من الفضل بن يحيى لم تكن إلا من أجل غنائه القلبي، ومن أجل خدماته الدعوية التي كان وقفَ حياته في سبيلها، ويبدو فكره الدائم في سبيل الدعوة من الحوار الذي جرى بينه وبين عابدٍ قابلَه على رأس جَبل في طريقه فسلّم عليه، وجرى بينهما الحوار التالي:

قال ابن السماك: إني رجل مهموم.

قال العابد: ومَن همك ؟

قال: في ثلاث.

قال: وما هذه ؟

قال: ما دليل الخوف ؟

قال: الحزن.

قال: فما دليل الشوق ؟

قال: الطلب.

قال: فما دليل الرجاء ؟

قال: العمل.

قال: فمن أين ضعفنا ؟

قال العابد: لأنكم وثقتم بعفو الله عنكم، ولو عاجلكم بالعقوبة، لهويتم من معصيته إلى طاعته[2].

ولا بأس لو ذكرنا بهذه المناسبة بعضاً من كلمات هذا الزاهد الواعظ: من

---

(١) تاريخ بغداد: ٥/ ٣٧١-٣٧٢.

(٢) حلية الأولياء: ٨/ ٢٠٧-٢٠٨.

كلماته: «كم من شيء إذا لم ينفع لم يضر، لكن العلم إذا لم ينفع يضر»[1]، ومنها: «الدنيا كلها قليل، والذي بقي منها قليل، والذي لك من الباقي قليل، ولم يبق من قليلك إلا قليل، وقد أصبحت في دار العزاء وغداً تُقبر إلى دار الجزاء، فاشترِ نفسَك لعلك تنجو»[2].

وطلب منه أحد أثرياء بغداد أن يصف له الدنيا، فكتب إليه: «أما بعد: فاللهُ حفّها بالشهوات، ثم ملأها بالآفات، ومزج حلالها بالمؤونات، ومزج مرامَها بالتبعات، فحلالها حسابٌ، وحرامها عذاب»، ومن كلامه: «الذباب على العذرة أحسن من القارئ على أبواب الملوك».

وهكذا قضى هذا الناسك الواعظ حياته في سبيل الدعوة الإسلامية، ولحِق بربّه سنة ثلاث وثمانين ومائة (١٨٣ هـ)[3]، رحمه الله تعالى رحمةً واسعةً.

٣- الفضيل بن عياض

هو أبو علي الفضيل بن عياض بن مسعود بن بِشر التميمي اليربوعي، أحد أئمة العُباد والزهاد، وأحد العلماء والأولياء، وُلد بخراسان، وسمع الحديث عن الأعمش والثوري وجعفر الصادق ويحيى بن سعيد الأنصاري وغيرهم، وروى عنه الثوري وابن عيينة وابن المبارك ويحيى القطان وعبد الرحمن بن مهدي وخلقٌ كثير[4].

---

(١) تاريخ بغداد: ٥/ ٣٧٠ ؛ وسير أعلام النبلاء: ٨/ ٢٩٢.

(٢) سير أعلام النبلاء: ٨/ ٢٩٣.

(٣) تاريخ بغداد: ٥/ ٣٧١-٣٧٣ ؛ وسير أعلام النبلاء: ٨/ ٢٩٣.

(٤) سير أعلام النبلاء: ٧/ ٣٧٣ ؛ والبداية والنهاية: ١٠/ ١٩٨-١٩٩ ؛ وتهذيب التهذيب: ٨/ ٢٩٤.

قيل: إنه كان في أول عهده نهّاباً يقطع الطريق بخراسان بين أبيوَرْد[1] وسرخس[2]، وكان يتعشق جاريةً، فبينما هو ذات ليلة يتسوّر جداراً ليجتمع بتلك الجارية، إذ سمع قارئاً يتلو قول الله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾[3]... الآية، فأثرت الآيـة الكريمة في قلبه، فاقشعر جلده وانطلق من فمه: «بلى يا ربِّ قد آن»، فتاب وأقلع عمّا كان عليه، ورجع إلى خربته، وسمع أهلَ قافلة يقولون: «خذوا حذركم إن فضيلاً أمامكم يقطع الطريق»، فقال في نفسه: «أنت تسعى بالليل في المعاصي وقومٌ من المسلمين يخافونك ؟ اللهمّ إني تبتُ إليك وجعلت توبتي مجاورة البيت الحرام»[4].

وهكذا أصبح مثالاً حياً في سبيل الدعوة لَمن أراد أن يتوب إلى الله توبةً نصوحاً، فقدِمَ الكوفةَ وتلقّى الحديث من مشايخ زمانه، ثم انتقل إلى مكة وتعبّد هناك، كان كثير التلاوة والصلاة والصيام، وله قصةٌ مع الرشيد ذكرناها في أحوال الرشيد، وقد رواها ابنُ المبارك ولا بأس لو أوردنا ههنا ما رواه الفضل بن الربيع، وقد أورد الذهبي هذه الرواية في كتابه سير أعلام النبلاء[5]، ولعلها

---

(١) أبيورد (بفتح أوله وكسر ثانيه وياء ساكنة وفتح الواو وسكون الراء ودال مهملة): مدينة بخراسان بين سرخس ونسا، رديئة الماء يكثر فيها خروج العرق. معجم البلدان: ١/ ٨٦.

(٢) سرخس (بفتح أوله وسكون ثانيه وفتح الخاء المعجمة وآخره سين مهملة): مدينة قديمة من نواحي خراسان كبيرة واسعة، وهي بين نيسابور ومَرو في وسط الطريق. معجم البلدان: ٣/ ٢٠٨.

(٣) سورة الحديد، الآية: ١٦.

(٤) سير أعلام النبلاء: ٧/ ٣٧٣-٣٧٤ ؛ والبداية والنهاية: ١٠/ ١٩١ ؛ وتهذيب التهذيب: ٨/ ٢٩٥.

(٥) انظر: ٧/ ٣٧٨-٣٨١.

زيارة الرشيد فضيلاً غير زيارته الأولى التي سبق ذكرها:

قال الفضل بن الربيع: «... أتينا الفضيل بن عياض، فإذا هو يتلو آيةً يردّدها، فقال: اقرع الباب، فقرعتُ، فقال: مَن هذا ؟، قلت: أجب أميرَ المؤمنين، قال: ما لي ولأمير المؤمنين ؟، قلت: سبحان الله أما عليك طاعة ؟ فنزل ففتح الباب، ثم ارتقى إلى الغرفة فأطفأ السراج ثم التجأ إلى زاوية، فدخلنا فجعلنا نجول عليه بأيدينا، فسبقت كفُّ هارون قبلي إليه، فقال: يا لها مِن كفٍّ ما ألينَها! إن نجتْ غداً من عذاب الله، فقلت في نفسي: ليكلمنه الليلة بكلام نقي من قلب تقي، فقال هارون له: خُذ لما جئتنا له رحمك الله، فقال: إن عمر بن عبد العزيز لما ولِي الخلافة دعا سالمَ بن عبد الله ومحمدَ بن كعب ورجاء بن حيوة فقال لهم: إني قد ابتُليتُ بهذا البلاء فأشيروا عليَّ، فعَدّ الخلافةَ من البلاء، وعددتُها أنت وصاحبك نعمةً، فقال له سالم: إن أردتَ النجاة فصُمِ الدنيا، وليكن إفطارك منها الموت، وقال له ابن كعب: إن أردت النجاة من عذاب الله فليكن كبيرُ المسلمين عندك أباً، وأوسطهم أخاً، وأصغرهم ولداً، فوقّر أباك وأكرِم أخاك وتحنّن على ولدك، وقال له رجاء: إن أردتَ النجاة من عذاب الله فأحِبَّ للمسلمين ما تُحبّ لنفسك، واكرَه لهم ما تكره لنفسك، ثم متْ إذا شئتَ، وإني أقول لك هذا وإني أخاف عليك أشد الخوف يوم تزلّ فيه الأقدام، فهل معك - رحمك الله - مَن يشير عليك بمثل هذا ؟، فبكى هارون بكاءً شديداً حتى غُشي عليه.

فقلت له: أُرفُق بأمير المؤمنين، فقال: يا ابن أم الربيع تقتله أنت وأصحابك وأرفُق به أنا ؟، ثم أفاق هارون فقال له: زدني رحمكَ الله، قال: بلغني أن عاملاً لعمر بن عبد العزيز شكا إليه فكتب إليه: «يا أخي أذكّرك طول سهر أهل النار في النار مع خلود الأبد، وإياك أن ينصرف بك من عند الله، فيكون آخر العهد وانقطاع الرجاء»، فلما قرأ الكتابَ طوى البلادَ حتى قدم عليه، فقال: ما أقدمك

؟، قال: خلعتَ قلبي بكتابك، لا أعود إلى ولايةٍ حتى ألقى الله، فبكى هارون بكاءً شديداً، فقال: يا أمير المؤمنين إن العباسَ عمَّ النبي ﷺ جاء إليه فقال: أمِّرني، فقال له: إن الإمارة حسرةٌ وندامةٌ يوم القيامة، فإن استطعتَ أن لا تكون أميراً فافعل، فبكى هارون وقال: زدني، قال: يا حَسنَ الوجه، أنت الذي يسألك الله عن هذا الخلق يوم القيامة، فإن استعطت أن تقي هذا الوجه من النار فافعل، وإياك أن تصبح وتمسي وفي قلبك غِشّ لأحد من رعيتك، فإن النبي ﷺ قال: «مَن أصبح لهم غاشاً لم يَرِح رائحة الجنة»، فبكى هارون وقال له: عليك دَين ؟، قال: نعم، دَين ربي لم يحاسبني عليه، فالويل لي إن سألني والويل لي إن ناقشني، والويل لي إن لم أُلهَم حُجَّتي، قال: إنما أعني من دَين العباد، قال: إن ربي لم يأمرني بهذا، أمرني أن أصدّق وعده وأطيع أمره، فقال عزّ وجلّ: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾، فقال: هذه ألف دينار خُذها فأنفقها على عيالك وتقوَّ بها على عبادة ربك، فقال: سبحان الله أنا أدلك على طريق النجاة وأنت تكافئني بمثل هذا ؟، سلَّمك الله ووفَّقك، ثم صمتَ فلم يكلّمنا، فخرجنا، فقال هارون: يا أبا العباس إذا دللتني، فدُلّني على مثل هذا، هذا سيد المسلمين. فدخلت عليه امرأةٌ من نسائه فقالت: قد ترى ما نحن فيه من الضيق، فلو قبلتَ هذا المال، قال: إنما مثلي ومثلكم كمثل قوم لهم بعير يأكلون من كسبه، فلما كبر نحروه فأكلوا لحمه.

فلما سمع هارون هذا الكلام قال: ندخل فعسى أن يقبل المال، فلما علم الفضيل خرجَ فجلس على السطح على باب الغرفة، فجاء هارون فجلس إلى جنبه فجعل يكلمه فلا يجيبه، فبينا نحن كذلك إذ خرجت جاريةٌ سوداء فقالت: يا هذا قد آذيتَ الشيخ الليلة، فانصرِفْ. فانصرفنا.

قضى هذا الزاهد الرباني عمره في العُزلة في جوار بيت الله يرشدُ خلقَ الله

إلى سبيل الحق والهداية بأقواله وأعماله، وله أخبارٌ حسنة[1]، كان زاهداً عالماً أثنى عليه كثير من العلماء، فقال عبد الله بن المبارك: ما بَقِيَ على ظهر الأرض عندي أفضل من الفضيل[2]، وقال هارون الرشيد: ما رأيتُ في العلماء أهْيَبَ من مالك، ولا أورع من الفضيل، وقال شريك: لم يزل لكل قومٍ حُجةٌ في زمانه، وإن الفضيل بن عياض حُجةٌ لأهل زمانه[3]، وقال إبراهيم بن الأشعث خادم الفضيل: ما رأيتُ أحداً كان اللهُ في صدره أعظمَ من الفضيل، كان إذا ذُكر الله عنده، أو سمعَ القرآن، ظهر به من الخوف والحزن وفاضت عيناه فبكى حتى يرحمه مَن بحضرته[4]، كان لا يقبَل صلةَ الملوك والخلفاء، كما مرّ آنفاً، فقضى حياة زهد وتقشف، إلا أنه كان يقبل صلة ابن المبارك نظراً إلى إخلاصه له وحُبه إياه[5].

وذكر الذهبي[6]، أنه كانت قراءة الفضيل حزينةً بطيئةً مترسّلةً كأنه يخاطب إنساناً، وكان إذا مرّ بآيةٍ فيها ذكرُ الجنة يردّد فيها، وكانت صلاته بالليل أكثر ذلك قاعداً، يُلقى له الحصير في مسجده فيصلّي من أول الليل ساعة، ثم تغلبه عينُه فيلقي نفسَه على الحصير فينام قليلاً، ثم يقوم فإذا غلبه النوم نام، ثم يقوم، هكذا حتى يصبح، وكان دأبه إذا نعس ينام.

ولهذا العابد الرباني كلماتٌ يجب أن تُكتب بماء الذهب، نذكر ههنا بعضاً منها: كان من أقواله: «لو أن الدنيا بحذافيرها عُرضت عليّ حلالاً لا أحاسَب

---

(١) اقرأ ترجمته في حلية الأولياء: ٨/ ٨٤-١٣٩.

(٢) تهذيب التهذيب: ٨/ ٣٩٥.

(٣) تذكرة الحفاظ: ١/ ٢٤٦ ؛ تهذيب التهذيب: ٨/ ٢٩٥-٢٩٦.

(٤) تهذيب التهذيب: ٨/ ٢٩٦.

(٥) تذكرة الحفاظ: ١/ ٢٤٦.

(٦) سير أعلام النبلاء: ٧/ ٣٧٧.

بها في الآخرة ؛ لكنتُ أتقذرها كما يتقذر أحدكم الجيفة إذا مرّ بها أن تصيب ثوبه»[1]، ومن أقواله: «العملُ لأجل الناس شِرْكٌ، وتركُ العمل لأجل الناس رياء، والإخلاص أن يعافيك الله عنهما». ومنها قوله: إني لأعصي اللهَ، فأعرف ذلك في خُلق حماري وخادمي وامرأتي وفأر بيتي،[2]، ومنها قوله: «لا يكون العبد من المتقين حتى يأمنه عدوُّه»[3].

ومنها قوله: «لو أن لي دعوةً مستجابةً لجعلتُها في الإمام، قيل له: وكيف ذلك يا أبا علي ؟، قال متى جعلتها في الإمام فصلاحُ الإمام صلاحُ العباد والبلاد، قيل: وكيف ذلك يا أبا علي، فسّر لنا هذا ؟، قال: أما صلاح البلاد، فإذا أمنَ الناس ظُلمَ الإمام؛ عمّروا الخرابات ونزلوا الأرض، وأما العباد، فينظر إلى قومٍ من أهل الجهل فيقول: قد شغلهم طلبُ المعيشة عن طلب ما ينفعهم من تعلم القرآن وغيره، فيجمعهم في دارٍ خمسين خمسين، أقلّ أو أكثر، يقول للرجل: لكَ ما يُصلحك، وعلِّم هؤلاء أمرَ دينهم، وانظر ما أخرج اللهُ عَزّ وجلّ من فيهم مما يزكي الأرض، فردّه عليهم، قال: فكان صلاح العباد والبلاد».

وبقوله هذا أشار هذا العالم الرباني إلى أهمية تمسُّك الدولة الإسلامية بأهداب الدعوة تمسكاً لا انفكاك فيه؛ إذ أن به صلاح المجتمع الإسلامي وصيرورته مجتمعاً دعوياً يؤدي رسالته نحو نفسه ثم نحو البشرية كافة، كما أشار إلى ضِدّ ذلك، بأن الفساد لا يحدثُ إلا بتقصير أصحاب السلطة في واجباتهم الدعوية.

توفي هذا العابد الزاهد إلى رحمة الله تعالى يوم عاشوراء سنة سبع وثمانين

---

(١) حلية الأولياء: ٨/ ٨٩.

(٢) البداية والنهاية: ١٠/ ١٩٩.

(٣) سير أعلام النبلاء: ٧/ ٣٧٧.

ومائة (١٨٧هـ)، وكان عمره إذ ذاك قد نيف على الثمانين[1]، رحمه الله رحمةً واسعةً.

* * *

يتبيّن لنا مما سبق من أخبار هؤلاء الزهـاد - إبراهيم وابن السماك والفضيل - أن العصر العباسي الأول لم يكن خالياً من أمثالهم من الزهاد والعُباد؛ إذ أن ما حدث من الانحرافات في أوساط الحكم والمجتمع ؛ حضّ كثيراً من الناس على أن يختاروا حياة الاستعلاء على مُغريات الحياة الدنيا، وكان من هؤلاء بعض أبناء الملوك والخلفاء، وقد رأينا أن إبراهيم بن أدهم كان ابن ملك في بلْخ، ويروي لنا ابن كثير[2] خبرَ ابنٍ للرشيد يُدعَى: أحمد، قد ذهب في حياته مذهبَ الزهد والترفّع عن مناعم الحياة التي كان من الممكن أن تفتح أبوابها له، وآثر حياةَ الزهد والقناعة.

ولكن الزهد موقف حرج جداً في مجال الدعوة الإسلامية؛ إذ أن الإفراط والتفريط فيه يبعدان الإنسان عن الجادة، ويحدثان في المجتمع ما يهدّد كيانه الدعوي، فالإفراط ربما أتى بزهد متطرف له قِشر دون لبّ، ويتحول إلى الرهبانية التي تدعو إلى ترك الدنيا برُمتها، ولا مجال لها في الإسلام، والتفريط فيه يُفقد الحياة الكثيرَ من معانيها الجميلة، ويفتح الباب لأن يتسرب فيها المكر والخديعة والنهم إلى ملذات الدنيا وما إلى ذلك، وكلا الطرفين أحدثَ عقبات في سبيل الدعوة الإسلامية وويلات في تاريخنا الإسلامي الطويل.

والزهد الذي يتمشّى مع الدعوة الإسلامية، وهو مظهر من مظاهرها ويُسهِم في تقدمها وارتقائها: هو ما وصل إلينا من طراز حياة رسول الله ﷺ، ومن طراز حياة أصحابه الكرام رضي الله تعالى عنهم، هذا الزهد يجنح إلى اجتناب مناعم

---

(١) تذكرة الحفاظ: ١/ ٢٤٦ ؛ والبداية والنهاية: ١٠/ ١٩٩ ؛ وتهذيب التهذيب: ٨/ ٢٩٥.

(٢) البداية والنهاية: ١٠/ ١٨٤.

الدنيا وزخارفها كعلاجٍ مرحلي لتزكية النفوس، أو كسلوك دائم يزيد من فعالية صاحبه في الحياة، ويُقَدِّره على توجيه هذه الفعاليات الوجهة الأجدى والأكثر عائدةً على الدعوة وأهلها في العاجلة والآجلة.

وكان هؤلاء الزهاد - إبراهيم وابن السماك والفضيل - يمثلون هذا الزهد الإسلامي الدعوي، وكانت أمثالهم كثيرة في العصر العباسي الأول، واكتفينا بذكر ثلاثة منهم كنموذج، على أننا نشعر أحياناً بشيء من المبالغة في تذكرة حياتهم، ولا بأس من الإفادة منهم ومن أمثالهم بشرط أن نَزِن ما يُنقل عنهم وعن هؤلاء جميعاً بميزان الكتاب والسنة، ثم بميزان الصحابة الكرام رضي الله تعالى عنهم أجمعين.

وعلى كل حال، فهؤلاء المحدِّثون والفقهاء والزهاد ومَن إليهم، كانوا معالم الدعوة الإسلامية في العصر العباسي الأول، يدعون الناس إلى الحق والهدى جهد طاقتهم، ويدرءون عنهم أثر الانحرافات التي ظهرت في هذا العصر، ويعرضون عليهم أمثلةً واقعيةً للحياة الإسلامية الدعوية، لعل الناس يهتدون بها وينتفعون بدلالاتها ويلتزمون نهج الحياة المسلمة بكل ما فيها من فكرٍ وسلوكٍ وجوهرٍ وشكلٍ، وكانوا بذلك خير تعويضٍ لهذه الأمة عمّا خسرته بسبب بعض الانحرافات وبعض المنحرفين.

الخاتمة

الآن - وقد فرغتُ من هذا الكتاب - لا بُدّ من الإلمام في هذه الخاتمة بقبس مما جاء فيه:

لقد عرضتُ لبحث (الدعوة الإسلامية)، في جوهرها، وبينتُ أنها «قيام المسلمين دولةً وأمةً وأفراداً بتبليغ الناس كافةً ما جاء به النبي ﷺ من الهُدى والحق؛ ليخرجوهم من الظلمات إلى النور»، وقلت: إنها واجبةٌ على المسلمين - دولةً وأمةً وأفراداً - على قدر الطاقة ومن خلال الاختصاص، ثم عرضتُ للدعوة من خلال الواقع السيري، وبيّنتُ أن رسول الله ﷺ كوّن مجتمعاً إسلامياً وأقام معه دولته في المدينة المنورة، دولة الدعوة في الظاهر والباطن والتصور والسلوك، نابعةً من الدعوة ومحققةً لها.

وكان لا بُدّ لقوى الشر أن تعترض نشوء هذا المجتمع وانبثاق دولته منه، وهكذا ظهرت عقبات في سبيل الدعوة، وأزالها رسول اللهِ ﷺ بالوسائل المناسبة، تارةً بالسيف وتارةً بالأساليب السلمية؛ كصلح الحديبية، وهكذا حتى تمّت نعمة الله على عباده، وتكوّنت دولة الدعوة بقيادته ﷺ تحافظ على قِيَم المجتمع الدعوية داخلياً وخارجياً، وتحمل الدعوة إلى الناس كافة، وألقى رسول الله ﷺ هذه الأمانة على كواهل أُمته ولَحِق بالرفيق الأعلى، وتحمل الراشدون ﷺ عِبء هذه الأمانة العظيمة وأداروا نظام دولتهم طبقاً لما جاء في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فكانت دولتهم دولةً دعويةً خالصةً.

ولما آلت الدولة إلى بني أمية، لم يلتزموا - باستثناء بعضهم - بكثير من مباديء الدعوة في مناهج حكمهم، فركّزوا جهودهم في تدعيم سلطتهم بالدرجة الأولى، كما تسلّل شيء من البذخ والترف إلى المجتمع الإسلامي من جانب آخر، وقد كانت هذه الانحرافات قليلةً في أصلها بالنسبة إلى الحسنات التي

كانت توجد في الجمهور والخفاء، ولكن هذه القلة بدأت تأكل الكثرة لعدم الاهتمام بإزالتها، وانتقل هذا الوضع تقريباً إلى العصر العباسي الأول.

ثم استعرضتُ **الدعوة العباسية** حتى نشأت الدولة، وأشرتُ هناك إلى نكتةٍ تاريخيةٍ مهمةٍ، وهي: أن الدعوة العباسية نُظِّمت في سنة مائة من الهجرة وكانت مقتضيات المصلحة الإسلامية الحقة تقتضي أن تصير هذه الدعوة الفتية عوناً كبيراً لذلك الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز الذي حاول في صدق وحزم توجيه الدولة والمجتمع إلى العودة نحو حقيقتهما الإسلامية في ذلك المنعطف التاريخي الحرج الذي كانت تمرّ به الأمة الإسلامية، ولكن لم يكترث العباسيون بمقتضيات المصلحة الإسلامية، بل استغلوا الفرصة لإنجاز مهمتهم الوحيدة وهي: إقامة دولة بني العباس من أجل العباسيين بالدرجة الأولى.

واستعرضتُ **الحياة الاجتماعية في ذلك العصر**، فوجدتُ فيها أنواعاً من المآخذ، منها الترف والبذخ وما يتصل بهما مما يدل على أن الدولة العباسية ظلت تسير في الخط الذي كانت تسلكه الدولة الأموية، بَيْدَ أني لم أذهب إلى أنها تخلّت نهائياً عن الدعوة أو عن التزاماتها الإسلامية، ومِن ثم ذكرتُ صوراً من تديُّن الخلفاء وتقـيّد الدولة بالشريعة الإسلامية كدستورٍ لها وضابطٍ لنظامها العام في الجملة، كما استعرضتُ بعض أساليب الدعوة في العصر العباسي الأول، والتي من أبرزها أساليب المحدِّثين والفقهاء الكرام، والزهاد والعُباد.

وفي ضوء هذا البحث الذي قمتُ به توصلتُ إلى **التنائج التالية**:

أولاً: أن الأمة الإسلامية الحقة خيرُ أمةٍ أخرجها الله تبارك وتعالى للناس مثالاً حياً لرسالته التي أنزلها على قلب المصطفى ﷺ وأراد أن تكون المنهج الشامل للحياة البشرية على ظهر هذا الكوكب، وأن على هذه الأمة - إذا أرادت أن تحقّـق ذاتها - ؛ أن تلتزم ما ناطه الله بها من الدعوة إلى صراطه المستقيم، كلٌّ من أفرادها وجماعاتها ينهض بهذا الواجب قدر طاقته ومن خلال

اختصاصه، وإن لم تفعل ذلك ؛ فقدت مقوماتها التي تميّزها عن سواها، وعرَّضت (ذاتيتها) للضياع، ووجودها للفناء.

ثانياً: لاحظتُ أن أجدى أسلوب على الدعوة الإسلامية هو: إيجاد الكيان الإسلامي الحقيقي الذي يمثلها في مجتمعه ودولته، إن هذا الكيان هو من أبلغ حُجج الدعوة على الناس، ومن خلال هذه الحُجة تستطيع الدعوة أن تشق طريقها في المجتمع البشري، ومن ثم يجب في عصرنا أن تتضافر جهود الدعاة ومخططاتهم لجعل مثل هذا الكيان حقيقةً راهنةً.

ثالثاً: لاحظتُ أن قوة الدعوة الإسلامية وضعفها يتأثران كثيراً بموقف الدولـة منها، وقد رأينا دولتَي النبوة والراشدين تحميان الدعوة وتلتزمانها، فتبلغ ذروةَ مجدها وقمةَ عطائها للناس كافة، وتؤدي مهمتها على نحو رائع، ورأينا الناسَ في ظلالهما يدخلون في دين الله أفواجاً، وعندما بدأت الدولة تقصِّر في التزامها مباديء الدعوة في العصر الأموي والعباسي ؛ بدأت الدعوة تضعف - ولا سيما بالقياس إلى ما كانت عليه في العهدين الإمامين، النبوي والراشدي -، وجعل الوهن يتطرق إلى المجتمع ويهدّد كيانه الدعوي، على الرغم من وجود العناصر التي أشرنا إليها والتي كانت توجّه الجمهور - في العصر العباسي الأول وفي العصور المتأخرة - بقدر طاقتها - وجهة الدعوة الإسلامية، وترشده إلى التمسك بالقيم الإسلامية الخالصة، وكانت أعمالهم أعمالاً مجيدةً حقاً، ولو تصوّرنا عدمها لكان الضياع، ونتيجةً لذلك صادفت الأمة ويلاتٍ غير مَرةٍ عبر القرون في تاريخنا.

رابعاً: لاحظتُ أن الافتراق[1] الذي حصل بين الدولة والدعوة ؛ أفقد الأمةَ

(١) كان هذا الافتراق نسبياً، سواءً في العصر العباسي أو في غيره من مراحل التاريخ الإسلامي، ولم يبدُ بشكل حادٍّ حاسمٍ إلا في عصرنا الحاضر، عندما غزا مبدأ فصل =

إلى حَدٍّ كبيرٍ ذاتيتها وفعاليتها الإسلاميتين اللتين يمكن أن تؤثر بهما في الآخرين وتجتذبهم إلى الإسلام وتنقلهم إلى العيش في ظلال منهج الله عَزّ وجلّ، كما كانت الحال في العهدين الإمامين اللذين سبق ذكرهما، وإلى إصلاح حال الأمة بعد التلاحم بين الدين والدولة.

خامساً: لاحظتُ أن الداعية لا يستطيع أن يؤثّر في المدعوّين، ولا يمكن أن تؤتي دعوته ثمارها حتى تتمثّل دعوتُه في نفسه، فيصبح نموذجاً حياً لما يدعو إليه، وأسوةً حسنةً لغيره، وهكذا كان سلفنا الصالح بدءاً بنبينا ﷺ ومروراً بأصحابه الكرام ﷺ وانتهاءً بالفقهاء والمحدثين والصالحين من بعدهم، وأما إن كان الداعية يخالف عملُه دعوتَه وتخالف سريرتُه علانيتَه ؛ فإن ذلك أعظم سبب في عدم نجاحه في ما يدعو إليه.

سادساً: لاحظتُ قوة تأثير المصدر الاقتصادي للداعية عليه.. فهذا المصدر يستطيع التحكّم في الداعية ودعوته بطريقةٍ من الطرق، بضغطٍ أو إغراءٍ أو غيرهما، ولهذا سعى سلف هذه الأمة - و لاسيما العلماء الجهابذة في العصر العباسي الأول - إلى الفرار من الوظائف الحكومية كالقضاء والإمارة... كذلك كان كثيرٌ منهم لا يقبلون هدايا الخلفاء والولاة، بل كانوا يسعون إلى إيجاد مصادر رزقٍ أخرى من التجارة والعمل خوفاً من أن تصبح الأرزاق الجارية من الدولة أو كبار شخصياتها معيقةً لهم عن دعوتهم إلى الله، ولهذا نجد الإمام ابن المبارك رحمه الله يقول رداً على معترضٍ على تجارته: «إنما أفعل هذا لأصون به وجهي، وأُكرِمَ به عِرضي، وأستعينَ به على طاعة ربي».

فالاستقلالية الاقتصادية سواءً كانت على مستوى الدولة أو الأفراد ؛ تحرّرهم جميعاً من أي ضغطٍ محتملٍ أو إغراءٍ حاصلٍ، وهذا الحذر والتعفف نراه

= الدين عن الدولة بعض الدول الإسلامية، ولاسيما الدول التي نصت على هذا في دساتيرها.

في هؤلاء الأماجد، فكيف بنا في آخر الزمان! وقد ضعفَتْ نفوسُنا وزادت شهواتُنا! وهذا من أعظم أسباب إحجام كثيرٍ من علماء عصرنا عن توجيه رجال الدولة وأعيانها توجيهاً دعوياً خالصاً؛ لأنهم واقعون تحت ضغوطٍ اقتصاديةٍ، خائفون على المناصب، مغترّون، وطامعون في المزيد من الدراهم والدنانير.

سابعاً: لاحظتُ أن لا خير في أمةٍ دعويةٍ، ولا أمل في قيام الدعوة فعلاً إذا ما كان العلماء ورجال الدعوة منافقون يخافون في الله لومة لائم، فقد رأينا في الأمثلة التي ضربناها نوعَين من الرجال.. نوعٌ أقبل على نُصح الخلفاء والولاة وجَهَر بالحق أمامهم دون خوفٍ ولا مجاملةٍ، ونوعٌ اعتزلَ الحُكام ورجالَ الدولة دون مجاملةٍ أو نفاق، ولا شكَّ في أن النوعَ الأول أنفعُ للدعوة وللناس، وأن توجيه الحُكّام ووعظَهم وتسديدَهم من أعظم سمات الداعية، حتى لو عرّضه ذلك إلى مِحَنٍ وابتلاءاتٍ، على أننا لاحظنا أيضاً أن معظم هؤلاء الصالحين كانوا يختارون لنُصحهم وإرشادهم لولاة الأمر أهدأ الأساليب وأهذب الكلمات، وكانوا كثيراً ما يتحاشون المصادمات بأساليب بالغة في الحكمة، وخاصةً إذا ما كان السلطان في حالة غضب أو منتصراً لعصبيةٍ ما، ولكن ذلك لم يمنعهم أو بعضَهم من المجاهرة بالحقِّ على رءوس الأشهاد إذا تعلّق الأمر بقضيةٍ تمسّ العقائد، مثل موقف الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله من فتنة خلق القرآن، ومَفادُ هذه الملحوظة مع مفاد الملحوظة السابقة يكوّنان للعلماء هيبةً ومكانةً دينيةً... وبدونهما يصبحون أداةً رخيصةً في أيدي الحُكام يلعبون بهم كيفما شاءوا.

ثامناً: لاحظتُ أنه كما يجب على العلماء إسداء النُصح للحُكام ؛ ينبغي للحُكام أيضاً أن يطلبوا النصح والإرشاد والمواعظ من العلماء والصالحين، وذلك إذا أرادوا أن يقوموا ولو بجزءٍ يسيرٍ من الواجب الدعوي، فقد رأينا أمثلةً

كثيرةً من الخلفاء في العصر العباسي الأول، يقصدون العلماء للاستنصاح والاسترشاد، لم يمنعهم من ذلك مُلكهم للدنيا بأسرها، ولا شرف حَسَبهم، فكيف بمن دونهم في الجاه والحَسَب!، ورحم الله حُكاماً يقتربون من العلماء المخلصين من أجل الاستنصاح والاسترشاد.

تاسعاً: لاحظتُ أنه لا ينبغي للدولة الإسلامية أن تسعى لبسط سطوتها على حساب الدعوة إلى الله، فمما لا شك فيه أن سعي الدولة الإسلامية إلى بسط نفوذها وسلطانها في الأرض مستحَبٌّ وأمرٌ لا بُدّ منه، ولكن يكون ذلك إذا كان هذا السعي من أجل مصالح الدعوة ومن أجل إقامة الشريعة، أما إن كان الهدف هو تحقيق المصالح الذاتية للحُكام ؛ فبئس السعي حينئذٍ.

وقد رأينا سعيَ الدولة الراشدية من أجل بسط النفوذ والسلطان، ولاحظنا أن ذلك لم يكن من أجل شخص الخليفة بعينه، بل كان من أجل خدمة الدين ونشر الدعوة إلى الله تعالى، ولكن رأينا في الدولة الأموية والدولة العباسية وخلفائها عكسَ هذا الهدف النبيل - إلا بعضهم الذين عصمهم الله -، ولاحظنا أن هذا الميل في الهدف الأساسي مِن بسط النفوذ السياسي للدولة الإسلامية في هذين العصرين فتحَ أوسعَ الأبواب لدخول أنواعٍ من الانحرافات إلى المجتمع الإسلامي، وتسبّب في تضييق الخناق على مسيرة الدعوة إلى الله في هذه الأمة التي ما أُخرجت للناس إلاّ للدعوة.

عاشراً: لاحظتُ أن من أهم أسباب انحراف الدولة والمجتمع عن جادة الدعوة انتشار مظاهر الترف والبذخ والإسراف واللهو واللعب، وذلك نتيجة الطفرة المالية التي لا تُحسِن الدولة التصرّف فيها، مصداقاً لقول المصطفى ﷺ: «لا الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى أن تُبسطَ الدنيا عليكم فتنافَسوها.... فتهلككم..»[1]، إذ على الدولة الإسلامية أن تعِيَ خطر هذا السيل الجارف من

---

(١) صحيح البخاري، ٣/ ١١٥٢.

المال، فلا تبسط بها كل البسط على كبار رجالاتها ولا على عامتها على سواء، بل عليها أن ترى وتراعي فيها حقوق الدعوة والجهاد في سبيل الله وإعداد القوة اللازمة لترهيب أعداء الإسلام وتأليف قلوب مَن لم يدخل الإيمان في قلوبهم، وبهذا تحافظ هذه الدولة على سلامة مجتمعها من فتنة الترف والإسراف واللهو واللعب من جهة، كما تكفّ بأسَ الذين كفروا من جهةٍ أخرى.

وقد رأينا محافظةَ الدولة الراشدية على هذا التوازن بإنشاء نظام الدواوين والعطايا، كما رأينا تقاعسَ الدولة العباسية عن واجباتها الدعوية والجهاد في سبيل الله مما أظهر عند حكامها وفي مجتمعها مظاهر كثيرةً من البذخ والإسراف وألواناً مفرطةً من اللعب واللهو.

حادي عشر: لاحظتُ أن سلامة الدعوة وسلامة دولتها مرهونتان بصفاء ونقاء العقيدة من أيّ انحرافٍ أو ابتداعٍ، فعلى الدولة الدعوية أن تضرب بيدٍ من حديدٍ على كل مَن تُسوّل له نفسُه الابتداع، أو ما يدعو إلى البُعد عن منهج السلف الصالح لهذه الأمة، وذلك مع ضمان حرية الرأي والإبداع فيما لا يمسّ العقائد والشرائع التي لا خلاف فيها عند السلف.

فقد رأينا شدة الصِدِّيق ﷺ على مانعي الزكاة الذين لم يُعلنوا كُفرهم صريحاً، ولكنهم في حقيقة الأمر خرجوا من حظيرة الإسلام لتفريقهم بين الصلاة والزكاة، ورأينا حزم الفاروق مع صبيغٍ العراقي الذي كان يتساءل عن متشابهات القرآن في صفوف الجيش الإسلامي بمصر، ذلك لأنه تعدّى الحدود إلى ما لا يجوز السؤال عنه وهي المتشابهات التي أُمِرنا بالإيمان بأنها من عند الله دون تأويلها، فلا يعلم تأويلها إلا الله.

أما العصر العباسي الأول، فقد زخر بالفِرق الكلامية والباطنية وغيرهما.. ممّا حوّل الجهود الدعوية الفردية إلى التصدي لهذه الفِرق وعقائدها الفاسدة، ونتج عن هذه المعارك الضارية شلّ حركة الدعوة داخلياً وخارجياً شللاً شبه

كليّ، وتجرُّع المجتمع الإسلامي ويلاتِ هذا الصراع في قرونٍ لاحقةٍ في شكلِ فقدِ الهُوية الإسلامية والروح الدعوية لهذه الأمة الخالدة.]

ثاني عشر: لاحظتُ أنّ عصرنا الحاضر يُشبه العصر العباسي الأول من وجوهٍ، منها:

(أ) **ازدهار العلوم والفنون وتطور العقلية الإنسانية:** فكان العصر العباسي الأول وخصوصاً أيام الرشيد والمأمون ؛ عصر نهضةٍ علميةٍ كبيرةٍ، اشتغل فيه علماء العلوم الدينية بتدوين علم الحديث والفقه والتفسير وغيرها من جهة، كما اهتم الخلفاء بترجمة كتب الفلسفة والعلوم المادية من طِبٍّ وكيمياءٍ ورياضةٍ من جهة أخرى، وإن لم تكن هذه الترجمةُ موجهةً التوجيه الكافي، وكذلك عصرنا الحاضر يمتاز بنهضةٍ علميةٍ حديثةٍ، بيد أنها غير موجهةٍ التوجيه الكافي أيضاً.

(ب) **توفر المال وكثرة الخيرات:** كان العصر العباسي الأول ملتقى حضاراتٍ مختلفةٍ وثقافاتٍ متنوعةٍ، إذ اعتنقت الإسلامَ أممٌ مختلفةُ الحضارات متنوعةُ الثقافات، وتُرجِمت ثقافاتٌ أخرى إلى البيئة الإسلامية، وكذلك عصرنا الحاضر، فإن الوطن الإسلامي يموج بضروبٍ من الثقافات والحضارات، فينبغي أن نتناولها حَسب خُططٍ دقيقةٍ هادفةٍ، لا أن نتركها تعمل عملَها في حياتنا دون تخطيط كما كانت الحال في العصر العباسي الأول.

(د) **الوقوف على منعطفٍ تاريخيٍّ هامٍّ:** وهذه من أهم وجوه الشبه بين العصرين؛ فالأمة الإسلامية كانت - عند قيام الدولة العباسية - في حاجةٍ شديدةٍ إلى أن تعيدها دولتها إلى كيانها الدعوي، ولكنها لم تلتفت إليها الالتفاتَ الكافي وانصرفتْ إلى مهماتها الأخرى، فاستمرّ الانحراف وزاد الطين بلّة، وفي عهدنا الحاضر، ظهرت على منصة العالم دولٌ إسلاميةٌ عديدةٌ [بعد نهاية عصر الاستعمار الغربي في شكل بداية عصرٍ جديدٍ من الحُرية]، والأمة الإسلامية لا

يشفِي غليلَها ولا يُصلحها إلا تقريبها [تقريباً حقيقياً] من المنبع الصافي، الا وهو منبع الكتاب والسنة الذي تتفجر منه مباديء الدعوة الإسلامية الحقة.

ومن جهةٍ أخرى هُناك حقيقةٌ ينبغي الا ننساها، وهي أن أمم العالم يئِسَت - أو كادت - من جميع الأنظمة الوضعية بعدما جرّبتها مدةً طويلةً، كما أنها قد ضجَّت من الفوضى الأخلاقية التي أصبحت سيلاً جارفاً في ديارهم يكتسح كل صغيرةٍ وكبيرةٍ، فهي مضطربةٌ تتطلّع إلى نظامٍ صالحٍ شاملٍ يُطبَّق، ويَحلّ لها جميع أزماتها حلاً حقيقياً.. وليس هناك في العالم نظامٌ يصلُح لحلّ هذه الأزمات المعقّدة غير نظام الإسلام بجوهره وروحه اللذين عرفهما العهدان الإمامان النبوي والراشدي، وكيف لا ؟ وهو النظام الذي قال الله فيه: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾[1].

فهذا منعطفٌ تاريخيٌ هامٌ حَرِجٌ، وقد وقفت الأمة الإسلامية في حاضرها، كما وقفت مرةً عند قيام الدولة العباسية، وقد زاد عددها في العالم، وأصبحت الدولُ الإسلامية أكثرَ مِن ثلث القوة في هيئة الأمم المتحدة، وقد فتح اللهُ تعالى على بعضٍ منها بركاتٍ من الأرض، كما تتمتّع الأمة الإسلامية بالوسائل الحديثة والمختَرَعات الجديدة، والمنتجات الصناعية المتنوعة، وهكذا يتفوق وضعُ الدول الإسلامية في الحاضر على وضعِ العصر العباسي الأول، فقد آن للأمة الإسلامية أن تؤدّي - دولةً وأمةً وأفراداً - دورَها الدعوي الحاسم، وترفض جميع الأنظمة المزعومة الوضعية، وتستظل تحت ظل راية الإسلام الدعوية، مع عزمٍ راسخٍ صادقٍ وإخلاصٍ كاملٍ لله تعالى، وتُقدّم إلى أمم العالم المضطربةِ اليائسة أمثلةً حيةً صادقةً للكيان الإسلامي الخالص، ويجب عليها أن تستغلّ هذا المجال أتمّ استغلال وأبرعه، وأن تستخدم الوسائلَ المعاصرة من وسائل الإعلام

(١) سورة المائدة، الآية: ٣.

وما إليها، وبذلك تكون دراستنا لتاريخ الدعوة في العصر العباسي الأول وفي سواه دراسةً مجديةً حقاً، وإذا قصّرنا في ذلك ؛ فربما فاتتنا الفرصة وأعقبنا تقصيرَنا خسارةً كبيرةً على أنفسنا، بل وعلى غيرنا من شعوب العالم، وهذا إلى جانب مسئولياتنا أمامَ اللهِ عزّ وجلّ عن هذا التقصير في يومَ يجعل الولدانُ شيباً.

[ولكن لا يمكن حصول ذلك الإصلاح العام إلاّ باتحاد الكلمة، ولا سبيل إلى هذا الاتحاد مع وجود أنظمةٍ تختلف فيما بينها اختلافاتٍ جوهريةٍ.. ومع وجود مجتمعاتٍ قد فصَلت بينها فواصلُ الوطنيات والقوميات، ولذا يجب على الدعاة أن يركّزوا جهدهم على إزالة هذه الاختلافات والفواصل، ولا يمكنهم فعل ذلك بالتوجّه المباشر إلى رؤوس الحُكم أو تغيير الأنظمة بالقوة والعُنف، ولكن الحكمة والموعظة الحسنة هي المطلوبة دائماً، والصبر والتروّي هما سبيل النجاح، فعلَى الدعاة صرف نظرهم إلى إصلاح مجتمعاتهم إصلاحاً يوافق الشرعَ، وعليهم أن يُخلِصوا نيّاتهم لإعلاء كلمة الله وحده..، فالهدف هو العودة بالأمة إلى عهدها الدعويّ السابق كما كانت في العصر النبوي والراشدي، والطريق هو إزالة الفواصل التي تُشتّت شملَ المجتمعات الإسلامية، والمغريات التي تقودها إلى جحيم الضلالة، وبإصلاح المجتمعات واتحاد كلمة الأفراد تتّحِد وتتّفق الأنظمة إلى نظامٍ واحدٍ سَوِيّ، ولا يحصل ذلك ما دُمنا نسعى إلى إثبات أنفسنا من خلال دعواتنا، بل يحصل ذلك بالتجرّد الكامل لله تعالى وحده، كما قال تعالى: ﴿ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْ ﴾[1].

كما أن الأمة الإسلامية تقف اليوم أمام رايةٍ مُخادِعةٍ تُشبه في استغلالها للعواطف الإسلامية العامة رايةَ الحركة العباسية حينما ظهرت ضِدّ الدولة الأموية، وأعني بالراية المخادعة اليوم ؛ راية غلاة الشيعة المتظاهرة بنَبذ وكُره اليهود وأعوانهم، وهي في الحقيقة تُكنّ لأهل السنة أضعافَ ما تتظاهر لليهود

(١) سورة آل عمران، الآية: ؟؟.

من الكُره والحِقد، وهذه الراية تدعو عموم المسلمين اليوم إلى التأسّي بحامليها في التصدي لليهود وشركائهم من النصارى من خلال الترويج لاستخدام الوسائل المشبوهة التي ما أنزلَ اللهُ بها من سلطان، وهل يجوز لأهل السنة أن يتأسّوا بأئمة الضلال ؟.

ولكن! لقد انجرف كثيرٌ من المسلمين خلف هذا التيار الذي لا يريد إلاّ تشويه صورة المسلمين بتجريدهم من الأخلاقيات الإسلامية في الحرب والسِّلم، وبثّ روح الانتقام الدموي في الشباب المسلم، بينما ليس الجهاد في الإسلام انتقاماً ولا عدواناً، كما تريد هذه الفرقة من المسلمين القيام بأعمالٍ متصفةٍ باليأس والقنوط مثل القيام بحركةٍ انتحاريةٍ للإضرار بالخصوم وإن كانوا مسلمين!!، بينما لا يعرف الجهاد في الإسلام يأساً ولا اندفاعاً غير مدروس.

لقد نجحت هذه الدعوة في العصر الحاضر في التأثير على الكثيرين، منهم علماء بارزون غفِلوا عن مَكر وخِداع هذه الدعوة، كما غفلوا عن الهدف الأسمى للجهاد في سبيل الله، فانخدعوا بهذه الدعوة كما انخدع الذين كانوا في منتصف القرن الثاني الهجري بالدعوة العباسية التي استغلتهم لصالحهم، فأصبح البعض - وللأسف الشديد - يمجّد في شأن «الثورة الدينية الشيعية وأتباعها»، ويدعو إلى السير على خُطاها، وكأنّه لم يقرأ في التاريخ أن غلاةَ الشيعة في خَطَرهم على الإسلام يفوقون غيرهم، ولا يفوتُنا أن نذكّر بأن ثمة فرقاً بين الدعوة الشيعية المتطرفة المعاصرة والدعوة العباسية يتمثّل في: أن الدعوة المعاصرة شيعيةٌ متطرفةٌ عقيدةً، أما العباسيون فلم يكونوا شيعةً متطرفين عقيدةً، بل استعانوا بالشيعة المتطرفين من أجل إقامة دولتهم فقط.

وفي ختام هذا الكتاب أسأل الله تعالى أن يتقبّل هذا العمل عملاً صالحاً، وأن ينفع به المسلمين - خاصّتهم وعامتهم -]، والله تعالى هو المسئول أن يوفّقنا إلى وضوح الرؤية، وأن يشدّ عزائمنا حتى نحقّق مهمّتنا الدعوية في

المجتمع البشري، وفي هذه المرحلة من التاريخ، وأن يرزقنا حُسن النية ودوام التوفيق، والحمد لله أولاً وآخراً، وصلى الله تعالى على عبده ورسوله محمد المصطفى، وعلى آله وأصحابه وبارك وسلّم تسليماً كثيراً.

المدينة المنورة

١٢/ ربيع الأول/ ١٤٠٢هـ

فهرست المصادر والمراجع

- **القرآن الكريم**
- **الإتقان في علوم القرآن**، السيوطي: جلال الدين عبد الرحمن بن الكمال الخضيري، القاهرة: المكتبة التجارية، ط: ١٣٦٨هـ.
- **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، المقدسي: شمس الدين محمد بن أحمد، لايدن: مطبعة لايدن، ط: ١٩٠٩م.
- **الأحكام السلطانية والولايات الدينية**، الماوردي: علي بن محمد البغدادي، القاهرة: مطبعة مصطفى البابي، ط: ١٩٧٣م.
- **احكام أهل الذمة**، ابن القيم: شمس الدين محمد بن أبي بكر الزرعي، تحقيق: صبحي صالح، دمشق: جامعة دمشق، ط: ١٩٦١م.
- **اخبار أبي تمام**، الصولي: محمد بن عبد الله، بيروت: المكتب التجاري.
- **اخبار أبي حنيفة وأصحابه**، الصيمري: الحسين بن علي القاضي، تحقيق: أبي الوفاء الأفغاني، حيدر آباد: دائرة المعارف العثمانية، ط: ١٣٩٤هـ.
- **أخبار القضاة**، وكيع القاضي: محمد خلف الضبي، تحقيق: عبد العزيز الراغي، القاهرة: المكتبة المصرية، ط: ١٩٤٧م.
- **أدب القاضي**، الماوردي: علي بن محمد البغدادي، بغداد: مطبعة الإرشاد، ط: ١٩٧١م.
- **إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم**، أبو السعود: ابن محمد العمادي الحنفي، ط: ١٩٧١م.
- **أسد الغابة في معرفة الصحابة**، ابن الأثير: مجد الدين المبارك بن محمد الجزري، القاهرة: دار الشعب، ط: ١٩٧٠م.
- **الإصابة في تمييز الصحابة**، ابن حجر: أحمد بن علي بن علي العسقلاني، مصر: المكتبة التجارية، ط: ١٩٣٩م.

- **الأعلام**، خير الدين الزركلي، ط٣.
- **الأغاني**، الأصبهاني: أبو الفرج علي بن الحسين الأموي، القاهرة: دار الكتب المصرية، ط: ١٩٢٧م.
- **اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم**، ابن تيمية: تقي الدين أحمد بن عبد الحليم الحراني، مكة المكرمة: مطبعة الحكومة، ط: ١٣٨٩هـ.
- **الإمامة والسياسة** (تاريخ الخلفاء)، ابن قتيبة: عبد الله بن مسلم الدينوري، بيروت: مؤسسة الحلبي، ط: ١٩٦٧م.
- **الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء**، ابن عبد البر: يوسف بن عبد البر القرطبي، ط: ١٣٥٠هـ.
- **البداية والنهاية**، ابن كثير: عماد الدين أبو الفداء الدمشقي، بيروت: دار الفكر، ط: ١٩٦٧م.
- **بغداد في تاريخ الخلافة العباسية**، ابن طيفور: أحمد بن طاهر الكاتب، بيروت: مكتبة المعارف، ط: ١٩٦٨م.
- **البيان والتبيين**، الجاحظ: عمرو بن بحر، تحقيق: فوزي عطوي، بيروت: الشركة اللبنانية للكتاب، ط: ١٩٦٨م.
- **تاج العروس من جواهر القاموس**، الزبيدي: محب الدين أبو الفيض الحنفي، القاهرة: مطبعة خيرية، ط: ١٣٠٦هـ.
- **تاج اللغة وصحاح العربية**، الجوهري: إسماعيل بن حماد، تحقيق: أحمد عطار، القاهرة: دار الكتاب العربي، ط: ١٩٥٦م.
- **تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي**، حسن إبراهيم، ط: ١٩٦٤م.
- **التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية**، أحمد شلبي، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ط: ١٩٧٠م.

- **تاريخ الأمم الإسلامية**، محمد الخضر بك، ط: ١٩٧٠م.
- **تاريخ التمدن الإسلامي**، جرجي زيدان، بيروت: دار مكتبة الحياة.
- **تاريخ الخلفاء، السيوطي**: جلال الدين عبد الرحمن بن الكمال الخصيري، تحقيق: محمد محيي الدين، القاهرة: المكتبة التجارية، ط: ١٩٥٢م.
- **تاريخ الدولة العثمانية**، علي حسون، دمشق: المكتب الإسلامي، ط: ١٩٨٠م.
- **تاريخ الرسل والملوك**، الطبري: محمد بن جرير، تحقيق: محمد أبو الفضل، القاهرة: دار المعارف، ط: ١٩٦٦م.
- **تاريخ بغداد**، الخطيب البغدادي: أحمد بن علي، القاهرة: مطبعة السعادة، ط: ١٩٣١م.
- **التبيان في أقسام القرآن**، ابن القيم: شمس الدين محمد بن أبي بكر الزرعي، دار الكاتب العربي.
- **تحفة الأحوذي شرح جامع الترمذي**، المباركفوري:، المدينة المنورة: المكتبة السلفية، ط: ١٩٦٣م.
- **تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي**، السيوطي: جلال الدين عبد الرحمن بن الكمال الخصيري، القاهرة: دار الكتب الحديثة، ط: ١٩٦٦م.
- **تذكرة الحفاظ**، الذهبي: شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان، حيدر آباد: دائرة المعارف العثمانية، ط: ١٩٥٦م.
- **تفسير القرآن العظيم**، ابن كثير: عماد الدين أبو الفداء الدمشقي، بيروت: دار القرآن، ط: ١٩٦٧م.
- **تفهيم القرآن**، المودودي: أبو الأعلى بن أحمد الحسيني، لاهور: مكتبة ترجمان القرآن، ط: ١٩٧٧م.
- **تهذيب التهذيب**، ابن حجر: أحمد بن علي بن علي العسقلاني، حيدر آباد: دائرة المعارف العثمانية، ط: ١٣٢٥هـ.

- **تهذيب اللغة**، الأزهري: محمد أحمد الهروي، تحقيق: محمد أبو الفضل، الدار المصرية للتأليف والترجمة.
- **تهذيب تاريخ دمشق** لابن عساكر، عبد القادر بدران، بيروت: دار المسيرة، ط: ١٩٧٩م.
- **جامع البيان في تفسير القرآن**، الطبري: محمد بن جرير، مطبعة بولاق، ط: ١٣٢٨هـ.
- **جامع بيان العلم وفضله**، ابن عبد البر: يوسف بن عبد البر القرطبي، المدينة المنورة: المكتبة العلمية.
- **الجامع لأحكام القرآن**، القرطبي: محمد بن أحمد الخزرجي، القاهرة: دار الكتب المصرية، ط: ١٩٥٢م.
- **الحرب العالمية الثانية**، رمضان لاوند، بيروت: دار العلم للملايين.
- **الحسبة في الإسلام أو وظيفة الحكومة الإسلامية**، ابن تيمية: تقي الدين أحمد بن عبد الحليم الحراني، دار الكاتب العربي.
- **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء**، أبو نعيم: أحمد بن عبد الله الأصفهاني، بيروت: دار الكتاب العربي، ط: ١٩٦٧م.
- **الدعوة إلى الإسلام**، توماس آرنولد، ترجمة: حسن إبراهيم..، ط: ١٩٧١م.
- **ديوان أبي العتاهية**، أبو العتاهية: إسماعيل بن القاسم العنزي، بيروت: دار صادر، ط: ١٩٦٤م.
- **الرسائل**، الجاحظ: عمرو بن بحر، تحقيق: عبد السلام هارون، القاهرة مكتبة الخانجي، ط: ١٩٦٥م.
- **سبل السلام شرح بلوغ المرام**، الصنعاني: محمد إسماعيل الكحلاني، القاهرة: مكتبة الإنجلومصرية.
- **السنن**، ابن ماجه: محمد بن يزيد القزويني، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، القاهرة:

مطبعة مصطفى البابي، ط: ١٩٧٢م.

- **السنن**، أبو داود، سليمان بن الأشعث السجستاني، حمص: دار الحديث، ط: ١٩٦٩م.
- **السنن**، الدارمي: عبد الله بن عبد الرحمن بن بهرام، دمشق: مطبعة الاعتدال، ط: ١٣٤٩هـ.
- **السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية**، ابن تيمية: تقي الدين أحمد بن عبد الحليم الحراني، دار الكاتب العربي.
- **سير أعلام النبلاء**، الذهبي: شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان، تحقيق: شعيب الأرناووط، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط: ١٩٨١م.
- **السيرة الحلبية**، الحلبي: نور الدين علي بن إبراهيم، القاهرة: مطبعة الاستقامة، ط: ١٩٦٢م.
- **السيرة النبوية**، ابن كثير: عماد الدين أبو الفداء الدمشقي، تحقيق: مصطفى عبد الواحد، بيروت: دار المعرفة، ط: ١٩٧٤م.
- **سيرة النبي صلى الله عليه وسلم**، ابن هشام: عبد الملك بن هشام الحميري، تحقيق: محمد خليل هراس، القاهرة، مكتبة الجمهورية.
- **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، ابن العماد: عبد الحي بن العماد الحنبلي، بيروت: المكتب التجاري.
- **شرح السنة**، البغوي: الحسين بن سعود الفراء، دمشق: المكتب الإسلامي، ط: ١٩٧١م.
- **شرح العقيدة الطحاوية**، ابن أبي العز: علي بن علي بن محمد الحنفي، بيروت: المكتب الإسلامي، ط: ١٣٩١هـ.
- **شرح النووي لصحيح الإمام مسلم**، النووي: محيي الدين يحيى بن شرف، القاهرة: المطبعة المصرية.

- **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**، القلقشندي: أحمد بن علي، القاهرة: دار الكتب المصرية، ط: ١٩١٤م.
- **صفة الصفوة**، ابن الجوزي: عبد الرحمن بن علي بن عبد الله الجوزي، حلب: دار الوعي، ط: ١٩٦٩م.
- **طبقات الشعراء**، ابن المعتز: عبد الله بن المعتز بن المتوكل العباسي، تحقيق: عبد الستار فراج، القاهرة: درا المعارف، ط: ١٩٧٦م.
- **الطبقات الكبرى**، ابن سعد: محمد بن سعد بن منيع الزهري، بيروت: دار صادر، ط: ١٩٧٥م.
- **العصر العباسي الأول**، شوقي ضيف، القاهرة: دار المعارف، ط: ١٩٧٢م.
- العقد الفريد، ابن عبد ربه: أحمد بن محمد، مصر: مكتبة النهضة المصرية، ط: ١٩٦٢م.
- **عقود الجمان في مناقب الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان**، الصالحي: محمد بن يوسف الدمشقي الشافعي، حيدر آباد: دائرة المعارف العثمانية، ط: ١٣٩٤هـ.
- **عيون الأخبار**، ابن قتيبة: عبد الله بن مسلم الدينوري، القاهرة: دار الكتب المصرية، ط: ١٩٢٥م.
- **فتح الباري شرح صحيح البخاري**، ابن حجر: أحمد بن علي بن علي العسقلاني، مصر: المكتبة السلفية، ط: ١٣٨٠هـ.
- **فتح القدير**، الشوكاني: محمد علي الصنعاني، القاهرة: مطبعة مصطفى البابي، ط: ١٩٦٤م.
- **فتوح البلدان**، البلاذري: أحمد بن يحيى البغدادي، تحقيق: صلاح الدين المنجد، ط: ١٩٥٧م.
- **الفخري في الدول الإسلامية والآداب السلطانية**، ابن طقطقي: محمد بن علي بن طباطبا، بيروت: دار صادر، ط: ١٩٦٦م.

- **الفرق بين الفرق**، الإسفرائيني: عبد القادر بن طاهر البغدادي، تحقيق: محمد محيي الدين، ط: ١٩٥٠م.
- **فقه الزكاة**، يوسف القرضاوي، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط: ١٩٧٩م.
- **في ظلال القرآن**، سيد قطب، بيروت: دار الشروق، ط: ١٩٧٣م.
- **الكامل في الأدب**، المبرد: محمد بن يزيد الأزدي، بيروت: مكتبة المعارف.
- **الكامل في التاريخ**، ابن الأثير: مجد الدين المبارك بن محمد الجزري، بيروت: دار صادر، ط: ١٩٦٥م.
- **كتاب الخراج**، أبو يوسف: يعقوب بن إبراهيم الكوفي، القاهرة: المكتبة السلفية، ط: ١٩٧٦م.
- **كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال**، علاء الدين علي المتقي الهندي، حيدر آباد: دائرة المعارف العثمانية، ط: ١٣٦٤هـ.
- **لسان العرب**، ابن منظور: جمال الدين محمد بن مكرم الإفريقي، بيروت: دار الفكر.
- **لسان الميزان**، ابن حجر: أحمد بن علي بن علي العسقلاني، حيدر آباد: دائرة المعارف العثمانية، ط: ١٣٢٥هـ.
- **مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة**، محمد حميد الله، بيروت: دار الإرشاد، ط: ١٩٦٩م.
- **المحكم والمحيط الأعظم في اللغة**، ابن سيدة: علي بن إسماعيل، تحقيق: مصطفى السقا..، ط: ١٩٥٦م.
- **المحلّى**، ابن حزم: علي بن أحمد بن سعيد الأندلسي، القاهرة: بدون.
- **المختار في قطب السرور في أوصاف الأنبذة والخمور**، المسعودي: نور الدين المسعودي، تحقيق: عبد الحفيظ منصور، تونس: مؤسسة عبد الكريم، ط: ١٩٧٦م.

- **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، المسعودي: علي بن الحسين، تحقيق: محمد محيي الدين، بيروت: دار الفكر، ط: ١٩٧٣م.
- **المستدرك على الصحيحين**، الحاكم: محمد بن عبد الله النيسابوري، بيروت: دار الفكر، ط: ١٩٧٨م.
- **المسند**، أحمد بن حنبل: أحمد بن محمد الشيباني، تحقيق: محمد أحمد شاكر، القاهرة: دار المعارف، ط: ١٩٥٤م.
- **المسند**، الإمام أبو حنيفة: النعمان بن ثابت بن المرزبان، تحقيق: صفوت سقا، طبعة دمشق.
- **المصنف**، عبد الرزاق: ابن همام الحميري، كراتشي: المجلس العلمي، ط: ١٩٧٠م.
- **معجم البلدان**، ياقوت الحموي: شهاب الدين ياقوت، بيروت: دار صادر، ط: ١٦٥٧م.
- **معجم ألفاظ القرآن الكريم**، مجمع اللغة العربية، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، ط: ١٩٧٠م.
- **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم**، محمد فؤاد عبد الباقي، القاهرة: دار الكتب المصرية، ط: ١٩٤٥م.
- **المعجم الوسيط**، مجمع اللغة العربية، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، ط: ١٩٦١م.
- **معجم مقاييس اللغة**، ابن فارس: أحمد بن فارس الرازي، تحقيق: عبد السلام هارون، القاهرة: مطبعة مصطفى البابي، ط: ١٩٦٩م.
- **معرفة علوم الحديث**، الحاكم: محمد بن عبد الله النيسابوري، المدينة المنورة: المكتبة العلمية، ط: ١٩٧٧م.
- **المقدمة**، ابن خلدون: عبد الرحمن بن محمد بن الحسين الحضرمي، لجنة البيان العربي، ط: ١٩٦٥م.

- **الملل والنحل**، الشهرستاني: محمد بن عبد الكريم، تحقيق: محمد بدران، القاهرة: مكتبة الإنجلومصرية، ط: ١٩٥٦م.
- **مناقب الإمام أبي حنيفة وصاحبيه**، الذهبي: شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان، تحقيق: محمد الكوثري..، القاهرة: دار الكتاب العربي.
- **مناقب الإمام أحمد بن حنبل**، ابن الجوزي: عبد الرحمن بن علي بن عبد الله الجوزي، مصر: مكتبة الخانجي، ط: ١٩٦٩م.
- **مناقب الشافعي**، البيهقي: أحمد بن الحسين بن علي، القاهرة: مكتبة دار التراث، ط: ١٩٧١م.
- **المنجد في الأدب والعلوم**، فردينان توتل، بيروت: المطبعة الكاثوليكية، ط: ١٩٦٠م.
- **منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية**، ابن تيمية: تقي الدين أحمد بن عبد الحليم الحراني، مصر: المطبعة الأميرية بولاق، ط: ١٣٢٢هـ.
- **ميزان الاعتدال في نقد الرجال**، الذهبي: شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان، القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، ط: ١٩٦٣م.
- **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، ابن تغري بردي: جمال الدين يوسف بن تغري بردي، القاهرة: دار الكتب المصرية، ط: ١٩٣٠م.
- **النهاية في غريب الحديث والأثر**، ابن الأثير: مجد الدين المبارك بن محمد الجزري، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط: ١٩٦٣م.
- **الوزراء والكتاب**، الجهشياري: محمد بن عبدوس الكوفي، تحقيق: مصطفى السقا..، ط: ١٩٣٨م.
- **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، ابن خلكان: شمس الدين أحمد بن محمد البرمكي، بيروت: دار صادر، ط: ١٩٧٥م.
- **الولاة والقضاة في مصر**، الكندي: محمد بن يوسف التجيبي، لايدن: مطبعة لايدن، ط: ١٩١٢م.

فهرست الموضوعات

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــــوع	الصفحة
(٣) الإمام الشافعي	٣٦٢
(٤) الإمام أحمد بن حنبل	٣٧٠
ثالثاً : دعاة من الزهاد :	٣٧٥
(١) إبراهيم بن أدهم	٣٧٥
(٢) ابن السمّاك	٣٧٩
(٣) الفضيل بن عياض	٣٨٤
الخـاتمــة	٣٩٢
فهرس المصادر والمراجع	٤٠٤

رقم الإيداع : ١٠٨٥٢ لسنة ٢٠٠٥ م

الترقيم الدولي: I.S.B.N.: 977 – 241 – 673 – 5